

الغناهل



السلام

المناهل

تصدرها

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب



محرم 1400
دجنبر 1979

العدد السادس عشر
السنتر السادسة

فهرس

صفحة

مصاب جـلـ	
7 المناهل
	تعليمات الملك كارلوس الثالث
10 محمد العربي الخطابي
	ذيل وتعليق حول قضية المعتمد بن عباد (11)
22 عبد الرحمن الفاسي
	تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين
39 د. عباس الجراري
	الألفاظ المغربية العامة التي لها أصل في الفصح
54 محمد الفاسي
	أصيلة عبر التاريخ
76 عبد الوهاب ابن منصور
	مسائل من رسالة الغفران
84 د. عبد الله الطيب
	كتاب الإحاطة لابن الخطيب (4)
114 محمد ابن تاويت
	ابن خلدون سفيراً
124 د. عبد الهادي التازي

	الازدواج اللغوي
147	د. تمام حسان
	تحية (شعر)
161	علي الصقلي
	بين جناحي العروبة
164	د. محمد زنيبر
	خاطبات من فاس
191	عبد العلي الوزاني
	البيّنق والمهدي بن تومرت
204	عبد القادر زمامة
	أصـلا
215	عبد العزيز بنعبد الله
	مأساة الحسين في الادب الأندلسي (4)
230	د. عبد السلام الهراس
	منشآت مرينية بضاحية فاس الجديد
242	محمد المنونفي
	الأبواب في الأندلس (2)
261	د. التهامي الراجي الهاشمي
	الورد في الأدب الفارسي
297	مصطفى القصري
	الاعلام الثقافي
335	المناهل

بسم الله الرحمن الرحيم

مَصَابٍ جَلَل (*)

في صباح يوم الخميس 25 رجب 1399 (21 يونيو 1979) وافى الأجل المحتوم أديبنا الكبير وصديقنا الحميم محمد بن العباس القباج ، فانطوت بانتقاله إلى جوار ربه، صفحة مشرقة من صفحات ديوان الأدب المغربي الحديث.

وقد تركت وفاته في نفوس الذين واصلهم وواصلوه وصادقهم وصادقوه، أسى بليغا وحزنا عميقا.

لقد كان الفقيه من رعيل المناضلين الذين خطوا الخطى الأولى في سبيل حرية الوطن واستقلاله، وظل مطمح الوطن الأكبر وهدفه

● كان بود مجلة «المناهل» أن تقول كلمة وفاء ومودة في حق الفقيه المرحوم الأستاذ محمد ابن العباس القباج في حينها وقد تأخرت بسبب تأخر صدور هذا العدد.

الأسمى منتشبين في قلبه ملازمين لليلة ونهاره فتجرع مرارة الامتحان والابتلاء كما تجرعها المخلصون الأوفياء وناله من أذى الاستعمار ما نال انداده من المتمسكين بعقيدة الحرية وشريعة الثبات على الحق الراجح.

وكان من فضل الله عليه ان امتدت حياته إلى ان من المولى سبحانه على البلاد باستقلالها، وأكرمها، وهي مستظلة بظلال الحرية، بالسير في طريق البناء والنمو وأنعم عليها بعودة بعض أجزائها المنصوبة إلى حظيرتها.

فكان ابان الاستعمار وبعد الاستعمار سيرة من السير المليئة بالنضال والعمل الجاد والإخلاص للمبادئ العليا والقيم المثلى في الحياة اليومية والممارسات المتعددة الأشكال وخلال هذه الحقبة كلها كان العالم التحرير ، والكاتب البارع المبين، والأديب الضليع، والشاعر المفلق، والناقد الذي لا يغيب عنه جانب من جوانب الجودة والإحكام، ولا يستسر دونه وجه من وجوه الوهن والاختلال، فتألق نجمه بين الأدباء والكتاب والنقاد، وامتلات الصحف والطبوس بإنتاج لو جمع كان ضخماً، ولو عرض من جديد كان متاعاً للقراء، وتجاوزت شهرته آفاق بلاده فتوثقت الروابط والصلات بينه وبين كثير من أدباء اللغة العربية وأصبح القليل مما أخرج له للناس وأظهره، ذخيرة يتهاافت عليها مؤرخو الاداب.

وكان إلى هذا إنسانا يألف ويؤلف لدمائة تلفعت بها أخلاقه، وكرم تلفف على سجاياه، وحلاوة تدفقت بين شمائله، فكان مطبوعاً على

المساعدة الباذلة بابتهاج ، والمياسرة الباسطة لأسباب التفاهم، والملاينة
الداعية إلى تمتين الأواصر، الجالبة للمودة والصداقة.

ومجلة المناهل التي فقدت بفقده عمادا وثيقا. تألم ألما ممضا لفراق
هذا الأديب الذي نذر حياته للعلم والعلماء ووقفها على الأدب والأدباء،
وتأسى أشد ما يكون الأسى ، لهذا الغياب الفاجع الذي ترك ساحة الثقافة
الصحيحة الأصيلة خالية من أحد فرسانها الفطاريين، عاطلة الرحاب من
أحد عشاقها الصادقين الأوفياء.

أجزل الله لأديبنا الراحل الرحمة والغفران وأسكنه في دار الخلود
جنة الرضوان.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

« المناهل »

وثيقة دبلوماسية اسبانية:

تَعْلِمَاتُ الْمَلِكِ كَارْلُوسِ الثَّالِثِ إلى مبعوثه لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله (22 أكتوبر 1765)

محمد العزلي الخطابي

أصدر المعهد الإسباني العربي للثقافة في مدريد كتابا بعنوان ((المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر)) وهو يبحث في الحياة الداخلية السياسية والاجتماعية والدينية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757 - 1790) والكتاب من تأليف الأسقف البحاث رامون لوريد ودياث (1) الذي نشر طائفة من الدراسات والبحوث القيمة عن هذه الحقبة من تاريخ المغرب .

وقد تفضل الصديق الكبير ضون الفونصو دي لا سيرنا ، سفير اسبانيا في الرباط ، فأهداني نسخة من هذا الكتاب الجديد الذي رجع فيه مؤلفه الى عدد كبير من المصادر العربية والاوروبية والوثائق المحفوظة بالخرانات الاسبانية، وما ان تصفحت هذا التأليف وقرأت مقدمته حتى رايت أنه يستحق ان يقدم للقارئ العربي مع ما يقتضيه الحال من تعليق ، وسوف

(1) Marruecos en la segunda mitad del siglo XVIII; Ramon Lourido Diaz - Instituto Hispano - Arabe de Cultura; Madrid 1978

افعل ذلك ، ان شاء الله ، حينما انتهي من قراءته وتمحيص فصوله
والرجوع الى مصادره بقدر الامكان .

وقد ذكرني صدور هذا الكتاب بوثيقة دبلوماسية هامة كان المؤلف
نفسه ، رامون لوريد ودياث ، قد نشرها ضمن دراسة حول المعاهدة
الاسبانية المغربية المبرمة في 28 ماي 1767 ، وكان الصديق الاستاذ
عبد الحميد بوزيد - من ثانوية ابن بطوطة بطنجة - قد اثار انتباهي الى
هذه الوثيقة منذ قرابة سنة ونصف فكنت كلما هممت بترجمتها وتقديمها
للقراء العرب تحول المشاغل بيني وبين ذلك .

ونظرا لاهمية هذه الوثيقة الدبلوماسية التي توضح ، من وجهة
النظر الاسبانية ، الملابسات التي سبقت التوقيع على المعاهدة المذكورة ،
وتؤكد في نفس الوقت صحة النص العربي الرسمي لها ، فاني اقدمها
لقراء المناهل مع ما يقتضيه المقام من تعليق وتوضيح .

ان الوثيقة التي ساقدم فيما بعد ترجمة لها هي عبارة عن مذكرة
تتضمن تعليمات الملك كارلوس الثالث الى مبعوثه القسيس الفرنسيكاني
بارتولومي خيرون دي لا كونثيثيون لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله
في مهمة خاصة القصد منها تمهيد الجو لابرام معاهدة صلح وتجارة بين
العاقلين .

والوثيقة محفوظة بالخرانة التاريخية الوطنية في مدريد (قسم
الدولة) تحت رقم 4308 ، وبالخرانة العامة للوثائق في بلدة سيما تكاس
(قسم الحرب الحديثة) تحت رقم 266 .

وتتجلى اهمية هذه الوثيقة في كونها توضح بعض الجوانب المتصلة
بمعاهدة 1767 التي اثارت جدلا دبلوماسيا طويلا بسبب التاويل الذي
اريد اعطاؤه من جانب واحد للفصل الثامن عشر منها ، وهو متعلق بتحويل
اهل الجزر الخالدات (كانارياس) رخصة صيد السمك في الساحل
المغربي المقابل لهذه الجزر .

فالنص الذي تستظهر به اسبانيا وتعتمده - وهو محدد باللفظة الاسبانية - لا يتطابق مع النص العربي الذي اقروه المغرب واعتمده .

ويمكن تحليل النص الاسباني من الفصل الثامن عشر كما يلي :

— ان سلطان المغرب يتجنب المناكرة في مسألة المحل (2) الذي يريد ملك اسبانيا ان يقيمه جنوب نهر نون لكون السلطان لا يستطيع ان يتحمل مسؤولية الحوادث او الكوارث التي يمكن ان تقع هناك باعتبار ان هذه الاماكن لا يشملها نفوذ (3) السلطان وان القوم الذين يسكنونها تائهون فتاكون ، ومن دابهم دائما ان يذلوا اهل كانارياس ويوقعوهم في الاسر .

اما النص العربي للفصل الثامن عشر من المعاهدة (3) فانه يختلف اختلافا بينا ، من حيث اللفظ والمعنى والفاية ، عن منطوق النص الاسباني ومفهومه (4) ؛ ويمكن تحليل الفصل المذكور كما هو وارد في الاصل

(2) أثرت ان اترجم لفظ Establecimientos الواردة في كل من الوثيقة الدبلوماسية والمعاهدة باللفظ العربي « المحل » لكونه اقرب الى المعنى المراد .

(3) ورد في النص الاسباني لفظ « Dominios » ويقابله في العربية « املاك » او « مجال النفوذ » وفي الفرنسية « Domaines » ، وقد لاحظنا ان الترجمة الفرنسية الحرة لمعاهدة 1767 تعتمد استعمال كلمة So uveraineté مقابل اللفظ الاسباني « Dominios » .

(3) كان لاستاذنا الكبير السيد امحمد عزيزان فصل سبق في نشر النص العربي الرسمي لمعاهدة 1767 وذلك في العدد الرابع من مجلة (تمودة) التي كانت تصدر بمدينة تطوان .

(4) لاحظ الباحث الفرنسي روبرت ريزيت (الصحراء الغربية وحدود المغرب) ان : « الاقوال الواردة في هذا النص - على اعتبار انها صدرت عن سلطان المغرب - لا تنطوي على اية قيمة ، اذ من البديهي ان الاسبان هم الذين صاغوا فيما بعد ذلك النص الذي لم يفهمه مخاطبوهي فالسلطان لم يكن لديه اي داع يجعله ينمت قبائل الرحل بلفظ شائن هو « القوم التائهي » بينما يجد في لفظ الرحل وصفا مشرفا لاوشك القوم . ثم ان « الاصرار التي تلحق باهل كانارياس » لم تكن لتقلق بال صاحب الجلالة السلطان الا قليلا ، اذ من المحتمل انه لم يكن على علم بذلك ، وعلى العكس فان هذه المسألة كانت تشغل بال الاسبان من حيث ان العيادين الكناريين الذين تمكنوا من النزول مصادفة بساحل القارة قد استهدفوا ، على الأرجح ، للنهب على يد الاهالي ... » Robert Rézette le Sahara Occidental et les frontières .

Marocaines nouvelles éditions latines - Paris 1975

العربي للمعاهدة كما يلبي : (5)

— ان سلطان المغرب يبرئ ذمته مما قد يقع لاهل كانارياس من جراء صيدهم السمك في ساحل وادي نون فما وراءه ، ولا يتحمل مسؤولية ما قد يصيبهم على يد بدو تلك البلاد الذين لا تنالهم احكام لكونهم رحلا لا يستقرون بمكان ، فهم ينتقلون بخيامهم الى حيث يشاءون . ولذا فان هلاك اهل كانارياس محقق على يد هؤلاء البدو . وعلى هذا فان سلطان المغرب يسمح لاهل كانارياس بالصيد في ساحل اكادير حيث يسود الامن في ظل ملك البلاد الذي يخص الاسبان دون غيرهم بصيد السمك في هذا الساحل ...

ومن هنا تتجلى اهمية المذكرة الدبلوماسية التي نورد نصها فيما بعد ، فهي من جهة تثبت صحة النص العربي للمعاهدة ومطابقته لروح المباحثات التي سبقت ابرامها والتوقيع عليها كما توضح ، من جهة اخرى ، ان العاهل الاسباني انما كان يرغب في الحصول على محصل على الساحل المغربي ينزل فيه الصيادون من اهل كانارياس لمعالجة سمكهم فيه وتجفيفه دون ان يتعرضوا لخطر الهجوم من جانب البدو الرحل ؛ والعاهل الاسباني يؤكد بوضوح في التعليمات الواردة في المذكرة المسلمة لمبعوثه الفرنسيكاني انه لا ينوي المساس بسيادة السلطان على بلاده في المكان الذي يطلبه وهو (نهر كويدر) الواقع بالساقية الحمراء . نعم ، ان الوثيقة تطلعنا أيضا على ان العاهل الاسباني كانت له اهداف سياسية

(5) صيغة النص العربي الاصلي للفصل الثامن عشر من المعاهدة :
« ان سيدنا نصره الله تبرا لاهل كنارية من اصطيادهم للحوت بكوشنة (ساحل) وادي نون الى ما وراءه ولم يبق عليه ترك (مسؤولية او تبعة) وهي لفظة عربية صميعة ، وقد جاء في التنزيل العزيز : لا تخاف دركا ولا تخشى) فيما يقع بهم مع عرب البلاد حيث لم تنلهم احكام ولا قرار لهم وانما ينزلون بخيامهم حيث شاءوا ويلهبون حيث شاءوا ، وهلاك اهل كنارية محقق مع هؤلاء العرب ، واما ما كان من كوشنة اكادير الى ناحية الغرب فهو تحت ظل اماننا ، وقد جمل ، ايده الله ، لاهل كنارية ان يصطادوا بكوشنة اكادير واسقط عنهم الوظيف (اعفاهم من الرسوم) وابقى هاتيك الكوشنة بقصد اهل كنارية وغيرهم من الاصبنيول ولا يزاحمهم فيها احد مراعاة للصلح والمهادنة » .

واستراتيجية ناتجة عن تخوفه من استيلاء الانجليز على جزء من الساحل المغربي المقابل للجزر الخالدات فتعرض بذلك سفنه القادمة من جزر الهند لتهديد دائم من جهة اعدائه الانجليز ، الا انه كان يرغب في الحصول على المحل المذكور بالوسائل الودية ، تفضلا من سلطان المغرب وانعاما ، لعلم العاهل الاسباني ان سيدي محمد بن عبد الله كان يضمر الود للاسبان ويحترز من الانجليز ولا يوانهم . هذا ويؤكد كارلوس الثالث في تعليماته لمبعوثه انه لا ينوي التوسع بل سيقنع بالمحل الذي يعينه له السلطان سواء في « كوبر » او في موضع آخر على الساحل الجنوبي شريطة الا يكون بعيدا عن الجزر الخالدات . ومن هنا فان سيدي محمد بن عبد الله قد اجاز لسكان كانارياس ولغيرهم من الاسبان الصيد في ساحل اكادير حيث يعم الامان وحذرهم من الاقتراب من الشواطئ الواقعة جنوب نهر نون ، لا لكونها غير خاضعة لسيادته ، بل لكون سكانها من الرحل المتنقلين الذين يصعب تطبيق الاحكام عليهم .

ان التعليمات التي تتضمنها الوثيقة تكتسي طابعا من السرية وهي موجهة الى المبعوث الذي عينه الملك الاسباني بقصد ائارة السبيل امامه واطلاعه على مقاصد عاهله حتى يتصرف وهو على بينة من الامر ؛ والوثيقة لذلك تجعلنا لا نشك في صدق نوايا كارلوس الثالث بخصوص اعترافه الصريح بشمول سيادة السلطان على الاقاليم الواقعة فيما وراء وادي نون ، ولولا ذلك لما طلب من ملك المغرب ان ياذن للصيادين من اهل كانارياس بالنزول في محل معين على الساحل الجنوبي لاغراض فنية تنحصر في معالجة السمك المصيد وتجفيفه في امان وسلام .

ومن هنا يكون من حقنا ان نشك في سلامة نوايا واضعي الصيغة الاسبانية لمعاهدة 28 مايو 1767 التي وقعها نيابة عن كارلوس الثالث سفيره لدى البلاط الملكي المغربي خورخي خوان ، وهي صيغة تتجاوز تعليمات العاهل الاسباني لمبعوثه الاول بارتولومي خيرون ولا تتفق في شيء مع الصيغة العربية الرسمية .

وفيما يلي نص الوثيقة :

((مذكرة تتضمن تعليمات موجهة للقسيس الذي سينهب الى المغرب،
وقد صودق عليها بتاريخ 15 اكتوبر 1765 وسلمت في اليوم الثاني
والعشرين من نفس الشهر الى الاب بارتولومي خيرون دي لا كونثيثيون
P. Fr. Bartolomé Giron de la Concepcion مدرس اللاهوت
وراهب المقاطعة والرئيس السابق للبعوث المقيمة في المغرب .

((سان لورينثو ، في 22 اكتوبر 1765 .

((لقد اقتضى نظر ملكنا ان يسافر احد رعاياه الى المغرب بقصد
استطلاع نوايا الامبراطور (سيدي محمد بن عبد الله) في مسألة ربط
الصلات الطيبة باسبانيا . ولهذه الغاية يتعين على المبعوث ان يتزود
بمعرفة ما يتفنيه صاحب الجلالة في هذا الصدد .

وتجنباً لكل تورط قد يسببه ايفاد شخصية تحتل منصباً مرموقاً في
الدولة للقيام بهذه المبادرات ارتأى صاحب الجلالة ان يختار لهذه الوفادة
احد رجال الدين من الذين اعتادوا التردد على المغرب لاسعاف الاسارى
حتى لا تحوم حوله الشبهات . لهذه الاعتبارات وغيرها قرر الملك
ان يعهد الى سيادتكم بهذه المهمة الجليلة لما يعرفه فيكم من كفاية ونزاهة
واطلاع على شؤون تلك البلاد . وها انا ذا اشرح لكم بايجاز سوابق القضية
التي دعت الى اتخاذ هذا القرار حتى تتصرفوا واتم على بينة تامة من
الامر .

((لقد طلب امبراطور المغرب من ملكنا ان يحرر بعض العبيد من
رعاياه بعد ان اوفد الى صاحب الجلالة شخصيتين اسبانييتين من
القساوسة ومعهما هدية (سلطان المغرب) هي عبارة عن نمور واسود .
وقد وافق ملكنا على الطلب المذكور فلم يقتصر على تحرير العبيد الذين
كانوا موضوع طلب السلطان بل انه اطلق سراح كل (من كان في قبضته)
من الرعايا المغاربة كما امر بارسال هدية (الى السلطان) محتوية على

مواد من انتاج مصانعنا . وقد اكبر عاهل المغرب هذا الكرم فظهر من عرفان الجميل ما جعله ينزع الأغلال عن جميع الاسبان الموجودين في مملكته محيطا اياهم باكبر مظاهر الامتنان ومبديا لهم ولرجال بلاطه البارزين انه انما يرغب في العيش على احسن وثام مع ملكنا .

ثم ان العاهل المغربي لم يقف عند حد هذه العواطف التي اعرب عنها بل امر جميع السفن وقراصنة الحرب من رعاياه ان يكفوا عن معاكسة سفن بلادنا . وما ان علم ملكنا بهذا حتى اصدر اوامر مماثلة الى سفن قواتنا البحرية الملكية (Real Armada) . وهكذا يلتزم الطرفان في الوقت الراهن باحترام الاوامر بالكف عن كل عمل عدواني .

هذا وقد اعرب امبراطور المغرب لبعض رجال بعوثنا الدينية عن رغبته في قيام حركة تبادل تجاري بين رعاياه ورعايانا حتى ينتفع اولاء وهؤلاء بشمار الصداقة بين العاهلين . ولما كانت هذه ايضا هي رغبة ملكنا الذي يحسوه الامل في ان يتيح لنا هذا التبادل استغلال مواد من افريقيا ومن ضمنها ما نحن في حاجة اليه من قمح ، فانه يرى من الصواب تشجيع هذه الفكرة والاستفادة مما يظهره امير تلك البلاد من حسن الاستعداد تجاه رعايا جلالة الملك .

ان تجربة اعوام طويلة قد دلت على ان الحرب التي ما فتئنا نخوضها ضد قراصنة المغرب لم تجلب لنا اي منم بل انها الحققت بنا اضرارا ، فضلا عما يكون فيها من عدم التكافؤ اذ ان مائة مغربي يقعون في اسرنا لا يعدلون ضياع عشرة من الاسبان .

ولهذه الاسباب فان المسالة الرئيسية التي يتعين تسويتها هي عقد هدنة لمدة اعوام بين اسبانيا وتلك الامبراطورية (المغرب) .

ونتيجة لما تقدم فان عليكم ان تستخدموا ، حين الشروع في المحادثات مع الامبراطور او وزرائه ، كل ما لدى سيادتكم من وسائل

تمليها عليكم حكمتكم لا قناع هؤلاء بان ملكنا يقدر عظيم التقدير ما اعرب عنه
عاهل المغرب من عواطف الصداقة ، وان صاحب الجلالة يرغب مخلصا في
الاستجابة لها بالافعال لا بالاقوال فحسب ، وهو في سبيل ذلك اصدر
اوامره الفعالة لسفنه الحربية كي لا تقلق او تقف في طريق مراكب الرعايا
المغاربة . وتمشيا مع هذه المقاصد السليمة ومع ما ينبغي ان يولييه
العاهلين من عناية في سبيل ازدهار امور رعاياهما فان من الصواب ان
تعقد هدنة في البر والبحر بالكيفية المعبر عنها .

فاذا ما وقع الاتفاق على هذه المسالة ، التي يجب ان تكون هي القاعدة
الاساسية ، فليسيادتكم ان تنتقلوا بعد ذلك الى الكلام في مسالة اخرى
لا تقل في نظرنا ، شانا عن السابقة . غير ان الكلام في هذه المسالة
يستوجب كثيرا من الحيطة والتمحيص من حيث اسلوب عرضها
واقترحها ؛ فهي ، وان كانت في حد ذاتها مسالة عادية لا غبار عليها ولا
تلحق اي ضرر بعاهل المغرب ، فقد يعطاها مع ذلك تاويل ربما لا يكون في
صالح طلبنا .

ان سكان جزر كانارياس (الخالدات) - الذين هم كما تعلمون من
رعايا ملكنا - دابوا منذ عهد لا تعيه الذاكرة على الصيد في النواحي القريبة
من ذلك الجزء من ساحل افريقيا المقابل للجزر المذكورة ، وكثيرا ما
يلجأ هؤلاء الصيادون الى تجفيف سمكهم في البر فيلقون في بعض الاحيان
معاملة حسنة من المغاربة البواسل القاطنين هناك ، الا انهم يعانون في
احيان اخرى ضروبا من المكاره يضطرون من جرأتها الى ترك صيدهم
ويولون مسرعين الى سفنهم فيلحقهم من ذلك ضرر واي ضرر ، اذ ان
فقراء الاوم في كانارياس يقتاتون اساسا من السمك .

ثم ان انجلترا ، التي استحوذت على جميع فروع التجارة العالمية
وتنظر مع ذلك بعين الغيرة الى كل امة تملك سفينة صيد ، لم تقنع بما
تستغله من مناطق الصيد في بحر الشمال والارض الجديدة (Terra nova)
فاخذت تطمح في المدة الاخيرة الى الاستحواذ على الصيد في الساحل

الافريقي . ولهذا الغرض انفلت الحكومة البريطانية سفينة عهدت بها الى المدعو جورج جلاس (G. Glass) بقصد النزول في الساحل الافريقي وتشبيد حصن به قبالة نهر كويدر (Rio Guedar) ، الا ان الاقدار حكمت باحباط مرامي (جلاس) الذي ما ان حل بالنهر المذكور حتى تصدى له المغاربة البواسل وحالوا بينه وبين ما يريد ، وكانت النتيجة ان قتل عدد من رجاله واتلفت السفينة . وقد القي القبض على (جلاس) في كانارياس حيث ضبط متلبسا بالتهريب كما كان يحاول ان يكره صنعنا على مساعدته في مشروعه . وبعد مدة اطلق سراح الانجليزي المذكور واعيد الى انجلترا .

لن يصعب عليكم ان تستنتجوا مما قلته لكم امرين : اولهما أننا في حاجة قصوى الى محل على ساحل افريقيا يمكن اهل كانارياس من معالجة سمكهم فيه دون ان تحلق بهم المخاطر ، فالسمك هو قوتهم الذي لا غناء لهم عنه . وثانيهما أنه ، حتى ولو لم يكن لدينا هذا السبب القوي لطلب ذلك ، فيتعين علينا ان نبادر بالعمل حتى لا يحصل الانجليز على ذلك المحل قبلنا اذ من الواضح ان مرامي هذه الامة الطموح هي ان تحل بذلك الساحل فتجعل سكان جزرنا يعيشون في فزع دائم ويصبح في متناول يدها ، وقت الحرب ، قطع الطريق على سفننا الآتية من جزر الهند (القارة الامريكية) .

اقول لسيادتكم كل هذا حتى تستوعبوا وافر الاسباب التي تدفعنا الى طلب محل في ذلك الساحل ، الا انه يتعين عليكم اثناء المحادثات الا تذكروا سوى السبب المبني وهو ان اهل كانارياس لا يستقيم لهم عيش بدون السمك الذي يصطادونه هناك ، وان الصيد لن يتاتي لهم ما لم يتوفر المحل المذكور ، فهذا يكفي لاقتناع اهل المغرب باتنا لا نضمر اية مقاصد قد يكون فيها اساس بسيادته على بلاده . وقبل ذلك ينبغي ان يعلم العاهل المغربي المنافع التي سوف تجلبها تجارة تنشط بين سكان الجزر وعرب ذلك الساحل .

واياكم ان تتعرضوا ، اثناء محادثاتكم في المغرب ، لما يسببه لنا الانجليز من شكوك ، فلربما تتناهى الى علم هؤلاء اخبار عن مخلوفنا فيعمدون الى مضاعفة جهودهم . ولما كنا نتوفر على معلومات تفيد ان امبراطور المغرب لا يحب الانجليز فانه يتعين عليكم ان تستخدموا دهاءكم فتوعزوا الى مخاطبتكم بان هؤلاء الانجليز اذا كانوا لم يدركوا لحد الآن مآصلهم الرامية الى الاستحواذ على المحل المذكور فانهم سوف يصلون الى غرضهم في المستقبل ، فاذا ما وضعوا اقدامهم هناك فانهم سوف يتوسعون الى ما لانهاية كما هو دابهم في اصقاع اخرى من افريقيا وآسيا وامريكا . فاذا كان امبراطور المغرب حريصا على تجنب ذلك فالسبيل الطبيعي السليم هو ان يسمح لنا نحن بالتزول في ذلك المحل قبلهم ، اذ انه لا يوجد من جهتنا اي خطر للتوسع ابعد مما سيعطانا .

ثم ان عليكم ان تبينوا اننا انما نطلب الترخيص لسكان كانارياس بالحصول على محل صغير في نهر كويدار او في احوازه ، فاذا لم يوافق السلطان على هذا فليمنحنا محلا في اية بقعة اخرى يشير بها علينا على الا تكون بعيدة جدا عن جزرنا حتى يتمكن الكناريون من معالجة سمكهم فيه وهم في هدوء وامان لا يتهددون من جهة البر خطر ولا يتعرضون فيه لازعاج من طرف المغاربة البواسل على ان يتمكنوا في نفس الوقت من اخذ العدة لمواجهة اي عدوان يمكن ان ياتيهم بحرا من احدى المراكب الحربية المعادية لاسبانيا .

ولكي تبينوا موقع المحل المشار اليه ويتيقن السلطان من ان ما نطلبه لن يجلب له ولا لاحد من رعاياه اي ضرر نظرا لخلو تلك الناحية من السكان - فاني ابث اليكم صحبة هذه المذكرة خريطة جزر كانارياس والجزء الذي يقابلها في الساحل الافريقي مع اشارة الى نهر كويدار حيث وصل اخيرا الانجليزي جورج جلاس .

هذا وينبغي ان اوضح لسيادتكم فكرتين لهما صلة بهذه القضية لكي تستفيدوا منهما بالقدر المستطاع : الاولى هي ان المحل الصغير - الذي

يطلبه سيدنا الملك لسلطان المغرب على سبيل التفصل وعربونا على الصداقة - كان الانجليز قد حاولوا الاستيلاء عليه عنوة وبدون رضا السلطان ، وهم سوف يواصلون ، لا محالة ، جهودهم حتى يصلوا الى غرضهم . اما الفكرة الثانية فمضمونها ان المحل الذي نطلبه اليوم كانت اسبانيا تملكه اعواما مديدة ، فالوثائق الاصلية تثبت ان ذلك الجزء من ساحل بلاد البربر كان تحت حوزتنا ابان غزو جزر كانارياس ، وكان لنا فيه حصن (6) ؛ بيد انه لا داعي الى تسمية السلطان الى هذه الاسباب ما دامت اسبانيا ترغب في الحصول على المحل المطلوب بالوسائل الودية .

هذا وغير خاف عليكم ما تنتجه الارض الاسبانية من ثمار طيبة وافرة، وفي افريقيا ايضا من الثمار ما قد نحتاج اليه نحن ، ولهذا فمن المناسب ان تشيروا هذه المسألة اثناء محادثاتكم في المغرب سعيا في تشييط النفوس واعدادها عسى ان يقوم بين رعايا العاهلين تبادل تجاري ما .

ولست في حاجة الى ان اؤكد لسيادتكم ضرورة لزوم الحيطة والحذر في محادثاتكم حتى نشرع في تقديم مقترحاتنا بحسب ما سيظهره عاهل المغرب من تفتح وحسن نية ؛ ثم اني ادعوكم الى الاعتصام بكامل الكتمان والاحتراز . فهناك قناصل وتجار من امم اخرى سوف يبذلون الجهود لمعرفة ما تتباحثون في شأنه

(6) لا شك ان المقصود بالمكان الذي تشير اليه المذكرة هو ما تسميه المصادر الاسبانية ب : Santa Cruz de Mar Pequena الذي اقام به الاسبان نحو من نصف قرن وطردهم منه السكان سنة 1524 ، وقد اندرست معالم الحصن الذي قد يكون الاسبان قد بنوه هناك ولم يبق له اثر يذكر ، ثم انه لا يعرف موقع هذا المكان على وجه الدقة ، وتقول بعض الروايات بانه كان في ناحية اكادير . هذا ومعروف ان الاسبان لم يستقروا بجزر كانارياس بصفة نهائية الا سنة 1490 بعد نزاع عليها . بينهم وبين البرتغاليين . وكان اول من اكتشف احدى هذه الجزر الملاح لانثاوني موليشيلو (Lanzarote Malozello) من جنوا وذلك بين 1312 و 1335 وما زالت الجزيرة التي نزل بها تحمل اسمه . وفي سنة 1403 أسس النبيل النورماندي جان دي بيطانكور Jean Béthencourt مستوطنة في كانارياس قدمها فيما بعد هدية لاسبانيا التي تنازلت عن حقوقها في هذه الجزر للبرتغال سنة 1418 ، ثم عادت تنازع البرتغاليين عليها الى ان استقرت بها نهائيا سنة 1490 كما سبق ان قلنا .

فان هم تمكنوا من غرضهم قبل نهاية المحادثات فان ذلك لا بد وان يكون ضارا بمصالحنا . والدليل على ما نقول هو ان القنصل الانجليزي قد تولى - كما علمنا - مهمة الترجمة لدى قائد طنجة حينما كان حاكم سبتة (الاسباني) يتباحث مع هذا القائد في عدة مسائل ، وواضح ان غرض القنصل المذكور هو استطلاع حقيقة ما نعمل .

وفي الختام انتظر من سيادتكم ان تفتنموا كل فرصة تسنح لكم فتكتبوا لي وتخبروني شخصيا بكل خطوة تقطعونها وبما تحققونه من تقدم في مهمتكم . والمرجو منكم ان تبينوا لملك المغرب انه حينما يتم معكم الاتفاق على المسائل الرئيسية بكيفية لا يبقى معها مجال للشك فان ملكنا سوف يوفد سفيرا او مبعوثا من حملة الاوسمة قصد ابرام معاهدة هدنة وتجارة ، ولدينا معلومات تفيد ان سلطان المغرب يحتفي كثيرا بهذه المعاملات المتصلة بالشؤون الخارجية .

الرباط

محمد العربي الخطابي

ذَيْلٌ وَتَعْلِيْقٌ حول قَضِيَّةِ الْعُمْدِ بْنِ عَبَّادٍ - القسم الحارثي عشر -

عبد الرحمن العناني

عاد القادر ابن ذي النون الى عرشه ، ولكن أي عودة هذه الى
الحاضرة طليطلة تحت ظلال بنود الأعداء ، وبغير ولاء ، وبلا تكبير
ولا هتاف .

واين من القادر طلعة المنتصر الجدلان ، وقد علاه شعوب درنه
المزمن ، وضرب الفرع نطاقا اسود على حدقتيه ، وتبرجت المضاضة
في حركاته وسكناته ، ثم اذا هو ذا يثور بالهياج وافتعال الصيال ، فما
اشبهه بمن يلوح بالسيف الى الفضاء ، ويجتاح الهباء ، ويصول على
طواحين الهواء .

ونتجاوز هذه الصورة التي نستجليها من بين سطور ابن بسام الى
ما يرسمه لنا بالكلمات ، فهو يعرض علينا (1) مشهدا مسرحيا يبدو فيه

(1) « اللخيرة » لابن بسام ، القسم 4 ، ص : 126 .

« ادفنش » في احدى جولات مكره البواح ، فقد كان يتظاهر في اثناء دخوله على رأس موكب القادر الى حاضرتة ، بالتزام البر ، وباعذار النصر ، وبما يبهز العقل ، فيترجل عن فرسه ، ويمشي بين يدي القادر ، وهذا يرفع صوته ، منتفخا ، ويتنفج بدعوته اليه ، وكأنه مسخر بين يديه !!

فيا لها من لفنة تضليل من « ادفنش » ، يراوغ بها سكان الحاضرة ، فيوحي بان لا ارب له فيها ، وانما هو دين في عنقه ، وعهد للمامون ابن ذي النون يفي بحقه ، فلا تضام مملكته ، ولا يترك لهزيمة حفيده ، فللقادر وحده ان ياخذ ويدع من امره ما يراه ، وحماية قشتالة ضافية ، تدرا عنه الاطماع ، وتؤمن للمملكة النونية الاطمئنان والهناء .

وانتصب القادر لمناوئيه في حاضرتة ، وكانت فئة منهم لاثلة بابن هود في سرقسطة ، وآخرون من رهط « ادفنش » تسالوا نحو قشتالة ، وعشيرة الزعيم ابن مفيث انتزت بمدينة « مجريط » ، ورفعت علم الخلاف ، ومن ورائها شيع واتباع ، وبادرت اجناد « ادفنش » لتسد مسالك الحاضرة على فلول اخرى حتى الحدود ، وادركهم الطلب ، فباتوا بين ذبيح ، ومصلوب ، ومخنوق ، وهدمت الديار ، وخربت الممتلكات ، وصودرت الاملاك ، وحلت النكبة بذوي القرى ، وبمن كانت له بهم صلة وعمار (حتى باد جمهورهم ، وتلاحقت اعجازهم وصدورهم) .

ولم يكبر في عين « ادفنش » ما كسبه القادر بين يديه من مذخور الطرف التي ورثها عن الالباء والاجداد، ومن صفايا المصادر، وما استنزفه من اموال وامتولات رعاياه ، وانما سأل (ان يعطيه (2) حصن « قنالش » (3) رهنا فيما ترتب عن مساندته ، واعادته الى حاضرتة) .

(2) تاريخ ابن الكردبوس ، ص : 84 .

(3) يقع في شمال شرق طليطلة ، وهو احد الحصون التي اقامها الامير محمد الاموي في هذه المنطقة ، وفي الجزيرة غير ما مركز يعرف باسم « قنالش » .

وتصفية الحصون هدف قشتالة الاساسي في الاعداد للفارة الفاصلة على تراب ممالك الجزيرة ، وهي ظاهرة مرت بنا بكل وضوح في غير ما حركة من حركات « ادفنش » وسلفه « فردلند » ، والرواية تعرض علينا في معترك هذه الظروف بالذات (474 - 475 هـ) ، الملك « ادفنش » وهو يتطلع الى وضع يده على معقل « روطه » بشرق الجزيرة في مملكة بني هود ، وذلك في مقابل مساعدته حاكم القلعة من قبل المؤتمن ابن هود على الاستئثار بها ، والاستبداد بتوابعها ، وكان المقتدر والد المؤتمن وسلفه قد اودع اخاه (يوسف المظفر) صاحب « لارده » سجينا في هذه القلعة ، ولكن موت المظفر السجين فجأة جعلت حدا لأطماع صاحب « روطه » ، وقلبت وجهته نحو قشتالة الى استنبار ومناوأة ، فضربها بخدعة في هذه الصفقة ، وما ان وصلت نجدة « ادفنش » لتسلم القلعة ، وعلى رأسها ثلة من كبار الضباط المعصيين براميرو امير « نيرة » ، حتى فوجئت بوابل الصخور تنهال عليها ، الى ان استوصلت عن آخرها ، وكان لهذه الحادثة ما بعدها مما اقض مضاجع بني هود على بعد المسافة بينهم وبين « ادفنش » .

وهكذا نرى ان الاهتمام بتصفية الحصون ، ينصب من القرب الى الشرق على امتداد الحدود .

اما حصن « قنالش » المطلوب من القادر ، فقد ظفر به « ادفنش » واقام فيه رجالا من ثقافته ، وحصل فيه جملة من اقواته ، ثم انصرف الى « قشتالة » سالما ، مكتظ الحقائق غانما .

ومن اشد ما جعل القادر على نفسه (شراء حصن (4) من « الفونش » على مقربة من طليطلة ، بمائة وخمسين ألف مثقال طيبة ، وخمسمائة مد من طعام ، ضيافة لكل ليلة ، مدة مقامه عليه ، اخذها من اهل بلده حتى ضعفوا) .

(4) مذكرة الأمير عبد الله ، ص : 77 .

ولعل هذا الحصن لم يكن داخلا فى استراتيجية حصار طليطلة ، فاتخذة وسيلة للاستنزاف والاعنات ، على هذا الوجه من الأخذ والعطاء .

وينشا هنا فى النفس سؤال عن مفادرة ((ادفنش)) وتولييه، مع انا عرفنا فى فصل مضى ، ان اتفاقية ((قونقة)) قائمة على أن يعيده الى عرشه ، ويسنده ايضا فى استرداد بلنسية واقطارها ، فى مقابل التخلي له عن طليطلة وانظارها ، وذلك ما كان افادنا به ابن بسام (5) فى ((الذخيرة)) ، وابن الكردبوس فى الاكتفاء (6) .

وان السؤال ليمعن فى الالحاح لاستجلاء وجه التدبير عند ((ادفنش))، فى مفادرة طليطلة ، مع انه احتلها بجيشه ، بعد انسحاب المتوكل ، واعراض اهله عن حكم القادر ، فكيف لا يخطبها لنفسه ، وامرها معقود ، كما نرى ، بالاتفاقية وبمشيئته ؟ وهي بعد امنية العمر ، ونقطة الارتكاز فى ما خططته حركة الاسترداد للانسياح فى تراب الاسلام .

والواقع ان نظريته فى احتلال المدن ، تخضع - كما رأينا فى فصل مضى - رواية عن الملك عبد الله - الى نسبة الربح والخسارة ، ولا يجنح لجانب الربح فى الاحتلال ، ما لم يكن مؤمنا برضى اهل البلد ، ومعززا بالانقياد ، ولهذا رأيناه يأخذ بمبدأ التريث الى ان يتحقق له المطلوب ، وقد عزف من قبل - كما مر بنا - عن احتلال غرناطة خشية من مواجهة ضارية ، وانتفاضات من اهله متوالية ، فكان (الراي كل الراي - فى نظره - تهديد بعضهم لبعض ، واخذ اموالهم ابدا ، حتى ترقى وتضعف ، ثم هي تلقي بيدها اذا ضعفت ، وتاتي عفوا) .

(5) القسم : 4 ، المجلد : 1 ، ص : 126 .

(6) انظر ص : 84 ، ط : معهد الدراسات الاسلامية بمديرية .

وفي نفس ذلك السياق يعرب « ادفنش » - حسب تقدير الملك عبد الله - عن التعبير بالنسبة الى طليطلة ، فيقول مع نفسه (كالذي جرى بطليطلة انما كان من فقر اهلها ، وتشتتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت الي بلا مشقة) .

وتفيدنا ايضا فقرة في مذكرات الملك عبد الله (7) ان « ادفنش » خلف من ورائه كتاب من جنده منبئة في ارجاء طليطلة ، وهو يقصد - ولا ريب - بذلك تثبيت حضوره في اذهان الطامعين ، والمتربصين بالقادر ، ثم تيسير المهمة للداعين الى حكم قشتالة، وهم حزب قوي، وكثرة كاثرة من اليهود ومن المولدين والمستعربين ، وبذلك فهو ينتظر لها يوم يفرش له طريق دخولها بالورود والرياحين .

وهنا تعود بنا الذاكرة الى الوزير ابن عمار الذي خلفناه في معترك هذه الظروف بالذات يخلل اهل طليطلة عن نصب الرئيس ، ويدعو - كما افاد الملك عبد الله - الى اداء الجزية الى « ادفنش » ، وقيام حكمه بنجوة من عقابيل مشكلة الرئيس والمرؤوس .

ونستفيد الآن من نفس افادة الملك عبد الله (8) ان « ادفنش » ما قصد باستعمال ابن عمار بعد ان استنزفه واستصفاه ، ولفظه من حيزه بمقلعات لسانه (9) الا ان يرمى به الى حتفه، ليتخلص منه بطول نهايته، ويامن اشكالاته .

(7) « مذكرات الملك عبد الله » ، ص : 73 ، وقد تقدم نصه المتعلق بغرناطة بكامله في فصل سابق .

(8) المذكرات ، ص : 80 .
- انظر « المناهل » ، الجزء 12 ، ص : 357 - 358 .

(9) قيل انه اراد به بقوله حين جاءه مستعديا على ابن رشيق : (يا ابن عمار ، ملكك مثل السارق سرق السرقة فضيعها حتى سرفت منه) .
- الحلة السيرة ، ج : 2 ، ص : 146 .

وهكذا يدلنا الملك عبد الله في هذه الفقرات على ما هنالك وهو يتحدث عن ابن عمار : (واتي طليطلة ، وابن ذي النون فيها باسم الرسالة (اي مهمة الدعوة الى تملك « ادفنش ») ، ووافق على ذلك ، ومحنة الفونش عليها في حين صرف حاجبها (10) اليها بعد خلع اهلها ، ليفي بوعده ، ثم يعكس عليه القصة فيقتل ، فشعر لذلك ، وغلب حفيد ابن ذي النون الفئة القائمة عليه ، ففر منهم من خلص الى الفونش ، وفر ابن عمار) .

وبهذه اللعبة المكشوفة انهي « ادفنش » آخر جولاته مع مصطفىاه (11) رجل الجزيرة كما سماه حين كان يستدر به الاخلاف ، ويصطاد به اللبنت .

ولم يسع ابن عمار في ظروفه النكدات الا ان يجيب عن اللعبة بالاستخذاء ، فاين هو الآن من المهمات ، ومن جولة الكر والفر التي مارسها مع « ادفنش » يوم لعبة الشطرنج ، وهو في قمة السلطان والمجد ؟

لشتان ما بين الجولتين ! وما اعظم الفرق بين المهمتين وبين العهدين .

وكذلك كان !! فخسر ابن عمار آخر الجولات ، ولم يبق في يده غير الرضا بغنيمة الفوز بعبور الحدود على اسلم حال ، فانقلب الى « سرقسطة » في لمة من بطانته ، تحذوه الى صاحبها المؤتمن

(10) يعني بالحاجب ملك طليطلة ، وهو اصطلاح معروف في الاندلس على عهد ملوك الطوائف ، حيث لقب بعض الملوك والأمراء والرؤساء بالحاجب .

(11) « فلاند المتيان » ص : 94 ، ط : اربوا .

ابن هود (12) (474 هـ 478) الآمال ، وهزة الطمع في الاقبال بعد الادبار،
ففي بلاطه خير منقلب، وفي اسمه يتراءى اليمن والفال الحسن ، وأن اطماعه

(12) المؤتمن يوسف الحاجب هو الذي خلف والده المقتدر في جمادى الاولى 474 هـ ،
وقد صار له من قسمة والده المقتدر قبل وفاته ، « سرقسطة » وغرب الامارة ،
ثم ضم املاك اخوته : المنذر صاحب « تطيلة » و « دانية » ، ولب ، صاحب
« وشقة » ومحمد ، صاحب « قلعة أيوب » ، ثم انتزع أخيراً ما بيد أخيه أبي عمرو
يوسف صاحب « لاردة » ، وهو المظفر الملقب أيضاً بحسام الدولة ، وقد جاء في
« أعمال الاعلام » (جزء الأندلس ، ص 186 ط. الرباط) أن ابن عمار (لحق
بالمقتدر ابن هود بسرقسطة) وابن الخطيب يعني أن ابن عمار أدرك المقتدر
بسرقسطة قبل وفاته ومثله في « دول الطوائف » للاستاذ الكبير محمد عبد الله
عنان (ط. الاولى ، ص : 65) ، وزاد أنه التجأ الى المؤتمن في سرقسطة بعد
وفاة المقتدر ، ويقول أيضاً المستشرق دوزي في كتاب ملوك الطوائف (ترجمة
كيلاني ، ص : 258) أن ابن عمار لحق أولاً بالمقتدر وأنف منه فمضى الى « لاردة »
حيث يقوم على الحكم المظفر (شقيق المنذر) فقبول بحفاوة بالغة ، ثم عاد الى
(سرقسطة) ، حيث المؤتمن خلف أباه المقتدر على عرش المملكة ، أما ذخيرة ابن بسام
فلا تذكر لحاقه بالمقتدر وإنما تذكر نزوله على المؤتمن بسرقسطة ، وليس عند
الملك عبد الله صاحب « التبيان » غير ذكر هجرة ابن عمار الى صاحب سرقسطة
من غير تعيين ، وفي « القلائد » الاقتصار على الإشارة الى المؤتمن ، ويفيد ابن
الآبار في « الحلة السيرة » أن ابن عمار قصد أولاً المؤتمن في (سرقسطة ثم انقلب
الى شقيقه صاحب « لاردة » وصرح بأن صاحبها يومئذ هو أبو عمرو يوسف بن
سليمن الملقب بالمظفر ، وحسام الدولة ، غير أنه يلاحظ عليه أن المظفر حسام
الدولة هذا قد ظل سجين أخيه المقتدر في « قصبة منتشون » وتوفي في سجنه
فجأة فلم تكتب له امانة في « لاردة » على عهد المؤتمن حتى يقال أن ابن عمار قصده
بها ، والمعروف أن الذي كان يتولى « لاردة » على عهد المؤتمن هو أخوه المنذر ،
وقد صارت اليه « لاردة » من قسمة المقتدر والدهما الذي خص يوسف الحاجب
المؤتمن بسرقسطة وغرب الامارة ، وخص أخاه المنذر « بطرطوشة » و « دانية »
والجزء الشرقي من الامارة ومنه « لاردة » ، وهذا ما يفهم من سياق « مذكرات
الأمير عبد الله » ص : 78 - 79 ، ولذلك ، فلا مفر من القول بأن ابن الآبار قد وهم
في اسم صاحب « لاردة » يومئذ ، وأما قول دوزي أن ابن عمار نزل عند المقتدر
بسرقسطة في بادئ الامر ، ثم اتصرف عنه الى شقيقه المظفر في « لاردة » ،
فيصح إذا لاحظنا أن تحرك ابن عمار بين (سرقسطة) المقتدر ، و « لاردة » المظفر ،
قد كان قبل أن يقع المظفر سجيناً في يد أخيه المقتدر ويمكن أن يتصور بوضوح
أنه عاد من « لاردة » الى سرقسطة عند انتصاب المؤتمن فيها خلفاً للمقتدر ، ويظهر
أن هذا الاضطراب الذي وقع لابن الآبار في « الحلة السيرة » هو الذي حصل
محققها الدكتور حسين مؤنس على وضع شجرة لأسرة بني هود يتبين منها الاختلاف
والاسلاف ، وعلى كل حال ، فلن يترتب شيء على تصحيح الأسماء ، ولا على لحاق
ابن عمار بهذا أو ذاك ، وإنما المهم هو ما يوحى به ما في صلب هذا الفصل من أن
وجهة ابن عمار الى سرقسطة بشرق الأندلس قد كانت متأثرة جداً بقروقه
الفسانية ، فلم يستقر له قرار في الحاضرتين ، وواضح أنه يولّد من اختلاف
هذه الروايات تحديد تاريخ توجه ابن عمار نحو شرق الجزيرة بالشهور الاولى من
عام 474 أو بعيد ذلك أي عند وفاة المقتدر وولاية المؤتمن في جمادى الاولى من
نفس العام .

لتتجدد فى أن يعيدها جذعة فى تلك الآفاق ، فقد تفسح له براعاته مرة أخرى فى مجال السؤدد ، وترد عليه ما ضاع ، فيواتيه الحظ الذى يسليه لدى بني هود عن امارة ((مرسية)) الضائعة ، وعن سلطانه العريض الدابر فى ((اشبيلية)) .

وقد اكبر المؤتمن مقدمه ، فاستقبله باحتفاء (13) وأنزله منزلة عزيز مكرم بالايواء والجرايات ، واغلق على بطانته من عوارفه ما تقر به العين ، ويخطو معه المقام ، وكان المؤتمن فى هذا ينظر ، ولا ريب ، الى الاستفادة من عبقريته ودهائه (والى ما كان بينه وبين ابن عباد ، مما يقع بين الفحول فى الهجمات والليوث فى الأجومات) فهو يريد أن يضرب به ابن عباد ، كما آوى فى نفس الوقت الفارس القشتالي ((السيد الكمبيادور)) ليضرب به ((ادفنش)) ، وقد كانت الجفوة قائمة يومئذ بين هذا الفارس وبين ملكه ((ادفنش)) ، كما ستعرف بعد سطور .

ويفهم من ملابس شخصيات المقام أن الجو فى ساحة المؤتمن كان جو جدية ووقار ، فالمعروف أن المؤتمن كان يرى موته قريباً ، (فكان لا يسر بالملكة ، ويزهد فى كثير من الدنيا) ثم ان وجهته العلمية، قد اخذت عليه كل استعداداته ، وملكت عليه كل هواياته ، فلم يكن له ارب فى ما انصرف له ملوك الطوائف من زينة الحياة ولهوها ، فهمه فى الدرس والتأليف ، فهو صاحب كتاب ((الاستكمال فى الرياضيات)) وكان يعد كوالده المقتدر ، اقدر شخصيات العصور الوسطى ، خوفاً فى الفلك والفلسفة والرياضيات ، وبالرغم من أن قصر ((الجعفرية)) فى ((سرقسطة)) دعي ((بدار السرور)) ، وكان كعبة القصاد من الشعراء والأدباء ، كما هي حال ملوك الطوائف قاطبة ، من غير استثناء ، الا ان الحياة فى رحابه من غير مجالس لهو ، وسهرات غناء وقصف ، ما كانت لترهر فى عين من طلع نجما فى سماء بلاط اشبيلية ، وما كانت لتنفس عن ابن عمار ما به اليوم ، وهو بطبيعته (زيرقيان وغلماي ، وصريع راح وريحان ، امله كان بين كاس وشم آس ، وجلله فى نصب حباله لفزالة او غزال (14)) .

(13) « الحلة السيرة » ، ج : 2 ، ص : 146 ، تحقيق الدكتور مؤنس .

(14) « الاخيرة » لابن بسام ، ترجمة ابن عمار .

وما كان ليجد في مؤتمن بني هود معتمد بني عباد ذلك الذي يهـز
لمحياء الكاس ويخاطبه (15) بمثل هذه الأبيات :

فادر بأفاق الزجاج كواكبها تخذت كف سقاتها افلاكها
راحا اذا هب النسيم حسبتهما مسروقة الانفاس من ريساك

والظاهر من امره انه اخذ يفرق هواجسه في الكاس ، ويجري كدابه
وراء الفزلان والظباء ، وهي سيرة لم يالفها اهل هذه الافاق الشرقية في
كرام الرجال ، فنبا به موضعه ، واستوحش من الناس واستوحشوا منه ،
ونطقت بذلك شاعرية ابن عمار في هذه الأبيات ، من قصيدة قالها في
سرقسطة معرضا بحال الناس معه :

نقيم على الراج ادمن شربها وقتلم فتى لهو وليس فتى محد

وقيل عندها : انه سئم تلك الحالة ، ورحل الى صاحب (الردة) (16)
ولكن سرعان ما غادرها عائدا الى «سرقسطة» ، وفي «لردة» قال قصيدته
التي اولها : (17)

-
- (15) «الذخيرة» لابن بسام ، ترجمة ابن عمار .
(16) تقع شرق سرقسطة ، وتسمت شرقا امانة برشلونة ، وغربا مدينة بريشتير (وبها
اليوم اكبر مرصد علمي عظيم يديره الرهبان) ، وكانت اول قاعدة لبني هود حينما
استبد قيديومهم سليمان بن محمد بن هود بالثغر الأعلى ، ثم انضاف اليها من بعد
سرقسطة ، ثم بقية الثغر ، وعند تقسيمه الملك لدى وفاته ، بين اولاده الخمسة ،
صارت «لردة» لولده ابي عمرو يوسف الملقب بالمظفر وحسام الدولة ، وكما في
هامش سابق فالمرجح ان صاحب «لردة» ، عندما قصدوا ابن عمار هو المنذر بن
المقتدر الذي كان قسم هند وفاته الملكة بين ابنيه المؤتمن والمنذر .
(17) يقول ابن بسام ان ابن عمار قال هذه القصيدة لما خاف من المعتمد لظبته على ابنه
المعتمد ، وفر من اشبيلية ولحق بشرق الاندلس وتمكن من المؤتمن بن هود ،
وينتقد ابن البار هذا ، (الحلة السيرة ، ج : 2 ، ص : 148) قائلا : ان ما
ادعاه - لوصح - كان قبل الستين او الخمسين واربع مائة ، وولاية المؤتمن في
جمادى الاولى سنة اربع وسبعين واربع مائة ، وهو انتقاد وجيه ، لا سيما والمتعارف
ان ابن عمار لم يصحب المؤتمن الا عند خروجه من «مرسية» ، وفي عهد ولايته
المؤتمن .

علي ، والا ما بكاء الفمائم وفي ، والا ما نياح الحمائم

ولربما وجد ابن عمار بلاط (الاردة) اضيق افقا من ساحة سرقسطة كما قيل ، وعلى كل حال فصولة القلق ظاهرة في هذه التنقلات ، وقد يلاحظ الى هذا ان يكون من دواعي قلقه ايضا وجود شخصية قوية كانت يومئذ مسيطرة على بلاط بني هود في « سرقسطة » ، فالمعروف ان المؤتمن قد كان منذ ولايته مخلدا - صنع والده المقتدر من قبله - الى الاستعانة بالفارس القشتالي « رودريجو دياث » المعروف بالسيد « الكمبيادور » ، وقد كانت علائق هذا الفارس قد ساءت بملكه « ادفينش » في تلك الظروف ، فلفظته قشتالة الى شرق الجزيرة على راس لمة من رجاله المحاربين ، وهم مرتزقة كان يستخدمهم لصالح النصارى والمسلمين من غير ان يلتفت لمبدأ اودين ، ولم تطل خدماته للمقتدر الذي توفي بعد قليل من وصول الفارس القشتالي الى ساحته ، فاستقبله خلفه المؤتمن وحالفه (18) ، واستعان به في حرب اخيه المنذر الذي كان يستظهر على اخيه المؤتمن بالملك « سانشو راميرز » صاحب « ارغون » و « برامون برنجير » امير « برشلونة » على ان القلق ، وان كان يستفحل في النفس البشرية بتلك المهيجات ، ويلوي بالاتزان والاعتدال ، ويغير الرؤية من حال الى حال ، فليس من شأنه ايضا ان يطفئ جذوة اللهن ، او يغفل من العزم ، فما هو عند ذوي النهى ، غير مظهر ليقظته الشخصية ، وانطلاق الحيوية ، واستحرار الروح المعنوية ، ومن ثم نرى انه لم يكد يحتل بملك القطر من الناحية الشرقية ، حتى (اضرمه نارا ، واهاج فيه فتنة ، وصار للفرنج (19) سفيرا) كما يحكي الامير عبد الله (20) الذي عني بمتابعة حركاته اولا واخيرا .

(18) دول الطوائف ٦ ط : اولى ، ص : 274 .

(19) المقصود بالفرنج هنا ٦ تلك الامارات الصغيرة التي كانت تحيط بمملكة سرقسطة ٦ وجعلت منها جزيرة محتلة بالمكارة من جميع اطرافها ، فهي بين « قطلونية » من الشرق ٦ و « نبرة » من الشمال الغربي ، و « قشتالة » من الجنوب الغربي .

(20) « مذكرات الامير عبد الله » .

وفى هذا المحيط الذي تعتمل فيه المصالح المتضاربة ، وتصطقق فيه أمواج هذه الجزيرة الهادرة ، حميت سكته ، وابتعثت مظامعه ، فانتضى شبكة براعته لطل نازلة انتراء أحد عمال المؤتمن ، وتحصنه بمقله الرابض فى منعته ، وكانت بين هذا العامل وابن عمار سابق معرفة ، فكان ابن عمار لها ، وانتصب ليضمن للمؤتمن استنزاله ، ويكفيه شره وخباله ، وسار اليه - كما يحكى لنا ابن الأبار (21) : (فلما نزل بساحته تشوف ذلك العامل الى بره ، ولم ير بأسا فى ارقائه الى قصبة حصنه فى رجلين من جملة ، فاعز ابن عمار الى الصاعدين معه ان : « صبا سيفكما عليه اذا رايتماي اماشييه ويدي فى يده ، ولو قتلتماي واياه » ، ففعلا ذلك ، وفر اصحابه عند قتله والقوا بأيديهم الى ابن عمار ، متطارحين عليه ومستشفعين به الى المؤتمن ، فضمن لهم تامينه اياهم وصفحته عن جنايتهم ، وخاطبه بذلك فورد بامضاء ما التزمه عنه من الاغضاء ، ولطف محله عنده) .

ولقد كان منتظرا ان يلطف محله عند المؤتمن لما كفاه بهذه البراعة من مؤونة الاستنزال بجهد المحاصرة وارقة الدماء ، وراى ان يجازيه بمخاطبة المعتمد بن عباد فى تسريح عياله وابنائيه الذين باشبيلية ، فلم يبعد - حسب عبارة ابن الأبار - عن الاسعاف ، ولكنه فى الواقع لم يبن عن اسعاف ، وانما كان يسد باب الشفاعة ردا مهلبا رقيقا ، فراجعته فى نفس الوقت بالتحذير الذي يؤكد ان حقد ابن عباد مكين ، وما كان ليخفف من وقده الحاج الشفاعات ، كما نرى فى رده الصارم على شفاعة ذي الوزارتين ابن محفور صاحب « شاطبة » (22) فكيف بمجرد المخاطبات

(21) « الحلة السيرة » ج 2 : ص 149 .

(22) انظر رد ابن عباد على ابن محفور فى مخطوطة « اللخيرة » (جزء اشبيلية ونواحيها وما يعاقبها) فى ترجمة ابن عمار .
- مخطوطة الخزانة الملكية رقم 949 ، ورقة : 147 .

كهنه ، التي لم تخف دواعيها على ابن عباد ، وهكذا فقد انشد في صلب
كتابه محذرا من غيه : بهذه الأبيات :

والشيخ لا يترك أخلاقه

حتى يوارى في ثرى رمسه

إذا ارعوى عاد إلى غيه :

كلني الفنى عاد إلى تكسه

وصدق ابن عباد ، فما ارعوى ابن عمار ، ولا حدث من غيه المفبات ،
فما كاد يجر هذا الفتح الفادر إلى اعتاب المؤتمن على أنه باكورة غنائم
ومكسب براعات ، حتى لاح له من حصن ((شقورة)) برق خلب ، يدنيه من
متن الجوزاء ، التي تربعا في سالف الأيام ، فزين للمؤتمن امتطاء ذلك
الشاهق ، وقد كان هذا الحصن قبيل هذا التاريخ تابعا لصاحب ((دانية)) ،
علي بن مجاهد العامري ، ولما غلب عليه المقتدر صاحب ((سرقسطة)) ،
سنة ثمان وستين وأربعمائة - حسبما أشير إليه في فصل سابق - امتنع
بهذا الحصن سراج الدولة بن علي بن مجاهد منكوب المقتدر ، وازمع
ضبطه والانفراد به ، ولكن المنية فاجاته ، ولما ينعم بهذا الغنم اليسير
من تراب اماره والده ، وقد انتصب عتاد الدولة محمد بن سهيل واخوه
في قصبة الحصن قائمين على شؤونه ، وكافلين لولدي سراج الدولة
الهالك ، وأصل الاخوين ابني سهيل عبدان ، جلب ابوهما سبيًا من
((سردينية)) وكانما ادركا بعد قيامهما مقام سراج الدولة ، أن الأمر لن
يخلص لهما ، مع تشوف أبناء المقتدر ، ورثة ((دانية)) ، وأخذا يساومان
في التنازل عن الحصن للملوك والرؤساء ، فكان بينهم شبه بقنية في
المزاد ، حتى إذا انتهى خبر الصفقة إلى المؤتمن صاحب ((سرقسطة)) ،
فلما فرغ ابن عمار الطماح ، وطفى فيه الاعتداد ، وعقد النصر بعملية غدر
واختطاف ، ووثبة عجلي على العبدین ، تخرج بهما عن الحصن ، وتسكت
صوت المزاد في لحظتين سريعتين ، فيقطع حبل المساومة ، ويخفق
لصوت المزايدة ، ويتحقق المراد في زخرفة وبهاء ، ولكن صادف أن ابني
سهيل كانا منطويين على حقد مزمن ، لابن عمار ، منذ أيامه الحالمة في
« مرسية » ، فقد كان سلقهما بقطعة شعرية أصابتهما في عقدة الهمة ،

اللمع اليها في قطعه الشعرية ، واطيع الفرور في ابن عمار على اليقظة ،
فغاب عنه ان فلتات اللسان تجرح القلوب ، فلا تلتئم حتى بين الاصلاء ،
واصحاب الخلة والمودات ، فكيف عند العبيد والهجناء .

ويقول ابن بسام ان ابن عمار كان يتطلع ليخدع المؤمنين في
« شقورة » ، كما خدع المعتد في « مرسية » .

وبهذا يكون قد انتفى عزمه على الخديعة من جهتين ، وانطوى على
القدر مرتين ، ولكن القضاء كان له على رصد ، فتكسرت مفاخرته على
سفوح ذلك الحصن الشاهق (حين دفع في صدره ، وحاق به سيء مكره)
فقد استخرج الى مرقاة الحصن ليقع في يد مردته من الانس العتاة الذين
لم يخطرأ له على بال ، حين ألم بهذا الحصن ذات يوه من عهوده الزاهرات ،
وأوحى اليه منظره الوحش بهذه الآيات :

وحش تناكرت الوجوه به
حتى استربت بصفحة البدر
متحير سال الوفار على
عظفيه من كبر ومن كبر
عال كان الجن اذ مررت
جعلته مرقاة الى السر

وصدقت نبوءة الشعر بعد ايام ، فكان حصن « شقورة » مرقاة
حقا الى سر نهاية ابن عمار الذي ظل دفيناً في غيابات ضمير ابن عباد !
انها الممية شيطان شعر ابن عمار ، التي نفتت في روعه هذه
الاشطار ، يوم هشت له الدولة ، والقي المعتد بيده مقاليد المملكة ،
واصفاه « ادفنش » فكانت ترتاع منه الاقطار ، وتقضي بكلمة منه اللبانات
والأوطار ، لكانما كان شيطانه يفتح عينيه في ايام السعود على مناعة هذا
الحصن الذي مردته الجن ، واستكبر وطال على من رامة بياض الحديد
والكار ، او من تهادي متوقلا في منحدراته بالحيلة والخداع .

ويعصف لنا ابن الأبار صورة ذلك العثار فيقول (23) : (ولما انتهى ابن عمار من مصعدهما الى درج لا يتخطاه الصاعد حتى يجنب بضبعه ، تقدم هو ورفع بالأيدي ، وأشير على صاحبيه فوليا منحدرين ، واحتمل هو الى ذروة القصة فشد وثاقه) .

وبعد القبض عليه ، التي به في المزاد ، وكأنه قطعة من حصن « شقورة » ، الذي أعلن العبدان بيعه للرؤساء .

وفي هذا صدر عن ابن عمار قوله المشهور :

أصبحت في السوق ينادى على راسي بأنواع من المال

ويقول ابن بسام : (وكان القبض على ابن عمار « بشقورة » يوم الجمعة لست بقين من ربيع الآخر ، سنة سبع وسبعين (477 هـ)

وانفذ المعتمد الى صاحبي الحصن ابنه الراضي بما سلاه ، فنزلا على حكمه ، وتناقل عنه الرؤساء بعد انتصاب ابن عباد ، فانسد المزاد ، ولكن لصالح المعتمد لا لصالح ابن عمار ، وسلم الحصن والأسير الى الراضي ، كما يقول ابن الأبار : (فقدم (الراضي) على الحصن ، وأنصرف الى أبيه المعتمد وهو بقرطبة ، وابن عمار بين يديه مقيد بين عدلي تبين ، على هزل زوامل العسكر) وميل به الى سجن أعد له في إحدى زوايا القصر باشبيلية ، وشد منه الصفاد ، وأظلم وجه العفو ، وسد باب الشفاعات ، وكان ما كان من أجهاز المعتمد عليه بقاطعة الطبرزين (24) وكانت ضربة لازب حين تشبعت في ذهن المعتمد خطيئة وزيره الكبرى وزدا يجل عن العفو ، وتضائل دونه كل ضلال وغي ، وأعني بها جريرة توريط سيده بأبرام ما سماه بعهد المهادنة مع « أدفنش » وهو العهد الذي أطلق يده في طليطلة فالحق بالمعتمد العار والشنار ، وكتب عليه التنية في دينه ودنياه .

(23) « العلية السيرة » ، ج : 2 ، ص : 150 .

(24) انظر صورة الوقعة والوقعة في القسم التاسع من هذه الديول والتعليق : مجلة (المناهل) ، العدد : 10 ، ص : 361 .

والملاحظ أن المعتمد عهد في رده على شغلة ابن معفور المسمى تنويع العبارات التي تبين عن جيلة الفوارة في نفس ابن عمار ، وهدف بهذا إلى أن يدخل في الأذهان أن داء غي وزيره قد أزمعن على مدى الأيام ، ومنذ اتصلت أسبابه بأسباب المعتمد على عهد الشباب ، وهو يريد بهذا اسدال الستار على ذلك السر الذي ظل في يد ابن عمار سيفا مصلتا على رقبتة في اليقظة والمنام .

وياخذ المعتمد بطريق آخر للمداورة والمناورة ، فيهلل بالفاظ السيئات والجرائم ، ولكنه يردّها إلى مناضلة الدولة ، وإلى ركوبه الوعر بالعناد والمصاولة ، وبهذه الطريقة يتحاشى الاعتداد في هذا الكتاب بالعوامل الشخصية التي جلبت على ابن عمار في نظر أكثر المؤرخين تلك المحنة ، كما يوحي أنه تجافى عن تعداد ما ينتظر فيه العفو ، وأنه أفرغ كل ما في النفس ، وأن ليس هناك عوامل سياسية ترد إليها غضبته الجهنمية . . . وحاول المعتمد أيضا إبداء العذر في استتبار وجه الصفح والاعتدال، فقرفه في رسالة إلى أحد بنيّه (بالفادر ، الملحد ، الكافر) وأحسب أن من التزايد في إبداء العذر الذي يشي بأنه يسر خلاف ما يبطن ، أن يفار حرمة الاعتقاد اليوم، فيأخذ اليوم على صفيه الكفر والالحاد ، وهو الذي كان بالأمس مخمور وصالة على مستطير نظرفه بكفره والحاده ، وما زلنا نذكر تجديف هذين الخليلين على الله ، وهما يتطارحان الأشعار معربدين بالتندر على المؤذن حين صدع حى على الصلاة والفلاح ، وأما جناية الفدر، فهي في عداد تلك العوامل الشخصية التي تجافى عن تعدادها ، والمعتقد أن كل هذا مما تعفو عنه سجايا ابن عباد المشهود لها بالندى والسماح ، فما كان ذنبه عند المعتمد بذاك ، وما سجل عليه الفدر بجانب الكفر والالحاد ، إلا لتعزز احداهما الأخرى ولا مراء ، والفدر ، والختل ، والفتك وما هو من صورها وفصيلتها ، قد كانت جميعها مطايا ابن عمار إلى مآربه في السلم وفي الحرب من غير استثناء ، وهي السهام التي رعت مجتمعة في جسم دولة بني جهور ، وبطشت بشيخهم أبي الوليد وبكرائمه على ما به من عجز الشيخوخة ، وزمانة المرض (25) وهذا أصل

(25) « البيان المغرب » لابن عذارى ، ج : 3 ، ص : 259 ، ط : باريس .
- « أعمال الأنعام » ، جزء الأول ، ص : 174 ، ط : بيروت .

إشارة سابقة (26) إلى ترجيح القول بأن غوائل ابن عمار هذه - وهي بعينها مويقات تلك المأساة - تعرضه علينا وراء تلك البطشة التي أشار فيها المؤرخون المحدثون بأصابعهم إلى الوزير ابن زيدون بالذات ، مع أنه يتضح من التفاصيل الدقيقة التي أوردها صاحب الذخيرة نقلاً عن شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيان شاهد العيان (27) أن ابن زيدون لم يكن له يد في تلك الجريمة الهوجاء ، وهي تفاصيل تلقي الأضواء على ساحة الحادث ، وظروفه ، ورجاله ، وأهوائهم المصطرعة للاستئثار بالخطوة عند صاحب البلاط ، وأيسر ما تعرضه علينا تلك التفاصيل أن ابن زيدون كان منذ اعتلاء المعتمد عرش أشبيلية أثر أبيه المعتضد ، مريض الجسم ، مقروح النفس ، بعيداً عن ساحة الحكم ، ولم تكن لوزارته المثناة ، غير رتبة شرفية قصد بها المعتمد بن عباد رعاية ما تته في الدولة ، وما كان له لدى والده عباد من خطوة ، ولم يخلص له حتى مجرد الاستشارة تجاه استبداد ابن عمار وابن مرتين اللذين كانا أثري المعتمد ابن عباد ، وخصيمي ابن زيدون العاملين بنفوذهما على إبعاده ، وإفراغ لقبه من محتواه ، ولكل دولة رجال ، كما قال ابن حيان ، وهو يسجل هذه الظواهر في المقام (28) .

وإذا كان الأمر مجزياً بما قتل به ، أن سيفاً فسيماً ، وإن خنجراً فخنجراً ، فالملحوظ أن القدر قد استجاب لدعاء الشيخ أبي الوليد ابن جهور ، حين رفع يديه إلى السماء ، وهو ينفث من شدقه المشلول ، هذه الزفرات الهامسات : (اللهم كما أجبت فينا الدعاء فاجبه لنا) وكان عندها يتوسط قنطرة قرطبة مخرجاً عن وطنه (محمولا بين عدلي تبن ، على ظهر زاملة) .

-
- (26) انظر العدد الرابع من مجلة ((المناهل)) ، السنة الثانية ، ص : 310 .
(27) انظر هذه التفاصيل عند ذكر وفاة أبي الوليد بن زيدون ، بالقسم الأول ، ج : 1 من الذخيرة لابن بسام ، ص : 354 .
(28) لم تكن هذه التفاصيل في سياق الكلام عن مأساة الجهاورة لا في نص ابن حيان ، ولا عند ناقله ابن بسام ، وإنما جاءت في نطاق الكلام على أيام ابن زيدون الأخيرة ، في حياته ووزارته ، وعلى ما ناله من كيد ابن عمار في جسمه ، وفي نفسه ، وظروفه .

وقد يلفت نظر الباحث ، وهو يتمثل صراع الحظوة بين رجال المعتمد بن عباد ، ويتساءل عن كان وراء تلك الكائنة الهوجاء ، ان تقدم اليه محنة ابن عمار الاليمة بعد ايام ، نفس الصورة فى شخصه حين جاز نفس قنطرة قرطبة ، مدال النعمة ، وبين علي تبن ، وفوق ظهر زاملة !!

انها اشارة من الأقدار حين تعز الاخبار .

واي من الوزيرين كان محرك دولاب القدر فى قضاء اغراض المعتمد لنيل الحظوة ، والاعتبار ، فان مصير ابن عمار ما كان لينتهي الى ما انتهى اليه ، لو لم يطارده القدر بنفس سلاح القدر ، ولم يحقق به سوء مكر ((ادفنش)) حين تنكر لسالف خدماته ، فلفظه من حيزه ، وسلقه بمقنعات لسانه .

وقد راينا من وثبات قدر ((ادفنش)) ، ولعبه بالرؤوس ، ما يجعله متجافيا عن اغاثة من لا تومن بدواته وغواتله ، ولا سيما فى تلك الظروف ، حين كان ((ادفنش)) يواطىء لرجله ترابا باردا فى طليظة ، وبمنجاة من المساومات والمناورات كما اشير اليه منذ لحظات ، والقدر والخداع حكم الميول والطبيعة فى ملوك حركة الاسترداد .

واذا كنا عرفنا ابن عمار على لسان ((ادفنش)) رجل الجزيرة ، ثم سارقا من سراقها ..

وعرفنا ايضا نظيرتها فى خيانة التعهد الذي ازجاء للمامون بن ذي النون بحماية المملكة ردا لصنيعها المبرور ..

فسنرى فى فصل تال مغدورا بالرغم عنه ! فى شخص القادر ابن ذي النون خلف المامون صديق ((ادفنش)) ، ومضيفه ، ومؤنس غريته ، ومحبي مواته ، حتى تبدو أحداث هذه الفترة ضروبا من المتناقضات المستعصية على الأفهام ، ولكن سرعان ما يتجلى كل ابهام، حين نذكر ان طاقة القوة فى يديه ، وان الرؤساء المسلمين قد تضامنت شخصياتهم من حوله ، فساروا فى جملة خوله ، واحلاس اعتابه .

عبد الرحمن الفاسي

الرباط

تَطَوُّرُ الْأَدَبِ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي عَهْدِ الْمُرَابِطِينَ

د. عباس البحراري

موضوع المرابطين الذي سأتناول في هذا العرض المحدود بعض الملامح المميزة لجانب (1) من جوانبه المتعددة والمتداخلة ، موضوع شائق وشائك في نفس الآن . فهو شائق لأنه يتعلق بفترة لا شك في أنها من أهم الفترات التي التقى فيها المغرب بشبه الجزيرة الأيبيرية ؛ ولكنه شائك لأن عهد هؤلاء المرابطين بصفة عامة ، ولا سيما من حيث علاقتهم بالاندلس ، طرح طرحا مغلوطا وغير موضوعي عند معظم الذين درسوه .

وتتجلى لا موضوعية هذا التناول في الاحكام المختلفة التي صدرت ضد المرابطين ، تدينهم - لصحراويتهم وفقهيتهم - بعدم العناية بثقافة الاندلس وحضارتها ، وترميهم بالعجز عن هضمها والعمل على تعظيم ما عرفته الاندلس في هذا المضمار من قبل .

(1) يدخل هذا العرض الذي يكتفي بطرح خطوط رئيسية في نطاق بحث موسع للكاتب عن المرابطين .

والمآمل في هذه الأحكام لا يلبث أن ينتهي إلى أنها ناتجة عن مواقف مسبقة غير صحيحة ، ومعروفة حقيقة الدوافع إليها ؛ ويمكن أن نميزها مرحليا على النحو الآتي :

1 - مواقف صدرت معاصرة للمرابطين ؛ وقد اتخذت ضدهم وضد الفقهاء خاصة ، باعتبارهم طبقة حاكمة . وهي المواقف التي كشف عنها جماعة من الأدباء كابى جعفر أحمد بن البتي وأبى بكر يحيى بن سهل اليكى وابن بقى والتطيلي ، علما بأن بعضهم لم يكن ضد المرابطين كالتطيلي الذي مدح عليا بن يوسف ، ومدح فقهاء مسؤولين كابن حمدى وابن وهيب وبني القاسم ، كما مدح نساء المرابطين كحواء ، ورثى الكثير منهم . بل إن اليكى نفسه كان يهجوهم ويمدحهم فى نفس الوقت . ومثلها المواقف التي صدرت عن الذين كانوا ينعمون فى قصور أمراء الطوائف ، وهم فى الغالب من شعرائهم كابن اللبانة وابن حمديس وابن عبد الصمد ، ومن اليهم من أدباء المعارضة فى هذا العصر .

2 - مواقف موحدية ، وهي التي عبر عنها الموحدون أنفسهم ، بدءا من المهدي الذي وصف المرابطين بالمجسمة والمبطلين ، وكذلك الموالون لهم من المؤرخين وغيرهم كالمراكشي .

وفى هذا الإطار تدرج مواقف التفاضل والتنافس بين المغرب والاندلس ، وما صدر عن بعض المبالغين - كالشقندي - من عبارات السخرية والاستهزاء والتنقيص فى حق المرابطين .

3 - مواقف متأخرة ، وكانت الدوافع إليها وطنية بمعنى إسبانية أو وطنية دينية ، على حد ما نجد عند معظم المستشرقين الإسبان . وقد اتسمت فى بعضها بالصيغة الدينية الصرف ، سواء فى الخط الصليبي الموازي للدين كما هو الشأن بالنسبة لفيليب حتى ، أو فى الخط المضاد له من حيث هو وكيفما كان على غرار موقف دوزي .

كذلك تدخل في هذا النوع من المواقف تلك التي كانت الدوافع اليها شعرية ، انطلاقا من قضية المعتمد وشعره وما قيل فيه . وهي مواقف غير قليل من الدارسين ، ولا سيما من المشاركة ، وفيهم كثير من المقلدين .

بعيدا عن هذه المواقف ، هناك حقيقة تتعلق بالوجود المرابطي في الاندلس ، وهي تثير تناقضا او تضادا بين الحركة المرابطية والواقع الاندلسي يومئذ . فقد كان هذا الواقع خربا يكشف عن انهيار سياسي واقتصادي واجتماعي ينذر بانتهاء دولة العروبة والاسلام في الاندلس . فالشعب يعاني من الفقر والغل وكابوس الضرائب تفرض عليه . والعدو يستجمع قواه للانقضاض والاستيلاء على مراكز المسلمين ، وياخذ الجزية ممن يهادن من الامراء ؛ في حين كان هؤلاء منغمسين في الملذات والشهوات ومجالس الشعر يستمعون فيها الى مدائح زائفة ، يكفي للدلالة عليها ان نقرأ هذه الايات (2) لحسان ابن المصيصي يمدح المعتمد ويهون عليه تلك الاتاوات :

ولم تطو دون المسلمين ذخيرة	تهين كرام المنفسات لتكرما
تحيل في فك الاسارى وانما	تعاهد كفارا لتطلق مسلما
وما كنت ممن شح بالمال والقنا	فتكنز دينارا وتركز لهما
فترسله للصفير اصفر عسجدا	وان خالفوا ارسلت ابيض محزما

ومثلها هذه الايات (3) التي يبرر فيها ابن اللبانة دفع المعتمد الجزية للنصارى :

في نصرة الدين لا اعدمت نصرته	تلقى النصارى بما تلقى فتخضع
تبيعهم نعما في طيها نقيم	سيستضربها من كان ينتفع
وقلما تسلم الاجسام من عرض	اذا توالى عليها الرى والشبع
لا تخبط الناس عشوا عند مشكلة	فانت ادري بما تاتي وما تبعد

وقد علق ابن بسام على زيف هذا المدح بقوله : « وهذا مدح غرور وشاهد زور وملق معترف سائل وخديعة طالب نائل ، وهيهات ، بل حلت الفاقة بعد بجماعتهم » (4) .

في هذا الوقت ، كان المرابطون قد أنشأوا في المغرب دولة قوية تعتمد الفقه مذهباً توطر داخله القاعدة والقيادة ، وتسمى لتحقيق الاسلام المبسط الواضح في صيغة ثورية تصحيحية لا تعرف الفتور أو المصالحة أو التنازل .

من هنا يطرح السؤال : ما مدى تأثير هذه الحقيقة على مسيرة الادب في الاندلس ، باعتباره ظاهرة ثقافية عرفت ازدهارا من قبل ؟

عنوان هذا العرض يدل على ان الادب الاندلسي قد شهد تطورا في عهد المرابطين . وهو تطور مس جوانب متعددة ، وتجلى في مظاهر كثيرة ، بعضها كان متأثرا بالتيار المرابطي ، وبعضها كان منطلقا من هذا التيار .

ولو حاولنا ان نلقي نظرة على حال الشعر باعتباره الفن الابداعي الذي كان له الشفوف في الاندلس عامة ، وخاصة في بلاطات أمراء الطوائف ، لنرى الى اي حد اصابه التطور في العهد المرابطي ، لتبينت لنا هذه المظاهر :

1 - ضعفت موضوعات اللهو والمجون والخمر التي كانت قد ازدهرت في عهد الطوائف ، وبرز تيار ديني خلقي جاد قوي لم تلبث ملامحه ان انعكست على ابداع الشعراء في مختلف المضامين .

ففي موضوع تقليدي كالمدح نجد الشعراء يمدحون المرابطين بالورع والتقوى والشجاعة والجهاد في سبيل الله . وفي طليعة اولئك الشعراء ابو عامر بن ارقم وابو بكر بن رخيرم وابن وهبون وابن عطية وابن

(2-3-4) الاخيرة في 2 م 1 ص 248 - 249 (د . احسان عباس) .

الصيرفي وابن خفاجة وابو الفضل السنتمري وابو الحسن بن الجسد والتطيلي . بل انا نجد هؤلاء الشعراء في اغلبهم يتحللون من المقدمات التقليدية ، غزلية وغيرها ، ويدخلون مباشرة للمدح ، الا ما كان من ابن خفاجة ، فانه ظل يقدم لمدايحهم ؛ دون ان ننسى الاشارة الى ان هذا الشاعر اعطى وصف الطبيعة حيزا كبيرا في شعره ، اذ ادخلها في كل فن، متوسلا بالتشخيص والمشاركة الوجدانية وازدحام الصور . ومثل ابن خفاجة في هذا المجال يحيى بن الزقاق الذي كان بارعا في التصوير ، كلفا فيه بالتشبيه .

قد يقال هنا ان الامير المرابطي - وخاصة ابن تاشفين - لم يكن يحب المدح . وهو قول صحيح ، والدليل عليه انه لم يتخذ شعراء ولم يكن له مجلس رسمي للشعر . ولكن هذه الظاهرة لم تحل دون مواكبة الشعراء لتحركات الامير ، والاشادة بانتصاراته . يقول ابن عذاري متحدثا عن يوسف : « وقد امتدحه الشعراء في حركاته وغزواته وصدوره ووروده فاجزل لهم العطاء » (5) .

ويقول عن علي بانه حين جاز الى الجزيرة الخضراء : « بادر اليه قضاة الاندلس وفقهاؤها وزعماؤها ورؤساؤها وادباؤها وشعراؤها فامتدحه الشعراء فاجزل لهم العطاء » (6) .

والحقيقة ان اغلب المدح المرابطي كان مرتبطا بادب الجهاد ، على حد قول ابي الحسن بن الجسد في يوسف (7) :

انظر الى الصبح سيفا في يدي ملك في الله من جنده التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ كما رعاها بطرف ساهر عمر

(5) البيان المغرب ج 4 ص 47 (ط . بيروت - 1967) .

(6) نفس المصدر ص 48 .

(7) اعمال الاعلام لابن الخطيب ص 242 (ت المباري والكتاني - الدار البيضاء - 1964) .

ومثله قول التطيلي في قصيدة مدح لعلي بن يوسف ، مطلعها : (8)
بين سمر القنا وبيض النصال طرق المهتدين والضلال

ولهذا الشاعر في نفس المدوح قصيدة أخرى (9) ، هذا أولها :
طليلة جيشك الروح الاميين وظل لوائك الفتح المبيين
وهزة رمحك الظفر المواتي وروتق سيفك الحق اليقين

على أن موجة الجذ الديني لم تقف عند هذا الحد ، ولكنها تبلورت
كذلك في موضوعين يعتبران من أهم ما يميز ملامح التطور الشعري في
هذا العصر ، هما : الزهد والنبويات .

أما الزهد ، فإنه لم يعد كما كان ، تحت عليه الظروف المضطربة التي
كانت تعيش الاندلس ، باعتباره ملجأ يفر اليه الشاعر ، على حد ما نجد عند
السميسر وابن الجياد ؛ ولكنه في هذا العصر سيكون ناتجا عن شيوع
الروح الديني ومنبثقا من الورع والتقوى ؛ وهو ما يتضح عند ابن العريف
وابن العسال وابي اسحق الالبيري الذي كانت بعض اشعاره الزهدية تتخذ
شكل مواعظ يديرها على كلمة يتخذ منها قافيته ، الحاحا منه في التنبيه ،
كقوله (10) :

يا ايها المفتـر بالله فر من الله الى الله
ولد به واساله من فضله فقـد نجا من لاذ بالله

وقوله كذلك (11) :

ويل لأهل النار في النار ماذا يقاسون من النار
تنقد من غيظ فتغلي بهم كمرجل يغلي على النار

(8) الديوان ص 000 (ت احسان عباس - ط. بيروت) .

(9) الديوان ص 200 .

(10) الديوان ص 114 (ت كوث) .

(11) الديوان ص 144 .

وقد جاء بعض هذا الشعر مرتبطاً بموضوع نشط القول فيه خلال
الازمات المختلفة التي تعرضت لها الأندلس ، وهو موضوع ضياع المدن
والامارات وانهيار الامجاد واستخلاص الحكم والعظات من ذلك ، كما عند
ابن عبدون في رثائه لبني الافطس .

واما النبويات ، فانها تناولت مدح الرسول وآل البيت والتشوق
لهم ولبقاعهم ورثاء المنكوبين منهم ، والحسين خاصة .

ويعتبر ابن ابي الخصال من رواد هذا الفن ، اذ برز فيه بقصيدته
« معراج المناقب ومنهاج الحساب الثاقب » (12) ، واولها :

اليك فهمي والفؤاد يثرب وان عاقني عن مطلع الوحي مغربي

وفيها يقول :

فمن لي واني لي بريح تحطني الى ذروة البيت الرفيع المطنب
الى الهاشمي الأبطحي محمد الى خاتم الرسل المكين المقرب

واذا عرفنا ان هذه القصيدة تلحق بقصيدة ابي محمد عبد الله
الشقراطيسي (13) التوزري الذي كان سابقا على ابن ابي الخصال بنحو
قرن ، والتي اولها :

الحمد لله منا باعت الرسل هدى باحمد منا احمد السبيل

(12) انظرها بتخمين ابي عبد الله محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش اللخمي المروسي
في ازهار الرياض - القسم الاخير ابتداء من ص 301 (مخطوط خزانة الرباط
العامية كـ 229 II) .

(13) انظرها في رحلة المبدري ابتداء من ص 45 (ت . م . الفاسي) .

استطعنا ان نذهب الى ان فن المديح النبوي ظهر في الغرب الاسلامي
قبل قرنين من ظهوره في مصر على يد البوصيري وابن دقيق العيد (14) .

2 - واذا كان تيار اللهو والمجون قد ضعف في القصيدة التقليدية،
فانه سيبرز في فن الموشحات والأزجال الذي سيشهد ازدهارا في هذا
العصر ، على يد شعراء كاحمد التطيلي ويحيى بن بقى وابي بكر بن باجة
وابي بكر الابيض .

ومع ذلك ففي مجال المدح نجد ابن قزمان يتقمص شخصية جادة .
ويتضح هذا من قوله (15) :

مثل ابن تاشفين يقال امير — والخلافا من بعد عادت تسيير

بارك الله في هذا الايام
تجي اعوام اذا مضت اعوام
ويجعلهم سلاطين الاسلام
ونصرهم كمناه نعم النصير

ذاه سلطان كما يقال سلطان
ان يحكم بالسنة والقرءان

(14) انظر كتابنا « الادب المغربي من خلال ظواهره وخصايه » ج ١، فصل « المولد النبوي
في الادب المغربي » .

(15) الديوان ، الزجل 43 لوحة 25 (النسخة التي اخرجها البارون جونزبرج Gunsburg
برلين 1896) .

ما في علمي وما سمعت تقول
ندري أنك نصرت دين الرسول
وربطت وكان بمد مطول
حتى لس كان بقيل فير يسير

وازهار فن الموشحات والأزجال لا يعني هبوط الذوق (16) ،
متجليا في استعمال اللغة العامية ؛ فهذه اللغة ليست كما يظن مظهرا للغة
المدرسية في صورة منحنى مسفة ، لأنها كانت أبدا موجودة الى جانبها
تقتبس منها وتغنيها وتتبادل واياها التأثير . ومن ثم كان التعبير الشعري
بها - كلا كما في الزجل او بعضا كما في الموشح - دليلا على تجلو تلك
اللغة في الألسنة والأفهام والأنواق ، ودليلا في نفس الوقت على مدى
حيويتها وانفتاحها للتوسع والتجدد . وهذه ظاهرة لا يمكن ان تتحقق الا
على يد فنانيين يكونون مالكين لخاصية الأدوات العامية والمعربة ، قادرين
على تطويعهما للتعبير في حرية وشجاعة .

3 - وقد كان موضوع المرأة من الموضوعات التي نشط فيها
القول . فهو وان كان على صعيد الشعر الاندلسي والعربي عامة يعتبر
موضوعا خصباً وغنيا في مختلف العصور ، إلا انه في هذا العهد سيتخذ
ابعادا جديدة ، انطلاقا من ظهور المرأة المرابطية في الميدان ، والمكانة
المرموقة التي أصبحت لها ، اذ برزت أسماء كريمة بنت يوسف وحواء
وزينب اختى أبي بكر بن ابراهيم بن تافلويت ، وكانت زينب زوجة لتميم بن
يوسف .

ومن ثم سوف نجد المرأة تشغل حيزا كبيرا عند شعراء هذا العهد ،
ولكن ليس من خلال غزل مكشوف كما كان من قبل . وسيتجلى هذا

(16) انظر مناقشتنا لهذه القضية بتفصيل في كتابنا « موشحات مغربية » فصل
« أهمية الموشحات » .

الاتجاه فى موضوعين : أولهما المدح ، كما فى مدح ابن خفاجة لزينب
ولمريم بنت ابراهيم بن يوسف التى استشفع بها الى الامير أبى طاهر فى
قصيدة (17) مطلعها :

يممت من عليك خير ميمم وحلت من مقالك دار مخيم

ومثله التبطيلى الذى مدح حواء بقصيدة (18) ، منها قوله :
ملیكة لا یوازی قدرها ملک كالشمس تصفر عن مقدارها الشهب
وهو فى مدحها لا ینسى أن یشید بالمرابطين فى روح قوى ، على
هذا النحو :

إذا رضوا فارجهم فى كل نأبة وكن على حذر منهم إذا غضبوا
إذا دعوا قامت الهيجا على قدم كأنما تنتمي فيهم وتتسبب
هم ثبتوا الدين إذ ضاقت مذاهبه بانفس صيغ منها الدين والحسب

وثانيهما الرثاء ، إذ سيشيع رثاء الزوجات والنساء عامة عند التبطيلى
وابن بقی وابن حمدیس . وسيلغ مداه فى عصر تال عند ابن جبير الذى
خص زوجته أم المجد بديوان كامل فى الرثاء .

وتعتبر قصيدة التبطيلى فى رثاء زوجته من أهم نماذج رثاء الزوجات ،
وهي التى يقول فى أولها (19) :

ونبت ذاك الوجه غيره البلى على قرب عهد بالطلاقة والبشر
بكيت عليه بالدموع ولو أبست بكيت عليه بالتجلد والصبر
فليتهم واروا ذكاء مكانه ولو عرفت فى أوجه الاتجم الزهر

(17) ديوان ابن خفاجة ص 114 (ط . القاهرة) .

(18) الديوان ص 15 .

(19) الديوان ص 70 .

وليتهم واروه بين جوانحي على فيض دمعي واختدام لظي صدري

4 - ومن ملامح تطور الشعر وازدهاره كذلك في هذا العهد ظهور شعر المعارضة السياسية والفكرية او شعر المواقف المتضادة ، ويتمثل في اربع واجهات :

الاولى ضد الطوائف ، عند ابي الحسن بن الجدد وعبد الجبار صاحب الارجوزة وابن سارة وابي بكر بن الروح الاشبيلي . يقول عبد الجبار في ارجوزته (20) عن امراء الطوائف :

فاهملوا البلاد والعبيادا	وعطلوا الثغور والجهادا
واشتغلت اذهانهم بالخمير	وبالآغاني وسماع الزمير
وزادهم في الجهل والخذلان	ان ظاهروا عصابة الصليان
فاستولت الروم على البلاد	واستعبدوا حرائر العباد

الثانية ضد المرابطين ، على يد جماعة من الناقمين ، في طليعتهم الشاعر الهجاء ابو بكر اليكي الذي نورد من اهاجيه هذه الايات (21) :

ان المرابط لا يكون مرابطا	حتى تراه اذا تراه جانبنا
تجلو الرعية من مخافة جوره	لجلائه اذ يلتقى الاقرانا
ان تظلمونا نتنصف لنفوسنا	يجني الرجال فناخذ النسوانا

مع انه هو القاتل مادحا لهم (22) :

قوم لهم شرف العلا من حمير	واذا انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا احراز كل فضيلة	غلب الحياء عليهم فتلثموا

(20) الذخيرة ق 1 المجلد 2 ص 430 .

(21) المغرب لابن سعيد ج 2 ص 268 (ط . دار المعارف) .

(22) نفس المصدر .

الثالثة ضد الفقهاء ، وترعما شعراء كابن البتي او ابن البني الذي
يقول فيهم (23) :

اهل الرياء لبستم ناموسكم كالنئب ادلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمنهب مالكم وقسمتم الاموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب باشهب وباصبغ صبغت لكم في العالم

حتى بعض الذين كانوا مع المرابطين ، كانوا يقفون ضد الفقهاء ،
باعتبارهم طبقة حاكمة كابن خفاجة الذي يقول :

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدور مراتب ومجالس

الرابعة واجهة التعاطف مع المعتمد ، وتتضح في شعره وهو معروف،
وكذلك شعر الذين كانوا يزورونه في اغصات ، والذين رثوه ، كابن اللبانة
وابن عبد الصمد . ويكفي ان نشير منه الى قصيدة ابن اللبانة التي يقول
فيها مخاطبا ابن عباد (24) :

رويدك سوف توسعني سرورا اذا عاد ارتقاؤك للسريـر
وسوف تحطني رتب المعالي غداة تحل في تلك القصور

كما نشير الى مريثة ابن عبد الصمد في المعتمد ، والتي يقول في
مطلعها (25) :

ملك الملوك اسامع فانادي ام قد عدتكم عن السماع عوادي

ولا شك ان وجود مثل هذه الاشعار دليل على ان حرية التعبير كانت
متوافرة في هذا العهد ، ودليل كذلك على ان اصوات شعراء المعارضة

(23) المعجب ص 171 (ط . الاستقامة) .

(24) المعجب ص 157 .

(25) القلائد ص 31 (ط . الاولى مصر ، 1320) .

كانت مسموعة سواء في المغرب او الاندلس ، لا سيما وان بعض هؤلاء الشعراء كانوا يزورون المعتمد في اغمات ويطلقون السنتهم للقول دون رقيب .

ولم يكن الشعر وحده الذي ناله التطور في عهد المرابطين ، ولكن النثر ايضا نال حظه منه . ويكفينا لاثبات هذه الحقيقة ان نبرز الملامح الآتية :

1 - الكتابات المتعلقة بالجانب النبوي كالسيرة وغيرها ، على حد ما الف ابن أبي الخصال في رسالته « ظل الغمامة وطوق الحمامة » .

2 - أدب المذكرات او السيرة الذاتية ككتاب « التبيان » لعبد الله ابن بلكين .

3 - النثر الادبي التاليفي ، وبرز فيه ابن بسام في « الذخيرة » وابن خاقان في « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » .

4 - النثر الديواني ، وفيه نذكر انه اجتمع ليوسف بن تاشفين « من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار » (26) ومنهم عبد الرحمن بن اسباط ومحمد بن عبد الغفور وعبد المجيد بن عبدون وابو بكر بن القصيرة .

كما نذكر بالنسبة لعلي بن يوسف انه لم يزل « يستدعي اعيان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك » (27) . وعنه يقول ابن البار في معجمه لدى ترجمة ابراهيم بن يوسف ، انه « في دولة اخيه نفقت العلوم والآداب وكثر النبهاء وخصوصا الكتاب » (28) . ومن كتابه عبد الله بن أبي الخصال واخوه ابو

(26) المعجب ص 164 .

(27) نفس المصدر ص 173 .

(28) ص 55 .

مزوان وابو القاسم بن الجد المعروف بابن الاحدب وابو بكر بن محمد
المعروف بابن القبطرنة .

5 - استمرار فنون نثرية أخرى كالرسائل الهزلية المعروفة
بالزوريات وكان ابدعها ابو الحسن بن سراج وكذلك ابن الجد وابن ابي
الخصال . ومثلها المقامات التي انشاها ابن خاقان وابن خفاجة وابن ابي
الخصال والسرقسطي .

وبعد ، فانه واضح من هذا العرض ان الادب الاندلسي لم يمت في
عهد المرابطين على حد ما ظن كثيرون ، كما انه واضح ان هذا الادب لم
يظل محافظا عليه كما كان من قبل فقط ، ولكنه استمر حيا ومتطورا على
نحو ما راينا ، و متميزا بعلامح نستطيع تلخيصها بالنسبة للشعر في انه كان
يتسم بالجزالة والفخامة ، سواء في الفاظه او موسيقاه ، دون اغفال
المضامين اتي كان عمقها يزيد عما كان ، ودون اغفال الجانب التجديدي
التمثل في الموشحات والازجال .

اما النثر فكان يعتمد الأسجاع وجميع تقنيات الصنعة البديعة ،
وخاصة عند كتاب الرسائل الديوانية ، وان ظهر ميل للبساطة عند آخرين
كما في كتاب « التبيان » .

واذا كنا قد اكتفينا في هذا البحث بتناول جانب واحد متمثل في
الشعر والنثر الفني ، فلان هذا الجانب كان يشكل الواجهة التي تعرضت
اكثر من غيرها للطعن . وتبقى مع ذلك جوانب أخرى تعرضنا لبعضها في
السابق (29) ، وقد نتعرض لغيرها فيما بعد ؛ واعني بها مجال الادب
المغربي الذي شهد في هذا العهد انطلاقة كان في طبيعتها علماء وادباء كابن
حبوس وابن زنباع والقاضي عياض ؛ وكذلك مجالات الادب الأخرى في
الاندلس ، والعقلية منها خاصة ، وهي بدورها كانت مشارطمن في

(29) انظر كتابنا : « الادب المغربي من خلال ظواهره وفصاياه » ج 1 فصل « التيار الفقهي
المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والادب » وفصل « قضية المعتمد بن هباد » .

المرابطين ، انطلاقا من اتجاههم الفقهي . ويكفي ان نمثل لازدهارها بالحركة العلمية المتنوعة في هذا العصر ، والتي برزت في بعض جوانبها اسماء كابن باجة وابن زهر وابن وهيب ، فضلا عن سيظهر في عهد الموحدين من فلاسفة وعلماء .

اننا لا شك ملزمون بان نقوم بدراسات علمية جديدة نعيد النظر بها في كل الاحكام الصادرة عن المواقف غير الموضوعية التي قد تتخذ ابعادا

خطيرة كالموقف الذي اتخذه كومت ضد المرابطين ووسعه فاصبح موقفا ضد المغرب او افريقيا ، اذ ربط بينه وبين تخريب الزهراء على يد البربر؛ في حين ان الوجود المغربي - بشريا وعمليا وبالتالي حضاريا وثقافيا - كان ابدا قائما في الاندلس ، ومنذ الفتح الذي تم على كاهل المغاربة .

ومن ثم ينبغي ان يغير الدارسون - والاسبان منهم خاصة - نظرتهم الى الاندلس ، وان يكون منطلق نظرتهم الجديدة بعيدا عن اي تعصب كيفما كان ، وبعيدا عن اي مركب مهما كان ، وان يعتبروا الاندلس قطعة من التاريخ المشترك بينهم وبيننا نحن المغاربة ، وجزءا غنيا من تراثنا صنعناه جميعا ، في امتداد لدولة العروبة والاسلام ، وانطلاقا مما اشعت به من حضارة وثقافة . ولعل هذا ما حاولت ابراز بعض جوانبه في هذا العرض المحدود .

الرباط

د. عباس الجراري

الألفاظ المغربية العامية التي لها أصل في الفصح

محمّد الفاي

ان دراسة اللهجات العربية العامية والبحث عن اصولها واشتقاقاتها وتطور معانيها واستعمالاتها من البحوث التي تساعد على تفهم عقليات المتكلمين بهذه اللهجات ومظاهر حضارتهم وعواثمهم وكثير من احوالهم ، ولا شك ان المفردات المستعملة في هذه اللهجات تكاد تكون كلها عربية الاصل ، وما دخلها من الالفاظ الاعجمية اقل من القليل ولا اعني بهذا ما تعبر عنه بالدخيل فذلك وقع قبل الاسلام في اكثره وتضمنه المعاجم العربية بل ورد حتى في القرآن الكريم ويعتبر في الاستعمال عربيا ولا يحس المتكلم العربي انه عندما يقول ياسمين وقانون وقسطاس ونحوها انه يستعمل كلمات غير عربية : وهناك بالعكس من هذا مفردات عربية فصيحة تنص عليها المعاجم ولكنها قليلة الاستعمال تحت اقلام الكتاب في هذا القطر او ذاك حتى صارت تظهر وكأنها غير عربية ويتحاشى المعاصرون من استعمالها في كتاباتهم . وهذه هي الالفاظ التي عني بها في عنوان هذا البحث . وهذا يوجد في كل اللهجات الا ان هذه الالفاظ تختلف من لهجة الى لهجة فمثلا عندما يقول المغربي زربية لما يقال له بمصر سجاد يحس انه يستعمل كلمة عربية فصيحة قرآنية ولكنه عندما يقول مسوس للشيء

لا مذاق له لا يحس أن هذه اللفظة فصيحة وهي غير مشددة ومعناها
« لا عذب ولا ملح » وكذلك خابية لآناء كبير يحفظ فيه الماء والزيت
والعسل والسمن ونحوها . وهذه هي الألفاظ التي جمعت منها قائمة أولى
اعرضها عليكم ولعل بعضها مستعمل كلفظ عربي فصيح في لهجات عربية
أخرى ولكن ما تحتوي عليه هذه القائمة لا يعلم عندنا أنها ألفاظ فصيحة إلا
القليل .

والأصول الفصيحة لهذه الألفاظ تكون أما بدون أي تغيير ولا يعطيها
صفة العامية إلا كونها لا يستعملها الكتاب ويعبرون عن معناها بمرادف نحو
ثمر المال ويقولون نماه وتهكم ويقولون استهزا وأما بتبديل بعض الحروف
بالقلب أو جعل حرف قريب في النطق عوض الحرف الأصلي وهكذا نحو
الحدية للحدا والديزة للجزيرة والشاطور للساطور .

هذا من حيث المبنى وأما من حيث المعنى فأحيانا تدل اللفظة العامية
على معنى قريب أو ملازم أو مشتق من اللفظة الفصيحة ويكون ذلك على
طريق المجاز نحو وحل حصل في الوحل أما في العامية المفريية فمعناه
حصل في مفضلة يصعب الخروج منها . أو على طريق التخصيص نحو
القة وهو ما يحصل من كراء دار أو فائدة أرض أو نحوهما ، أما في اللهجة
المفريية فمعناها ما تغله الفواكه خاصة حتى صارت القة معناها الفاكهة
وهناك طرائق أخرى في أخذ الكلمات العامية من العربية الفصحى ونشاهد
ذلك في كل اللهجات العربية حتى أن نفس اللفظة يكون لها معنى في الفصح
ومعان أخرى في مختلف اللهجات العربية . فمثلا في اللهجة العامية
المصرية على أنزل الحمل عن ظهر الدابة وفي العامية المفريية على معناها
رمى وخبل في العامية المصرية جنن وفي العامية المفريية خبل الخيوط
جعلها مرتبكة وهكذا .

ولا بد أن لاحظ قبل الشروع في ذكر هذه النماذج من الألفاظ
المفريية العامية التي لها أصل في الفصح أنني أعني باللة العامية اللة
التي يستعملها ويتخاطب بها كافة الناس ويعبر عنها أحيانا بالدارجة وهو

خطا اذ لفظة دارجة هي نفسها عامية فلم يرد في كلام الفصحاء الا لغة عامية
لما هو غير فصيح .

واني اذكر الكلمة المفريية واردفها بتعريف معناها في العربية
الفصحى بدون تعليق لانهما متحدان او اذكر معناها في اللهة المفريية
واردفعه بالمعنى فى الفصحى خصوصا اذا كان هناك نوع تغيير فى اللفظ او
فى المعنى .

ويتعين كذلك ان اذكر لكم بعض خصائص اللغة العامية المفريية .

واول ذلك ان الالفاظ المفريية تبتدىء دائما بساكن الا اذا كانت
الحركة ممدودة او كان الحرف الاول احيانا حرف حلق فنقول كتاب ولحم
وعرف وفهم ولكن نقول فى حالة المد راس وبیت ولون كما نقول عربي
وحولي . واحيانا يجعل السكون على الحرف الثاني نحو الكلمة والبقرة
والابتداء بالسكون لغة نجدية وليست كما يتوهم تأثيرا بربريا لان اللغة
الامزيقية لا تبتدىء بساكن بل وتزيد حركة همزة مفتوحة فى الغالب اذا
اقتبست كلمة من العربية او من لغة اخرى فيقال للعربي مثلا اعربي
وللاجنبى ارومى .

والخاصية الثانية فى العامية المفريية ان القاف ينطق معقودا فى
الكلمات التى تتعلق بحياة البادية فنقول قصعة لما يعجن فيه الخبز والقلة
لجرة الماء كما تنطق القاف معقودة غالبا فى الكلمات التى تترن فيها القاف
براء فنقول قمره للقمر وبقرة للبقرة وقربة للقربة .

ومن خصائص اللغة العامية ان مجموعة من الالفاظ لا يستعمل الا
جمعها باعتباره مفردا وتجمعها على صيغة جمع الجمع او صيغة منتهى
الجمع فنقول رياض للروض والجمع رياضات وافات لالة وجمعه افاتات
ومصران لمصير وجمعه مصارن وقبور لقبر وجمعه مقابر . ونيب لناب
وجمعه انياب ، وجنان لجنة اي بستان وجمعه جنانات . واحواض لحوض

وجمعه احواضات . واقلام لقلم وجمعه قلومة . واعلام لعلم وجمعه علومة .
ومن هذه الخصائص اننا ننطق الجيم كالجيم القاهرية اذا اقترنت فى كلمة
مع احد هذه الحروف السين والشين والزاي والصاد فنقول الجـزار
للجزار لوجود الزاي والجص لوجود الصاد . واحيانا تصير الجيم فى هذه
الحالات دالا فنقول داز لجاز والديزة للشاطيء الاخر اى الجيزة ومنها ان
العامية المغربية تستعمل كثيرا المضعف عوض الثلاثي فنقول مثلا حبك
وشلخ وسيط عوض حبك وشلخ وشاط . كما تستعمل التشديد فى كثير
من الكلمات مثل الدخان والفم واليد والدم . ومنها قلب الصاد طاء مثل
مطربة .

واليكم الآن نماذج من هذه الالفاظ العامية التي يتخاطب بها الناس
جميعا ويتحاشى عن استعمالها الكتاب .

الالف

- 1 - ابزيم : ما يشد به الحزام .
- 2 - الباسل : وهو الثقل الكريه مطلقا وفى الفصيح الباسل من القول
الكريه الشديد . والبسل الرجل الكريه المنظر .
- 3 - الأبهة : العظمة والنخوة . وعندنا يقال لشخص تظهر عليه
مخايل الوقار وهو فى زي فاخر وله بسطة فى الجسم
والهينة .
- 4 - اخ : القنر - وبالمغرب كلمة تكره واستقذار خصوصا فى
الروائح الكريهة .
- 5 - اذن : العروة لكل شيء .
- 6 - الاروي : الوعل .

الباء

- 1 - بآبته : اي كان يلزمه ان يفعل كذا وهي من الفصيح بآبته شرطه
- 2 - البخفق : خرقه تتقنع بها الجارية .
- 3 - بسرق : بصفق .
- 4 - البعلبي : من البعل كل محل وشجر وزرع لا يسقى .
- 5 - البور : من البور الارض قبل ان تصلح للزرع .

التاء

- 1 - التب : مكنسة عندما تنقص بالاستعمال وهي صغيرة حقيرة تستعمل بالخصوص في المراحيض من الفصيح التب النقص والخسار .
- 2 - التبان : ما يجعله الحصاد على صدره ليتقي مس المنجل وفي الفصيح سراويل صغير يستر العورة .
- 3 - تكة : ما يربط به السراويل .
- 4 - تلوع : انتشر ونهب على غير هدى كماء السيل في الفصيح يتلع اي يسيل من فوهة الوادي .
- 5 - تفل : بصفق .

الثاء

- 1 - ثمر المال : نماء وكثره .
- 2 - الثفل : ما استقر في قعر كلس ونحوه من كدرة وبقايا نبات او ما شابهه .

3 - ثقت النار بالقاف المعقدة التي يكون اصلها عادة لغة بدوية . وهي بالفصح ثقت ثقبوا اي اتقت .

4 - الثوللة : بثر صغير صلب مستدير هو التؤلول فى الفصح .

الجيم

1 - الجايحة : الجائحة اي ما يجتاح الشيء ويستأصله يقلل : ضربته جايحة .

2 - الجائزة : هي الجائر فى الفصحى وهي واحد الاخشاب المعترضة بين حائطين لحمل السقف . والجيم معقودة لوجود الزاي .

3 - الجيج : خلية المسـل .

4 - جبذ : جذب ولا تستعمل فى اللهجة المغربية الا جبذ .

5 - جبر فلان ما فقد : اي وجده .

6 - الجبص : الجبس مادة تخلط بالماء وتطلى بها الحيطان والسقوف والجيم معقودة لانها فى كلمة فيها صاد .

7 - الجبيرة : ما يلصق على العظام المكسورة لجبرها من عيدان وجبس ونحو ذلك .

8 - الجحش : ولد الحمار ومنهم من يقول الدحش .

9 - الجزة : ما جز من صوف نعجة . والجيم معقودة لوجود الزاي كما قدمنا .

10 - الجمار : شحم النخلة او الرطب من عسفا وعسف الدوم الذي هو نوع نخيل لا ساق له ولا يطول .

11 - الجنازة : مراسم دفن الميت والميت نفسه .

12 - الجص : الجص وعقدت الجيم لوجود الصاد . والجص الحجارة ونحوها التي تدرك فتلمس فى ارض المنازل .

- 13 - الجعبة : كل عود افرغ داخله واتخذ لمادة مسحوقة كالبارود ونحوه وكل قصبة كذلك . ومنه جعبة البندقية .
- 14 - المجر : ما يجعل فيه الجمر لتسخين الماء ونحوه او للبخور او لشوي اللحم . ونقول مجمار .
- 15 - الجونة : سلية يجعل فيها العطار الطيب . وفي المغرب سلة يجعل فيها الخبز بالمنازل .
- 16 - الجيفة : جسد كل حيوان بعد موته وهو ملقى حتى ينتن وتقال مجازاً لجسد الانسان اذا اريد سبه لما كان عليه من الظلم والاخلاق الفاسدة .

الحاء

- 1 - حافاه : نازعه ، وفي اللهجة المغربية عاتبه وأخله .
- 2 - الحافة : جانب الوادي . وفي اللهجة المغربية كل محل منحدر .
- 3 - حبك : نسج الثوب . وبالمغرب بالخصوص نسيج من حرير ليس بعريض يجعل في رقبة القميص .
- 4 - حبلت المرأة فهي حبلى : حملت فهي حامل .
- 5 - الحبس : يجمع على احباس : وهو كل شيء وقفه صاحبه من عقار ونخل ونحوهما .
- 6 - الحدية : الحداة طائر من الجوارح .
- 7 - حرن : يقال للدابة اذا امتنعت من السير .
- 8 - الحروشة : الحرشة . والاحرش ضد الامس .
- 9 - الحكة : من انواع الجرب .

- 10 - الحنبل : القصير . وفي اللهجة المغربية الزربية القصيرة خاصة
- 11 - الحفار : من يحفر القبر خاصة في الفصحى وفي اللهجة المغربية .
- 12 - الحفنة : ملء الكفين من كل شيء .
- 13 - الحس : الحركة ، تقول قطع الحس اي سكن ولا يتحرك .
- 14 - الحسيفة : الحقد والعداوة . وفي اللهجة المغربية بالخصوص ما يضمه الشخص لعدو للانتقام منه .
- 15 - الحوت : السمك مطلقا كما ورد في القرآن الكريم وخلافا لما في المعجم الوسيط من انه السمك الكبير .
- 16 - الحولي : ما اتي عليه حول من ذي حافر وغيره . وفي اللهجة المغربية الكبش مطلقا .

الخاء

- 1 - الخاية : الجرة الكبيرة لحفظ الماء وكل السوائل .
- 2 - الخادم : الامة هكذا في الفصحى وفي اللهجة المغربية .
- 3 - خبع : خبا ولا يقال عندنا الا خبع وما اشتق منه مثل تخبيع اختفى .
- 4 - الخرج : وعاء من جلد يجعل فيه المسافر شؤونه .
- 5 - الخرص : حلقة القرط . وفي اللهجة المغربية بتاء التانيث خرصة وتقال ايضا للطقاة الحديدية التي تجعل على الابواب للنقر بها .
- 6 - خزر : نظر بلحظ العين . وفي اللهجة المغربية شدد النظر وهو يخرج عينيه ويلج .

- 7 - خمج اللحم : فسد . وعندنا لا تستعمل إلا للفواكه والخضر .
- 8 - خنز اللحم : انتــــــن .
- 9 - الخصلة : الخصلة جميلة كانت او سيئة . وفي العامية لا يقال إلا للسيئة .
- 10 - الخشخشة : صوت كل شيء يابس اذا حك بعضه ببعض .
- 11 - خيش : ثوب تستعمل في نسجه خيوط غليظة ويستعمل لاتخاذ اوعية تنقل فيها بعض المواد .

الــــــدال

- 1 - الدبرة : فرحة الدابة وهي مسكنة الباء في اللهجة المغربية .
- 2 - ابودحاس : هو الداخوس : فرحة بين الظفر واللحم .
- 3 - الدخان : الدخان ولا يستعمل في اللهجة المغربية الا المشدد الخاء وكلاهما فصيح .
- 4 - الدراعة : لباس من صوف ونحوه يسبل على الصدر .
- 5 - الدربة : القدرة على العمل يقال هذه المرأة ما عندها دربة .
- 6 - الدرد : الدردى وهو ما يرسب في الاسفل عند طحن الزيتون
- 7 - درس الحنطة ونحوها : ازال الحب من السنابل بجمل الدواب تدوسها .
- 8 - دلقمه : ضربه على اسنانه ولعلها من دلقم وهي الناقة المتكسرة الاسنان .
- 9 - الدم بتشديد الميم : لفة في الدم ولا يقال في المغرب الا مشددا .

- 10 - الدننة : صوت الذباب والزنابير ، ولا تقال بالمغرب إلا لاصوات الموسيقى الخفيفة وتطلق على الموسيقى عموما .
- 11 - دقمه : ضربه على اسنانه .
- 12 - الدهس : المكان السهل ليس برمل ولا تراب .
- 13 - الدوارة : الحوايا .
- 14 - دود بتشديد الواو : صار فيه الدود .
- 15 - الدسارة : الجسارة اي قلة الحياء والاجترار : دال اصله جيم قلبت الجيم دالا لوجود السين .
- 16 - الدشيشة : الجشيشة والدشيشة فصيحة ايضا ولا تقال في المغرب الا بالدال : بر مدقوق مطبوخ .
- 17 - الديزة : الجيزة وهي ناحية النهر او الطريق التي يجاز اليها .

الدال

- 1 - ذرى الحنطة : نقاها من التبن بعد النرس بتعرضها للريح فيذهب التبن جانبا ويسقط الحب في الارض .
- 2 - مندود : مختلف الدواب .

الراء

- 1 - الرب : ختارة ثمرة بعد اعتصارها . لا يقال في المغرب الا لختارة العنب الغير المختمر .
- 2 - ربوع : من تربيع جلس طاويا رجليه .
- 3 - المربوع : ربعة القد .

- 4 - الرتوت : الرجال العظام . لا يستعمل مفردة . من الفصيح الرت
السيد والرئيس ، الجمع رتوت . قال يموت بن المزرع
العبيدي :
- وجاريت الرجال بكل ربع * فاذعن لي الحثالة والرتوت
(معجم الادباء ج 20 ص 58) .
- 5 - السرزة : حديدة يدخل فيها القفل .
- 6 - رزح : سقط أعياء .
- 7 - رزم بتشديد الزاي : جمع في ثوب واحد .
- 8 - الرزمة : ما شد في ثوب واحد .
- 9 - الركمل : الضرب بالرجل .
- 10 - الرغبة : زينة اللبن وتستعمل لكل ما يعلو الماء كرهوة الصابون
- 11 - رفى الثوب : رقعته بزيادة قطعة في كل الخرق .
- 12 - رفرق : تـ____لالا .

الزای

- 1 - الزاوق : هو الزاوق أي الزئبق ولا يقال الا الزاوق بالمغرب .
- 2 - الزبيبة : الحفرة ، ولا تقال في العامية المغربية الا لحفرة تشتعل فيها نار حامية وربما اطلقت على النار نفسها وهي تنطق زوبيبة .
- 3 - الزربية : التمرق والبساط . وهو ما يسمى بالعامية المصرية السجّاد .
- 4 - زرف في الكلام وغيره : بالغ وتجاوز الحد .
- 5 - الزريعة : البذور .

- 6 - الزلافة : من الزلفة اي الصفحة من انواع الصحون الصغيرة .
- 7 - تزلع : تشقق وتكسر . وفي اللهجة المغربية : تشتت وتفرق وهي نتيجة التكسر .
- 8 - الزنبيل : الفريدة الكبيرة .
- 9 - الزقاق : الطريق وبقيت فقط في اعلام الطرق بفاس مثل زقاق البغل وزقاق الرمان ، ويقال للشارع في المدينة الزنقة .
- 10 - الزقية : الزقية وهي الطيحة ، وقافها معقود . يقال موعنا زقية مؤذن العصر .
- 11 - الزوان : الزوان والزوان حب دقيق يخالط القمح ولا يقال عندنا بالهمز .

الطــــــــــــــــاء

- 1 - الطابق : نصيف الشاة .
- 2 - طاح : سقط .
- 3 - الطاس : الطس او الطست وهو اناء تفسل فيه الايدي عند الطعام وبعبارة .
- 4 - الطجين : هو الطاجن بالفصحى وهو ما يقدم فيه الطعام المطبوخ من لحم ودجاج ونحوهما عند المفاربة .
- 5 - الطروشة : من الطرش اي اهون الطرش . وفي اللهجة المغربية الصم مطلقا ويقال للاصم اطرش .
- 6 - الطنز : السخرية والاستهزاء .
- 7 - الطوال : الطول وهو الحبيل .
- 8 - الطيرة : ما يتشاءم منه .

الظـاء

- 1 - الظهير : المعين وهو فى الاصطلاح لمفريي المرسوم الصادر عن الملك ليستظهر به .

الكـاف

- 1 - الكباب : اللحم المقطوع قطعاً صغيرة .
- 2 - الكحط : لفة فى القحط اى الجذب وانعدام كل الماكولات .
- 3 - تكرس : انقبض واجتمع . وفى اللهجة المفريية ثم انقلب على ظهره .
- 4 - المكرش : الحرير المتقبض الغير السبط من تكرش تقبض .
- 5 - الكسرة : الأتعة من الشيء فى اللهجة المفريية خاصة بقطعة من الخبز .
- 6 - كشط : بدل ثيابا بالية بملابس جديدة وتزين ، جاءت من كشط : رفع الشيء عن الشيء قد غشاه .
- 7 - كسطه : تعرض له فى الطريق وأخذ له كل ملابسه وهو من فعل قطاع الطريق ، الاشتقاق كسابقه ، الا ان هذا متعدد والاول لازم .
- 8 - الكير : زق ينفخ فيه الحداد وهو فى اللهجة المفريية عام يطلق على الكير المنزلي الذي يخرج منه الريح باليد لا بالنفخ لاتقاء النار وعلى كير الحداد الكبير .

الـلام

- 1 - اللبا : هو اللبا اول اللبن .

- 2 - اللبنة : المنحر . وفي اللهجة المغربية تطلق على الجواهر التي ترسل على لبة العروس .
- 3 - اللبدة : قطعة من الصوف المتلبد تصلح كسجادة يصلي عليها .
- 4 - اللبوة : اللبـــــوة .
- 5 - لحم : لحم اي لاءم اجزاء من حديد او فضة او نحوهما .
- 6 - لقف : لقف اي تناول الشيء بسرعة قبل ان يسقط الى الارض
- 7 - اللقوة : داء عصبي يعتري الانسان في وجهه فيعوجه .
- 8 - لهت : اخرج لسانه من العطش او من التعب مع انين .
- 9 - الليقة : صوفة تجعل في قعر الدواة لتلافي تكسر القلم من الفعل لاق الدواة اصلح مدادها .

الميم

- 1 - محفة : مركب للنساء : وفي اللهجة المغربية ما تحمل عليه المرأة وغيرها كالشيخ الهرم ، ولم يبق اليوم للمحفة وجود .
- 2 - محقن : اداة الحظن . وفي اللهجة المغربية هي الاداة التي يفرغ بواسطتها كل سائل في اناء ضيق الفم . وقافها معقود بدويـــــة .
- 3 - مخردل : مصروع . وفي اللهجة المغربية ناقص العقل .
- 4 - مخط : رمى المخاط وهو ما يسيل من الأنف .
- 5 - الملاغة : المزاح من المماثلة : الممازحة .
- 6 - تململ : تقلـــــب .
- 7 - مغط : مغط اي مد الشيء وبسطه - وتمغط : امتد .

- 8 - المقلاع : ما يرمى به الحجر .
- 9 - المسن : كل ما يسن عليه أي ما يحد عليه سكين وموسى ونحوهما .
- 10 - مسوس : لا مذاق له من مسوس : لا عذب وملح .
- 11 - مشتى : قرية في الجبل والاصل محل السكنى أيام الشتاء .
- 12 - مشطة الرجل : من المشط وهو سلاميات ظهر القدم .
- 13 - الميجم : هو الميخن : ما تدق به اوتاد الخيمة .
- 14 - الميضا : هي الميضاة ونقول لها أيضا المطاهر وهي المطهرة في الفصيح .

النون

- 1 - الناض : المال المتمثل في الدراهم المعدنية او الورقية .
- 2 - نثر : جذب بقوة .
- 3 - النجم : ما نبت من غير ساق .
- 4 - تنخم : دفع بشيء من صدره .
- 5 - نده : ساق الحيوانات خصوصا دواب الركوب .
- 6 - النزلة : الزكام .
- 7 - تملت اليد وغيرها من اعضاء الانسان : خدرت .
- 8 - النصل : حديدة السيف ونحوه .
- 9 - نغمس : نام والتعاس النوم .
- 10 - نسل : الخيوط نسلها أي اخرج كل خيط على حدة .
- 11 - نهج : تتابع نفسه من جري او كل اعياء .

الصاد

- 1 - صاب : أصاب أي وجد .
- 2 - الصابة : من السباط : سقفة بين بناوين وتحتها طريق .
- 3 - الصرة : الكيس .
- 4 - الصنان : رائحة كريهة من الابط عند بعض الناس .
- 5 - الصفارة : آلة يصفر فيها الاطفال .

الضاد

- 1 - الضنايا : النسل والاولاد من الضنا : كثرة النسل .
- 2 - المضممة : ما يضم به وهي الحزام .

العين

- 1 - العاتق : الجارية عندما تدرك .
- 2 - العتلة : آلة ضخمة يحفر بها ويهدم بها البناء وهي في اللهجة المغربية مسكنة التاء .
- 3 - العثنون : أسفل الوجه .
- 4 - العربون : ما يطي للبائع قبل دفع الثمن كاملا حتى يحفظ المبيع لصاحب العربون .
- 5 - العرصة : البقعة الواسعة بين الدور ولا بناء فيها وبالعكس في اللهجة المغربية هي البستان الكبير الفسيح الذي فيه بناء . والذي لا بناء فيه يسمى « جنان » والدار المبنية التي فيها بعض الاشجار والازهار يقال لها « رياض »

والجنان جمع جنة والرياض جمع روض ولكنهما من
الالفاظ التي ترد في صيغة الجمع بمعنى المفرد وهي
ظاهرة لغوية شائعة في المغرب كما قدمنا .

6 - المنبـوب : من الانبـوب قلبت همزته عينا وهو بالخصوص الجعبة
التي يخرج منها الماء .

7 - عـسـري : هو الذي يستعمل يده اليسرى عوض اليمنى وهو
الاعسر بالفصحى ولا يقال الا عـسـري في اللهجة
المفريية .

8 - عـسـس : حرس بالليل . وفي اللهجة المفريية العسة هم حراس
الأحياء في المدن بالليل والنهار والواحد عساس .

9 - العسلـوج : مالان من النباتات .

10 - العـمـباش : العمش اي ما يسيل من العين ويتجمد لمرض او بعد
النـوم .

11 - عنتت : تكبر واظهر الألباء والعناد .

12 - عـيـط : صاح . وفي اللهجة المفريية ايضا نادى عليه : عيـط
عليه نادى عليه وطلبه . وفي اللهجة المصرية بكى .

الغـيـن

1 - غـبـر : مكث وذهب : ضد . اما في اللهجة المفريية فمعناه
ذهب وغاب مدة طويلة رجع بعد ذلك ام لم يرجع .

2 - غـبـرة : الغبار وكل مادة مسحوقة .

3 - غـمـرم : ادى ما يلزم ادائه . في اللهجة المفريية خاص باداء
ثمن ما افسده .

- 4 - الفلاق : هو الفلق ما يفلق به باب الدكان او نحوه .
5 - الفلة : ما يفله كراء دار وفائدة ارض وما شابه ذلك . وفي اللهجة المغربية خاصة ما تفله الثمار حتى ان الفلة اذا اطلقت يراد بها الفواكه .

الفـاء

- 1 - فـم : فـم جمعه افـمام وكلاهما فصيح .
2 - الفواد : من الفؤاد وهو الكبد والرئة والقلب مجموعة .
3 - الفتيلة : اللبالة .
4 - الفرخ : ولد الطائر وبالمغرب خاص بالحمام ، يقال صحن من الفراخ اي الحمام .
5 - فرز : عزـل شيئاً من شيء .
6 - تفرقع : فرقع الاصابع فتفرقمت اي فرقها فتخرج صوتا خاصا . اما بالمغرب فمعناه انفجر .
7 - الفريك : المفـرولـك من الحـب .
8 - فطير : من فطر المعجن اي اختبزه من ساعته ولم يخمره . وفي اللهجة المغربية خبز فطير اي لم يعجن بالقدر الكافي من الخميرة .

القـاف

- 1 - القانصة : هنة عند الطيور وهي تحت الحوصلة وتجتمع فيها ما يلتقطه الطير من حجيرات ونحوها .
2 - القايلة : الشمس في نصف النهار وهي بقاف معقودة .

- 3 - القبقاب : النمل من خشب .
- 4 - القد : قامصة الانسان .
- 5 - القديد : اللحم المشطر وهو فى اللهجة المغربية مشدد الدال الاولى .
- 6 - القرص : اخذك لحم الانسان باصبعيك حتى تؤلمه .
- 7 - القرصة : الخبزة - وتستعمل بالاخص مصفرة كخبيزة .
- 8 - التقريص : تبسيط العجين لتتخذ منه قرص .
- 9 - القرمود : نوع آجر من خزف اخضر فى الغالب يجعل فوق القباب . من القرمود الخزف المطبوخ والآجر .
- 10 - القرن : النؤابة . وهو خصلة شعر لا تطق من الراس وتكون فى جانب الراس واذا كانتا اثنتين يقال لهما القرون واذا كانت فى وسط مؤخر الراس يقال لها قطاية والكل بالقاف المعقودة .
- 11 - القلثة بقاف معقودة : المحل العميق من النهر والبحيرة ونحوهما من القلت الحفرة فى الصخر يستنقع فيها الماء .
- 12 - القلثة : الجرة . وتكون للزيت واذا كانت للماء عند اهل البادية فهي بالقاف المعقودة .
- 13 - قلقل الشيء فتقلقل : حركه فتحركه .
- 14 - القمرية : بالقاف المعقودة هي القمرية اي الحمامة .
- 15 - القصصة : شعر الناصية - وهي بالقاف المعقودة .
- 16 - القصصة : الصيحة وهذه اللفظة مستعملة كذلك .
- 17 - القطنية : الحبوب من عدس وفول وحمص ونحوها .
- 18 - قفقف : ارتعد من البرد .

السين

- 1 - السارية : العمود .
- 2 - السانية : البستان به بئر يجلب منه الماء بواسطة ناعورة تديرها دابة ، وفي الفصحح السانية هي الناقة التي يسقى عليها
- 3 - الساقية : جدول يتفرع عن عين أو نهر أو نحوهما ويمر في البساتين لسقيها .
- 4 - السبيب : شعر ذنب الفرس .
- 5 - سرط : ابتلع بنهم .
- 6 - اتسلت : انسلت أي أنسل من غير أن يعلم به .
- 7 - سمع له بتشديد الميم : من التسميع أي التشنيع .
- 8 - السفيفة : نسيجة ضيقة من حرير أو قطن أو نحوهما تزين بها الملابس .
- 9 - السير : ما يقعد من الجلد .
- 10 - الشاطور : هو الساطور أي ما يقطع به .

الشيء

- 1 - شرم : شق .
- 2 - شرق : شرق بريقه ، تقال بالقاف المعقودة .
- 3 - الشط : الطويل . والشطاط الطول وحسن القوام .
- 4 - شظية : كل فلقة من شيء ويستعمل الجمع شظايا مفردا بمعنى الشيء البالي الذي لا يصلح .

- 5 - شلخ : شلخ اي قطع اطرافا من الخشب ونحوه .
- 6 - التشليل : الشل وهي الخياطة الاولى .
- 7 - الشملة : طرف الكساء .
- 8 - الشقة : القطعة من الثوب .
- 9 - الشقف : الخزف المكسر .
- 10 - الشوال : اللب من قولهم شالت الناقة بذنبها رفعتة .
- 11 - شيط : شاط اي احترق .

الهـاء

- 1 - الهبرة : قطعة اللحم بدون عظم .
- 2 - تهدي : تهادي اي تمايل في مشيته وتبخر .
- 3 - هدي : سكن .
- 4 - الهراوة : العصا .
- 5 - هرس : كسر .
- 6 - الهري : الهري وهو المخزن يكون تحت الارض وفوقها .
- 7 - تهكم : استهزا .
- 8 - هيا : لبس لباسا انيقا من هياء حسن الهيئة .

الـواو

- 1 - واعسر : وعر وكلاهما فصيح ، ولا يقال بالغرب الا واعر .
- 2 - وحل : حصل في الوحل ، وتستعمل مجازا في اللهجة المفريية بمعنى الوقوع في معضلة يصعب الخروج منها

3 - ودرماله : بذره واسرف . وفي اللهجة المغربية ضيع الشيء
مطلقا .

4 - ورك : تورك اي اعتمد على وركه .

5 - الـوز : لفظة في الـوز .

6 - الـولجة : الارض تدخل في النهر من ولج دخل .

7 - الـوعي : الوعي وهو القيح .

8 - تـكى : من اتـكا (وكـا) .

9 - التـكلان : التوكل وهي فصيحة (من وكل) .

اليـاء

1 - اليـد : اليد وهي بالتشديد فصيحة .

ولم اقصد بالطبع في هذه العجالة الاستقصاء وانما هي امثلة من
كل حرف ، وانما مجموع ما جردته من المعاجم فسا صدره في كتاب ان
شاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد الفاسي

الرباط

أَصِيلَةُ عَبْدِ الشَّامِخِ

عبد الوهاب ابن منصور

يعتبر الموقع الجغرافي والوضع الطبيعي من العوامل الكبرى التي تطبع حياة الجماعات البشرية وتتحكم في تواريخ المدن والقرى التي تقيم بها ، فالشعوب التي تسكن في مناطق تسعفها الطبيعة بمناخ جميل يضمن لها العيش الرخي الرغيد ، وبجهات مطروقة تدرعها قوافل المسافرين والتجار جيئة وذهابا تشهد من الوقائع والأحداث ويزدهر فيها من الثقافات والحضارات ما يجعل تاريخها عامرا وسجل أيامها مليئا ، وعلى عكسها الشعوب التي تسكن في مناطق تقسو فيها الطبيعة وتشح وبجهات نائية منعزلة لا تجتاز بها القوافل ويقل فيها الفادي والرائح ، فهذه يكون تاريخها وتاريخ المدن والقرى التي تسكنها تافها وفي مستوى حياة الخاصة والعزلة التي تعيش فيها .

ولا شك في أن المنطقة الشمالية الغربية من المغرب ، التي تقع فيها مدينة أصيلة ، هي من المناطق ذات الطبيعة الكريمة والموقع الجغرافي الخطير ، لأنها تقع في مدخل البحر المتوسط ، سرّة الدنيا ومهد حضارتها ، وعلى ممر مائي دولي يربط بين القارات ، كما أنها تتمتع

بكل العوامل الطبيعية المساعدة التي تجعل عروق الحياة والحيوية تنبض فيها باستمرار .

ومع ان اصيلة لا تقع مباشرة على مضيق جبل طارق فان قريبا من راس اشقار - اعلا نقطة في افريقيا - ، ومجاورتها لمدينتي سبتة وطنجة جعلها تتاثر على الدوام بكل ما يقع في هاتين المدينتين وفي غيرهما من المدن والربط والحصون التي تقع في المنطقة او كانت تقع فيها ، بل ان الانظار كانت تمتد اليها مسبقا في بعض الاحيان عند وضع المشاريع التي تهم المنطقة كلها وربما المغرب جميعه كما سنرى ذلك فيما بعد .

فلا غرابة ان نرى اسم اصيلة يتردد على السنة القصاص ويثبت في سجلات الاحداث من اقدم عصور التاريخ ، مثلما يتردد ذكر طنجة وسبتة ومدن اخرى غيرهما سادت في تلك الجهة ثم بادت .

وتنص الروايات التاريخية على ان اصيلة - التي كانت تدعى زيليس - عاصرت قرطاجنة ، وامتازت في عهد الملوك الموريتانيين بسك نثود فيها مكتوبة بحروف ولغة بونية ، وانها دانت بالطاعة والولاء لبوكود فكلفها ذلك غاليا ، لان اوكتاف الروماني امر بنفي سكانها الى اسبانيا واحلال سكان آخرين من اصل روماني وايبيري معظمهم فيها ، ولكنها خولت بسبب هؤلاء الطارئین الجدد نظام المستوطنات ، ومتع اهلها بكثير من الحريات والحقوق ، خاصة في الميدان القضائي والجبائي كما ان حاكمها لم يكن يعين من طرف روما وانما كان ينتخب من طرف السكان .

ويظهر ان زيليس تقلص عمراتها بسبب مزاحمة ليكسوس لها ، لان هذه كان نهرها يوفر لها المرفأ الامين وامكانات اخرى لا تتوفر لزيليس الواقعة مباشرة على المحيط ، فاستمر تدهورها الى ان دخل الاسلام الى المغرب في منتصف القرن الاول الهجري (النصف الثاني من القرن السابع الميلادي) ، فعادت الى الظهور تحت اسم اصيلة كواحدة من المدن والقرى التي استضأت بنوره ، وينص المؤرخون على انها كانت

من حظ يحيى الحسني لما توفي والده ادريس الثاني في عام 213 هـ (828 م) وأشارت جدته كنزة على اخيه محمد بن ادريس باسناد ولايات المغرب الى اخوانه ففعل ، وهذا في نظري مجرد خلط ، بل اعتقد ان اصيلة كانت من حظ القاسم بن ادريس صاحب طنجة ، لانه لا يوجد ذكر ليحيى خلال الحروب التي جرت بين القاسم واخيه عمر صاحب شالة بامر اخيهما الامام محمد بن ادريس ، وانما وقع الخلط بين يحيى بن ادريس الثاني وبين الامير يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس الثاني الذي نفاه مصالة بن حبوس المكناسي - قائد عبيد الله الشيعي القائم بفريقية بسعاية موسى بن ابي العافية المكناسي - خلال مجيئه الثاني الى المغرب عام 309 هـ فاقام بها مع بني عمه مدة ، ثم ذهب يريد افريقية فاعتقله موسى بن ابي العافية بقلعة الكاي (لجاية) مدة عشرين سنة ، ثم اطلقه وقد ساءت حالته ، فتابع طريقه الى افريقية ، وسار حتى دخل المهدية اثناء فتنة ابي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي ، فمات بها جوعا في غربة سنة 332 هـ .

وفي هذا العصر بالذات ، بل في سنة 229 هـ (844 م) بالضبط بنيت اصيلة التي كانت ارضها ملكا لقبيلة لواتة ، ويذكر البكري في المسالك والممالك قصة طريقة عن سبب بنائها تتعلق بخروج النورماندين الذين يسميهم المجوس مرتين بمرساها للبحث عن كنوز واموال مخبوءة في باطنها وكيف تسامع البربر بذلك فجاءت كتامة منهم وبنت بها رباطا جعلت منه سوقا عمومية تنعقد ثلاث مرات في السنة ، فقصدها الناس من الاندلس وسائر الامصار فخيّموا بها وبنوا شيئا فشيئا حتى أصبحت مدينة معمورة ، ثم ذكر من وليها من الادارسة من عهد القاسم بن ادريس الذي بني سورها وقصرها .

وقد صارت اصيلة في السنين التالية من مراكز الصراع بين المروانيين خلفاء قرطبة وبين العبيديين ائمة افريقية على حكم المغرب ، كما انها صارت واحدة من المراكز التي التجأ اليها آخر الادارسة عندما ضيق موسى بن ابي العافية بهم وامعن في التنكيل بهم ، ومن حسن الحظ

ان يحافظ لنا التاريخ على عدد من الوثائق والمستندات الراجعة الى هذا العهد والمتعلقة باصيلة بالذات ، منها رسالة موجهة عام 362 هـ (سنة 973 م) من خليفة قرطبة الحكم المستنصر بالله الاموي الى قائدها عبد الرحمان بن يوسف بن ارمطيل (1) .

وجدير بالاشارة ان اخبار اصيلة في هذا العصر ليست كلها سياسية حربية ، بل هناك من الاشارات ما يدل على ان عرق العلم والثقافة كان ينبض فيها يومئذ ، ولا ادل على ذلك من وجود شعراء وعلماء برزوا فيها ، كالشاعر ابراهيم بن محمد الاصيلي الذي نقل ياقوت الحموي في معجم البلدان قطعة من شعره في هجاء مدينة فاس وولده محمد بن ابراهيم الاصيلي المتوفى بقرطبة يوم السبت 19 ذي الحجة عام 392 (21 أكتوبر عام 1002 م) ، ومنزلته في العلم والفقه بالاندلس منزلة ابن ابي زيد القيرواني بافريقية ، وهو اصل اسرة الاصيلي التي انجبت في الاندلس فيما بعد عددا من العلماء الافذاذ .

واذا جاز لنا ان نعتقد ان اصيلة الادريسية لم تتغير كثيرا عما آلت اليه في العهد المرابطي فاننا نستطيع ان نأخذ عنها صورة تقريبية من نصوص الجغرافيين المغاربة والاندلسيين كابي عبيد البكري في المسالك والممالك والشريف الادريسي في نزهة المشتاق ، وصاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، وهو مؤلف موحدني نعرف عصره ونجهل اسمه ، فقد كانت محاطة بسور ذي ابواب ، واحد منها يدعى باب المجوس ، وكان بها قصر وبنيان واسواق ، وكان كيل اهلها يسمى بالمد وهو كالغنيقة القرطبية ، وكيل الزيت يسمونه قليلة ، ومقدارها 112 وقية ، وجميع هذه الكلمات الاصطلاحية ما زال معروفا باصيلة وسائر المغرب الى الآن .

وعايشت اصيلة بعد ذلك جميع الاحداث التي وقعت في المنطقة ايام الحكمين المرابطي والموحدي ، ولكنها بدأت تتضاءل بعد وقعة

(1) تنظر هذه الوثائق في المجموعة الاولى من (الوثائق) الصادرة عن مديرية الوثائق الملكية بالرباط .

العقاب التي انهزم فيها الجيش المغربي بقيادة الخليفة محمد الناصر الموحدي عام 609 هـ (16 يوليوز 1212 م) امام الجيش القشتالي الذي كان يقوده الفونسو الثامن ، حتى انها خلت من سكانها مثلما حدث لعديد من مدن المغرب وقراه ، وقد خشي الفقيه أبو القاسم العزفي من مغبة خلائها وعدم وجود جيش يدافع عنها ، فارسل اليها أسطولاً سنة 663 هـ (1265 م) فهدم جنوده أسوارها وجعلوا عالي قصبتها سافلاً حذراً من ان يستولي عليها النصارى ويتمنعوا بها ، على ان هذا التهديم لم يعف بالمرّة على ذكرها ، لأننا نجد اسمها بارزاً خلال الأحداث التي وقعت بعد مقتل السلطان يوسف بن يعقوب المريني بتلمسان عام 706 هـ بين خلفه السلطان عامر (ابي ثابت) بن عبد الله بن يوسف ، وبين عثمان بن علي بن ابي العلاء المريني القائم عليه بناحية سبتة وطنجة .

وقد كان تفكير العزفي صائباً في الحذر من النصارى وان لم يكن مصيباً في تهديمه للمدينة وتخريبه لقصبتها ، فان ما لم يدركوه في العصور الذهبية للأسرة المرينية ادركوه في ايام ضعفها ووهنها وضعف خلفائهم بني وطاس الذين ابتدا حكم اسرتهم منها ، فهذه الاسرة الوطاسية التي التجأ منها محمد الشيخ الى اصيله منذ سنة 863 هـ وانطلق منها لمحاربة الشريف محمد العمراني الذي نصبه اهل فاس ملكاً بعد مقتل عبد الحق المريني في رمضان من عام 869 هـ حتى غلبه واستولى على فاس وبوع بها سلطاناً في اخبار تطول ، هذه الاسرة نشأت ضعيفة واهنة متوانية ، فلم تقو على مواجهة الغزو البرتغالي لاصيلة ولا صده عنها .

وتذكر النصوص التاريخية المغربية والأجنبية عن سبب هذا الغزو وخبره ان البرتغاليين استغلوا الفوضى التي ضربت اطنابها بالمغرب في آخر ايام الاسرة المرينية وبداية حكم الاسرة الوطاسية ، فقاموا عام 872 هـ بهجوم بحري عنيف على مدينة انفا (الدار البيضاء) تمكنوا خلاله من تخريب المدينة ، ثم شرعوا يعدون حملة بحرية في سرية تامة لاحتلال بعض مراسي المغرب ، فجمعوا 477 سفينة شراعية ركب على ظهورها 30 الف مقاتل ، على رأسهم بعض مشاهير قوادهم كالسوق ذي غمارايس

حاكم سبتة ، والكونت ذي فلانس Duc de Guimaraés
حاكم القصر الصغير ، وفي يوم الثلاثاء 3 ربيع Conte de Palance
الاول عام 876 هـ (20 غشت 1471 م) تراءت هذه الحملة امام مدينة
اصيلة ، وشرع الفزة فى النزول الى البر ، ولما قدر القائد المفرسي
المدافع عنها ان الاستمرار فى المقاومة متعذر طلب من ملك البرتغال بعد
اربعة ايام النزول على الامان ، وقبل ان يجيب الملك فتح الفزة ثغرات
فى سور المدينة نفلوا منها الى داخلها فحكموا السيف فى رقاب اهلها
بعد ما استماتوا فى الدفاع عنها فى الدروب وداخل المساجد وفى القصة
وبلغ عدد قتلهم الالفين واسراهم خمسة آلاف ، وكان من بين الاسرى
زوجتا محمد الشيخ وبنته وابنه المعروف بمحمد البرتغالي الذي اصبح
فيما بعد سلطانا ، وحول البرتغاليون الجامع الكبير الى كنيسة واستولوا
على بيت المال ، ولما بلغت ابناء هذا الفزو الى محمد الشيخ وهو محاصر
لفاس ذهب على راس 300 فارس الى القصر الكبير ومنه الى اصيلة فعقد
مع البرتغاليين صلحا مدته 20 سنة ، واعادوا اليه زوجتيه وبنته وماله ،
واحتفظوا بولده محمد رهينة لديهم .

واثر هذا الاحتلال انفتح مرسى اصيلة للتجارة الخارجية ، وصارت
ترد عليه السفن من مختلف موانئ شبه جزيرة ايبيريا ومن جنوة وبيسزا
والبنديقية ومرسيليا محملة بالبضائع الاوربية وناقلة منه الى اوروبا بضائع
المغرب وغلالة .

وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحولت اصيلة الى
قلعة محصنة ذات اسوار منيعة وبروج مليئة بالمدافع ومختلف الاسلحة
النارية ، وانطلق منها البرتغاليون مرات عديدة للاغارة على حلل الاعراب
الساكنين حولها او سعيا فى الاستيلاء على السهول والجبال القريبة منها ،
ومن اكبر هذه المساعي والمحاولات محاولة ملك البرتغال ضنون
سباستيان الاول الذي نزل بها فى شهر جمادى الاولى عام 986 هـ
(يوليوز من سنة 1578 م) على راس جيش قوامه حسب تقديرات

البرتغاليين 20 ألف مقاتل ، و اراد أن يتقدم منها الى القصر الكبير فاعترضه الجيش المغربي يوم 4 غشت عند وادي المخازن وسحقه سحقاً وقتل سياستيان وحليفه محمد المسلوخ وعدد كبير من قواد البرتغال وكبرائهم ، وأزاء هذا النصر لم يسع أسبانيا التي اتحدت مع البرتغال الا ان تسلم أصيلة الى السلطان احمد المنصور السعدي في ذي القعدة 997 هـ (1589 م) ، ولما عادت الى امتلاكها في نهاية القرن السابع عشر اضطر السلطان العظيم مولاي اسماعيل بن الشريف العلوي الى الجلاء عنها عام 1102 هـ (1691 م) فانسحب منها المحتلون ، وحل فيها محلهم بامر السلطان سكان جدد آت أكثرهم من ناحية الريف كما حدث في طنجة والعرائش بعد تحريرهما .

وقد تقلبت أصيلة بعد ذلك في عدة أطوار ، فبني فيها مسجدان ومدرسة وحمام وعدد من الأحياء السكنية ، كما عرفت عددا من الوقائع والأحداث التي كانت لها ابعاد الآثار في الحياة السياسية في المغرب ، منها هجوم الأسطول النمساوي عليها سنة 1829 وهجوم الأسطول الاسباني عليها سنة 1860 خلال حرب تطوان .

اما في القرن الحالي فان اسمها تردد كثيرا في بدايته خلال فتنة احمد الريسوني وشفبه فيها وفي ناحيتها ، وقد استطاع هذا الزعيم القبلي ان يستولي عليها سنة 1906 بمساعدة واحد من اعيانها فصيرها عرينا لحكميه الشرعي واللاشرعي وبنى فيها دارا فخمة تطل على البحر ، ولم تستطع أسبانيا ان تبعده عنها الى جبال الهبط الا بشق النفس وعصب الريق ، فعلمها ما عم مثيلاتها من المدن والقرى الكائنة بالاقاليم الشمالية التي بسطت اسبانيا فيها نفوذها وجرت عليها ذيل حمايتها .

ويتذكر اهل أصيلة بكل اعتزاز زيارة جلالة الملك المرحوم محمد الخامس لها وغذائه بظاھرھا واجتماعه بخليفته مولاي الحسن بن المهدي وبرعاياه من سكانها يوم 9 ابريل 1947 وهو في الطريق الى طنجة لزيارتها زيارة نقلت الصراع في المغرب بين القوات الوطنية والحكم الاستعماري الى الصعيد الدولي .

ان تاريخ اصيلة تاريخ حافل بالاحداث عامر بالوقائع مما يدل على اهميتها ، لكن هذا التاريخ في حاجة الى باحثين ينيرون زواياه ويكتشفون خباياه ، وقد اطلعت في اكااديمية التاريخ الملكية بمديرى على ما ينهل العقل من الوثائق المتعلقة باصيلة خلال سنوات الحكم البرتغالي والاسباني لها ، كما اطلعت على مجاميع مطبوعة تشمل على مئات الوثائق ان لم اقل الآلاف من المستندات التي تلقي أضواء على احوال اصيلة السياسية والاقتصادية في فترة من الفترات ، وتدل هذه الوثائق والمستندات الى لغتنا العربية والبحث عن الأصول الفميسة والمصادر الحبيسة لتاريخ اصيلة وناحتها هما من الديون التي تدين به اصيلة ابناءها خاصة والمقاربة عامة ، وحبذا لو تتكون منهم لجنة تقوم في نطاق الموسم الثقافي بعمل جرد للمستندات التاريخية لأصيلة وتحديد مواقعها ، وما احسب ان هذا العبا بالذي ينوء بكواهلهم ، لما حبوا به من ثقافة ووهبوا من حسن استعداد ، أنهم أن فعلوا ذلك يسدون خيراً كثيراً لا الى مدينتهم التي ولدوا فيها وتذكرهم بروجها واسوارها ، وحدائقها وحقولها عهد صباهم بها وحدها ، بل الى وطنهم الكبير ذي المفاخر والمآثر ، التي اخضلت بنداها الدوحات ، وجرت باريجها النسمات .

الرباط

عبد الوهاب ابن منصور

مَسَائِلُ مِنْ رِسَالَةِ الْغَفَرَانِ

د . عبد الله الطيب

1 - جاء فيها (طبعة دار المعارف ، 143 سطر 3) :

سيفني ابا الهندي عن وطب سالم اباريق لم يعلق بها وضر الزبد
مقدمة قزا كان رقابها رقاب بنات الماء الفرعها الرعد

والبيت الثاني من شواهد كتاب سيبويه .
قال أبو العلاء رحمه الله (143 سطر 5) هكذا ينشد على الاقواء
وبعضهم ينشد « رقاب بنات الماء ريعت من الرعد » والرواية الاولى
انشاد النحويين الخ .

قلت وبالله العون ومنه التوفيق استشهد سيبويه بالبيت الثاني في
باب العلم الجنسي (انظر ج 1 طبعة بولاق 263 سطر 10 هذا باب من
المعرفة الخ) ومكان الاستشهاد ص 265 سطر 11 عند قوله « واما ابن
ليون وابن مخاض » الخ . حيث ذكر ان هذه الاسماء ليست من باب
المعرفة لدخول أداة التعريف عليها كقول جرير :

وابن اللبون اذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس
وجعل ((ابن ماء)) كابن مخاض ، ويقال لطائر الماء ابن ماء ، قال
نو الرمة :

وردت اعتسافا والثريا كأنها على قمة الراس ابن ماء مطلق
اي رب ماء صفته كذا وكذا وردته في حين بدت الثريا في السماء
فوق الراس كأنما هي طائر مائي مطلق وهذا البيت من شواهد سيبويه في
هذا الباب لخلوه من أداة التعريف ووضوح تنكيره .
ويقال للطائر المائي ايضا بنت ماء . قال الشاعر يفتخر :

طليق الله لم يمنن عليه ابو داود وابن ابي كثير
ولا الحجاج عيني بنت ماء تقلب عينها حذر الصقور

واستشهد بهما المبرد في الكامل في الفصل الذي عقده للتشبيه
وسيبويه في معرض الحديث عما نسميه النعت المقطوع .

والبيت نسبه من نسبه في النسخة التي عليها طبعة بولاق الى ابي
عطاء السندي وهو من الفصحاء والبيت لابي الهندي بلا ريب لمكان اسمه
في البيت الاول وقوة ارتباط البيتين معنى ولغظا وسبكاً ثم لنص ابي العلاء
وهو المحقق المدقق على ذلك ويجوز ان يكون قد اخطأ ناسب البيت الى
ابي عطاء . واستبعد والله اعلم ان يكون الخطأ من الاخفش الصغير ولعله
من احد النساخ ، ويقوي هذا الظن احتمال التباس السندي بالهندي .
على ان ابا عطاء كان سنديا حقا وكانت فيه لكنة وربما قال زيادة وهو يريد
جرادة . اما ابو الهندي فكان عربيا من بني رياح بن يربوع من بني تميم .
وفي البيت من عيوب الشعر الاقواء ولم يكن عند القدماء معيبا وعده الحمري
في الشاعر الاسلامي عيبا . وذكر الأعلام انه يروى ايضا ((تفرع للرعد))
(1 : 265 في الهامش) .

2 - انتهى اليه من بارد الدبس .

بكسرتين قال المعري انه حرك للضرورة (رسالة الففران 161 سطر 1 - 2) والبيت من سينية ابي زيد الطائي التي يذكر فيها مقتل غلامه ويصف الجريح وهو باخر رمق تترقبه الطير ثم :

عما قليل علون جثته فهن من والغ ومنتـهـس

واورد ياقوت في معجم الادباء هذه السينية كلها بعد ان ترجم له واسمه حرمة والسينية في ديوانه الذي طبع حديثا واحسب نص المعجم اصح وشرحه الموجز اوفى .

ونسبة ابي العلاء الكسرتين في الدبس (وهو غسل التمر) الى الضرورة يوقف عنده ، لانه لا شك في فصاحة ابي زيد والغالب على مذهب ابي العلاء تعقب النحاة والميل مع الاوائل ، حتى سيبويه على حبه له لم يسلم من تعقبه . ولعله جعله من الضرورة لان ثانيه ليس من الاحرف الستة ولم يثبت فيه ان كسرة الباء اصل فاسكنت كما يسكن المكسور والمضموم تخفيفا كقولهم رجل بسكون الجيم وعلم بسكون اللام ، يريدون علم التي مضارعها يعلم . وهل شك رحمه الله في نسبة هذا البيت لابي زيد ؟ وراجع الكتاب 2 / 255 و 251 / 258 - والله اعلم .

3 - قال ابو العلاء (161 س 7 و 8 و 9) : والفرض ضرب من التمر ، قال الراجز : -

اذا اكلت لبنا وفرضنا ذهبت طولا وذهبت عرضنا

قال سيبويه (1 : 81 / 82) واما قول جرير :

مشق الهواجر لحمهن مع السرى حتى ذهبن كلا كلا وصـدورا

فانما هذا على قوله ذهب قدما ونهب اخرا ، وقال عمرو بن عمار
النهمدي :

طويل مثل العنق اشرف كاهلا اشق رحيب الجوف معتدل الجرم
كانه قال ذهب صعدا فانما اخبر ان الذهب كان على هذه الحال ،
ومثله قول رجل من عمان :

إذا أكلت سمكا وفرضا ذهبت طولا وذهبت عرضا

فانما شبه هذا الضرب من المصادر . ا . ه .

اي جعل كلامه مشبها لهذا النوع من المصادر نحو ذهب قدما
ونهب صعدا لان قدما وصعدا تبين نوع الذهب . وكذلك حين قال
(اشرف كاهلا) فكانه قد قال اشرف اشرافا ثم وضع الكاهل مكان
الاشراف .

واعراب هذا على انه تمييز ، (عندي - والله اعلم -) خطأ لان
الفرض ليس هو التمييز ولكن وصف حالة كان عليها العمل او الحدث .
والذي ذكره سيبويه ادق واصح . وزعم الأعلام ان التمييز هو الوجه
واحتمل لذلك (انظر الهامش 1 / 81 - 82) .

وروى (سمكا) كما في الكتاب . وزعم ابن السيرافي في قوله :
(كاهلا) و (طولا) و (عرضا) انها احوال والمشهور في الحال انها
مشتقة وقد حقق شرح ابن السيرافي د . الريح (الخرطوم) ثم حققه بعده
د . سلطاني (دمشق) .

ورواية البيت (اذا أكلت لبنا وفرضا) وهي الفرائية تناسب
الفرض اذا اريد به تمر الزكاة . اكل الراجز المسكين من تمر الصدقة

وشرب من لبن ابل الصدقة . وذكر الأكل مع اللبن يحتاج الى تخريج وله مشابه .

ولعل الرواية الصحيحة هي : « اذا اكلت سمكا وفرضا » لان القائل رجل من عمان ولم ينسبه المعري ولا احسب ان سيبويه نسبه ولعل كلامه : « ومثله اذا اكلت الخ » « وقول رجل من عمان » اضافة من الأخفش الصغير او غيره . والأخفش الصغير يمزج تعليقاته بما يرويه مزجا . صنع ذلك مع الكتاب ومع كامل المبرد ومع نواذر ابي زيد وافاد بلا ريب غير انها افادة لا تخلو من شوائب ولا مر ما هجاه علي بن العباس .

وقال الأعلام (هامش 1 / 82) « وانشد في الباب للعماني الراجز » . هذا واهل عمان مما ياكلون السمك والتمر فعل هذا يقوي رواية الكتاب ولعل اللبن وهم من بعض النساخ ادخله عليه لفظ السمك لقولهم (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) . وعلى هذا - أن صح - لا تكون (اللبن) علانية ولا غفرانية . وضعف « اكلت لبنا » لا يخفى . والله تعالى اعلم .

4 - قال ابو العلاء في اوائل رسالة الغفران (165 س 4 - 8) : « ولصارت الراعية اذا وجبت الحنظلة اتحفت بها السيدة المحظلة ، وهي التي تعظم عليها الفيرة ، من قولهم حظل نساءه اذا فرط في الفيرة عليهن ، قال الراجز :

ولا ترى بعلا ولا حلائلا كه ولاكهن الا حائلا . هـ .

ينبغي ان تكون المحظلة بتشديد الظاء على صيغة اسم المفعول من حظل بتشديد الظاء مضعف حظل الثلاثي ، وبيت الراجز يدل على ان حظل الثلاثي هو اصل الاشتقاق (من بابي قعد وجلس) وتضعيفه للدلالة على كثرة العمل قياسا متلثب « انظر الكتاب 2 ص 237 س 14 - هذا باب دخول فعلت على فعلت لا يشركه في ذلك الفعلت لقول كسرتها وقطعتها فاذا اردت كثرة العمل قلت كسرتها وقطعته ومزقته الخ » ويجوز ان تكون

(حظل) التي في كلام أبي العلاء مخففة او مثقلة . وتخفيف الظاء من قوله « السيدة المحظلة » يقتضي وجود فعل رباعي (احظّل) وعلى تقدير وجوده فانه على طريقة أبي العلاء في الفكاهة يكون متعديا بهمزة النقل التي ادخلت على الفعل الثلاثي (حظل من باب فرح) . قال صاحب القاموس « حظل البعير كفرح أكثر من اكل الحنظل ا. هـ . » فيكون معنى (احظّلها) على هذا الافتراض ان صح ، جعلها تاكل الحنظل أي منعها من الحركة والتصرف والمشي ومن شدة تضيقه عليها جعلها تلوق من مرارة العيش ما يشبه طعم الحنظل . والراجع والذي ينبغي هو ما قدمناه من تشديد الظاء مفتوحة مع ضم الميم على صيغة اسم المفعول من حظل مضعف حظل الذي في بيت الراجز وهو رؤية على الأرجح ، قاله يصف حمار الوحش من أرجوزته التي مطلعها :

عرفت بالنصرية المنـلـزلا وقد ترى بيضا بها عقائـلا

وحمار الوحش موصوف بشدة الفيرة ، قالوا انه ينبغي جحاشه عن امها لفرط غيرة وربما انتسف مذاكيرها (شرح ابن الأنباري للمفصليات ، طبعة 1920 ص 67 من المجلد الاول) .

والبيت من شواهد سيبويه في باب الضمائر حيث قال (الكتاب ج 1 ص 392 س 3) : « هذا باب ما يجوز فيه الاضمار من حروف الجر وذلك الكاف في أنت كزيد وحتى ومذ الخ » ثم قال بعد توضيح القاعدة في (س 8) : « الا ان الشاعر اذا اضطر اضمر في الكاف فيجرونها على القياس » يعني قياسا على ما عليه سائر حروف الجر من قبول الاضمار . واستشهد على هذا الشاذ بقول العجاج « وام او عال كها او اقربا » وبقول رؤية الذي تقدم . وفي الكتاب نسب الى العجاج وليست النسبة من صاحب الكتاب كما لا يخفى ولكن من أحد رواته . وشعر رؤية وابيه مما يتداخل . والبيت من لامية رؤية التي اولها :

« عرفت بالنصرية المنـلـزلا »

كما قدمنا والله تعالى اعلم .

5 - فى رسالة الففران من الأبيات الدالية التى يمدح بها
الأعشى المصطفى عليه الصلاة والسلام (178 - 179) :

فاياك والميتات لا تقرنهنـا ولا تأخذن سهما حديدا لتفصدا

وبعده فى رسالة الففران على سبيل الاختيار لا تتابع الرواية :

ولا تقرن جارة أن سرهنـا عليك حرام فأنكحن او تأبدا

والبيت الذى بعده فى الديوان وعند ابن السيرافى فى شرحه
أبيات الكتاب :

وذا النصب المنسوب لا تنسكنه ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

ورواية الكتاب بصدر الاول وعجز الثاني ويجوز كونها رواية وهى
أجود فى الاختيار فليت شعري لم عدل عنها أبو العلاء ؟ او هل هى التى
رواها وأخطا الناسخ ؟ ...

فاياك والميتات لا تقرنهنـا ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

استشهد به صاحب الكتاب فى باب النون الثقيلة والنون الخفيفة
(2 - ص 149 فى آخر سطر) . ورواية الديوان أشبه لما تشتمل عليه
من تعداد ما حرمة الله جل وعلا ، الميتة والدم وما ذبح للنصب وهلم جرا .

وجلي أن القاف المثناة لا يستقيم عليها المعنى لأن تذكىه الذبائح
تكون بإيما شفرة حادة ، نصل سهم أو مديّة أو سيف ، بل قد أبيع الصيد
بما علمنا من الجوارح مكبلين . والقاف والفاء مما يتشابه أمرهما فى
الرسم . وقوله « لتفصدا » بالفاء الموحدة لا القاف المثناة ، عنى به
تحريم الدم . وكانت العرب ربما فصدت الحيوان حيا واتخذت من دمه

اداما لطعامها بخلا به ان تذبحه . وفي خبر حاتم الطائي انه وقع في ((اسر)) فامرته احدى نساء الحي الذين اسروه ان يفصد بعيرا فيصبن من دمه . فما هو الا ان اهوى الى بعير فعقره وقال هذا فصدي . فلطمته المرأة غاضبة مما صنع . فزعموا انه قال ((لو غير ذات سوار لطمتني)) فارسلها مثلا اي لو كان الذي لطمني رجلا لانتصفت منه ، وروى بعضهم ((لو ذات سوار لطمتني)) من دون لفظ غير ، قالوا عني ان التي لطمته عجوز وذلك مما يفيظ ولو كانت التي لطمته شابة حسناء ذات زينة وسوار لكان ذلك اقل ايجاعا . والخبر الاول اجود ولا يخلو هذا الوجه الثاني من صناعة وتكلف . وزعموا ان حاتما حين قال ((هذا فصدي)) اشم الصاد الزاي هكذا : ((هذا فزدي)) يعني انه لا يفصد ويأتمم بالدم ولكن يعقر وينحر ويطعم اللحم في الجففات . وروي الاشمام في احرف في قراءة ابن عامر وهو من السبعة .

هذا وفي شرح ابن السيرافي لآيات الكتاب : ((وكان بعضهم ياخذ سهما يفصد به الناقة فيشرب دمها وهذا كان يفعل اذا قل اللبن . فحرم الله عز وجل عليهم الدم الا عند الضرورة ا . ه . .

وفي هذا الشرح نظر لان الذي وصفه من امرهم كانه ضرورة والضرورات تبيح . وانما كانوا يفصدون ضنا بابلهم وما يجري مجراها عن اللبح . ولا ريب انهم كانوا في زمن المجاعة له ولاكل الميتات افعل . ومن اجل انهم كانوا ياكلون الميتة والدم في غير الضرورة وقع التحريم فتأمل .

هذا وفي شرح الاعلام الذي بهامش 2 : 150 ان الشاهد ((ادخال النون الخفيفة على قوله فاعبدن لانه امر فاكده بالنون وابدل منها الفا في الوقف)) . ا . هـ . ومحل النظر قوله في الوقف في هذا الموضع مع العلم ان النون الخفيفة تصير الفا عند الوقف ، ولو قال صيرها الاطلاق عند آخر البيت الفا كان ذلك اجود ، لان وقف الشعر واداءه ربما خالف وقف غير الشعر واداءه . الا ترى انهم من اجل الاطلاق ولمراعاة المجرى مثلا كسروا واشبعوا آخر البيت من قول طرفة :

متى تاتني اصبحك كاسا روية . وان كنت عنها غانيا فاعن وازدد

وقالوا في بيت عنترة : « ويك عنتر اقدم » بالكسر والاشباع ولا يخفى انه يكفي في الوقف ان يقال « وازدد » و « عنتر اقدم » بتسكين الدال والميم وعلى السكون بناؤهما .

هذا وبعض الانشاد يجيز اسكان ما فيه اطلاق واشباع ؛ حتى واو للجماعة قد تحذف كما في ابيات الكتاب (2 - 301) .

لا يبعد الله اصحابا تركتهم لم ادر بعد غداة البين ما صنع
لو ساوفتنا بسوف من تحيتها سوف العيوف لراح الراكب قد قنع
طافت باعلاقه خود يمانية تدعو العرائين من بكر وما جمع
قال صاحب الكتاب انه يريد صنعوا وقنعوا وجمعوا .

وهل يجوز ان يقال « والله فاعبد » بالسكون مع ان ههنا نونا خفيفة ؟ فمن جعلها كالف الاثنين والالف اللينة من نحو تسمى وتقضى لم يجز السكون . ولكنها ليست كذلك وانما هي نون التوكيد الخفيفة .
ومما ذكره صاحب الكتاب ان الوقف عندها ربما ذهب بها احيانا كثيرة وذلك قوله (2 - 155 س 6) : « وذلك قولك للمرأة وانت تريد الخفيفة اضربي وللجميع اضربوا وارموا وللمرأة ارمي واغزي فهذا تفسير الخليل وهو قول العرب ويونس الخ » .

وقد شبهها الخليل ، اعني النون الخفيفة ، بالتنوين في مواضع وجعلها اضعف منه في مواضع اخرى ، ورايه هو الراجع عند سيبويه (راجع الباب 154 / 155 من ج 2) . ولا ريب ان المنون المنسوب يجوز فيه الوقف بالسكون في غير القوافي على لغة ربيعة والانشاد يجيزه في القوافي قولا واحدا وعليه قول ابي الطيب « وانثنى راشد » في داليتها التي مدح بها عضد الدولة ومطلعها :

ازاثر يا خيال ام عائد ام عند مولانا انسي راقب

فمسي هذا ان يوضح ما قدمنا من امر النظر في الشرح الذي ذكره
الاعلم والله تعالى اعلم .

7 - وجاء في رسالة الففران (ص 191 س 2 - 6) على لسان ابن
القارح وفي خبر حوار له مع علي بن زيد العبادي : « لا اراك تفهم ما اريد
من الاغراض ولقد هممت ان اسالك عن بيتك الذي استشهد به سيويه
وهو قولك :

ارواح مودع ام بكور انت فانظر لاي حال تصير

فانه يزعم ان (انت) يجوز ان يرتفع بفعل مضمر يفسره قولك :
« فانظر وانا استبعد هذا الذهب ولا اظنك اردته فيقول علي بن زيد دعني
من هذه الاباطيل الخ » .

يشير ابو العلاء الى عبارة صاحب الكتاب (ج 1 - ص 70 - 71) :
« واما قول علي بن زيد :

ارواح مودع ام بكور انت فانظر لاي حال تصير

فانه على ان يكون في الذي يرفع على حال المنصوب في الذي
ينصب على انه على شيء هذا تفسيره ، تقول ترفع انت على فعل مضمر
لان الذي من سببه مرفوع وهو الاسم المضمر في انظر . ا . هـ . «

يعني سيويه ان قول علي « انت فانظر » جاء به على مذهب من
يجعل من العرب الاسم المتقدم على العامل الرفع كأنظر ههنا لأنها ترفع
مكان الضمير المستتر فيها ، حاله كحال الاسم المتقدم على العامل الذي
ينصب ضمير الاسم المتقدم او يقارب نصبه نحو زيدا اضربه وعمرا

امرر به وخالدا اضرب اياه وزيدا اشتر له ثوبا (راجع 1 / 69 س 7 من قوله هذا باب الامر والنهي) . فكما ان الاسم المتقدم ههنا ينتصب على تقدير عامل يفسره ما بعده فكذلك لاسم المتقدم في نحو انت فانظر يرتفع مكانا على تقدير عامل يفسره ما بعده . والتقدير انظر انت فانظر او تأمل انت فانظر . وهذا هو الوجه الذي مال ابو العلاء الى استبعاده ولم يجزم بذلك لانصراف عدي عن مقال الشيخ وجعله اياه من ضمن الاباطيل . فعلى هذا الوجه لا يكون استبعاد تاويل سيبويه اقرب الى الحق وابتعد من الباطل من تاويل سيبويه نفسه .

وذكر سيبويه وجهين آخرين ، ان يكون انت مبتدا وخبره محذوف تقديره مثلا الهالك ، او خبرا والمبتدا محذوف تقدير ذلك مثلا الهالك انت . قال رحمه الله في خاتمة تفسيره (1 ص 71 س 1 - 8) : « فاما ان يكون اضمير الاسم وجعل هذا خبره فكانه قال : امري طاعة وقول معروف او يكون اضمير الخبر فقال طاعة وقول معروف امثل » ومرد الكلام كله الى بيت عدي لانه شبه انت من قوله انت فانظر بقولهم شاهدك وقوله تعالى طاعة وقول معروف والمعنى انت الهالك فانظر على التاويلين اللذين تاولهما .

وذكر الأعلام وجها رابعا غير هذين الوجهين ولعل المعري كان يؤثرهما وغير اضممار عامل يفسره ما بعده وهو الذي مال الى استبعاده ، وذلك ان تكون انت هي المبتدا وانظر الخبر « والفاء زائدة لمعنى تعلق الامر باول الكلام » (1 : 70 في الهامش س 16) وزعم ان زيادة الفاء هنا كزيادتها في قول الآخر (وهو من شواهد الكتاب ايضا - 1 - 70 س 1) .

وقائلة خولان فانكح فتاتهم واكرومة الحيين خلو كما هيا

وهذا وهم منه رحمه الله لان قوله خولان كلام تام اي هذه خولان والفاء على استئناف كلام جديد ، وليست انت بكلام تام اذا جعلت انظر التي بعد الفاء خبرا لها . وانما تدخل الفاء في الخبر اذا افادت معنى

الجزء . قال سيبويه رحمه الله (1 : 70 س 5 - 6) : « ألا ترى أنك لو قلت الذي يأتيني فله درهم والذي يأتيني فمكرم محمول كان حسنا ولو قلت زيد فله درهمان لم يجز » . أ . ه .

وذكر الأعلام وجها خامسا وذلك قوله (الهامش 16 - 17) : « ويجوز أن يكون التقدير أرواح أنت على معنى أذو رواح أنت ؟ » .

وهذا الوجه يضعفه آخر البيت : « لاي حال تصوير » فدل على أن الرواح ليس مردودا على (أنت) ولكن على الحال التي يتول إليها المرء ويصير .

ورواية الأعلام كرواية رسالة الغفران « لاي حال تصوير » (الهامش س 11) ورواية ابن السيرافي (لاي ذاك) وذكر الرواية التي جاء بها المعري وأحسبها هي الصواب لأنه رحمه الله كان يروي عن سماع ، وتحريف (لاي حال) حتى تصوير (لاي ذاك) ممكن قد يقع مثله في الرسم ويكون هذا ، أن صح أن الرواية الصحيحة هي (لاي حال) ، تحريفا قديما من رواية الكتاب أو نساخه . ويجوز أن تكونا كلتاهما رواية مسموعة في شعر عدي . ومهما يكن من أمر فالتى أثبتها أبو العلاء :

أنت فانظر لاي حال تصوير

أجود وأشبه بالبيت أذ هو مطلع القصيدة ومكان « ذاك » في المطلع لا يخلو من قلق ثم قد كان أبو العلاء يجمع مع روايته الكتاب رواية وتحقيقا لديوان عدي (راجع الرسالة ص 147 س 2 - 3 - 4 - 5) فحسى هذا أن يقوي بعض ما ذهبنا إليه من ترجيح « لاي حال » على « لاي ذاك » - والله تعالى أعلم .

8 - قال سيبويه في باب الهمز (2 - 169 - س 20 - 23) : « وأعلم أن الهمزة التي يحقق أمثالها أهل التحقيق من بني تميم وأهل

الحجاز وتجعل في لغة أهل التخفيف بين بين تبدل مكانها الألف إذا كان ما قبلها مفتوحا والياء إذا كان ما قبلها مكسورا والواو إذا كان ما قبلها مضموما وليس ذا بقياس متلَّب نحو ما ذكرنا وإنما يحفظ عن العرب (٥٠١هـ) واستشهد سيبويه بشواهد على ما قال منها بيت الفرزدق :

سارت بمسامة البغال عشية فارعى فزارة لأهناك المرتع

وقول حسان رضي الله عنه :

سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما قالت ولم تصب

وقول زيد بن عمرو بن نفيل وهو ابن عم سيدنا عمر رضي الله عنه :

سالتني الطلاق ان راتاني قل مالي قد قد جئتماني بنكر

وفي رسالة الفجران (190 - 191) ان ابن القارح الخيالي ياخذ على عدي بن زيد قوله :

يا ليت شعري وان ذو عجة متى ارى شربا حوالي اصيص

اي حال كوني ذا عجة والعجة الصياح ، ويجوز ان يكون المراد هو الجهر بالدعاء كما في قول الآخر :

ذكرتك والحجيج له عجيج بمكة والقلوب لها وجيب

وماخذه عليه تحويلة همزة انا الفا ، وقال (ص 190 س 13 - 15) : ولو قلت : « يا ليت شعري انا ذو عجة ، فحذفت الواو لكان عندي احسن واشبه » . واستحسن ابن القارح هذا الوجه الخيالي الذي سيستبعده المعري فيما بعد على لسان عدي لان « وان ذو عجة » لا يخلو فيه الشاعر

من أحد أمرين ، أما وصل همزة القطع من أتاو هو ردىء ، وأما - على حد
تعبيره - « أن تكون خفت الهمزة فجعلتها بين بين ثم أجترأت على تصييرها
الفاء خالصة » . ا . هـ . (190 س 10 و 11) وخفت بفائين موحدين
لا فائين مثنيين بعد حاء مهملة إذ جعل الهمزة بين بين هو التخفيف بالفاء
الموحدة والحاء المعجمة والتحقيق بالقاف المثناة والحاء المهملة ضده
وهو الظاهرها . وقد مر أنفا قول صاحب الكتاب أهل التحقيق وأهل
التخفيف يعني اظهار الهمزة وجعلها بين بين .

هذا وأشار المعري الى ما ذكره سيبويه من أن تحويل الهمزة الفاء
خالصا مما يحفظ عن العرب حفظا بقوله على لسان عدي بن زيد على ما
أخذه عليه الشيخ الخيالي وينتصر لما قاله هو وينكر ما اقترحه عليه من
حذف الواو من (وأن ذو عجة) انكارا : « إنما قلت كما سمعت أهل زماني
يقولون وحدثت لكم في الإسلام أشياء ليس لنا بها علم » . ا . هـ .
(ص 190 س 1 و 2) . أم لعل المعري أراد أن يقرر على لسان عدي أن
قلب الهمزة المفتوحة الفاء أن سبقها فتح وما أشبه ذلك قياس متلب خلافا
لملزمه سيبويه لأنه هكذا كان كلام العرب ؟ - والله تعالى اعلم .

9 - وجاء في رسالة الففران يذكر حوارا بين ابن القارح الخيالي
وعدي بن زيد الذي كان ينطق عن بعض أرائه هو (ص 200 - 201) :
« ويقول إدام الله تمكينه لعدي جنت بشيئين في شعرك وددت أنك لم تات
بهملة أحدهما قولك :

فصالحه يفري جله عن سرائه يد الزهان فارها متابعها :

والآخر قولك :

فليت دفعت الهم عني ساعة فنمسي على ما خيلت ناعمي بال

فيقول عدي بعباديته يا مكبور لقد وزقت ما يكب أن يشغلك عن

القرىض كما قيل لك كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . قوله يامكبور
يريد يا مجبور فجعل الجيم كافا وهي لفة رديئة يستعملها اهل اليمن .
وجاء فى بعض الاحاديث ان الحارث بن هانيء بن ابي شمر بن جبلة الكندي
استلحم يوم ساباط فنادى يا حكر يا حكر الخ » .

وهنا مسائل . منها اخذه على عدي قوله فارها متنابعا على لسان
ابن القارح . ولا يخفى ان ابا العلاء كانه يوحى برفض هذا الماخذ ، لاعراض
عدي الذي ذكره . وفى العمري انحراف عن الاصمعي تشهد به مواضع من
رسالة الفران (مثلا 180 و 206 - 207 و 283 - 284 و 354 و 355)
ولعله فى ذلك مصيب . ويروى عن الاصمعي انه كان يعيب على ابي ذؤيب
قوله يصف الفرس :

قصر الصبوح لها فشرح لحمها بالني فهي تشوخ فيها الاصبع

وفى شرح ابن الانباري على المفضليات (1 : 878 س 7) : « وقال
الاصمعي هذا من اخبت ما نعتت به الخيل لان هذه لو عدت ساعة لانقطعت
لكثرة شحمها وانما توصف الخيل بصلابة اللحم كما قال امرؤ القيس :

بمجززة قد اترز الجري لحمها كميث كانها هراوة منوال

قال ابو ذؤيب لم يكن صاحب خيل « ا . هـ . فاخلوا على عدي نحوا
مما اخلوا على ابي ذؤيب كما ترى . ولكليهما وجه ومخرج وذلك انهما
يصفان صنعة الفرس والعناية بذلك . والسمن يكون أولا قبل جري الفرس
وتسميرها بالعدو فى الرهان والصيد والفزو وما اشبه ذلك . وقال زهير :

غزت سماتا فابت ضمرا خدجا من بعد ما جنبوها بدنا عققا

اي جنبوها يريدون الفزو وهي بواذن وفى بطونها اجنة .
وكان زهير صاحب خيل وصافا لهن .

وقال سلامة بن جندل وكان من الفرسان يصف حصانه :

تظاهر الني فيه فهو محتفل يعطي اساهي من جري وتقريب
يحاضر الجون مخضرا جحافلها ويسبق الالف عفوا غير مضروب

فذكر صنعة حصانه اولا حتى سمن ثم تضييره يجري جريا شديدا
ويعدو دون ذلك ، والتقريب دون الجري الشديد ، ثم يؤخذ بالصيد فيعدو
وراء حمر الوحش التي رعت الربيع فاخضرت افواهها ثم يسابق عليه
فيسبق الالف عفوا غير مضروب . والاساهي الفنون والأنواع . والنسي
الشحـم .

وظن المستشرق ليال ان البيت ((تظاهر الني)) من قصيدة سلامة
ابن جندل وهي الثانية والعشرون من المفضليات ربما كان مقحما لما ذكره
الأصمعي من عيب الشحم في فرس ابي نؤيب وانه لم يكن صاحب خيل
وان وصف سلامة متقن والشحم الذي ذكره عيب في الخيل (راجع ترجمة
ليال للمفضليات وهي المجلد الثاني ص 81 رقم 12 وص 361 رقم 52)
فلا يناسب اتقانه . وهذا من ليال وهم لما قدمنا ذكره . ثم لم يذكر عن
الأصمعي انه عاب قول سلامة اذ قد علم انه وقومه كانوا اهل خيل فحسر
على هذيل المساكين بما جسر . فمن ههنا ميل ابي العلاء عنه على الأرجح
والله تعالى اعلم .

هذا ومن المسائل التي المعنا اليها قوله :

فليت دفعت الهم (البيت)

والشاهد فيه انه جيء ههنا بليت من دون اسم . قال صاحب
الكتاب (1 : 281 - 282) : ((وروى الخليل ان ناسا يقولون ان بك زيد
ماخوذ فقال هذا على قوله انه بك زيد ماخوذ وشبهه بما يجوز في الشعر
نحو قوله (وهو ابن صريم الشكري) :

ويوما توافينا بوجهه مقسم كان ظبية تطو الى وارق السلم

وقال الآخر :

ووجه مشرق النحر كان ثدياه حقان

لانه لا يحسن ههنا الاضمار . وزعم الخليل ان هذا يشبه قول من
قال (وهو الفرزدق) :

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتي ولكن زنجي عظيم المشافر

والنصب اكثر في كلام العرب ، كانه قال ولكن زنجيا عظيم المشافر
لا يعرف قرابتي ، ولكنه اضمر هذا كما يضر ما يبنى على الابتداء نحو
قوله عز وجل طاعة وقول معروف اي طاعة وقول معروف امثل . ا . ه .
(تنبيه : زنجي في البيت بالرفع) .

وقد قدر سيبويه في موضع آخر « امري » (1 : 5) وقد سبقت
الإشارة اليه واكتفى « بامثل » هنا لقصره حديثه على اضمار الخبر الذي
يبنى على المبتدأ المذكور نحو جملة لا يعرف قرابتي التي قدر انها الخبر
المحذوف المبني على قوله « زنجي » المرفوعة على أنها مبتدأ هذا خبرها ،
ولكن غير عاملة وعلى ذلك روايته لبيت الفرزدق والنصب في لكن المشددة
النون أكثر كما قد ذكر وههنا جعلت مثل لكن العاطفة ذات النون الساكنة .

وقول ابي العلاء على لسان ابن القارح « وددت انك لم تات بهما »
يشير به الى ما يراه النحاة من قبح الاضمار ههنا . وتعمير سيبويه
(لا يحسن ههنا الاضمار) يدل على القبح والرداءة وقد قسم الكلام الى
مستقيم حسن وغير حسن وسوى ذلك في مقدمات كتابه (1 : 8) ومما
قاله ثم (س 14 - 15) : « واما المستقيم القبيح فان تضع اللفظ في
غير موضعه نحو قولك قد زيدا رايت وكى زيد ياتيك واشباه هذا » . ا . ه .

وقبح الاضمار ههنا أن المحذوف ينبغي أن يقدر بضمير ميم بدل على الشان لا يعبر بينى على مبتدا كما فى « اتمل » التسي قدرها مع « طامة وهول معروف » . وفى الشعر يجوز اضمار محذوف بدل على الشان وهو ضمير الشان كما فى « كان تدياه حقلان » أى كانه تدياه حقلان ، او « كان ظبية تعطو الى وارق السلم » أى « كانه ظبية تعطو الى وارق السلم » واحسب انه لو كانت كان المخففة تستعمل عاطفه لأجاز سيويه تقدير خبر كما أجازته فى « ولكن زنجي غلام المتسافر » برفع زنجي . وعلى هذا يكون التقدير فى بيت عدي « فليت دفعتم اللهم عني ساعة » . والله اعلم بضمير الشمسستان .

وكان المعري كره هذا التأويل بالذي ذكره من اعراض عدي ولعله كان يميل الى تقدير الكاف فى هذا الموضع ، حذفها الشاعر اختصاراً للدلالة على أنها عطفية أى « فليت دفعتم الخ » كما حذفوا الفاعل فى مواضع منها مثلاً « خيلت » التى فى هذا البيت .

هذا ومن المسائل التى المعنا إليها قوله « فيقول عدي بعباديتسه يا مكبور لقد رزقت ما يكب الى آخر ما قاله » . وقد فسر أبو الصلاء المكبور بالمجبور أى الذي جبره الله عز وجل بإدخاله الجنة واعطائه الظنود ، قال المصباح :

قد جبر الدين الاله فجبر

والجيم التى كالكاف من الأحرف التى ذكرها سيويه ونص على رداؤها ، قال فى باب الإدغام فى أول حديثه عن حروف العريضة (2 - 404 س 19 - 21) : « وتكون اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة فى لغة من ترتضى عربيته ولا تستحسن فى قراءة القراءان ولا فى الشعر وهى الكاف التى بين الجيم والكاف والتجيم التى كالكساف الخ » .

والى هذا اشار ابو العلاء بقوله : « وهي لغة رديئة يستعملها اهل اليمن » وهو المشهور من امرها . وذكروا انها لغة عك . قالوا وكانوا فى جند معاوية فى صعين وكانت دروعهم قصارا فاشار على على جنده ان يضربوا سوقهم فصاح صائحهم ياعك بركا بركا لكمل اى الجمل وكانوا قد صدقوا القتال مع معاوية . وعك من قبائل اليمن .

وقول ابي العلاء ((بعباديته)) هو الذي يوقف عنده لان العباد رهط عدي كانوا من بني تميم واخلاق من العرب كثير منهم من غير اليمن . وهذا امر توصل اليه ابو العلاء بالنظر ، من اجل الدليل الذي ساقه وهو خبر استلحام الحرث بن هانيء الكندي يوم ساباط وقوله يا حكر يريد يا حجر .

وكنية اصلها من اليمن الا انهم انجدوا وخالطوا بني تميم واسد وربيعة وخبر امرىء القيس وان امه من ربيعة وانه نشأ بين بني تميم معروف . وكذلك امر ملك بني اكل المرار وغلبتهم على الحيرة حينما من الدهر ثم رجوع الدولة الى المناذرة وما لحق بني اكل المرار على ايدي هؤلاء من النكال . وقد ذبح جماعة منهم فى ديار بني مرينا وهم من العباد - ومنهم عدي بن مرينا معاصر عدي بن زيد وعدوه الذي جر عليه آخر الامر مصرعه .

فهل يا ترى هل كان نطق الجيم كالكاف بين العباد من اثر اليمن عليهم . . ؟ الم يكن المناذرة الملوك انفسهم من اصل يمني ؟ . . . وهذا باب مجال الحدس فيه واسع ، والله تعالى اعلم .

10 - يسأل ابو العلاء ابا ليلي النابغة الجعدي على لسان ابن القارح (ص 210 - ص 211) : « فكيف تنشيد قولك :

وليس بمعروف لنا ان نردها صحاحا ولا مستنكرا ان تعقرا

انقول : ولا مستنكرا ام مستنكر ، فيقول الجعدي : بل مستنكرا .

فيقول الشيخ : فان انشد منشد : مستنكر ، ما تصنع به ؟ فيقول :
ازجره وازبره ، نطق بامر لا يخبره . فيقول الشيخ - طول الله له امد
البقاء - انا لله وانا اليه راجعون ما ارى سيويه الا وهم في هذا البيت ،
لان ابا ليلى ادرك جاهلية واسلاما وغذي بالفصاحة غلاما « ا . هـ .

قوله ازجره وازبره اي ازجره وانتهره ، ويجوز ان يكون قوله ازبره
اتباعا مثل جائع نائع وحسن بسن .

هذا ورواية البيت المقدمة برفع قوله « مستنكر » وعلى وجه الرفع
كل الشواهد التي ذكرها صاحبها لكتاب في هذا الباب وهي قول الفرزدق :

لمعرك ما معن بتارك دينه ولا منسيء معن ولا متيسر

وهو شاهد جاء به مكمل لما ذكره قبله من الاظهار بدل الاضمار
وموطنا لما بعده من قول الاعور الشني :

هون عليك فان الامو ر بكف آله مقاديرها
فليس ياتيك منهم سيبا ولا قاصير عنيك مامورها

وقول النابغة الجعدي :

فليس بمعروف لنا ان نردها صحاحا ولا مستنكر ان تعقرا

(انظر الكتاب 1 : ص 31 - 32) .

فهل انكر المعري رواية سيويه الرفع ؟ وهو الذي اورده اولا ونص
عليه وذلك قوله : « كانه قال ليس بمعروف لنا ردها صحاحا ولا مستنكر
عقرها » ا . هـ . ثم بين بعد ذلك جواز الجر في قوله « وقد يجوز ان يجر »
(آخر ص 32) ثم بين بعد ذلك جواز النصب وذلك قوله : « وان شئت

نصبت لقلت ولا مستنكرا ان تعقرا ولا قاصرا عنك مأمورها على قولك
ليس زيد داهيا ولا عمرو منطلقا او ولا متعلقا عمرو « ا . ه . (ص 33
س 7 و 8 و 9) .

استبعد ان يكون ابو العلاء قد اراد ذلك . وعلى هذا الاستبعاد ينبغي
ان تكون رواية البيت بالرفع ثم سال الشيخ النابغة عن الوجهين الآخرين
فقال : « اتقول مستنكرا ام مستنكر ؟ » .

وقد وقعت رواية النصب في بيت اتشاهد نفسه في شرح ابيات
الكتاب لابن السيرافي والشرح يدل على ان الرفع هو الوجه الذي عليه
رواية الكتب . وفي شرح الاعلم الذي بهامش طبعه بولاق (1 : 32) بدا
برواية الرفع واتباعها شرحا يدل على انه بدا برواية النصب وذلك قوله :
« فرد قوله ولا مستنكر (هكذا) على قوله بمعروف » ، اللهم الا ان يكون
اراد الرد على المعنى لا على مكان الاعراب . وههنا الوهم من جانب الاعلم
رحمه الله ، اذ رفع « مستنكر » مبنى على ان ههنا جملتين وقد فطن الى
ذلك ابن السيرافي وان العقر ليس للرد كما قال سيبويه ، ولكنه للخيال
وهو قوله « ان تعقرا » ، فتأمل . وادخل الوهم على الاعلم ، والله تعالى
اعلم ، تاويل سيبويه لوجه الجر . وقد ابي هو تاويل سيبويه لوجه الجر
وحدهم وهما ، على انه قبل وجه الجر لما زعمه من سماع سيبويه الجر عن
العرب . قال : « والرد عليه في تأوله صحيح والرد على العرب من
الاعتداء » ا . ه . فهل دخل المعري في طائفة هذا الاعتداء لانه قد انكر
وجه الجر نفسه ونسب سيبويه في اخذه به الى الوهم لا في التاويل
وحسنه ؟ .

ولعل المعري رحمه الله له وجه في الذي مال اليه من انكار رواية
الجر على لسان النابغة الجعدي حيث قال « ازجره وازبره » وذلك ان
سيبويه قاسه ولم يسمعه ، خلافا لما زعمه الاعلم من سماعه . وانما سمع
سيبويه رحمه الله جر « قاصر » في بيت الهموز الشني :

فليس بآتيك منيها ولا قاصر عنك مأمورها

بذلك قوله «لأنه جعل للأمور من سبب الأمور ولا يجعله من سبب
المذكر وهو المنهي وقد جره قوم فجعلوا الأمور للمنهي والمنهي هو
الأمور لأنه من الأمور وهو بعضها فاجراه وأنته كما قال جرير :

إذا بعض السنين تمرقتنا كفى الأيتام فقد أبى اليتيم
ومثل ذلك قول النابغة الجعدي :

فليس بمعروف لنا أن يردنا صطاحا ولا مستنكر لن تعقرا . أ.هـ
(انظر، 1 : 31 - 32) .

فقد نسب الأعلام سماع سيبويه « وقد جره قوم » إلى بيت النابغة
ولم يسمعه إلا في بيت الأعور الشني كما ترى .

وللقياس هنا ما يسوغه لأن العرب قد جرت على توهم الباء وهو أبعد
من هذا الذي مال إليه سيبويه وقد سمع مثله كما ترى .

وليس مراد المعري على الأرجح تخطئة تاويل سيبويه لوجه الجر
إذ غير الذي ذكره لا يستقيم إذ لا بد في الجر من جعل مستنكر راجعة
إلى « ردها » على أنه سببي الخيل كأنه قال ليس بمعروفة ردها ولا مستنكر
عقراها ، خلافا للأعلام . ولكن مراد المعري فيما نرجح تفضيل الصدول مرة
واحدة عن وجه الجر لأنه لغة رديئة والنابغة الجعدي من الفصحاء . ويقوي
ما نذهب إليه ما جاء عنه في باب الحديث مع طرفة (335 - 336) من
قوله أن نصب الحضر الوغى على منذهب الكوفيين ليس بأبعد من قول
سيبويه بالجر على التوهم في بيت القائل :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بييسن غرابها

وقد نص سيبويه على أن هذه لغة رديئة . وذلك أنه استشهد بهذا
البيت وببيت آخر هو :

بدا لي اني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيا

في معرض الحديث عن الواو التي يكون ما يعطف بعدها مرفوعا وينصبه قوم في بعض ما رواه ابو الخطاب (الاخفش الأكبر) وزعمه الرواة (الكتاب 1 : 154) ثم استشهد بالبيت « بدالي » في معرض الحديث عن قول ناس من العرب ادعه بكسر العين في الامر من دعوت قال : « فكسروا حيث كانت الدال ساكنة لانه لا يلتقي ساكنان كما قاتوا رد يفتي وهذه لغة رديئة وانما هو غلط كما قال زهير :

بدا لي اني لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيا

(الكتاب 2 - ص 278 س 11 - 14) .

ويجوز ان يكون ابو العلاء قد اراد الى مداعبة ابن القارح ببعض السخرية من النحاة وعلمهم . والله تعالى اعلم .

11 - وفي حديثه مع لييد بن ربيعة (217 - 218) يقول على لسان ابن القارح : « فيذول اعظم الله حظه في الثواب فما مفرالك في قولك :

وصبح صافية وجذب كرينة بموتر تاتاله ابهامها

فان لناس يروون هذا البيت على وجهين منهم من ينشده تاتاله يجعله تفتله من آل الشيء يؤوله اذا ساسه ، ومنهم من ينشد تاتاله من الاتيان . فيقول لييد كلا الوجهين يحتمله البيت فيقول ارغم الله حاسده ان ابا علي الفارسي كان يدعي في هذا البيت انه مثل قولهم استحي استحي على مذهب الخليل وسيبويه لانهما يريان ان قولهم (استحييت) انما جاء من قولهم (استحاي) كما ان استقامت من استقام وهذا مذهب ظريف ، لانه يعتقد ان (تاتي) مأخوذ من (اوى) كانه بنى منها افتعل فقل ائتاي فاعلت الواو كما فعل في قولنا اعتان من العون واقتال من القول . ثم قيل

أتيت فحذفت الألف كما يقال اقتلت ثم قيل في المستقبل بالحذف كما
قيل يستحي فيقول لبيد معترض لعن لم عنه ، الأمر أيسر مما ظن هذا
المتكلف . « ا . ه .

وفي هذا الحديث ثلاث مسائل الأولى مذهب الخليل في استحي
وقال سيبويه يحكيه في الكتاب (2 - 388 - 389) : « وجاء استحييت
على حاي مثل باع وفاعله حاء مثل بائع مهموز وان لم يستعمل كما انه يقول
يذر ويدع ولا يستعمل فعل وهذا النحو كثير والامستعمل حاي غير مهموز
مثل عاور اذا اردت فاعلا ولا تعل لأنها تصحح في فعل نحو عور ، وكذلك
استحييت اسكنوا الياء الأولى كما سكنت في بعث وسكنت الثانية لأنها لام
الفعل ، فحذفت الأولى لتلا يلتقي ساكنان وانما فعلوا هذا حيث كثر في
كلامهم « ا . ه . يعني بقوله كما انه يقول « الخليل » وفعل من يذر ويدع
متروك فلا نقول ودع ووذر . وحاي كباع اذا اسندت الى تاء الفاعل
صارت (حيت) واذا دخلتها زيادة الاستفعال صارت (استحييت) مثل
(استقيمت) كما مثل ابو العلاء .

ونسب ابو العلاء هذا المذهب الى سيبويه والخليل معا - واصله
وتوضيحه للخليل - لأن سيبويه مال اليه وقواه واعرض عن قول غيره ،
مع ان ظاهر مقالة غيره انها اقرب ماتي واسهل ولكن المتأمل يجد طريقة
الخليل ادق وادخل في باب التعمق لمعرفة الطريقة التي يعمل بها عقل
اللغة العربية نفسه وهذا ما يسميه المعاصرون علم اللسانيات بكسر اللام
مشتقة من لسن بكسر اللام بمعنى لغة كما في قول ابي الطيب :

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث الا التراجم

وانما سموه اللسانيات على توهم انه علم جديد وانما هو علم النحو
العربي نفسه وضع في آنية غريبة وانما ظهر بعد طبع كتاب سيبويه في
باريس في القرن الماضي وترجمته الى الألمانية واخذ أوائل من رادوا علم
اللسانيات الذي يقال له حديث عن ذلك بلا شك والله المستعان .

قال صاحب الكتاب يذكر مذهب الآخرين ثم يتبع ذلك ميله الى مذهب الخليل (2 - 389 - س - 10) : « وقال غيره لما كثرت في كلامهم وكانت يائين حذفوها والقوا حركتها على الحاء كما الزموا يرى الحذف وكما قالوا لم يك ولا ادر واما الخليل فقال جاءت على حيت كما انك حيث قلت استحوذت واسطيت كان الفعل كانه طيبت وحوذت فهذا شد على الاصل كما شد هذا على الاصل ، ولا يكون الاعتلال في فعلت منه كما لم يجى فعلت في باب جئت وقلت على الاصل وقول الخليل يقويه اول وآءة ويوم ونحو هذا لانها قد جاءت على اشياء لم تستعمل والآخر قول « ا. هـ. اى غير الخليل يقول ان « استحي » كثرت في كلام العرب واستثقلوا توالي الياءات فقالوا في (استحييت) (استحييت) بالقاء فتحة الياء على الحاء الساكنة وحذف هذه الياء لسكونها لئلا يلتقى ساكنان وقالوا في المضارع (استحي) (استحي) بالقاء كسرة الياء على الحاء الساكنة قبلها وحذفها . وهذا المذهب واضح . والحذف للتخفيف كثير كما مثلوا . وتفسير قول الخليل على ان (استحييت) فعل اصله من (حاي) كباع و « استحييت » فعل آخر اصله من (حي) (باب فرح) وهو الذي جاء منه اسم الفاعل المستعمل (حاي) غير مهموز صحيح الياء بوزن (عاور) من (عور) . وعند الخليل ان « استحييت » كما روى سيبويه جاءت من « حيت » مثل « بعث » ومثل الخليل بالفعلين (استحوذت) و (استطيت) وحتهما ان يقال فيهما على الاصل (استحدثت) و (استطيت) وقد قالوا (استطاب) و (استطيب) وقالوا (استحوذ) ولم يقولوا (استحاذا) وزعم انها جاءت على اصل لم يستعمل هو (حوذت) و (طيبت) بتصحيح لاواو والياء على باب فرح وعور وحي فشذتا على اصلهما الظاهر (استحدثت واستطيت) بنظرهما الى اصلهما الباطن (طيبت وحوذت كفرحت) كما شذت (استحييت) بنظرهما الى اصلهما الباطن (حاي) كباع بدلا من اصلها الظاهر (حي كفرح) الذي عليه « ان الله لا يستحي ان يضرب مثلا » - الآية . وفي « استحي » لفتان هكا ترى ، « استحبا يستحيي » و « استحي يستحي » كما في « استطاب » و « استطيب » . وقول الخليل او سيبويه ولا يكون الاعتلال في فعلت منه اي باب فرح يصح فيقال عاور وحاي وحاوذ تمثيلا وطايب وبساب

جئت وقلت يقع فيه الاعتلال ولا يجيء على الأصل فلا أقول « جيئت » لا « قولت » بتصحيح العين ولكن نوقع الاعلال ثم نقول جئت وبعث وقلت . وترجيح سيبويه لمذهب الخليل بناء على أن كلمات دائرة في الاستعمال مثل آءة وهي من نبات البادية وأول ويوم مجهولة الأصول التي جاءت عليها ابنيتها لأن هذه الأصول لم تستعمل واستعملت هي بنظر خفي اليها . هذا وعند علماء النحو المعاصر (اللسانيات) أن الكلمات الكثيرة الدوران في استعمال اللغات مما تقاوم سنن تطورها فتحفظ بمعادنها القديمة بينما يتطور غيرها فتبدو كأنها شاذة وليست بشاذة ، ولكنها بحسب أصول قديمة قد أهملت واندرست ، من ذلك في العربية مثلا الفعل (ليس) وفي الإنجليزية بعض أفعال الكينونة والأفعال المساعدة ، فعسى هذا أو نحوه أن يلهم ما قدمناه من نعتنا لمذهب الخليل وسيبويه بالدقة والعمق .

هذا والمسألة الثانية قصة تاتاله بفتح اللام وهي لام الجر وبعدها ضمير الغائب وتاويلها على مذهب الفارسي وقد وضعه المعري باختصار كما يلي:

افتعل من (أوى) (اتوى) تحركت الواو فانفتح ما قبلها فصارت (اتأى) فاشبهت استحاى على مذهب الخليل ، عند الاسناد إلى ضمير المتكلم تصير (اتأى) إلى (اتيت) تنحذف الألف بسبب سكون الياء للاسناد فلا يلتقى ساكنان . (استحاى) في المضارع تصير (يستحي) بوزن (يستطيع) فتتحذف الياء المتطرفة فتصير في آخر الكلمة ياء ساكنة بعد الحاء المكسورة (يستحي) والمضارع من (اتأى) بوزن افتعل كاعتان والقتال هو (يأتى) مثل يعتان ويقتال فحذفت الياء المتطرفة فصار الفعل (ياتا) فأنث لتأنيث الإبهام فصار (تاتا) فجاءت من هذا (تاتاله) بفتح اللام . وفي هذا المذهب عسر وأعمال وتعب كما ترى .

والمسألة الثالثة إجازة المعري (تاتاله) بفتح اللام على غير مذهب الفارسي بزعمه على لسان لبيد أن الأمر أيسر مما نظن : فهل عنى المعري بهذا أن يرجع إلى الأصل في مذهب الخليل وقد استظرفه ، فيفترض وجود فعل مهمل من باب فرح في (أتى) فقد قالوا (آتا يأتو) مثل (سما يسمو) مع قولهم (أتى يأتى) مثل رمى يرمى ، فهل يستبعد مع هذا (أتى يأتى كرضى يرضى) فيكون من باب تداخل الصيغ كسلا يسلا ويسلا

(نصر وفرح) وقللى يقلى ويقللا (ضرب وفرح) وعند سيبويه انه لم يجيء من هذا المجرى من باب منع من غير تداخل غير (ابى يابى) ؟ ام يا ترى عند المعري ان (تاتا) من (تتاتى) بتاءين مفتوحتين ثم همزة ثم تاء مشددة مفتوحة ثم الف لينة بمعنى (تترفق له ابهامها) ؟ وتكون الهمزة المفتوحة سكنت على خلاف مذهب البصريين وجر ذلك الى تخفيف التاء لئلا يلتقي ساكنان ؟ ولا يخفى ان هذا المذهب ايسر من مذهب الفارسي ولكن فيه ما ذكرنا من المخالفة لقول الخليل وسيبويه فى المفتوح انه لا يسكن ولكن يسكن المكسور والمضموم وقد مال الى مذهبهما الاستاذ ابراهيم مصطفى رحمه الله فى كتابه اللطيف احياء النحو حيث زعم ان الفتح علم التخفيف . واضطرب صاحب القاموس فى استحيا من الحياه فزعم انه قيل ان قوله تعالى « ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا » اصل يستحيى فيه من استحياه بمعنى استبقاه وكأنه قد شك فى ذلك (راجع القاموس ، طبعة دار السعادة مصر ج 4 - ص 322 س 2 و 3) .

هذا وقد كان ابو العلاء المعري رحمه الله ذا المام عميق دقيق بمذاهب النحاة وبمذهب الخليل وسيبويه خاصة مما يدل على اعجاب منه كبير بهما ومع ذلك فان فى رسالة الفجران ما يشعر بانه ربما مال احيانا كثيرة الى سليقية الكوفيين وبعض طريقة قياسهم . ولعله فى ذلك ان يكون مصيبا . والله تعالى اعلم .

12 - فى حديث سيدنا حسان رضى الله عنه اذ سئل عن قوله فى الخمر (رسالة الفجران ص 234) :

كان سبيثة من بيت راس يكون مزاجها غسل وماء

فيقول (ص 235 س 5 - 9) انما وصفت ريق امرأة يجوز ان يكون حلالي ويمكن ان اقوله على الظن . وقد شفع صلى الله عليه وسلم فى ابى بصير بعد ما تهكم فى مواطن كثيرة وزعم انه مستر مفترى او ليس بمفتر . ا . هـ . يعنى ما كان يفخر به الاعشى من الاستراء الى النساء اى

السري اليهن ليلا بعد ما نام اهلن كقول امرئ القيس :

سموت اليها بعد ما نام اهلها سمو حباب الماء حالا على حال

وكقوله :

تجاوزت احراسا اليها ومـعشرا على حراسا لو يسرون مقتلي

وكقول الأعشى نفسه وهو مما استشهد به ابو العلاء على لسان
الجمدي يعيره اياه في الخصومة التي تخيلها بينهما ابو العلاء في مجلس
نداهي الفرقوس وهو مما يجري مجرى الفكاهة (ص 230) :

فدخلت اذ نام الرقيب فبت دون ثيابها
حتى اذا ما استرسلت للنوم بعد لعبها
قسمتها نصفين كل مسود يرمى بها

وفي حديث حسان وقفة نحوية لأبي العلاء عند نصب (مزاجها) على
انها خبر مقدم واسم يكون هو غسل وماء (ص 236 - س 3 - 7)
والبيت من شواهد الكتاب في أوائله (1 : 22) حيث ذكر سيبويه امر
جعل النكرة اسما لكان والخبر معرفة قال (1 : 22 س 15) : « فالمعروف
هو المبدوء به ولا يبدأ بما يكون فيه اللبس وهو النكرة . الا ترى أنك لو
قلت كان رجل منطلقا او كان انسان حليما كنت تلبس لأنه لا يستنكر ان
يكون في الدنيا انسان هكذا فكرهوا ان يبدؤوا بما فيه اللبس ويجعلوا
المعرفة خبرا لما يكون فيه هذا اللبس وقد يجوز في الشعر وفي ضعف
من الكلام حملهم على ذلك انه فعل بمنزلة ضرب . ا . هـ . » يعني ان كان
فعل وشبهوه بالفعل المتعدي ضرب لانه ينصب الخبر .

واستشهد سيبويه على ما قاله بآيات منها بيت حسان
(1 : 23 س 4) :

كان سبيئة من بيت راسي يكون مزاجها غسل وماء

في طبعة بولاق (سبيئة) كما في رسالة القفران وفي هامشي طبعة بولاق رواية الأعلام في شرحه (سلافة) وكذلك في شرح ابن السيرافي وذكر « كان خبيئة » بالخاء المعجمة مكان السين . وقال الأعلام بعد أن ذكر أن بيت راس موضع أنه قيل فيه أن راسا مراد به رئيس الخمارين أو اسم خمار بعينه . والوجه الأول أوضح واجود ولا يخلو هذان من تكلف .

وسال ابن القارح حسان من الأوجه الثلاثة في هذا البيت (ص 236 س 5 - 7) . وذلك قوله : « كيف قلت يا أبا عبد الرحمن أكون مزاجها غسل وماء أم مزاجها عسلا وماء أم مزاجها غسل وماء على الابتداء والخبر ؟ » .

ويضرب أبو العلاء عن أن يجيب حسان . ونصب مزاجها هو الوجه المروي ولا بأس به في الشعر وإنما يضعف في غير الشعر . ورفع مزاجها على أنها اسم يكون ونصب عسلا على أنها خبر وماء من كلام مستأنف وجه منسوب إلى أبي عثمان المازني يجتهد به وقد غمز أبو العلاء أبا عثمان المازني على لسان الأصمعي إذ قال له (283 س 7) : « يا فصعل » أي « يا عقرب » ينزه بذلك . والوجه الثالث على أن اسم يكون ضمير الشأن . وزعم ابن السيرافي أنه يجوز أن يكون في « يكون » مضمرة يعود على السلافة أو على بيت راس . أعاده على السلافة على تدكير المزاج الملابس لها وعلى بيت راس لدلالة المطل على الحال . وهذا تكلف من ابن السيرافي أشد من تكلف أبيه في ما نسب إليه من أنه أنشد « بشاشة » بالنصب وحذف التنوين ليجتنب الأقواء في البيت المروي على لسان أبينا آدم عليه السلام حيث قال يرثي ولده المقتول :

تفريت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
واودى ربع أهليها فبانوا وزال بشاشة الوجه المليح

قلت والوجه المليح لعل المراد به وجه حواء . وقال المعري يعلق على هذا الذي رآه أبو سعيد السيرافي (ص 363 س 10 - 11) :
« قلت أنا هذا الوجه الذي قاله أبو سعيد شر من أقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة . ا . ه . »

وقديما قالت العرب :

ان بنى زملوني بالدم شنشنة اعرافها من احرم

وقالت :

بابه اقتلني عدي في الكرم ومن يشابه ابيه فما ظلم

وكان في ابي العلاء عن السيرافي بعض العدول . وقد كان ابو حيان التوحيدي يثني عليه ويميل اليه ميلا شديدا وللناس فيما يعشقون مذاهب، غير انه ما احرى ان يكون مذهب ابي العلاء في باب اللفة والنحو اجود والله تعالى اعلم .

وحسبنا في هذا المجال هذه المسائل التي عددها اثنتا عشرة مسألة كعدة الأسباط والنقباء وابراج السماء واشهر العام وساعات اتصاف الايام ونامل ان نفرد لمسائل الففرانيات في اللفة وغيرها سفرا قائما بها ان شاء الله تعالى ومنه العون وبه التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

د . عبد الله الطيب

فاس

كِتَابُ الْإِحْاطَةِ لَاِبْنِ الْمُظْلِيْبِ

(4)

محمد بن تايوت

وفى 541 ورد :

فلم يك لي من دعوة المجد ابطاء	دعائي الى المجد لدى كنت املا
تند كما فيه وتقطع اكفاء	بفيضة ليث او بمرقب خالب
يبادرني منهم قيا وايلاء	واخوان صدق من صنائع جاهه
ومن كل ما يخشى من الشر ابراء	سراع لما يرجى من الخير عندهم
لزومية فيها لوجدي افشاء	اليك ايا عبد الاله صنعتها
اذا عاب اكفاء سواها وايطاء	مبرة مما يعيب لزومها
واعوز اكلاء فما عاز اكفاء	وان لم يكن كل الذي كنت املا

ففى الاول « المجد الذي » وفى الثانى بفيضة بالكسر . اما « تند »
فالصواب ما فى النسخ وذكره المحقق « تبر » بالزاي ، وفى الثالث
« اخوان » بكسر الهمزة ، وفى الرابع « سراع » بكسر السين ، « وبراء »
بفتح الهمزة ، وفى الخامس « ابا عبد الاله » بالباء ، لا بالياء ، وفى
السادس « اكفاء » ، بكسر الهمزة الاولى وضم الهمزة الثانية ، لا بكسرها ،
وفى السابع « وان لم يكن » ، بلا ميم فيها .

وبعد هذه ، سقط « لابن رشيد » بعد « قوله » . وصحف المصراع الثاني من البيت ، الوارد أخيرا ، والصواب « لوكر جناحا » ، لا كر بالشدة وفي 542 جاءت أبيات من نفس القصيدة ، تصحف بعضها بالشكل ، من ذلك « أريحي » فعل أمر للعين قبلها وقد شكلت أريحي بسكون الراء وفتح الياء . وفي البيت بعد هذا « أرد » مضارع من الورد ، جواب دعيني قبله ، وقد شكل الدال ، بالتشديد والضم ، من الرد ، ولا معنى له ولا وزن .

وفي 543 وقع في أبيات منها ما وقع لسابقها ، مثل البيت الوارد بنهاية الصفحة هكذا :

يرددن فينا لحاظا مراضا يمرضن منا القلوب الصحاحا
ففيه شكل مراضا بضم الميم ، والصواب الكسر ، وشكل يمرضن ، بسكون الميم ، والصواب فتحها وتشديد الراء ، وبذلك تتزن الشطرة .
وفي 544 وقع في الأبيات ، شيء مما سبق ، كما في البيت الاول ، حيث نون « طلا » وهو مضاف ، ثم قطعت همزة « أن » وهي مسهلة .
وفي 545 وقع كثير من التصحيف بالشكل ، مثل « هد » في أولها ، فهي بالتشديد ، و « لا تبع » ، في الثالث ، فهي بسكون التاء ، « والغدو » ، في الثاني عشر ، فهي بضميتين فتشديد الواو مفتوحة ، وليست بفتح الفين ، وتسكين الدال ، وتخفيف الواو ، فلا يتزن بذلك البيت .
وفي 546 وردت أبيات هكذا :

يزجى للسفين وترجر البخيت (الصواب : ... السفين ،
نائب فاضل يزجى)

ويضيق من شكري لها الوقت (الصواب : أن الواو لولا
تحذف ، إذ ينكسر بها الشطر)

وطات لي الدنيا فلا موج (بفتح التاء ، لا كسرهما)

ردء ولا لمقاتلي مت (الصواب : لمقولي)

أدلي اليك به ولا حسب (الصواب : ولامت فالروى ، التاء)

لو سار في بهاء مقفرة (الصواب « بهاء » بالياء المثناة)

لتفجر الماء النмир بها ولا مشيت أرجاؤها المسرت
(الصواب « لفجر » ... وأمشيت ...)

وفى 547 تقتصر على البيت الثاني الوارد فيها :
آلت جلالتة وحق لها أن لا يحيط بكنهها نعت
والصواب « جلالة » ... « كنهها » بدون باء .

وفى 550 ورد بيت هكذا :

ما منهم الا امر مبارك مصباح ليل او صباح هجاج
والصواب « أفر » بالفين فالراء ، وبذلك يتناسب مع ما بعده ،
وورد البيت قبل الاخير ، غير مدور ، هكذا :
أساس كل رئاسة ورؤس كل سياسة وليوث كل هياج
(فالصواب أنهاؤه باللام الاولى لكل) .

وفى 551 جاء بيت هكذا :

ان خاض يوما فى بيان حقيقة أنهى من الثورى والحلاج
(الصواب « أربى على » كما فى نسخة ذكرها) .

وفى 552 جاءت أبيات بشكل مصحف ، مثل « ذمية » بالفتح على
الحال ، ومثل « اللما » الواجب تشديد لامها بالفتح .

وفى 553 ، كذلك ورد منه بيت هكذا : « من خلى الوعد كذابه »
(بتسكين اللام وتخفيف الياء ، وصوابه « خلي » بتشديد اللام والياء
بينهما باء) .

وفى 554 حصلت تصحيقات عديدة ، منها : كم ذاومن ، متائف
(الصواب : ذاد ... وهو ما فى الأسكوريال ، كما ذكر المحقق ، ولكنه
صوب - كما رأى - من النفع ، مع أن النفع ، فيه « كم ذاد من » وهو
الصواب ، فلعل الامر التبس على المحقق وانعكست القضية به .

زفت على ذكاء وقت زوالها (شكل « ذكاء وقت » بالكسر ،
والصواب الضم للاول فالفتح للثاني ، وتشديد ياء « علي »)

اسرى فمطرها وعطل شبيها (الصواب « فمطلها » باللام
وبالتشديد ، وكذلك عطل ، وشبيها بالتسكين)

دعني اشم بالوهم ادنى لمحة (الصواب « اشم » بالفتح فكسر
فسكون ، ولمعه بالعين كما بالنفع) .

وفي 555 وردت ابيات هكذا :

انا من بقية معشر عركتهم (عركتهم بفتحتين، بدون تشديد للراء)

حلت مدامة وصلها وحلت لهم (« وحلت » بالتخفيف ، بدون
تشديد للامه)

وعدت على سقراط صورة كاسها فهريق ما في الدن من جريالها
(الصواب « سورة » بالسين ، كما في النفع ، وذكره المحقق ، فلم يشبهه ،
ثم نهاية الشطر الاول بكاسها ، وتشكيل « فهريق » بالفتح للقاء لا بالضم)
وتعلقت في سهوورد فاسهرت (الصواب : تغفلت ، كما في
النفع وذكره المحقق ، وكان الواجب ثبته)

فخبا شهاب الدين لما اشرقت وخبا فلم يشبه لنور جلالها

(الصواب : كما في النفع ، وخوى ...)

وبدت على الشوذي منها لمحة (والصواب « نشوة » كما هو
بالنفع ، وأشار اليه ، ولم يشبهه ، وهذا لايق يبدت) .

وفي 556 وردت ابيات هكذا :

حجبوا بجهلهم فان لاحت لهم شمس الهدى عشوا بضوء ذبالها

(الصواب : عبثوا كما بالنفع)

واذا انتسبت فاني من دوحه تتقيل الاقيال ببرد ظلالها

(الصواب : يتفيا الانسان ، كما بالازهار)

لله درك أى نجل كريمة ولدته قاس منك بعد حبالها

(الصواب : حبالها بالياء ، كما بالازهار)

ولانت لاعدمتك والد فخرها (شكل ، عدمتك ، بناء التكلم ، ونصب ما بعده ، والصواب : تاء التانيث ووالد ميتدا)

أغلظ على من عاث من انذالها (هو بضم اللام ، كما فى القرآن ، وليس بالكسر) .

وفى 557 يجب تصحيح أول كلمة فى البيت ، « بآئل » أمرا ، من انال ، فهو بسكون اللام ، لا بضمها هكذا « وآئل » أمرا من التلاوة .

وفى 564 جاء بيت أولا هكذا

رضى قلت من كل ما يهوى
والصواب فيه :
فلا توقفني موقف الدل والشكوى

رضى قلت ما ترضين من كل ما يهوى
ثم جاء آخر هكذا :
فلا توقفيني موقف الدل والشكوى

وكم قد سالت الريح شوقا اليكم
فما حن سراها الي ولا الوى
(الصواب : علي ولا الوى)

وفى 565 جاءت أبيات هكذا :

وتضاحكت فحكت بنير ثفرها لمعات نور ضياء برق خلـب

(الصواب : لمعان ، كما بالنفع ، وذكره)

ما زال مذولى يحاول حيلة تدنية من نيل المنى والمطلب

(تصحف بالطباعة « تدنيه » بالتاء)

فقابل به بالبشر واقبل عشية فقد هب مسكي للنسيم عيلا

الصواب :

فقابل به بالبشري واقبل عشية فقد هب مسكي النسيم عيلا

وفى 566 جاءت آيات هكذا :

فجد كما جدت اليها وشمر من الساعد الاقوى تنل عندها سمدا

(الصواب : « وشمرن » وهو نهاية المصراع الاول)

وقالت الا اين مكلي قصدوا الى جمالي فقد أبدى الحجاب الذي أبدى
والبيت لا يتزن الا بتشديد « قصدوا » - وهنا تكون نهاية المصراع
الاول - وحذف « الى » بعده ، ثم ياتي المصراع الثاني ، وهو واضح ،
على عكس الاول ، الذي ربما تحرف « قصروا » فيه بقصدوا .

ومن ساهر على النجوم ولم يدق بعينه طعم النور او يبلغ القصد

(الصواب : طعم النجوم)

وفى 568 ورد اولها بيت هكذا :

هذا به الله اقواما به سمدا ، لولاه كانوا مع الكفر كفارا

(الصواب « هدى » و « سعدوا » و « مع الكفار » ...)

ثم جاء البيتان هكذا :

فاغتنم ساعة الوصال وكس من محنة وهي منحة من نوال

(الصواب : انهاء الاول بمن)

فاذا غبت عنك فاحضر تجدها للجواب المفيد من السؤال

الصواب انتهاء الاول عند « تجدها » ولعل « ذاك » سقطت بعد « عن »
وفي 569 جاء اولها بيتان هكذا :

فهي نور للنهار والنور منها (الصواب : فهي نور النهار ...)

فاستدما تدم ولا تضج منها (الصواب : ... ولا تضجن ...)

يا امانى الذي بودي لو امكن نصي اليه او ار قال (كذا ،

والصواب : جعله مدورا بامكن ... ثم ار قال

واذا الوقت ضاق وسعه بالصبر ولا تنس من شهير المقال

(الصواب : انتهاء الشطر الاول بباء الصبر)

وكذا البيت الاخير فهو مدور ، من قصيدة لابن ابي الصلت ، فوجب

وضعه بين قوسيه .

وفي 573 وردت ابيات هكذا :

فتى هاشم سبعا الى كل علية وصبرا معار الحيل فى كل فادح

(الصواب : « هاشم » بالكسر لا الضم ، ثم غاية لا علية ومعار القتل)

اذا ما احتبى مستحضرنا فى بلاغة وخيضى خضم القول منه بسابح

(الصواب : مستحضرا فى بلاغة ...)

ليهنك شمس الدين ما حزت من علا خواتمها موصولة بالفواتح

(الصواب : انتهاء الشطر الاول بالمللا)

بقيت منى نفس وتحفة رايبد ومورد ظمان وكعبة مسادح

(الصواب : وتحفة قادم ، بالنصب كسابقه المضاف الى نفس وما بعده

منصوب بالمطف كذلك)

امن مطلع الانوار لمحة لامح تعار لمفقود من الحي نلرح

(الصواب : لمحة بالضم ، ومفؤد بالهمزة ، كما بالنفع)
وفى 574 وردت أبيات هكذا :

فيا فيض عين الدمع مالك والحمى ورنده الحمى والشيخ شيخ الشيخ
(الصواب : الاشايح كما بالنفع)

سقى الله ذاك الحي ودقا فانه حمى لمحات العين عن لمح سامح
(الصواب : « لامح » لا سامح)

ويا دوحة الريحان هل لك عودة لعقر عقار الانس بين الابطاح
(الصواب : « الريحان » فهو مصحف)

اقام بها الفخر ابن الخطيب منبرا لترتيل آيات للندى والمنايح
(الصواب : حذف « ابن » ثم « الندى »)

فبشر اكشمس الدين ساد بك الورى واورى الهدى للرشد اوضح واضح
(الصواب : كما فى النفع ، فبشرى لسان الدين)

بارائك التي تدل على الهدى وتبدي لمن خصصت سبل المناجح
(الصواب : اللاتى ... سبل بالباء)

وفى 575 جاءت أبيات هكذا :

ملكك خصال السبق فى كل غاية وملكك من ملكك يا ابن الججاجح
(الصواب : انتهاء الشطر الاول بغاية ، ثم « وملكك ما ملكك » ...)

يهنيك بالعام الذي عم حمده مواهيب هاتيك البحار الطوافح
(الصواب : تهنيك ...)

فخذها سعي الفخر يا خير مسيل على الخلق افضا ستور التسامح

(والصواب : اخضاء ، بكسر الهمزة الاولى واثبات الثانية ، ليتزن البيت ، ثم نصب ستور مفعولا به)

قدومك ذا ابدى لدى الراية الحمرا تغور الرضى تغبر عن شنب البشري
(الصواب : تفتت ...)

ونخطب ما يا ابن الخطيب تشا من كرايم ذاك الحي اذ نهز الشعرا
(والصواب : « تشاء من » وهنا تنتهي الشطرة الاولى ، وتبقى بعد هذا « نهز » بالتشديد غير واضحة ولا يستقيم الوزن الا بنحو « هزت »)

سجدنا وكبرنا وقلنا رسولنا اتى بالذي يرضي بشري لنا بشري
(الصواب : فيشري لنا بشري)
وفي 576 اتت ابيات هكذا :

بقيت لنا كتفا منيعا مشرفا ودمت له عضدا ودمت له نصرا
(الصواب : كتفا بالسكون وكذا العضد)

ودمنا بكم فى كل امن ومنه ندير المنى خمرا او نطلي العدا جرا

(الصواب : « ومنعة » و « نصلي » بالواو)

هم القوم انصار النبي محمد وحزبه وعصبة الاعلام فى اليسر والعسر
(الصواب : حذف « وحزبه » ثم تبدأ الشطرة الثانية بوعصبته ، بالضم والاضافة) . وفيما عدا هذه فهناك تصحيفات بالشكل تركناها .
فيا سألني عنه وعن سطواته اذا لاح محفوا برايته الحمرا

(الصواب : انتهاء الشطر الاول بسطواته)

وفي 577 جاءت ابيات مصحفة بالشكل ، ومن غير ذلك هذا البيت :

« ما استطعت قيضا للعنان فانه احق السجايا بالعلا والمجد »

وصوابه هكذا :

فما اسطعت قبضا للعنان فانه احق السجايا بالاعلا منك والمجد

وفي 579 جاءت تصحيفات تقتصر منها على هذا البيت الذي اتى هكذا : حكيت لنا للفاروق حتى كانا بعين لا تكذب رويها

(الصواب : الفاروق ثم : « راينا بعين لا تكذب رويها .. »)

وفي 580 جاء تصحيف وسقط في المصراع الاول للبيت الرابع ،
فصحناه هكذا :

علي بن عثمان بن يعقوب ذو الملا

محمد ابن تاويت

تطوان

ابن خلدون سيفير...

د. عبد الهادي التازي

تحدث الناس عن الرئيس ابن خلدون مؤرخا واجتماعيا وفيلسوفاً وفقهياً... ولكنهم لم يسلطوا الكثير من الضوء - فيما اعرف - على الجانب الدبلوماسي من حياة ولي الدين ، ومع انه جانب مطرف في حياته، بل كان له اثر يذكر على بروز شخصيته وقوة عارضته وسعة معرفته .

ولقد اعترف ابن خلدون نفسه بالفواعل التي تركتها تلك التنقلات على مداركه عندما علق اهمية كبرى على الرحلة بالنسبة للذين يتوقون الى المزيد من العلم ، والتمكن من السند ، وعندما انحنى باللائمة على علماء المغرب من الذين كانوا يؤثرون الانطواء والانزواء على الضرب في اطراف الارض...

لقد عرف امراء تونس وفاس ، وامير غرناطة وملك قشتالة ، وامير بجاية وقسنطينة ، وامير تلمسان وسلاطين مصر وامراء دمشق واخيراً ملك التتر...

ولقد حضر عددا كبيرا من الاستقبالات والاحتفالات والمهرجانات التي تخصص عادة لعلية القوم ، بل وحضر عددا من لقاءات القمة بين الملوك ، والقادة والزعماء ، وشارك في مجالس على مستوى عال في التفكير والتدبير ... ففتحت له بذلك أفاق ما كان يمكن ان تفتح لغيره من مطلق الناس ... وكان يكفي - نتيجة لذلك - ان يتحدث الى جليسه لحظات قليلة ، ليكتشف فيه منجما ثريا للموانسة والمفاكهة ، والمصانعة والمسايرة والمحاورة والمراجعة ...

شيء واحد كان ينقص ابن خلدون في اداء مهامه السياسية على الوجه الاكمل ، ذلك عدم معرفته للغات الاخرى ، فقد كان يجهل اللغة المالية والقشتالية والمغولية .

لكنه اكتسب الى كل تلك الصفات ... مواهب اخرى جعلت منه مرشحا ممتازا لمحاورة الملوك ومفاتيحة الامراء ، ان في افريقيا او اوروبا او في اسيا ، كما جعلت منه رسولا خبيرا لمعالجة المستعصيات ومقارعة المشكلات . ان السفير في المفهوم الحضاري للكلمة ... ليس مشتقا من سافر بمعنى ارتحل ، ولكنه مأخوذ من سفر واسفر بمعنى اصلح بين الناس ، ومن ثمة وجدنا ان الصفة محل افتخار من لدن رجال السياسة والادب :

ولا ادع السفارة بين قومي ولا امشي بشر ما مشيت

ولقد حرص المتقدمون على ان يتوفر سفراؤهم - اضافة الى ذلك - على الابانة والشجاعة ، والظهور بالمظهر اللائق ، وكمال الصورة وجمال المحيا .. وتلك صفات كلها كانت توجد في ابن خلدون الذي اطبق المتحدثون على فصاحته ووسامته وقسامته ...

وان الذي يشير انتباهنا منذ البداية ان نجد ابن خلدون يضع لنفسه (بطاقة زيارة) بل نبذة حياة Curriculum Vitae قدمها الى

الذين يهمهم امر معرفة حياته ، وتلك عادة عرفت اول ما عرفت في اوروبا
اواخر القرن السابع عشر لدى اوساط السفراء والدبلوماسيين ... وهكذا
فاذا كان ابن بطوطة اول مبعوث مغربي اخذت له صورة عند زيارته للصين ،
فان ابن خلدون اول كاتب عربي الف ترجمة حياته بقلمه ... ولم يكن
ذلك من باب الانانية او حب الظهور كما لذ لبعض الباحثين ان يقولوا ،
ولكنه كان دليل تحضر وبادرة تقدم امتاز بها ابن خلدون على رجال
عصره ...

لقد فرض ابن خلدون اسمه على الذين يؤرخون للدبلوماسيين الذين
كانوا الى جانب كفاءتهم السياسية يتمتعون بثقافة واسعة وعلم غزير ،
فكنا نذكره عندما يذكر السفير الفرنسي بول كلوديل وجورج سيفير ياديس
احد سفراء اليونان ... وهما يحرزان على جائزة نوبل ...

هناك في مسقط رأسه تونس الخضراء اشتغل بكتابة العلامة لابي
اسحاق الحفصي ، وكانت (العلامة) تعني التعبير الذي يشعر بمصادقة
ملوك بني حفص على المراسيم والمخاطبات والذي كان يكتب بالقلم الغليظ
بين البسمة وما بعدها ، ويتعلق الامر بكلمة : (الحمد لله والشكر لله)
وهي غير (العلامة) التي كانت شعار بني مرين في المغرب الاقصى والتي
كانت على العكس من ذلك تأتي في آخر الخطاب او المرسوم وتحمل
بالخط العريض : « وكتب في التاريخ المؤرخ به » .

ومن بلاط تونس تحول الى بلاط فاس ليقوم بوظيفة كتابة السر
وانشاء المخاطبات وهي من اسمى الخدمات السياسية والدبلوماسية لانها
تعني الاتصال على مستوى عال باحداث الخارجية والداخلية ، وقد انسته
هذه الوظيفة مع السلطان ابي سالم ... كلما كان استهدف له من محن
ايام السلطان ابي عنان ... وهكذا امسى سمع السلطان وبصره وورده
وصدره ...

وقد كانت الاندلس في هذه الأثناء تعاني ما تعانيه من خلاف الرؤساء وشماتة الأعداء ، ولم يكن غريبا على البلاط المغربي أن تتناهى اليه الأخبار باضطراب السلطان محمد بن يوسف الملقب بالفني بالله ، إلى فقد عرشه في غرناطة بعد أن تسورت جماعة من أنصار أخيه اسماعيل (يوم 28 رمضان 760 = 23 غشت 1359) على القصبه التي كان الملك قد غادرها للتره في جنة العريف ...

ولم ينس العاهل المغربي أبو سالم أيام نفسه إلى الاندلس أثناء ازيمات طموحه ، وما كان يلقاه من مؤانسة لدى الأمير الذي أقصى اليوم عن كرسي غرناطة ، ولذلك رايناه يتوجه بسفارة لدى حكومة غرناطة ، أي إلى اسماعيل بن يوسف ، تسمى إليه في اجازة الملك المخلوع والافراج عن وزيره لسان الدين ابن الخطيب ...

وقد سمح للملك المخلوع بمفادرة الاندلس ، وافرغ عن وزيره ابن الخطيب وتمكن الملك والوزير من اللحاق بالمغرب ، فوجدا انفسهما بالحضرة يوم 6 محرم 761 = 28 نونبر 1359 حيث اهتزت للمقدم الرحاب ، وكان الاستقبال الذي تحدثت التواريخ عن حرارته وطلوته .

لقد أصبح العاهل المغربي على صلة مستمرة بالعاهل الاندلسي ، ولم يكن عنده من جليس يؤثر به أمير غرناطة الا ذلك الدبلوماسي الاريحي : ابن خلدون الذي وجد فيه السلطان محمد بن يوسف سلواه ومناه ... وامسى لا يفارقه حتى في رحلات الاستجمام التي كان يقوم بها أمير غرناطة عبر أنحاء المغرب متجولا بين الآثار ، زائرا للمعالم .

وقد كان ابن خلدون اول المتحدثين عن رسم مجسم (ماكيط) رآه ، في قصور بني مرين ، وكان يمثل جبل طارق الذي كان ما يزال تحت حكم المغرب ... على ان ابن خلدون كان من أبرز الذين عهد اليهم باستقبال سفارة السودان التي بعث بها إلى المغرب سلطان مالي : ماري دياط

(Marl DIATA) أو منسا (Mensa) زاطة كما تسميه المصادر المغربية ، ووجدناه بفاس على رأس الحاضرين مشهد اليوم الذي تقدمت فيه الوفادة الافريقية بهديتها (الزرافة) الى العاهل المغربي وحضر الوفد بين يدي السلطان وادوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة - على ما يروي ابن خلدون - والترجمان يترجم عنهم ، وهم يصدقونه بالنزاع في اوتار قسيهم على العادة المعروفة لديهم ... ولم يفته ان يسجل هذا اللقاء الذي له اكثر من معنى ، في دالية يقول في اولها :

قدجت يد الاشواق من زندي وهفت بقلبي زفرة الوجـد



لقد ظلت ايام ابن خلدون ، بعد مقدم امير غرناطة مزدحمة بالمشاغل ، فهو الوزير المستشار ، وهو المجلس المفضل الذي تتهاداه ردهات ابي سالم والغني بالله بل انه اصبح ينقطع في كثير من الاحيان الى مجلس ملك غرناطة ..



ان احدا منا لا يملك اسرار غيره ، وان احدا منا لا يمكنه ان يتفرس بما تبيته الليالي ... فلقد تطورت الاحوال بالمغرب حيث وجدنا الوزير عمر بن عبد الله اليباني يتمالأ مع غرسية بن اناطول قائد الحامية المسيحية على سلطانه ابي سالم ويستولي على دار الحكم بفاس الجديد منتهزا فرصة استجمام السلطان في (القصبه) من فاس القديم ، وهكذا تسايل الناس عن السلطان الشرعي وانفض من حوله الوزراء ! ولم يلبث ان حمل راسه في مظلة ووضع امام الوزير التائر يوم 21 ذي القعدة 762 = 22 شتنبر 1361 . وقد اضطربت الاحوال في اعقاب هذه الخيانة واجهز على (غرسية) واضطر الوزير عمر بن عبد الله الى خذلان الامير الذي كان قد نصبه عوض ابي سالم حيث تبين انه لا يتمتع بقواه العقلية ... وطلب

وساطة الملك الفني بالله الذي كان ما يزال مقيما بفاس ، وساطته الى (دون بيدرو) ملك قشتالة يرجوه السماح للامير ابي زيان حفيد السلطان ابي الحسن بالقدوم للمغرب وقد كان لاجئا سياسيا هناك ... وهكذا غادر الامير المريني مدينة اشبيلية في المحرم 763 = نونبر 1361 في اتجاه المغرب ... ولا بد ان لا ننسى دور ابن خلدون الذي بقي بمعزل عن تلك الفتن منشغلا بمجالسة ملك غرناطة ، لا ننسى دوره في ربط الصلة بين الوزير المغربي والملك الغرناطي ... كما لا ننسى ان ابن خلدون - كان له دور كبير - وهو يقوم بهذه المهمة بين الوزير والامير في ان يحصل من الاول على الاقتناع بالتنازل عن مدينة (رندة) لصالح ملك غرناطة وكانت تابعة لبني مرين في ذلك الوقت ، ان ملك غرناطة كان آنذاك على اهبة العودة الى عرشه وكان ينتظر الظروف التي تسمح له بالتنقل بعد ان مهدت له الطريق ...

لقد استرجع فعلا محمد بن يوسف عرشه في غرناطة ، وحتى يشيد أسس ملكه على أساس متين دعا الرئيس ابن خلدون ليتولى منصبا ساميا في المملكة المسترجعة ...

هناك صفحة من التاريخ اعترتها ضروب من البتر والتحريف ادى لزاما على ان اقدمها على نحو ما قدمها مؤرخ معاصر هو شاهد عيان ...

ان عودة ملك غرناطة لم تكن وراءها فقط المساعي التي كان قد قام بها السلطان ابو سالم ملك المغرب قبل تصفيته ، بل لقد كان وراءها ايضا - وهذا بيت القصيد - ملك قشتالة بيدرو Pedro el Cruel (الملقب بالقاسي) وهذا يمثل جانبا من جوانب الحلف الثلاثي بين ملك المغرب وملك قشتالة وملك غرناطة ، هذا الحلف الذي كان موجها في الواقع ضد ثورة هنري دي تراستمارا اخي دون بيدرو غير الشرعي الذي استطاع في تلك الظروف ان ينال تأييد ملك اراغون بيدرو الرابع ثم ملك فرنسا شارل الخامس وكذلك البابا حيث اعترفوا به جميعا ملكا على قشتالة في السنة الموالية ...

لم يلبث اسماعيل بن يوسف ذلك الذي تسور بالامس قصبة غرناطة

للاستبداد بالحكم ... لم يلبث أن استهدف هو الآخر لعملية (تسور) أخرى ولكنها كانت أخطر وأفظع ، فلم تمض سنة كاملة حتى أجهز على حياته يوم 8 شعبان 761 = 24 يونيو 1360 ، ابن عمه محمد بن اسماعيل ابن محمد بن فرج بن اسماعيل بن نصر ... وهو محمد السادس الملقب بالغالب بالله ، وتسميه المصادر الإسبانية المعاصرة بابي سعيد ألبرميخو (Bermejo) (1) .

لقد شبه التاريخ محمد بن اسماعيل هذا ، بمحمد بن عبد الجبار المتوئب على دولة هشام ابن الحكم وهادم الدولة العامية ...

وبينما ملك قشتالة يعاني من مقاومة منافسية إذا بالامير محمد بن اسماعيل يوقع بالنصارى وقعة بوادي آش لم يتقدم العهد بمثلها ، نيف الأسرى فيها على الألف ومائتين ، فيهم الكبار والفرسان الدارعة ، دخلوا الحضرة في الحبال ، تضيق عنهم الطريق ، والقضاء العريض ... كان صنعا لا كفاء له تسببت عنه موجة صاحب قشتالة ودعوته لعدوه بالمغرب الفني بالله اذ كانت ظروف بيدرو الداخلية لا تسمح له بالتصدي كلية الى محمد بن اسماعيل ...

وهكذا خدمت الظروف قضية الملك المخوع فرجع الى عرشه يوم 29 جمادى الأولى 763 = 16 مارس 1362 (2) بعد أن اضطرت وارتبكت الأحوال على محمد بن اسماعيل الذي رأيناه يسلم نفسه لصاحب قشتالة في طائفة عديدة من أصحابه حيث أساء بيدرو القاسي معاملتهم ، فقتل ابن اسماعيل بنفسه بعد أن مثل به في طليطة ظاهر اشبيلية .

لقد وجد الفني بالله نفسه منذ الأيام الأولى أمام مشاكل الحدود بين مملكة غرناطة وبين مملكة قشتالة ، وحتى يضمن لحظه مع الملك دون بيدرو مستقبلا أكثر استقرارا وأوفر راحة ، قرر أن يبعث بسفارة الى

(1) معنى (Bermejo) بالاندلسية اللون البرتقالي الصارب الحمرة ، وذلك نسبة الى لحيته وشعره ..
(2) مختار المبادي : فترة مضطربة في تاريخ غرناطة ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد 1960 ص : 44 .

أشبيلية عاصمة قشتالة . . . إن الملك بيدرو في حاجة إلى أن يتفرغ لمناوليه الذين يتهاون عليه من كل جانب ، فملك أراغون كان يحاول أن يحالف تلك فرناطة على ملك قشتالة وهنري أخوه غير الشرعي يشاقب هذه العلاقة ويمنعها عنه في ذلك من ذكرنا . . . وهكذا فالبرغم من معاداته للمسلمين فإنه كان بحاجة إلى تعزيز صداقته مع ملك فرناطة لضمان كيان قشتالة ضد أعدائها من الداخل والخارج ، هذا إلى الحفاظ على علاقته الطيبة مع قيادة المغرب .

ولم يقع اختيار السلطان الفني بالله الأعلى ابن خلدون الدبلوماسي المحنك ليقوم بهذه المهمة الدقيقة في نهاية سنة 765 = 1364 . كانت السفارة الإسلامية الثانية لدى بيدرو الأول بعد ابن مرزوق الذي كان راح سفيراً عن السلطان أبي الحسن . إن أعوص ما يتعرض له السفير من متاعب هي أن يعرف كيف يبلغ عن دولته ما تطلبه إلى الدولة الأخرى في صياغة لبقة مقبولة ، وأن من أهم ما ينبغي أن يحتاط له السفير ، وجود مزالق له من حواليه على نحو ما نرى في موضوعنا من وجود مملكة أراغون بالمرصاد لكل المحاولات التي قد تمسها من قريب أو بعيد .

وكانت هذه هي المناسبة الأولى التي يحتك فيها ابن خلدون مباشرة بالعالم المسيحي ، لم يحتفظ لنا التاريخ بنص رسالة الاعتماد التي حملها إلى ملك قشتالة ولو أننا على يقين من أنه كان يتوفر عليها حسبما كان معهوداً في ذلك التاريخ . . . ولكننا مع ذلك ، وبفضل المذكرات التي سجلها ابن خلدون ، نتوفر على معلومات عن « الهدايا الفاخرة » التي صحبت السفير إلى ملك قشتالة من ثياب الحرير وفارغ الجياد التي يصفها السفير بالمقربة أي التي لم يصلها غريب عن نسبها أي أنها عتيقة أصيلة . . . وقد كانت الجياد مقرونة بالمراكب المثقلة المطرزة بالذهب . .

تمت المقابلة بالقصور الأشبيلية التي كانت بالأمس مجالس لملوك الأندلس والمغرب ، ولا شك أن هذه المباني بما تتوفر عليه من وشي ونقش ، أثارت في نفس ابن خلدون ذكريات الأسلاف والأجداد . . بل أن السفير ابن خلدون ، وقد أتاحت له فرصة زيارة معالم المدينة ، عاين آثار آبائه بالعاصمة الأندلسية . . .

كان ابن خلدون أثناء حديثه عن هذه المهمة السامية يستحضر
ذاكرته أتم استحضار ... فهو يستعرض شريط التكريم الجيم الذي لقيه
من عاهل قشتالة ، وكانما بدا له أن هناك تجاوزا في تلقيب بيير بالقاسي ،
لقد وجد فيه مثال اللطف ودماثة الخلق وظهر اهتمامه بأوائل سلف ابن
خلدون في اشبيلية ...

يحدث أحيانا أن تخدم السفير ظروف لم يكن ليحظم بها ، على نحو ما
تصادفه أحيانا من ظروف معاكسة لم يكن يتوقعها ... وها نحن نجد ابن
خلدون يصادف بمجلس العاهل الأسباني شخصية كان تعرف عليها وهو
ببلاط السلطان أبي عنان ... ويتعلق الأمر بالطبيب المنجم إبراهيم بن
زئدر اليهودي الذي كان السلطان أبو عنان استنعاه من الأندلس للتداوي
وكان يومئذ بدار ابن الأحمر ... وقد اتجا إلى ملك قشتالة بعد مصرع
رضوان حاجب الفنى بالله أواخر رمضان 760 = أواخر غشت 1359 على
ما أسلفنا ، حيث أصبح فى سلك الأطباء التابعين للبلاط القشتالي ...
لقد وجد ابن خلدون فى هنا اليهودي سندا نفعه عندما أخذ يقدمه إلى
الملك بعبارات مفرقة فى التقدير والثناء ، الأمر الذى زاد فى حظوظ
نجاحه ... وتلك مفاجآت نادرة تسعف فى بعض الأحيان ...

لقد كاد ذلك التقديم أن يتسبب فى تحول فريد من نوعه فى حياة ابن
خلدون ... أن العاهل الأسباني أمسى يطمع فى أن يقبل ابن خلدون المقام
لديه بصفة نهائية ، وهو أى ملك قشتالة ، مستعد أن يرد على ابن خلدون
تراث أجداده بالعاصمة ولو أن تلك الأملاك أمست بيد زعماء الدولة .. !

لقد كنا - لو تم الأمر - سنجد أنفسنا أمام حالة لا تقل شلوذا من
المبادرة التى اتخذها الشريف الإدريسي عندما اختار المقام قبل قرون
لدى بلاط روجي فى صقلية !

لقد تجلت فعلا شهامة ابن خلدون فى أعلى صورها عندما تفادى
طلب العاهل الأسباني وعرف كيف يتخلص من هذه العروض المغرية ...
لقد كان امتحانا عسيرا فى نظرنا لصديق ابن خلدون ووفاته لمهودة سيما
وأمامنا عدد من الحالات المشابهة التى كشفت عن ضعف شخصية
السفير ...

وبالرغم من ان ابن خلدون لم يستجب لمطلب الملك بيبر الاول ... فان هذا الاخير اعتبر هذا الموقف من ابن خلدون دليل نبيل وسمية شرف ، وهكذا ضاعف من اكرام السفير وزوده بطائفة من الهدايا كان من بينها مطية فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبي ... قدمها ابن خلدون بدوره هدية الى السلطان الفني بالله ... وما نزال نشك الى الآن في القصد الحقيقي من الرغبة التي أعرب عنها ملك قشتالة للسفير ابن خلدون ، هل كان الأمر يتعلق فعلا بالاعراب عن تقدير العاهل الاسباني أم الأمر كان يتعلق بمؤامرة تحاك للوقعة بين ملك غرناطة وبين سفيره ابن خلدون على نحو ما حكى التاريخ عن صنيع ملك الروم بالسفير عامر بن عبد الله الشعبي سفير عبد الملك بن مروان عندما قال عنه : « العجب من قوم فيهم مثل هذا كيف يملكون غيره » .



وقد حاولت ان اجد صدى لسفارة ابن خلدون لدى بيدرو الاول في المصادر التاريخية الاسبانية وبخاصة لدى المؤرخ القشتالي المعاصر لويس دي ايبالا (Luis de AYALA) لكنني منيت بالخيبة وانا اقرا ان هذا المؤرخ لم يشير الى ابن خلدون اطلاقا في هذه المناسبة ولا في غيرها من جوليياته عن ملوك قشتالة بالرغم من اشارته الى رسالة النصائح التي ارسلها ابن الخطيب الى الملك دون بيدرو على ما يؤكد الزميل الدكتور احمد مختار العبادي المدير السابق لمعهد الدراسات الاسلامية في العاصمة الاسبانية ...

وهكذا فان كل مصادرتنا عن هذه السفارة كانت مصادر غريبة .. وفي صدرها ابن خلدون .. وكلها تشيد بنجاح السفير في مهمته كما تشيد بقوة شخصية الرجل وصلابة عوده . هذا وقد قدم السفير تقريرا للملك عن مقامه في اشبيلية ، وكانت مكافاة الفني بالله له ان اقطعه قرية البيرة بكاملها وهي من الاراضي السقوية بمرج غرناطة ... وحتى يعطي العاهل مشروعية للهبة الملكية اصدر منشورا بذلك كان ابن خلدون يعترم ادراج نصه في مذكراته ...

ونحن اذا ما رجعنا ذاكرتنا حول تلك الظروف الودية التي جمعت بين
غرناطة وفاس واشبيلية ... سنسمح لانفسنا بالقول او بالافتراض على
على الأقل ، بان ابن خلدون في سفارته كان يوطد اواصر الصداقة بين
العواصم الثلاث ...



وما من شك في ان حظوة مثل تلك الحظوة تثير سائر الذين كان
يتقربون من الملك بما فيهم الوزير ابن الخطيب ، ان الفيرة لا ترحم احدا
من الناس ...

وبهذا نفسر عزوف ابن خلدون عن المقام في غرناطة ...
واستجابته للدعوة التي تلقاها من صاحب بجاية ابي عبد الله محمد الذي
كان رفيقه في السجن بفاس ايام السلطان ابي عنان ... لقد اصبح ابن
خلدون فعلا حاجبا للامير منذ منتصف سنة 766 = 1365 قبل ان
يتغلب عليه ابن عمه امير قسنطينة ابو العباس ... سنة 767 = 1366 .

ويرد على ابن خلدون رسول من السلطان ابي حمو صهر امير بجاية
السابق ، يعرض عليه الحجابة وكتابة العلامة له في مملكة تلمسان في
نفس الوقت الذي اودع اخوه يحيى في السجن من طرف امير قسنطينة
بعد تغلبه على مخدم يحيى ...

ومن الطريف ان نجد قصبة تلمسان تحتضن في وقت من الاوقات
الاخوين الاثنين عبد الرحمن كحاجب ويحيى ككاتب ، ولكن على ان ينفضا
من حول ابي حمو ليصبحا معا في خدمة العاهل المغربي ابي فارس عبد
العزيز الذي استعاد تلمسان على ما كانت عليه في سابق العهد ...

ان الذين يقرأون التاريخ السياسي للشمال الافريقي منذ سقوط
الدولة الموحدية وطموح عدد من الولاة للاستئثار بالحكم في الاقاليم التي
كانوا يتولونها ، ليعرفون جيدا - اذا ما درسوا ذلك التاريخ من خلال
الارشيف الأروبي - ان الذين كانوا وراء تلك التمزقات ووراء الصدام بين

تلك الولايات ... كانوا يوجدون على الضفة الأخرى للمتوسط من الذين كان يهمهم بالدرجة الأولى تفتيت القوى التي تفذي الدولة الإسلامية وهي التي تشرك معهم أوروبا ، ولم يكن خفيا على المؤرخين وعلى راسهم ابن خلدون وجود حاميات من جند الفرنج الى جانب كل زعيم من زعماء ذلك المغرب المتطاحن ...



ولعل هذا ما دفع بابن خلدون الى القلق ... ثم الاجازة لبلاط الأندلس بعد وفاة السلطان أبي فارس ، ولكن ليعود فورا منه الى بلاط تلمسان قبل ان يلتحق بالسلطان أبي العباس صاحب تونس الذي خاطبه ابن خلدون بلاميته التي يقول في مطلعها :

هل غير بابك للغريب مؤمل ؟ أو عن جنابك للأمانى معمل ؟

لقد كنت أتصور ان ابن خلدون عاد الى تونس هذه المرة من أجل ان يستريح ... لكن عذريت للسياسة كان ما يزال يلزمه بالرغم مما كان يتراءى امامه احيانا من اشباح تنذر بهول المصير ، كيف وهو يسمع عن مصرع اخيه يحيى في تلمسان في رمضان من عام 780 = دجنبر 1378 من طرف شيعة الأمير أبي تاشفين ؟ !

لقد كان ابن خلدون على علم جيد بما تسنه السياسة من شرائع ، وما تروجه من بضائع ، وما تسوغه من فظائع ، ولذلك فانه كان على حذر دائم ويقظة مستمرة بما يدور من حواليه . ان من جهة الأمراء او جهة العلماء ...

ولقد ظهر لابن خلدون بتونس منافس جديد هو الامام ابن عرفة الذي كان يرى في ابن خلدون مثالا للفقهاء المتسكمين على أبواب الملوك والأمراء ، وانه لا يعمل بذلك على صيانة العلم والعلماء ... ومن هنا وجدنا ابن خلدون يقرر الرحيل الى القاهرة متخذاً له من فريضة الحج عذرا يلتمسه لدى السلطان أبي العباس ، ومن الطريف ان نجد ابن عرفة يتابع ابن خلدون

حتى مصر عندما سمع ان حاكمها ولاء قضاء المالكية . فلقد اثر عنه قوله
عندما قدم الحج 792 = 1389 كنا نعد خطة القضاء من اعظم المناصب ،
ولما بلغنا ان ابن خلدون ولي القضاء عدناها بالصد من ذلك !

لقد امسى ابن خلدون بعاصمة المماليك متعرفا على بلاط الامير
الظاهر برقوق ، ان الرجل لا يقنع بمخالطة اي كان ، ولكنه داب على ان
يظل ((خالصة الملوك والسلاطين)) على حد تقديم الظاهر لضيفه ابن
خلدون ...

من يدري ؟ لعل ابن خلدون كان يؤمن بالنصيحة التي اسداها السفير
القاضي ابو بكر بن العربي في رحلته حين دخل الى بغداد وتعرف
بسلطانها : « نعمة المعرفة التعرف بالسلطان ، والتشرف به عند التغرب
عن الاوطان ، ونعم العون على العلم الرياسة بالامن والاستيطان : » (1)

فهل اعتزل ابن خلدون السياسة في مصر ؟ ... الواقع اننا وجدناه
هناك ايضا يقوم الى جانب وظيفته كقاض للمالكية بدور السفير المقيم
الذي ما انفك متعلقا ببلاد المغرب ، وتقصد هنا بلاد المغرب ، (المغرب
الجواني) على حد تعبير ابن خلدون ..

اريد قبل ان اعرض للأدوار التي قام بها كدبلوماسي ماهر ، ان ابرز
ناحية من النواحي العاطفية التي لم ترحم ابن خلدون ولم يستطع كتمانها
واعني بها حنينه الى ديار المغرب الأقصى ... لقد مات ابن خلدون وكل
خلية من خلاياه تشكو الظما الى هذه الديار !

لقد عني اخوة لنا باقامة تمثال كامل له في احد ميادين العاصمة
التونسية مسقط رأسه ، واهتم اخوة لنا بوضع تمثال نصفي له بالجيزة من
مصر حيث أدركته الوفاة . ويفكر آخرون ان يرفعوا له نصبا في احد
ميادين دمشق باعتباره مخطئا لها من أسر التتر ... ويخطط الاسبان لاقامة
تمثال له في اشبيلية كذلك ... لكن ابن خلدون بما كتب وبما نظم ، يظل

(1) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة : نشر ، د. التازي ص : 958 - 259 .

الانسان الذي بقى متعلقا ببقعة ليست هي مصر ولا دمشق ، وليست هي تونس ولا تلمسان ، ولا اشبيلية ، ولا غرناطة ... وانما هي فاس التي كان لها اثر بارز في تنمية معارفه وتغذية عبقريته .

وقد تجلّى ذلك الشعور منه اولا في ملازمته الزري المغربي الذي كان يرتديه وهو كاتب لعلامة بني مرين ، ولهذا فقد ظل في القاهرة متميزا به ، وبذلك الزري كان يتجمل عندما يجتمع بعزیز مصر ، وبه كان يوم اجتمع ايضا مع ملك التتر ...

ثانيا ان كتابه الشهير الفه على شرف السلطان ابي فارس عبد العزيز، فهو الذي استحق عنده ان يذكر في الصلب هو الذي حلى به الديباجة ، واذا كان الكتاب قد قدم لغير ابي فارس فانما ذلك على سبيل الاتحاف والاطراف ...

ثالثا : ولنستمع اليه يحن الى المغرب وهو في غرناطة يخاطب ابن الاحمر بنونية بمناسبة عيد المولد الذي اخذت الأندلس تحتفل به اقتداء بالمغرب فلقد كان شعره يفيض تباريح واشواقا الى ديار المغرب ...

رابعا : وسنستمع الى حديثه مع تيمورلنك وكيف كان ذلك الحديث ينصب على المغرب الأقصى وكان ابن خلدون لا يعرف شيئا عن المغرب الأوسط والأدنى ، ولا عن الأندلس ومصر ، الأمر الذي تفسره تلك الأبيات التي اسر بها للوزير المغربي مسعود بن رحو وهو يستأذنه للانطلاق :

ووالله ما رمت الترحل عن قلبي ولا سخطه للعيش فهو جزيل !

ولا رغبة عن هذه الدار ، انها لظل على هذا الأنام ظليل !

لقد ظل ابن خلدون - كما اشرنا - يعتبر نفسه محسوبا على بلاد المغرب ... وبالمقابل فقد ظلت الدولة المغربية تتفقده في كل المناسبات، ان بالمواصلة وان بالمراسلة ، ويتجلى من خلال مذكراته انه لم ينفك يكتب اصدقاءه ويتلقى الاجوبة منهم في شتى المواضيع بما فيها اخبار البلاد ومواضيع الحدثن ...

لقد راينا ابن خلدون يهتم في مذكراته وهو في مصر - بالفتور الذي لاحظ أنه طرأ على العلاقات بين المغرب والمشرق في أعقاب سفارة الأمير ابن منقذ لدى المنصور الموحدي ... كما يهتم بعودة تلك العلاقات الى سالف عهدها عند ظهور بني مرين ...

كل هذا كان مقدمة أوردها ابن خلدون ليذكر في وضوح أنه لما اتصل بالملك الظاهر في مصر وعلم برغبته في الحصول على ود المغرب ... اغتنم فرصة وصول يوسف بن علي بن غانم شيخ الأعراب (عام 793=391) بالمغرب وعمل على اتصاله بملك مصر ... وأنه أي ابن خلدون تطوع وأخبر السلطان بمركز المبعوث المغربي المذكور ، فأكرم لقاءه وحمله بمد قضاء حجه هدية الى صاحب المغرب .. فيها النسيج والطيب والقسي ... وقد شكنا اليه أخلاذ جياذ مصر للراحة، وإيثارها للتنعم بدل الصبر على الاتعاب ، طالبا اليه ان ينتقي له خيلا من قطر المغرب ...

وهكذا وجدنا ابن خلدون يقوم بواجب السفير المقيم ، وقد راينا العاهل المغربي أبا العباس أحمد بن أبي سالم يستجيب الى أرضاء طلب مصر ! فينتقي عددا من الخيول الرائعة لمهاداة الملك الظاهر ... ومن الطريف ان نلاحظ أن الملك الظاهر - وقد استبطا تلقي الجواب من المغرب بعث مملوكه قطلوينا (Kutlo Boga) (1) بعد ان استشار الرئيس ابن خلدون الذي عرفه بالطريق الذي ينبغي سلوكه ...

وقد وصل المبعوث المصري الى المغرب فوجد أن الهدية قد استكملت ، وأن المبعوث المغربي يوسف بن علي ، على أهبة المسير بها عن العاهل الجديد أبي عامر ... ولا شك أن (قطلوينا) تحدث لدى مستقبله، في جملة ما تحدث ، عن ابن خلدون الذي كان معروفا جدا بفاس ... ولا شك أنه حمل أيضا السلام والتحية لذلك الوسيط النشيط .

(1) اسم مشهور الاستعمال في آسيا ، مركب من كلمتين : قطلو ومعناها مبارك ، وبفا ومعناها الفعل ، يسمون به تفاؤلا حتى يكون صاحبه قوي البنية سليم الجسم ، وقطلو بفا هذا توفي عام 821 ، وقد تولى نيابة الاسكندرية والحجابه أيام الظاهر ونيابة الاسكندرية أيام المؤيد .

وامعانا فى اعطاء مبادرة ابن خلدون ما كانت تستحقه عناية ، راينا ملك المغرب يفيض من عطائه على الرسول المصري الامر الذي كان - دون شك - يعيد الى ذاكرته صورة ابن خلدون وهو يتحدث اليه عن المغرب . .

وبعد ان قضت السفارة عيد الاضحى بفاس اخذت طريقها بمعية الشيخ يوسف بن علي مصحوبة بخمسة وثلاثين جوادا من عتاق الخيل المرسجة الملجمة بالذهب ، وبعدد آخر من السيوف المطلاة ، وخمس وثلاثين حملا من اقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد المنتقاة من احسن هذه الاصناف . . .

ترى كيف يكون شعور ابن خلدون وهو يسمع عن نجاح مساعيه الحميدة من اجل بعث العلاقات المغربية المصرية بعد طول ركود ؟ وما ذا تكون مهمة السفير غير تصفية الجو بين الاطراف .

وقد جد فى الساحة الشرقية حدث ساعد على ابراز شخصية ابن خلدون كدبلوماسي كبير وكسفير ناجح وكمفربي صميم . . . ويتعلق الامر بظهور التتر فى المنطقة ، وانسيابهم فى بلاد الشام ، الامر الذي حرك سلطان مصر لوقف الزحف ، فى منتصف ربيع الاول 803 = اوانسل نونبر 1400 .

ولم يجد ابن خلدون مناصا من ارضاء رغبة السلطان الذي حرص على ان يكون ابن خلدون ضمن ركبته .

وقد اضطر ملك مصر للعودة للبلاد لتطويق ثورة كانت تنتظر غيبته وامسى الموقف حرجا فى دمشق بعد ان اختفى الرؤساء وعميت الانباء . وهنا وجدنا ابن خلدون يقوم بدور السفير ايضا . . . ولكنه فى هذه المرة لم يسفر عن بني الأحمر او بني مرين ولكنه كان سفيرا للقضاة والعلماء الذين تطارحوا عليه اذ لم يكن غيره مؤهلا للقيام بالمهمة . . . انهم كانوا يرغبون فى الافراج عن دمشق وفى طلب الامان من الملك التتري تيمور لنك . . .

ولم تكن تنقصه الشجاعة ليسيير الى تيمور وهو يرتدي زيه المغربي حيث قدم الى سلطان التتر على أنه القاضي المغربي ، وهنا سنشاهد لقطة جميلة من لقاء ابن خلدون وتيمور . . ونسمع عن الحديث الذي جرى بين الرجلين وما تبع هذا الحديث من اتصالات متوالية كادت هي الأخرى ان تشد ابن خلدون الى بلاط تيمور على نحو ما كان الأمر بالأمس في قصر اشبيلية !

لقد اذن لابن خلدون في الدخول على تيمور وهو مستدفئ بخيمته في ايام الشتاء تلك ، وفاتحة ابن خلدون في السلام واوما ايماءة الخضوع . . . وهنا رفع تيمور راسه ومد يده الى ابن خلدون الذي اهوى على لثمها . . . وكانت تلك الإشارة الأولى للرضى . . والمؤشر الأول لأخذ فكرة عن مرونة السفير .

وحينئذ اذن له بالجلوس . . واحضر الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم ليقوم بدور الترجمة على نحو ما كان من الطبيب ابن نذرد في قشتالة . . .

سأله تيمور من أين جاء ؟ ولم جاء ؟ وهنا سمعنا مرة أخرى عن اعتزاز ابن خلدون بمغربيته من جهة ووفائه للمماليك الذين بروا مقدمه من جهة ثانية ، ولما سأله عن أسرته اجابه بانها توجد بالمغرب الجواني . . . وقد اثار هذا النعت ملك التتر الذي سال عن القصد منه ، فاجاب ابن خلدون انه المغرب الداخلي أي الأبعد . . . وبذلك حدد ابن خلدون الرقعة التي اختارها كوطن أصلي ينتسب اليه . . .

وقد وجد ابن خلدون متعة كبيرة في تقديم معلومات لتيمور عن طنجة وعن سبتة وعن فاس وسجلماسة التي كان يهتم بها الملك التتري باعتبارها قواعد البلاد ، ويظهر ان ابن خلدون كان بارعا في تقديمه للعواصم المغربية . . . وان حديثه عن بلاده كان مشوقا لدرجة ان تيمور طلب اليه ان يعد له دليلا مكتوبا عن اقاصي البلاد وادانيها ، جبالها وانهارها ، قراها وامصارها حتى لكانه يشاهدها على حد قوله . . .

ويمكننا أن نتصور من خلال هذه المجادلات تمكن ابن خلدون من سلطان الشر الذي رآناه غلاوة على هذا يدعو المواطن المغربي لتناول طعام (الرشقة) معه ، وهي صحن يتقن أهل الشام الى الآن تحضيره . . .

أن على السفير أن يعرف كيف يؤدي الشكر على ما يتناوله من طعام وشراب وما يقدم له من عطر وطيب . . وأن على السفير أن يعرف كيف يتصيد المناسبة لاثارة حديث ما من الأحاديث حتى يستفيد من ذلك لقضاء الغرض الذي من أجله حضر . . . !

وكذلك كان ابن خلدون . . . فقد اكل وشرب واستطاب واقبل على الحديث مع تيمور بواسطة الفقيه عبد الجبار . . . أنه ، حسب تجاربه التاريخية ، كان يتوقع ظهور زعامة بالمشرق ولذا فانه كان يتمنى منذ سنين أن يقابل هذا الزعيم ! كان حوارا طريفا بين العلامة المغربي والزعيم التتري . . . لم يقطعه الا وصول الأخبار بالترام القضاة والعلماء الطاعة في مقابلة الأمان الذي أعطى لهم بمقتضى وساطة ابن خلدون . . . وهكذا فتحت ابواب دمشق . . .

ولم تنته مع هذا مهمة ابن خلدون ، فقد كان احتل مكانه بين حاشية السلطان تيمور الذي كان ما يزال ينتظر منه التأليف الذي طلبه اليه حول بلاد المغرب . . . ولم يكن ابن خلدون كسولا ولا بطرا فقد انكب في بيته على تحرير الكتاب الذي بلغ اثنتي عشرة كراسة ترجمت الى اللغة المغولية بأمر من السلطان تيمور ، وبذلك كان مؤلف ابن خلدون اول مصدر كتب باللسان التتري - في علمنا - عن تاريخ المغرب ، وهي الحقيقة التي ترددها الى اليوم علاقات المغرب بموتغوليا .

ويزداد ابن خلدون مكانة لدى تيمور فيحضره مجلس فتوى للاستشارة في نازلة سياسية تتعلق بالخلافة الاسلامية ، ويتعلق الأمر بحفيد لبني العباس ورد يحتج بحقه في الحكم دون التتر عملا بما قال : انه حديث مروي ((الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا)) . . وقد أكد ابن خلدون أن الحديث غير صحيح . . . واغتنمها فرصة ليقدّم عرضا عن تنقل الحكم الى بني العباس . . . لقد انتزع ابن خلدون أعجاب تيمور لنك على نحو ما كان من سفرنا القدامى من أمثال ولد هاشية وابن حنو .

وقد استيقظ ابن خلدون بعد هذه المؤانسات التي انسته فيما وراه ... استيقظ ليعرف شيئا عن غده ... أن الأيام تسلمه الى ليل ، وما تلك كل امانيه التي يرتقبها ... فليشعر تيمور لك بما من شأنه ان يفتح الحديث عن ذلك الغد ... وليفكر في ان يقوم بمبادرة تعتبر في صدر ما يعني به الدبلوماسيون ، وهكذا قرر ان يقدم لتيمور هدية ... فانتقى مصحفا حسن الخط رائع التجليد ، وسجادة انيقة ونسخة من قصيدة البردة اضافة الى اربع علب من حلوي مصر ...

وقد وقف تيمور اكبارا لابن خلدون عندما رآه مقبلا مصحوبا بالمساعد الذي يحمل الهدايا ... ووضع تيمور المصحف على راسه وتناول السجادة وقبلها ... ثم ساله عن البردة ما هي ... وكانت فرصة لابن خلدون ليقدم ناظمها على انه مغربي الاصل الامر الذي يفسر ولوع المغاربة بانشادها مع الهمزية في مثل تلك الايام الربيعية التي تعتبر ايام مولد .

ولم يلبث ، بعد ان تناولوا الحلوى ، ان استاذن سلطان التتر ليكاشفه بانه هنا غريب مرتين ، فهو اولا بعيد عن وطنه المغرب ، وهو ثانية بعيد عن مصر ... ويرجو - والحالة هذه - ان يعرف راي (تيمورلنك) فيما يؤنس غربته ، فساله السلطان عما يريد بالضبط ، ولكن ابن خلدون كان محتارا في امره ، فطلب الى السلطان ان ينوب عنه في التفكير والتدبير !..

وهو الامر الذي استدعي من تيمور ان يطلب الى ابن خلدون ان يلتحق بالمعسكر ريثما يجتمع به مرة اخرى بعد تبينت الراي ...

ولم ينس ابن خلدون - وهو على هذا الحال من الضيق - ان يفكر في المخلفين الذين وردوا مع ملك مصر من القراء والموقعين واصحاب الدواوين والعمال .

((لقد صاروا اليك - يقول ابن خلدون مخاطبا تيمورلنك - والملك لا ينبغي ان يغفل عن مثل هؤلاء)) ... فقال له تيمور : وماذا تريد لهم ؟ فاجابه : مكتوب امان ... فامر تيمور بكتابة المرسوم في الحال !

وهكذا نجح ابن خلدون في هذه الوساطة الجديدة التي تعتبر أيضا من أدق الوساطات وأكثرها جرأة ..

ويظهر أن تيمور لنك أراد أن يكافئ ابن خلدون على هديته ولكن من دون ما أن يشعره بامتنان عليه ... فسأله هل ما إذا كان يقبل بيع بغلته ؟ ولكن ابن خلدون الذي لم تفارقه المجاملة الدبلوماسية التي عرفت لها الأيام ، أجاب تيمور : مثلي - اينك الله - لا يبيع من مثلك ! انما أنا اخدمك بها وبامثالها . !

وقد شعر تيمورلنك بأن منطق البيع والشراء لم يكن لائقا بابن خلدون ، فاكد له عن نيته في المكافأة ، ولكن ابن خلدون قال له : وهل بقي احسان وراء ((ما احسن به بعد ان احله محل خواصه)) ؟ !

ويتعرض ابن خلدون لامتحان آخر كان اشبه بمغامرة منه الى محاورة ، سأل أخيرا تيمور وهو يودعه : هل ما إذا كان يقصد مصر ؟ فاجابه ابن خلدون - ولكاتكما يضع نفسه رهن إشارة تيمور ... - : رغبتني ، اينك الله ، انما هي انت ، فان كان السفر الى مصر في خدمتك فنعم والا اقمنا هنا ... ولكن السلطان اجابه : لا ... بل تسافر الى اهلك وطلب الى أنه ان شيع المبعوث المغربي الذي وجدناه بمصر بعد أيام .

لا اريد ان ادخل هنا في المقارنات والمفارقات بين موقف ابن خلدون من عرض ملك قشتالة عليه بالأمس ، وبين موقفه اليوم وهو يعرض نفسه على ملك التتر ... فان الفرق بين الظروف والأشخاص واضح ، ولكن المهم ان نعرف ان اتصال ابن خلدون بتيمور لنك لم يمر دون تعليق ، وهكذا فحتى يقوم ابن خلدون بدوره كسفير متطوع لبني مرين ، رايناه يتوجه بتقرير الى العاهل المغربي ابي سعيد يخبره فيه بظروف الحادث ويعرفه بتاريخ التتر ونشاطهم ، وبما دار بينه وبين السلطان تيمورلنك . ويبدو ان التقرير كان جوابا عن كتاب سابق من سلطان المغرب لابن خلدون ، وقد كان من أهم ما احتوت عليه الرسالة ما يلي :

((...)) وان تفضلتم بالسؤال عن حال المملوك فهي بخير والحمد لله ، وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني الى الشام عندما زحف التتر اليه من بلاد الروم والعراق ... ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها ... ثم قفل راجعا لمصر وتخلف الكثير من امرائه وقضااته (وكنت في المخلفين ...) وسمعت ان السلطان تيمور سال عني فلم يسع الا لقاؤه ... وحضرت مجلسه وقابلني بخير واقتضيت منه الامان لاهل دمشق واقمت عنده خمسا وثلاثين يوما اباكره وازاوجه ، ثم صرفني وودعني على احسن حال ورجعت الى مصر ... وحمدت الله على الخلاص من ورطات الدنيا ...))

وفي اعقاب توصل العاهل المغربي برسالة ابن خلدون بعث سفارة هامة لتهنئة الناصر فرج بما تسنى من تطويق الزحف التتري ... وقد اختير لرئاسة السفارة المغربية شخصية مشرقية الاصل على خبرة بتاريخ المنطقة وظروفها ، هي الشيخ ابو عبد الله محمد بن نفيس العراقي الكربلائي الذي كان مزودا برسالة اعتماد من السلطان عثمان بن ابي المباس تحمل تاريخ أواسط شعبان 804 = مارس 1402 ويوجد نصها ضمن رسائل صبح الاعشى ...



وبعد فاذا ذكرنا ابن خلدون ومعارف ابن خلدون ، فيجب ان نذكر الى جانب ذلك ان اختلاطه بالناس على مختلف المستويات وتعدد مجالسه في شتى المشارب ، وثلاثاته المستمرة بين الغرب والشرق ، بين افريقيا واروبا ، بين العرب والعجم ، بين المسلمين واليهود والمسيحيين .. ان نذكر آثار كل ذلك على صدق تجاربه ووضوح الافكار لديه ، ويجب اذا كنا نريد ان نتصور فضل تلك السفارات والاتصالات على مداركه ، ان نفترض ملازمته لقطر من الاقطار وانطواءه على نفسه في زاوية من الزوايا ... فهل سيكون هو ابن خلدون الذي طبقت شهرته الافاق ، وهل سيكون ابن خلدون الذي انتزع اعجاب قادة افريقيا واروبا وآسيا .. وهل سيكون

ابن خلدون الذي لم يتنزل في شكواه على نحو ما كان من زميله ابن الخطيب ، الذي رثى لذائذ الطعام لاختلال الصحة ومتعة النسوان للذهاب الشباب ، وملاحقة الأموال لضعف الأمل والتجمل بالثياب لتدهور المزاج ! وهل نجد فرقا بين ابن خلدون صاحب المقدمة وبين ابن خلدون صاحب البقية ؟

الرباط د. عبد الهادي التازي

مصادر البحث

- ابن خلدون (عبد الرحمن) :
التعريف بابن خلدون ، تحقيق وتعليق محمد بن تاروت الطنجي ،
مصر 1370 = 1951 .
- ابن خلدون (يحيى)
بقية الرواد ، تحقيق بيل الجزائر 1910 .
- ابن الخطيب :
أعمال الاعلام ، تحقيق بروفنصال ، بيروت 1956 .
صبح الأعشى .
- المقرئزي :
درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، تقديم : الدكتور
محمود الجليلي (مجلة المجمع العلمي العراقي 1965) .
- الناصري :
الاستقصا .
- مختار العبادي :
فترة مضطربة في تاريخ غرناطة : صحيفة معهد الدراسات
الإسلامية - مدريد 1960 ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس .
- د. عبد القني مغربي
ابن خلدون حياته وأعماله ، جامعة الجزائر .

- م. ع. عنـسان :
نهاية الاندلس - القاهرة 1949 .
- ع. الحـجـسي :
التاريخ الاندلسي 1976 .
- ماريدنو اريباس بالاو :
اوقاف الهدنة بين قشتالة وغرناطة ، تطوان 1956 .
- المركز القومي للبحوث الاجتماعية :
مهرجان ابن خلدون ، القاهرة 1962 .
- التـسـازي :
بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية .
تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى القرن السابع عشر .
الدار المتحدة للنشر - الجامعة الاردنية .
ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة .
- محمد شـمـام :
ابن خلدون وابن عرفة ، (ملقى الامام ابن عرفة بمدينة
تونس 1976) .
- مكتبة صـادر :
مناهل الادب العربي
- البـسـتـاني :
الروائع

M. Delafosse : Les relations du Maroc avec le Soudan à Travers les âges,
Hespéris 1924 p. 153 - 174.

M. TALBI : Ibn Khaldoun : Encyclopédie de l'Islam.

M. BEL : Ibn Khaldoun : Encyclopédie de l'Islam.

د. ع. هـ. ت.

الإزدواج اللغوي

د. تمام حسان

قد تعدد اللغة والثقافة ، وقد تعدد اللغة والثقافة واحدة ، وقد تعدد الثقافة عند ذوي اللغة الواحدة ، وقد تكون الثقافة واحدة واللغة واحدة . مثال تعدد اللغة والثقافة ما نراه من اختلاف بين المجتمعين العربي والروسي ؛ فاللغة مختلفة والثقافة مختلفة أيضا . ومثال اختلاف اللغة مع وحدة الثقافة ما يسود في سويسرا من قيام لغات مختلفة جنبا إلى جنب كالألمانية والفرنسية والإيطالية مع ما يقف بازاء ذلك من وحدة الثقافة السويسرية . ومثال اختلاف الثقافة ووحدة اللغة ما نراه من انتشار اللغة الانجليزية في بقاع مختلفة من العالم ، كأمريكا وكندا وجزر الهند العربية وأستراليا ونيوزيلندا ؛ فكل هذه المجتمعات تتخذ الانجليزية لغة لها ولا تعترف لغير الانجليزية بمكانة تقترب من مكانة الانجليزية عندها، ولكن هذه المجتمعات من التفاوت الحضاري والثقافي بمكان لا ينكر . اما وحدة اللغة حين تصادف وحدة الثقافة فامتثلتها كثيرة لا تكاد تحصى في عالمنا المعاصر وفي العالم القديم أيضا ؛ ويظهر ذلك على صعيد اللهجات أكثر مما يظهر على صعيد اللغات . ويجدر بنا عند هذه النقطة ان نشير الى أن المقصود بالثقافة أمر يختلف كثيرا عن المعلومات التي

يحصل عليها المرء من طريق سعة الاطلاع والاخذ من كل فن بطرف ؛ لان المقصود بالثقافة هنا المعنى الانثروبولوجي الذي يشمل طرق المعيشة والسلوك والتفكير والعمل والمأثورات القومية والعلاقات البنيوية بين افراد المجتمع وتوزيع الادوار الاجتماعية والوظائف التي يقوم بها الفرد طبقا للاعتبارات التي تسنها الجماعة .

ان النظرة العابرة الى وحدة اللغة مع اختلاف الثقافة (انجلترا وجزر الهند الغربية) قد تطرح علينا سؤالا حول امكان تعبير اللغة الواحدة عن ثقافتين مختلفتين . او فلنقل ان شئت هل تكون اللغة المعبرة عن ثقافة الامريكيين او الانجليز هي نفسها التي تعبر عن ثقافة سكان جزر الهند الغربية مثل جميكا وترينيداد ؟ ليس من الصعب ان نجيب على هذا السؤال ، لانه لا يحتمل في ضوء الحقائق السائدة الا جوابا واحدا . ان اللغة التي تعكس رؤية الانجليز او الامريكيين للعالم لا بد ان تختلف بطريقة ما عن الصورة الاخرى لنفس اللغة ؛ وهي الصورة التي تعكس رؤية سكان جزر الهند الغربية للعالم . تلك هي الحال مع وحدة اللغة وتعدد الثقافة واختلافها باختلاف الاقاليم التي تفصلها القارات والمحيطات . فما بالك اذا بتعدد اللغة ؟ حيثما تعددت اللغة (او بعبارة اخرى حيثما كان هناك ازدواج لغوي لدى الفرد او المجتمع) توقعنا ازدواجا في الثقافة ، اما كليا كما في الحالة الاولى (اختلاف اللغة واختلاف الثقافة) واما جزئيا كما في الحالة الثانية (اختلاف اللغة دون الثقافة) .

ومن دواعي التأمل ان ارتباط اللغة بالثقافة (بمعناها الانثروبولوجي السابق) يجعل انطباعات الفرد الناسء في محيط لغة ما عن المجتمعات الاجنبية عن لغته انطباعات مقولة تصدق على المجتمع في عمومها بقطع النظر عن الاختلافات الفردية بين ابناءه ثم انه يجعل الافكار والاحساسات المبنية على هذه القوالب مقولة بنفس الطريقة . وبذلك يسهل علينا ان نجد فردا من مجتمع بعينه يكن احساسا معيناً لمجتمع آخر بأكمله ، كان يعجب بهذا المجتمع او يحتقره او يود ان تكون له زوجة من بناته ، ولا يفرق في هذا الاحساس (اعجابا كان او احتقارا) بين فرد من ابناء هذا

المجتمع وفرد آخر ، ثم هو لا يبني حكمة ايجابا او سلبا بالضرورة على تجربة شخصية مباشرة ، ولا على مخالطة سابقة لابناء هذا المجتمع الاجنبي . والامثلة على ذلك كثيرة ، واقربها اليانا ذلك الاحساس المتبادل بين العرب واليهود ، او بين البيض والسود ، او بين الصينيين والروس . حتى اذا ما تعلم الفرد لغة ذلك المجتمع كان ذلك مظنة أن يعدل من افكاره عن المجتمع المذكور الى حد ما فينحسر ذلك الانطباع القلبي التركيبي شيئا فشيئا ليحل محله تفكير تحليلي يكشف عن المزايا والمثالب ، ويضع كلا منها الى جانب الآخر . ومن ثم يفتح الطريق امام تغيير الراي السابق لصالح هذا المجتمع او ضده كيفما تكون الاحوال . لهذا السبب يحرص كل مجتمع على نشر لغته في العالم ويسلط اساليب الدعاية المختلفة بواسطة لغته الى من تعلموا هذه اللغة ، سعيا الى التأثير على المجتمعات الاخرى وكسب صداقتها وتعاطفها .

واذا زواج فرد واحد بين لفتين فلا بد ان تكون احدهما غالبية على الاخرى ، بمعنى ان تكون واحدة منهما ادخل في نفسه واكثر ارتباطا بتعبيراته الانفعالية وتفكيره الصامت ، بحيث يعدهما الفرد فيما بينه وبين نفسه لغته الاصلية الاثيرة عنده ، ويرى الاخرى تالية لها في النفس حتى ان سبقتها في الاهتمامات العملية كالارتباط ببناء مستقبل الفرد من الناحية المهنية مثلا . ولقد اصبحت ظاهرة الازدواج اللغوي في يومنا هذا اكثر انتشارا مما كانت في اي يوم مضى . ومما اعان على انتشارها ما نراه من تقدم وسائل الاتصال بين ارجاء العالم حتى اصبحت العالم في وقتنا الحاضر اشبه بمجتمع واحد تعتمد فيه اللغات ، وبدا واضحا للعيان ان الذين يسمعون الى ان يكونوا مواطنين عالميين في ترايد مطرد لعلمهم بان الوصول الى هذه الغاية يعود على الفرد بفتح آفاق الفرض الثمينة التي لا تتحقق مع الاقتصار على لغة واحدة . وهكذا يحاول الفرد ان يجمع لغة الى لغته واضعا نصب عينه ان يتعلم اللغة التي تعينه على الوصول الى ما يريد ، وهكذا تخضع اللغات للمفاضلة قبل الاختيار . وكما كان التقسيم الهائل في وسائل الاتصال عونا على ايجاد ظاهرة الازدواج اللغوي اصبحت عونا على انتشارها وتحسين مستواها والوصول بها الى معارج من الاتقان

لم تطمح اليها في الماضي . ذلك بان سهولة الاتصال تجعل تعلم اللغات واثقان استعمالها امرا ميسورا اذا اخذنا في اعتبارنا ما جد من الطرق المتقدمة (سمعية وبصرية) في حقل تعليم اللغات . ولاول مرة في تاريخ تعليم اللغات الأجنبية تصبح لغة اجنبية بعينها بفضل هذه الطرق هي الغاية والوسيلة في وقت معا ، اذ يحتم البرنامج على الدارس ان يتعلم هذه اللغة بواسطة اللغة نفسها من خلال الاستماع والمشاركة الايجابية .

ما المقصود بالازدواج اللغوي ، وما العوامل التي يعتد بها اللسانيون في فهمهم لفكرة الازدواج ؟ دعنا ننظر في تعريف عالم اللسانيات الامريكي Bloomfield في كتابه Language (ص 56) . قال بلومفيلد ان « الازدواج اللغوي هو القدرة على استعمال لفتين كما لو كانت كل منهما اصلية » ولكن على هذا التعريف عددا من المآخذ اوضحها يتصل بالقيود الاخير من قيود هذا التعريف ، اذ ينص هذا القيد على قياس اللفتين معا بمستوى الاصاله . فالقدرة التي يعتد بها اللسانيون في مجال الازدواج اللغوي قدرة تنبني على تعود الاستعمال بتجاوز شحذ الجهود والتفكير والمعالجة في بناء الجملة . فاذا قلنا ان المقصود بالاصالة هو هذا التعود فان « التعود » ايضا لا يخلو من بعض الفموض ، لان فكرة التعود تهمل اعتبارات هامة في الاستعمال كصحة الجملة ومناسبتها والطلاقة في استعمالها . والذي يصدق على الازدواج صالح بنفس القدر على تعدد اللغات ؛ فكما يوصف صاحب اللفتين بانه Bilingual يوصف صاحب اللغات المتعددة بانه Multilingual او Polyglot وكذلك يوصف المجتمع بالازدواج كما يوصف الفرد ، غير اننا يجب ان نفرق في الفهم بين مشكلات الازدواج اللغوي عند الفرد ومشكلاته لدى المجتمع . ولدينا العديد من الامثلة نتمكن بواسطتها ان نفهم مشكلات المجتمع ذي اللفتين او ذي اللغات المتعددة . فالمجتمع الكندي في امريكا الشمالية يستعمل اللفتين الانجليزية والفرنسية ، والمجتمع الباراجواني في امريكا الجنوبية يستعمل اللفتين الاسبانية والباراجوانية ، والمجتمع السويسري في اوربا يستعمل الالمانية والفرنسية والاطالية ، والمجتمع البلجيكي يستعمل الفرنسية والفلمنكية ، والمجتمع

التشييكوسلوفاكي في شرق اوربا يستعمل التشيكية والسلوفاكية ، والمجتمع النيجيري في افريقيا الغربية تكثر فيه اللغات واهمها الحاوسا والفولية واليوربا والايبو والكانورية والكالابارية ، والمجتمع الهندي في آسيا يتكلم 845 لغة اهمها الهندية والاسامية والبنغالية والكوجيرانية والمراثة والكشميرية والبنجابية والسندية والسنسكريتية والاوردية والتاميلية والاوربانية وغيرها . وفي كل هذه المجتمعات معاناة لمشكلات تعدد اللغات وهي مشكلات تزيد حداثها او تقل بحسب نصيب كل مجتمع من الحضارة . على ان اهم هذه المشكلات على الاطلاق مشكلة تعدد الولاء اذ يصبح الازدواج في اللغة ازدواجا في الولاء ويفرض على الفرد في كثير من الاحيان ان يختار بين ولائه للطائفة وولائه للمجتمع في عمومه .

اما لدى الفرد فان المشكلات تبدو في صورة اخرى . ومع ان الزمان لا يعد حدا من حدود تعريف الازدواج عند الفرد يمكن التفريق بين انواع من الازدواج بحسب الطفولة واليافع والبلوغ ، كما يمكن التفريق بحسب المكان او الاماكن التي تعود الفرد فيها على استعمال اللغتين ، ثم بحسب ما اذا كان الاستعمال عاما او مقيدا بدور اجتماعي خاص يؤديه الفرد كان يكون معلما ولغة التعليم اجنبية مثلا . وكذلك يمكن التفريق بين نوعين من انواع الازدواج : أحدهما تتوازي فيه لغتان وثقافتان ، والثاني تجتمع فيه اللغتان على ثقافة واحدة ، وتختص كل منهما بادوار خاصة يؤديها الفرد في نطاق هذه الثقافة . ويغلب في هذا النوع الاخير من الازدواج ان يؤدي تداخل اللغتين (اذا صح ان نستعمل مصطلح ابن جني في هذا المقام) لاشتراكهما في ثقافة واحدة تقرب ما بينهما في الاستعمال . وهكذا نجد السويسري الالماني مثلا يسهل عليه التفاهم مع سويسري فرنسي او ايطالي اكثر مما يكون تفاهمه مع الماني غير سويسري . هذا بالنسبة للغة التخاطب بالطبع ، اما بالنسبة للغة الادبية فان الامة الالمانية هي مرجع الاستعمال الادبي في نظر السويسري الالماني ، وهي التي يقاس الادب بمعاييرها ، وبنفس العين ينظر السويسري الفرنسي الى الامة الفرنسية ، والسويسري الايطالي الى الامة الايطالية . والنتيجة التي لا بد منها لهذا الوضع ان تتسع الهوة بالتدرج بين لغة الكلام ولغة

الادب لدى طوائف السويسريين ، لان معايير الكلام محطية ومعايير الادب تفرض عليهم من خارج بلادهم .

ومن ازدواج نوع يسمى ديجلوسيا Diglosia . هو ما سبق ان اشرنا اليه من وجود مستويين متكاملين من مستويات الاستعمال اللغوي لدى الفرد الواحد يسمى احدهما الدارج ويسمى الثاني الفصحى . وذلك كالموقف الذي نسبناه منذ قليل الى الفرد السويسري الالمانى ، وهو الموقف السائد ايضا فى عالمنا العربى المعاصر . ويعتمد هذا النوع من الازدواج على اتجاهين متعارضين احدهما جامع وثانيهما فارق . فاما الاتجاه الاول فهو الميل الى المطابقة الذي يجعل الفرد يسعى الى ان يكون كلامه خاضعا لنفس المعايير التي يخضع لها كلام من حوله ، لان هذه المطابقة شرط فى الوصول الى التفاهم المشترك ، والى ايجاد رابطة لغوية تربط بين افراد مجتمع تعددت فيه اللهجات . فاستعمال الفصحى هنا يربط بين ابناء الجيل الواحد ، ويربط بينهم وبين الاجيال السابقة واللاحقة من المجتمع . واما الاتجاه الفارق فهو الاتجاه الى تأكيد هوية محطية معينة تعبر عنها لهجة دارجة ، فى مقابل هويات محطية اخرى تعبر عنها لهجات اخرى من هذه اللغة تتوزعها انحاء الرقعة الجغرافية التي يحتلها المجتمع . والمعنى الوحيد الذي يكشف عنه هذا النوع من الازدواج (الديجلوسيا) بالنسبة للفرد هو ان الشكلىين الاستعماليين المذكورين (الدارج والفصحى) يتقاسمان الادوار التي يؤديها الفرد فى المجتمع ، فتصبح ثمة ادوار يؤديها الفرد بالدارجة كما فى حياته الاسرية مثلا ، وادوار اخرى يؤديها بالفصحى كالكتابة والخطابة والتعليم الخ ، بحيث لا ينفرد شكل من هذين بنشاط الفرد الواحد . وشرط (الديجلوسيا) التوازن بين الاستعمالين وعدم التنافس بينهما ، ولعل هذا هو السر فى عبارة بلومفيلد الواردة فى التعريف : ((كما لو كانت اصلية)) . ولكن الذي ينبغي مع ذلك ان نشير اليه هو ان الموقف الازدواجى موقف يتنافى مع الاستقرار بالنسبة لتوازن اللغتين ، اذ قد تجد فى اى لحظة ظروف تدعو الى الاخلال بهذا التوازن لتأثيرها على مجرى حياة الفرد كالهجرة والتقلبات السياسية والاجتماعية . وقد يدعو

الموقف الازدواجي الى ايجاد نوع من التوتر الاجتماعي بين طوائف المجتمع كما في الهند ونيجيريا .

وليس معنى القول بالتوازن بين اللغتين في حالة (الديجلوسيا) انه يمكن ان يوجد تساو دقيق في مجال تمكن اللغة من النفس بالنسبة للغتين علي لسان الفرد ، فذلك امر يتعذر وجوده كما يتعذر قياسه . ولكن توجد حالات تقترب من التساوي يتصاعل فيها الفارق بين اللغتين على رغم من ان احدهما ما تزال تتغلب على الاخرى ، اما لانها وعاء لمعظم تجاربه او لاهمها ، او لكونها لغة خلطائه الدائمين وشركائه في حياته الخاصة، او لكونها اللغة التي يقرأ بها أكثر ما يقرأ . وليس من المستحيل على الفرد مع ذلك ان يكتسب لغتين فيتمكن منها كما يتمكن ابناؤهما منهما ، ولكن المتعذر هو دعوى التساوي البقيق بين اللغتين سليقة واستعمالا . ومن المستحيل ايضا ان نقيس القدرة النسبية لدى صاحب اللغتين فننعي انه اقدر على استعمال احدهما منه على الاخرى ، بحيث ننعي ان احدهما اوغل في ملكته او ايسر على اسلة لسانه ، لان قياس هذه القدرة يتجاوز في اساسه مجرد حساب كمية المفردات التي يعرفها الفرد من كل من اللغتين ، او اجادة النطق او الطلاقة في الكلام ، لان هناك امورا اخرى تتدخل في اجراء هذا الحكم ، منها مثلا اسلوب الاستعمال (الكلام او الكتابة ، العلم او الادب او مجرد الاتصال العادي الخ) ومكان الاستعمال (البيت او السوق او المدرسة الخ) والميل النفسي الى احدى اللغتين اكثر من الاخرى ، بحيث يفضل الفرد ان يستعملها في حياته اليومية مع الاقربين اليه . كل أولئك يصلح اساسا للقياس ، ومن ثم يصبح القياس الدقيق عسير المنال .

واذا كان ذلك كذلك اصبغ من المطلوب ان يكون القرار اعتباطيا او موقتا او مقيدا او مشروطا، وذلك لما ذكرناه من ان الازدواج امر غير مستقر قد يتغير الوضع معه بسبب الهجرة او الانقطاع عن بيئة معينة او لسبب عاطفي كتقلب العلاقات وتحول الولاء . ومع ان هذه الاسباب المذكورة يمكن ان تخضع للتحديد بحدود الزمان والمكان لا يترتب على هذا التحديد

سهولة القول متى بدأت إحدى لفتي الفرد تخضع للتغير بحسب موقف الفرد منها واتجاهه النفسي اليها . اما ما يمكن حسابه وتحديدده فهو الانتقال من إحدى اللغتين الى الأخرى (او انتقال اللسان كما يسميه ابن جني في الخصائص) كما نشاهد من أحوال المهاجرين من بلد الى آخر ذي لهجة مختلفة او المهاجرين من البادية الى المدينة لان هؤلاء يطمحون الى اكتساب هوية حضرية تمنحهم القبول في المجتمع الجديد فيكون ((انتقال سنتهم)) عونا لهم على تحقيق هذه الغاية .

يقولون ان اقرب اللغات الى نفس الفرد اولها اكتسابا ، ولكن من الصعب ان نختبر صحة هذا القول ونتحقق من صدقه او كذبه ، وذلك لما اشرنا اليه من صعوبة البت في الاحكام التي تتعلق بالمواطن . غير انه في ظروف خاصة مثل فقد القدرة على الكلام يظهر ان درجة فقد القدرة على الكلام باحدى اللغتين تساوي درجة الفقد بالأخرى اذا كانت اللغتان متساويتين في نفس الفرد عند حدوث المرض . اما اذا لم تتساويا في نفسه فاقربهما الى النفس أكثر مقاومة للفقد فتصبح عناصر هذه اللغة آخر ما يفقده الفرد عند المرض واول ما يسترده عند البرء . ومن المعتاد ان تكون هذه اللغة المتغلبة على اختها في نفس المريض أكثر اللغتين استعمالا قبيل الإصابة بالمرض ، وان تكون أيضا لغة المجتمع الذي يرتبط به المريض ارتباطا وثيق ، مع قطع النظر عن الترتيب الزمني لاكتساب اللغتين . وما دام تغلب لغة على أخرى في نفس الفرد لا يعد ثابته من ثوابت بناء الحكم على ظواهر الازدواج ، فان الوضع الذي تسود فيه إحدى اللغتين قد يتغير لصالح الأخرى ، ويمكن ان تتقلب الأمور بحسب هذا التغير عدة مرات في حياة الفرد الواحد . ولكن ذلك على رغم امكانه بعيد الاحتمال نظرا للرابطة الوثيقة بين لغة الفرد وشخصيته ، وما دام تغير الشخصية بعيد الاحتمال فهذا التغير الآخر بعيد الاحتمال مثله . ومن الملاحظ ان أقل اللغتين أهمية عند الفرد تتعرض للتدهور والضعف اذا لم تستعمل .

وليس من المحتمل ان يكون الازدواج اللغوي راجعا الى اكتساب اللغتين في عهد الطفولة ، ولعل التساوي بين اللغتين في التمكن من نفس

الفرد لا يتوقف على ذلك أيضا . ويرى كثير من اللسانيين أن التقدم الذي يشهده تعليم اللغات في وقتنا هذا وسيلة من وسائل خلق ظروف الازدواج، فمن تعلم قدرا كافيا من لغة أجنبية يجعله قادرا على استعمالها لغرض من أغراضه فهو مزواج . وهذه الملاحظة ولا شك عظيمة الأهمية بالنسبة لمن يتصدى لتخطيط تعليم اللغة الثانية تعليمًا يرمي إلى غاية شمولية تستخدم بها اللغة الثانية في مختلف الأغراض (كتعليم العربية الفصحى لأطفال العرب) . ومعنى هذا أن تعليم اللغة الثانية يحرص على الوصول إلى مستوى يصبح عنده التلاميذ المجدون مزواجين . ولهذا الغرض أهميته الحيوية لدينا وأن قلل بعض اللسانيين التطبيقيين من جدواه في مجتمعاتهم بحيث راوه لا يستحق كل ما يبذل من جهود في هذا النوع من التعليم ، وربما راوه غاية بعيدة عن الواقعية غير قابلة للتحقيق على مستوى جماهير الطلاب المعنيين بهذا الأمر . ولكل وجهة هو موليا ، ومع التقدير الكامل لوجهة نظر هؤلاء المشككين يبقى منوطا بهم أن يعللوا لماذا يلفتون النظر إلى عناصر الفشل في هذا التعليم ويصرفونه عن عناصر النجاح وهي أكثر . فهذا النوع من التعليم يعرف الكثير من حالات النجاح التي تثير الإعجاب ، وهي حالات يتحقق فيها التوازن بين اللغتين لدى الأفراد .

وإذا سلمنا بوجود هذا التوازن في كثير من الحالات كان علينا أن نحدد العمليات الذهنية المرتبطة بهذه النتيجة ، ثم نحدد ما يمتاز به من وصلوا إلى مستوى الازدواج غير غيرهم ممن أخفقوا في اكتساب اللغة الثانية . ولعل الجواب عن هاتين النقطتين يشير إلى أهمية وجود الحافز لدى الفرد وقوة الرغبة في الاندماج في مجتمع اللغة الثانية . فالشخص الذي في جبلته حب الاندماج في المجتمع الآخر بحيث يتسق معه ويتحد بأفراده ويشتاق إلى اكتساب ثقافته وطرق معيشته واتجاهاته في الحياة لا بد أن ينعكس حماسه ورغبته على موقفه من اللغة الثانية فيسعى إلى الوصول إلى ما يريده من إتقانها واكتساب المهارة في استعمالها لأن ذلك طريقه إلى الغاية المنشودة . أما الفاشلون في الوصول إلى الازدواج فأولئك أصحاب الاتجاه المحافظ على الشخصية القومية والحريص على الالتزام بها وبما يحققها من سلوك . ولقد يرى هؤلاء في طرق اللغة

الجديد (نطقا وتركيبا وتصورا واسلويا) عناصر طفيلية على الشخصية القومية وعلى الثقافة الوطنية فيتصدون دون وعي منهم لمقاومة اكتساب اللغة الجديدة حتى ان سعوا بوعيمهم الى تعلمها وضحوا بالوقت والمال لهذه الغاية .

ذلك شأن الفرد . فهل يمكن ان يقال ذلك عن شعب بأكمله ؟ ما دنا لا ننزع في ان الشعوب تختلف شخصياتها التي تتمثل في تراثها وفي ثقافتها الحاضرة ايضا ، وان الشعوب تحافظ على شخصياتها وتحرص على الابقاء على تميزها عن الشعوب الاخرى ، فان مما يجدر ان نشير اليه ان الشعوب تتفاوت في هذا الحرص وتلك المحافظة ، فكلما اشتد اعتزاز الشعب بشخصيته المميزة ازدادت مقاومته لتعلم اللغات الاجنبية مقاومة غير واعية فيقصر دون احسان تعلمها ، ولعل هذا هو السبب الذي يجعلنا نسمع احيانا ببعض الشعوب التي يصعب عليها تعلم اللغات الاجنبية .

كان اصحاب اللغتين في الماضي يقلسون انواعا من الضغوط ، ويواجهون عدد من الارتكاسات والانتهاكات المتنوعة التي ليس اقلها الاتهام بتعدد الولاء وتشعبه بين مجتمعين . ومن ثم كان المزاج يحرض دائما على اخفاء حقيقة المزاجية قدر الطاقة عن لا يعرفها حتى يحقق لنفسه فرصة الاندماج الطبيعي في المجتمع الذي هو فيه ، لان الناس يريهم دائما ان يستطيعوا تحديد هوية من يخاطبونه بايسر وسائل التحديد ، ويضايقهم عدم قدرتهم على ذلك . وفي اجادة لغتين بالتساوي ما يحول دون تحديد انتماء المخاطب بيسر . اضاف الى ذلك انه اذا كان من المحقق ان هنالك رابطة بين اللغة والشخصية فان اتقان لغتين بنفس الدرجة يوحي بقيام شخصيتين في فرد واحد . ولقد تحامل بعض اصحاب اللسانيات التطبيقية انفسهم على اصحاب الازدواج فاتهمهم بالقصور عن المستوى العادي في تعلم المواد غير اللغوية ، فادعى يسبرسن مثلا ان الجهد العقلي الذي يصرفه المتعلم المزاج في سبيل اتقان لغة ثانية يلحق الضرر بقدرته على تعلم الموضوعات الاخرى ، وادعى انه لم يحدث

ان أصبح متعدد اللغات شاعراً وان المزاج كصاحب قوس له في قوسه
وتران مسترخيان . وقال سويت عن يتقن عددا من اللغات انه لن يستطيع
ان يبدع ابداعاً ادبياً ولا ان يساهم في تقدم الدراسات اللسانية .

على انه من المستطاع في ضوء تاريخ الثقافة العربية وغيرها (في
حدود ما نعرفه عن غيرها) ان ندحض هذه المزاعم بأنها مشوهة ، وان
هذا التشوه ذو درجات مختلفة . فلو صح ما زعمه هذان العالمان
الفاضلان لصدق على الشعوب كما يصدق على الافراد ، وقد سبق ان
نسبنا الشعوب الى ازدواج . واذا نظرنا الى النسبة الضئيلة لمتعدي
اللغات بالقياس الى اصحاب اللغة الواحدة في العالم لوجدنا من بينهم
عددا من النجوم الزاهرة في الادب والعلم . ويكفي ان نذكر منهم سيبويه
والفارابي وابا علي الفارسي والبيروني وابن سينا وحافظ الشيرازي
ومهيار الديلمي ومحمود سامي البارودي واحمد شوقي . اما من خارج
محيط الثقافة العربية فهناك ملتون وطاغور وصمويل بيكيت ونوباكوف
وكثيرون غيرهم ممن انشا ادبا او علما بغير لغته التي اكتسبها في
الطفولة .

والواقع ان الازدواج اللغوي يتم باحدى طريقتين يختلف الامر
بالنسبة لكل منهما من حيث تأثير الازدواج في الذكاء والتحصيل :
الصورة الاولى اتقان اللغة الثانية في وقت مبكر ، والثانية اتقانها في وقت
متاخر حتى ان سبقت للفرد محاولة تعلمها في وقت مبكر . ففي معظم
الاحوال يحدث الازدواج عندما يبدأ الاطفال من الاقليات اللغوية في البلاد
المختلفة يحضرون الدروس في مدارس الدولة بانتظام في وقت يجدون
لغة التعليم فيه هي اللغة الرسمية للدولة وهي ليست لغة امهاتهم . ومن
المزاعم الشائعة الانتشار ان الازدواج الناشيء بهذه الصورة يصبح في
العادة سببا في تاخر التلاميذ في التعلم ، ويؤثر الى حد ما على لغتهم
الاولى . فلذا اردنا التحقيق من صدق هذا الزعم او كذبه كان من السهل
علينا ان نصل الى حكم نرتضيه بشانه . ويعترف بعض الباحثين المحايدون
بهذا الصدد ان التلاميذ المزاجيين يحتلون المكان الثاني خلف زملائهم

غير المزاجيين من حيث القدرات اللغوية (كالقراءة والكتابة والتعبير) سواء في لغتهم الاولى والثانية ، وان هذا التأخر عن زملائهم لا يسد ان يلاحظ عليهم ولو في جزء يسير من حياتهم المدرسية على الاقل . ولكن يبدو ان هذا التأخر الذي يظل سمة لجهدهم مدة سنة او سنتين يطرا عليه التحسن مع مرور الوقت . وعندما يصل التلميذ الى المرحلة الثانوية او الجامعية يتساوى اداؤه في اللغتين جميعا ، ثم يضيق عنده مجال استعمال لغة الاسرة فتتأخر لغته الاولى عن الثانية . وكثيرا ما ردد المرجفون ان ازدواج يعطل الذكاء ، ولكن هذا الزعم ظل يفتقر الى الدليل الذي يؤيده او يوضحه ، وذلك بسبب كثرة العوامل الخارجية التي تتدخل في قياس الاستدلال وعدم امكان استبعاد اي منها ؛ ومن بينها كثرة التجارب والاحكام . وان الكثير من القرائن ليقف ضد هذه المزاعم كما يشير الى ذلك بعض الباحثين في هذا الحقل .

اما الصورة الثانية التي يبدأ فيها تعلم اللغة الثانية باعتباره موضوعا من موضوعات الدراسة فان هذا التعلم يطرا في مرحلة ما بعد الطفولة من حياة التلميذ بحيث لا تراحم اللغة الثانية الاولى عنده في فترة اكتساب الاولى . ولا تتساوى معها في الاجادة والاتقان . ويمكن القول ان هذا الازدواج لا يؤثر اي تأثير على الذكاء ، غير ان التركيز على تعلم اللغة الثانية اذا زاد عن الحد المعقول فلربما اثر على مقدرة الفرد فيما يتصل باللغة الاولى . غير ان الفرد الذي يحس هذا الاثر ربما شعر بثقة لها ما يبررها انه سيتمكن من العودة الى حالة التوازن بين اللغتين عند الحاجة .

ومن الظواهر العامة في الازدواج ظاهرة التداخل بين اللغتين . وربما كان حدوث هذه الظاهرة بمفرده سببا قويا لكل نقد اتجه الى الازدواج . فاصحاب كل لغة حريصون على نقاء لغتهم ، وهم يعلنون عن حرصهم هذا دون ان يحددوا للنقاء معيارا معينا يحدده زيادة او نقصا . فهذا النقاء فكرة مثالية لا تستند في تقييمها الا الى الانحراف او عدم الانحراف من الاستعمال الشائع بين اصحاب اللغة وان حفل هذا الاستعمال بالعناصر الدخيلة . لقد حدد النحاة العرب مقياس النقاء بالفصاحة في وقت كانت

العربية فيه تحتصن كثيرا من الكلمات المعربة حتى لقد ورد بعض المعرب في القرآن نفسه . وهذا التداخل يختلف في درجته فيبدا بصفائر اللحن وينتهي بكبائر التحريف . ومن اشهر ما رواه تاريخنا من امثلة التداخل انتشار اللحن في صدر الاسلام ونتائج حركة الترجمة في العصر العباسي . ومن الاسباب الداعية الى التداخل تباين الخلفية الثقافية للفتين بحيث لا تشتمل احدى اللغتين على مفردات تقابل المفردات في الاخرى ، ومنها كذلك اساءة تعليم اللفة الثانية ، والكسل وعدم مقاومة الاخطاء وتصحيحها . ثم ان الانحراف عن الجادة قد يحدث لدى المزاجيين دون وعي منهم ولو في اقل اللغتين اتقانا على الاقل ، كما ان الجهل قد يكون سببا في الخطا حتى من جهة صاحب اللفة نفسه بله الاجنبي ، ولعل ذلك الفهم هو الذي جعل عبد الله بن ابي اسحاق وكذلك عيسى بن عمر يطعنان على العرب اصحاب السليقة . على ان التداخل بين الدارجة والفصحى من نفس اللفة اخف وقعا من التداخل بين لغتين مختلفتين ، لان الدارجة والفصحى من لغة واحد متقاربتان نظاما ومعجما ، ومن ثم على كل منهما ان تراب صدعا ياتيها من تداخل الاخرى معها ، فتقف بين تأثير الاخرى فيها موقفها من ظاهرة الاتساع او الترخص التي لم يعترف بها ابن ابي اسحاق ولا اعترف بها البصريون من بعده .

هذا هو شان ازدواج مع الفرد ، فما بال الازدواج بالنسبة للشعب بأكمله ؟ ليس هناك من شك في ان كل بلد يهمه ان يكون بين ابنائه من لهم ازدواج لغوي ، بمعنى انهم يتقنون بعض اللغات الاجنبية اتقانا يمكنهم من استعمالها في خدمة الصالح الوطني ؛ وربما اهمه كذلك ان يكون بين ابنائه من لهم ازدواج ثقافي ، بمعنى انهم على معرفة بثقافة هذا الشعب الاجنبي او ذاك معرفة جيدة ، والاسباب واضحة ما دام هؤلاء الافراد يعتبرون هم النواخذ التي يطل منها شعبهم على ثقافات الشعوب الاخرى . ولكن هذا شيء وانقسام المجتمع الواحد الى مجتمعين لغويين شيء آخر تماما . فبعض البلاد المزاجية كسويسرا مثلا ربما حافظت على استقرار الاوضاع فيها بواسطة احترام لغاتها جميعا ، ومنح كل مجتمع لغوي فيها حق استعمال لغته في الشؤون المحلية ، اما فيما يتصل بشؤون الاتحاد

السويسري فقد جعلت اللغات كلها لغات رسمية . وفي مقابل هذا المثال الناجح نرى كثيرا من البلاد التي بها ازدواج لغوي لا يستطيع المحافظة على الاستقرار الداخلي ، لأن الولاء للمجتمع الطائفي الأصغر الذي تربط بينه إحدى لغات البلاد ربما طغى في بعض الحالات على الولاء الوطني للبلاد في عمومها . يحدث هذا بالطبع عند تكوين وحدة سياسية من عدد من المجتمعات اللغوية والثقافية ، كما يحدث عند وجود هجرة على نطاق واسع من مجتمع لغوي إلى مجتمع آخر . هنا تصبح كل طائفة لغوية على ذكر من اختلافها عن المجموعات الأخرى كما في الهند ونيجيريا مثلا .

الرباط

د. تمام حسان

نحيب (*)

على الصقلي

بين برح الجوى ويرد اللقاء	بالأشقاء صفوة النبلاء
نهل القلب من حميا بها ذا	رت ، خفافا ، ملائكة الندماء
فاتتشي من رحيقها ، آه منها	كم زكت كاسها بفرط احتساء
هي روق القصيد تختلب اللب	ب قوافيه مثل حور وضاء
هي سحر البيان من كل فن	عبقري سما الى الجوزاء
هي ، من دون ذا وذاك ، ذمام	قائم من محبة واخاء
ليس معناه غير انا ، وان شط	ت بنا الدار ، القرب القرباء

* * *

(*) القيت هذه القصيدة في مائدة العشاء التي اقامها السيد الحاج محمد ابا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بمناسبة الاسبوع الثقافي الكويتي المنظم بالمغرب من 12 مارس 1979 الى 17 منه .

قيل : هذا الكويت كالفجر وافى
قلت ، اهلا بالفجر بشرا وبشرى
نتملى الضياء فى الأوجه السمـ
قيل : هبت من الخليج نسيمـ
قلت ، نفخ من طيب اهلي هذا
هب من دارنا هناك فادنـى
اي نفخ من الطيوب كريمـ
من مفان لنا بها خير مثوى
من عرين هو العرين اذا ما الأ
من ملاذ للعرب كان ويبقى

زاهر النور ، زاهي الأنـداء
ورواء ، اكرم به من رواء
ر ، الا ما اجله من ضياء !
ت فطرن سائر الاجواء
فى فؤادي نشقته .. فى دماي
للمشوقين ، ويحه ! كل نائي
جادنا من مرابع الكرماء
فى سويداء اهلها السمحاء
سد تنمى الى النرى الشماء
كنفا للعلـى ، ودار المـلاء



كم تغنى المحيط وجدا وشوقا
آه كم لاح عبر موجهما الثـا
فليعد للزمان سيرته قبـ
ليس ما بين ذا وذاك وشيخ المـ
ان بين الكويت والمغرب الاقـ
احكم الضاد صنعها .. انما الضـا
ورعاهما من العروبة راع
فليدم ها هنا وثمة حصنـا
فى حمى الخالدين من رسل الفكـ

للخليج الحبيب غير مرائى
نر سر الاء والكبرياء
ل ... زمان الاشاوس البـلاء
اء ، هيهات ! بل وشيخ الدماء
صى جسورا توطدت من بلاء
د لنا خير ضامن للبقاء
يتظ فى ضمائر الاء
يتحدى غوائل الاعـداء
ر ومن كل نائر اباء

ولنا خير اسوة في معز الضـ
من له اسلس اليراع المقاليـ
ساد دون العواء ... دون الفناء
سد فاضحي طليعة البلفاء

* * *

ايها الواقدون في موكب الاز
للربيع المهل عهد .. ويمضي
وهو للطرف سبيه ، ولكم سبـ
ينتهي حين يبتدي كاختلاج الـ
ولكم ، انتمو معاشر احبـ
هار والعطر والندى والغناء
وارى عهدكم حليف الثواء
سي النهى والنفوس دون مرء
عين ، كالبرق شع في الظلماء
بي ، ابتداء يدوم دون انتهاء

* * *

يا احباءنا غدا للكوت السمـ
ان رحلتكم فهو المقيم منيرا
وكفى انها رسالة فكر
ح ما بيننا مقام ذكاء
سبل الفن والحجا والذكاء
وسمت متمو بحسن الاداء

الرباط

علي الصقلي

بَيْنَ جَنَاحِي الْعُرْوَةِ

د. محمد زنيبر

هل يعيد التاريخ نفسه ؟ سؤال لا يتمالك الدارسون له من القائه على أنفسهم كلما قاربوا بين بعض الأحداث ولمسوا مواطن للنشأ به بين بعض العصور أو بعض الوضعيات التاريخية . ومع اقتناعنا القوي بأن أعادته لنفسه أمر مستحيل ، فلا بد من التسليم بشيء ، وهو أنه يلزم بعض الشعوب بمواقف قد تتكرر عبر العصور ، بتكرر دواعيها . فيكون بينها تجاوب الأصدا ، ويجد الأحفاد أنفسهم مطوقين بنفس المسؤولية التي تحملها أجدادهم منذ أجيال ، ملزمين بحل مشاكل جديدة في ظاهرها ، ولكنها ، في الواقع ، شبيهة بالقديمة .

هذا ، على الأقل ، ما يتراءى لنا من القاء نظرة وجيزة على تاريخ المنطقتين الطرفيتين في العالم العربي : المغرب الأقصى والخليج . فمن المعلوم أن شعب المغرب وجد نفسه منذ أواخر القرن 15 م محاصرا من لدن أعداء ينازعونه في وجوده ويبدلون أقصى الجهد في القضاء عليه . فاسبانيا والبرتغال يتصدیان له من الشمال بأساطيلهما ومدافعهما وجيوشهما ، بينما الأتراك العثمانيون ينطلقون من الشرق ، من قاعدتهم

بالجزائر ، ليقوموا بالعدوان الصريح ، تارة ، وليدبروا المكاييد والوسائل
طورا . وكانت ميزة المغرب في المنطقة أنه استطاع أن يحافظ على
استقلاله وسيادته ، وأن يبرهن للاستعمار الأوروبي الناشئ الطاغى آنذاك
على أن العرب ما زالوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم . ولعل الطرف
الذي يجتاز منه المغرب ، اليوم ، والكفاح الذي يواصل شعبه دفاعا عن
أرضه ووحدته ، يذكرنا بذلك الماضي من وجوه كثيرة . وكذلك منطقة
الخليج وما تشهده من أطماع بسبب ثروتها المعدنية وموقعها الاستراتيجي
وما تخضع له من تهديد بسبب تشبثها وتأكيداتها لعروبتها ، كان لها ،
أيضا ، ماض حافل في الدفاع عن وجودها واستقلالها .

المغرب والخليج جناحان شرقي وغربي بالنسبة للعالم العربي ،
يضمنان له القوة والتماسك . فيجب أن يكونا قوين ويحظيا برعاية العرب
كلهم لأن كل ضعف ينال أحدهما يهدد الجسم كله . وهذا ما تبرزه
الجغرافية ويدل عليه التاريخ .

هناك في التاريخ ظواهر وأحداث لا تظهر كل معانيها ومراميها
للمعاصرين . بل يجب انتظار مرور أجيال وأجيال وأجراء الأبحاث
المتعددة قبل أن تنكشف كل حقائقها الدفينة . ومن هذا القبيل ما
نستطيع أن نسميه - التضامن العربي في القرن السادس عشر - فنحن
حينما ننحني بكل ايمان على أحداث هذا القرن ، متقلين بين جناحي
العروبة من غرب إلى شرق ، ومن شرق إلى غرب ، نصل إلى استنتاجات
ما كانت لتتكشف بكليتها للمعاصرين لأنها ترتبط بالبحث التاريخي الذي
لا يتقدم إلا بالتدرج من جهة ، وبمفهوم التاريخ ذاته الذي تحول من
سردية الأحداث إلى الكشف عن خلفيتها في نظرة تركيبية وشمولية ، من
جهة أخرى .

والموضوع الذي أحاول اليوم أن ألقى عليه نظرة عجيلى يتعلق
بالتضامن الفعلي أو الموضوعي الذي قام أثناء القرن السادس عشر بين
بلاد الخليج العربي واليمن وبين المغرب الأقصى . أقول تضامنا موضوعيا
لأنه لم يكن منظما من لدن حكومات اتصلت في شأنه وتفاوضت من أجله ،

ولم ينشأ عن اجتماع قمة ، كما يقال اليوم ، بل لم تجر في شأنه أدنى مشاورات . وإنما هو تضامن برز تلقائيا ، مصدره الوطنية الصادقة والرغبة المؤكدة في الدفاع عن دار الاسلام وروح آباء والنخوة التي اتصفت بها شعوب هذين الطرفين من العالم العربي . كل ذلك يتجلى ، بصور واضحة ، من موقف تلك الشعوب تجاه حدثين بارزين في القرن السادس عشر :

— الغزو الاستعماري البرتغالي .

— التوسع التركي العثماني في البلاد العربية .

والذي جعل هذا التضامن يأخذ معناه العميق هو صفة مشتركة بين المنطقتين ، ألا وهو ارتباط كل واحدة منهما ارتباطا وثيقا بالبحر . فالمغرب يقع على بحرین مهمين من ناحية العلاقات الاقتصادية الدولية : البحر المتوسط الذي يضم حوضه اقطارا عديدة ذات حضارات عريقة ؛ والمحيط الاطلسي المتفتح في اتجاه القارة الامريكية غربا واروبا الغربية شمالا وافريقيا الغربية جنوبا . ثم ان المغرب يتحكم في مضيق مهم من ناحية المواصلات العالمية هو مضيق جبل طارق . فاذا انتقلنا الى الجزيرة العربية نجد ان منطقة الخليج تربط بين ثلاث قارات : اوروبا وافريقيا وآسيا . فمنها الطريق الطبيعي الذي ينطلق من بحر عمان نحو البحر الهندي ليصل الى الصين واليابان في خاتمة المطاف . كما يستطيع ان ينزل جنوبا نحو شواطئ افريقيا الشرقية الى جزيرة مدغشقر . وفي امكانه ان يدور حول جنوب الجزيرة العربية ليصعد مع البحر الاحمر ويصل الى برزخ السويس فينفذ الى البحر المتوسط .

وطبيعي ان يكون لهذا الجوار البحري اثره الفعّال في مصير المنطقتين وتطورهما من ضعف الى قوة ومن قوة الى ضعف . ونجد في مصادرها العربية القديمة اشارات متعددة الى هذا الاتصال الوثيق بالبحر، ولكنها ، في غالب الاحوال ، اشارات مقتضبة لا تنحو الى التفصيل والتدقيق ولا تقدم لنا عناصر احصائية . والواقع ان موضوع البحر واثره في تاريخ الامم لم يأخذ كامل اهميته الا في الدراسات الحديثة التي عنيت

بدراسة العلاقات التجارية بين الأمم والمواصلات البرية والبحرية .
ولذلك ، فنحن ، حينما نريد ان نعالج مثل هذا الموضوع ، يجب ان
نعترف بكل تواضع اننا كلما صعدنا نحو العصور السالفة موغلين في
القدم ، كلما وجدنا المعلومات التي تساعدنا على استكناه الحقيقة
التاريخية تقل بين ايدينا . ومع ذلك ، فهي ، برغم قلتها ، تساعدنا على
الخروج بتوجيهات وحقائق مجملة نستشف منها التطورات الكبرى ، دون
ان نكون دائما متوفرين على كل الجزئيات والتفاصيل .

فكيف كانت وضعية المنطقتين في البحر قبل العصور الحديثة ؟

استطاع العرب ، اثر الفترة الاولى من فتحهم لبلاد المغرب
والاندلس ان يسيطروا سيطرة كبيرة في مجموع البحر المتوسط ، مما
جعل الدول المغربية الكبرى تعرف ازدهارا اقتصاديا ، مستفيدة من الدور
الحيوي الذي يؤديه المتوسط في ربط الصلات بين جهات غنية ، في
العالم ومتباعدة عن بعضها (1) . وحاولت بيزنطة ، في فترات معلومة ،
ان تضيق البحرية العربية والمغربية ، ولكن ذلك لم يقع الا في الفترة
الانتقالية بين الدولة الاموية والعباسية التي كانت بمثابة ازمة داخلية في
الدولة الاسلامية الناشئة وسرعان ما استؤنف ذلك النشاط ، على نطاق
واسع ، فامكن للبحرية الاسلامية ان تبرهن عن وجودها شرقا وغربا
بفتوح جديدة كانت تتطلب جراحة كبيرة من بينها : جزيرة صقلية
212 هـ (827 م) ، وجزر مالطة 258 هـ (870 م) ، وجزيرة اقرطش
212 هـ (827 م) . وامكن لجماعات من البحارة العرب ان يستقروا
بشواطئ سردانيا وكورسيكا طيلة قرنين . واستطاع العرب في حملاتهم
ان يصلوا الى مدينة روما ويهاجموا شواطئ بروفنسا وجنوب ايطاليا
ويحتلوا مدينة جنوة طيلة فترة من الزمن (2) وبالجمل ، فقد كان في
مستطاع العرب يومئذ ان يقولوا دون الخوف من المبالغة ان البحر
المتوسط بحر عربي . وهذا ما اشار اليه ابن خلدون في مقدمته حين
قال :

(1) صابر محمد دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط .
J. Moulail : Les Etats Barbaresques

(2) ن . م .

« وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل باساطيلهم بشيء من جوانبه . وأمتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المملوكة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومنورقة ويايسنة وسردانيا وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج . وكان أبو القاسم الشيعي وابناؤه يفتزون باساطيلهم من المهديّة جزيرة جنوة فتقلب بالظفر والغنيمة . وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في اساطيله سنة خمس وأربعمائة ، وارتجعها النصارى لوقتها . والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت اساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج وتخن في ممالكهم ، كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين . وانحازت أمم النصرانية باساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه ، من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها . واساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً ، فلم تسبح للنصرانية فيه الواح » (3) .

ولم أجد بداً من نقل هذا النص على طوله ، نظراً لأهميته . فهو شهادة مؤرخ معروف بالتحري والتثبت وكان يعيش قريباً من الفترة التي نتحدث عنها . وهي تلخص لنا كل الأطوار التي عاشها العرب بالبحر المتوسط أثناء تلك الحقبة ، مع تقديم كل التوضيحات والأدلة الملموسة . هل اقتصرت سطوة العرب البحرية على البحر المتوسط أم كان لها بروز في جهات أخرى من العالم ؟

لقد استطاع العرب ، في نفس الفترة ، أن يسيطروا سيطرة تامة على البحر الهندي . مما يبيح لنا أن نتحدث بكل تأكيد عن ازدهار عام

(3) ابن خلدون : المقدمة ط. دار الكتاب ص 450 .

للملاحة العربية في كل البحار المعروفة في تلك العهود . ووجود العرب كقوة بحرية في البحر الهندي يعود بنا الى ما قبل الاسلام باكثر من ألفي سنة . فالمصادر تتحدث عن التجارة التي كانت تأوم بها اليمن في العصر القديم مع الهند وتشير الى النشاط البحري الذي كان يقوم به اليمنيون في تلك العهود التي اشتهرت فيها ، ايضا بعض المنتجات العربية شهرة خاصة كأنواع البخور والطيب والأحجار النفيسة . كما انتشرت جاليات عربية يمنية في عدد من المستعمرات بأفريقيا والبحر الهندي (4) .

كما أن الخليج ، من جهته ، أكد حضوره في العصر القديم بالدور النشط الذي قام به ، سواء في عهد الآشوريين أو عهد الإمبراطورية البابلية الثانية ، وكذلك في عهد الاسكندر المقدوني وخلفائه السلوقيين ، الشيء الذي جعل شواطئه ومرافئه تجتذب الزبناء من بعيد . فكان اليونان يرتادون شواطئ الخليج في عمان والحسا وغيرها للتزود من البضائع المطلوبة من الهند أو من أفريقية الشرقية أو المنتجة في عين المكان . كذلك كان شأن الرومان ايضا ، في إبان صعودهم . وقد عثر البرتغاليون في مسقط وصحار سنة 1507 على كميات هائلة من النقود الرومانية يرجع سكهة الى الإمبراطور تيبيريوس . ويدل على أهمية المنطقة أن المؤلفين القدماء انتبهوا إليها وتكلموا عنها مثل « سترابو » و « بليون الأكبر » و « بطليموس » (5) .

حقا ، أن الحضور العربي في البحر الهندي عرف فترات من المد والجزر تبعا للتطورات التي عاشتها المنطقة ، لكن الذي يجب تأكيدُه هو أن ظهور الاسلام أكد السيطرة العربية ، على وجهها الأكمل ، في المحيط الهندي ووسع مداها وأهدافها وأدخلها في طور جديد من التشييط والتنظيم . واستفادت تلك السيطرة من العظمة والآوة اللتين أدركتهما الدولة الإسلامية في أوجها بين القرنين الثاني والخامس الهجريين ، أي بين الثامن والحادي عشر الميلاديين .

(4) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي 115 - 120 .

(5) محمد بن عبد الله السالمي وناجي عساف : عمان تاريخ يتكلم 1963 .

وتشير المصادر العربية ، ما بين كتب جغرافية ورحلات وتاريخ وادب وغيرها ، ولو بشيء من الاقتضاب ، الى النشاط الحافل الذي كانت تقوم به البحرية الاسلامية في تلك الفترة (6) . ولا ابل على ذلك من قصة السندباد التي ، وان كانت خيالية ، فهي متأثرة بالواقع الذي يسود المحيط الذي كتبت فيه ، اذ جعلت مدينة البصرة هي المنطلق الاول للمغامرات التي يقوم بها السندباد في عرض البحار ، وهي المرفأ الآمن الذي يعود اليه في نهاية كل رحلة ، وقد ملا سمعه وبصره من الغرائب والمجائب . ان تلك القصة الجميلة ترمز الى ذلك النشاط البحري الهائل المتواكب مع توسع التجارة والرغبة في تحقيق الارباح الطائلة .

وعلى اي ، فقد اشتهرت البصرة وسيراف في عهد الدولة العباسية كمينائين كبيرين للتجارة العالمية . وعرفت البصرة بمخازنها للحبوب وابراجها لارشاد السفن واستعمال الصكوك في التجارة وتنظيم نشاط مصرفي . كما عرفت بكثرة معالمها ومنشأتها وغنى اصحابها (7) . على ان الخليج يعرف بعدة مدن اخرى نذكر منها ، على سبيل المثال ، مسقط وصحار وقلعات وهجر وبها وجلفار والاحساء والحجر الخ ... (8)

وكان للبعض من هاته المدن اهمية كبرى منذ العصر القديم . فلطالما تحدث الجغرافيون عن صحار ، مثلاً ، مشيرين الى اهميتها الكبرى . فالجغرافي المقدسي الذي عاش في القرن الرابع الهجري ينعتها في « احسن التقاسيم » بقوله « وعدن دهليز الصين مع صحار » . والعبارة بايجازها بليغة وغنية عن كل تعليق . ويعمل بعد ذلك هذا النعت الذي اضفاه عليها بذكر البضائع التي تروج بالمنطقة فيقول :

« واليمن معدن العصائب والعقيق والادم والرقيق فالى عمان يخرج آلات الصيادلة والمطر كله حتى المسك والزعفران والبقسف والساج

(6) المقدسي : احسن التقاسيم .
ابن الفقيه الهمداني : مختصر كتاب البلدان . وانظر ايضاً ، محاضرة السيد عبد العزيز سالم بعنوان : « التجارة البحرية في الخليج في صدر الاسلام » (مخطوط خاص)
(7) حامد البازي : البصرة في الفترة المظلمة وما بعدها .
(8) محمد بن عبد الله السالمي وناجي عساف : عمان تاريخ يتكلم 1963 .
وانظر الموسوعة : دليل الخليج عند ذكر هاته المواد .

والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت وأدبنوس والনারجيل والقند والاسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والفضار والصندل والبلور والفلل وغير ذلك . وتريد عدن بالعنبر والشروب والدق والحش والخدم وجلود النمر وما لو استقصيناه طال الكتاب .
وبتجارات الصين تضرب الأمثال « (9) » .

كما تحدثت المصادر عن مدينة قلعات التي نالت أهمية في هاته الحقبة ويذكر عنها ياقوت في معجمه أنها « مدينة بعمان على ساحل البحر إليها ترافا أكثر سفن الهند . وهي الآن فرضة تلك البلاد ، وامل أعمال عمان ، عامرة أهلة » (10) .

من هاته الأمثلة والشهادات التاريخية ناخذ فكرة واضحة عن المراكز التجارية والمرافئ التي اقتضى التوسع في المبادلات والمواصلات انشاءها وتنمية عمرانها ، فلعبت دورا حاسما في تنشيط الملاحة بالبحر الهندي ومكنت العالم الاسلامي من السيطرة عليه سيطرة كاملة ازيد من اربعة قرون . ولو اردنا ان نتوسع هنا في التحليل لسقنا كلاما طويلا واتينا بتفاصيل تخرج بنا عن حجم بحث متوسط . وانما كان الذي يهمنا ان نبرزه هو ان السيطرة التي مارسها العرب في تلك المنطقة زمنا طويلا ليست هي من مبالغات المؤرخين ، والدعاوي التي تساق على سبيل المفاخرة ، بل هي حقيقة ترتكز على أسس دقيقة وملموسة .

وبرغم كون العرب ، في نهضتهم الحالية ، بداوا يهتمون بتاريخهم ويبدلون جهودا صادقة في البحث ، فمن الانصاف ان نعترف بان الأبحاث الأوروبية في التاريخ المتعلق بالبحار ما زالت ، على العموم ، رائدة . ولعل توفرهم على عدد من الوثائق والمحفوظات الرسمية وغير الرسمية في مكاتبهم ومستودعاتهم شجعهم على مواصلة البحث والقيام باستكشافات متوالية في هذا الميدان الحيوي . وعلى اي فيسرنا

(9) المقدسي : احسن التقاسيم : ص 34 ، 97 .

(10) ياقوت : معجم مادة قلعات .

ابن الجاور : تاريخ للمستبصر ص 284 .

ان نسجل لديهم في آخر ما صدر من اعمالهم تنويها بالدور الذي قام به العرب في ميدان الملاحة اثناء هاته الحقبة .

فهكذا ، نجد المستشرق « دومينيك سورديل » يسجل في كتابه « حضارة الاسلام التاليدي » ، الصادر في سنة 1968 ، ان تنمية الاتصالات البحرية بين العراق وبين الهند والشرق الاقصى يجب ان تعد حدثا على جانب كبير من الاهمية . كما ان « موريس لومبارد » في كتابه « الاسلام في عظمته الاولى » . الصادر في 1971 يقرر في عبارة لا تترك اي التباس ان البحر الهندي اصبحت بحرا اسلاميا من القرن الثامن الى القرن الحادي عشر (11) . ويلخص المؤرخ البلجيكي « جاك بيرسن » ، صاحب المؤلف الشهير « التيارات الكبرى للتاريخ العالمي » . الوضعية في العبارات التالية :

« واما العرب الذين قدموا للعالم دينا جديدا وبرهنوا على انهم بناء امبراطورية ، فانهم ، على العكس من الاثيوبيين ، اندفعوا الى توسيع بحري كبير . ذلك ان مدن عمان وحضرموت التي ظلت الى ذلك الوقت مراكز لنقل البضائع تعيش على تجارة الشعوب الاخرى ، جهزت اساطيل وحلت محل الاثيوبيين وفرضت سيادتها على الملاحة في البحر الاحمر وفي بحر عمان ووصلت في تحركاتها الى الصين ، وقامت باستكشافات سواحل افريقيا الشرقية حيث تمكنت في ظرف وجيز من انشاء ميناء زنجبار » (12) .

كان للسيطرة الاسلامية في البحر المتوسط والمحيط نتائجها المتعددة التي لا بد من التعرض لها ، ولو باجمال ، حتى تكون الفائدة تامة:

1 - وفق المسلمون الى ان يقيموا اقتصادا عالميا بكل ما في الكلمة من معنى ، خلافا لما ادعته بعض الدراسات الأوروبية المفرضة ،

D. Sourdel : La civilisation de l'Islam classique 1968 p. 319 (11)

Maurice Lombard : l'Islam dans sa première grandeur p 221

(12)

J. Pirenne : Les grands courants de l'histoire universelle 11/58.

لسبب بسيط ، وهو أنهم استطاعوا أن يربطوا بين البحر الهندي والبحر المتوسط عبر أراضيهم (13) وساعد امتداد الامبراطورية الاسلامية من اسبانيا الى الهند على خلق الظروف المساعدة لضمان الوحدة الاقتصادية العالمية . ذلك ان المسلمين كانوا بكتلتهم الجغرافية ، الممتدة على القارات الثلاث : آسيا وافريقيا واروبا ، وجهودهم في الملاحة والمبادلات التجارية ، يربطون بين الامبراطورية الصينية في الشرق الأقصى واروبا الغربية عبر الامبراطورية البيزنطية والبحر المتوسط (14) . ومعنى ذلك ان كل تصدع في تلك الكتلة المتصلة يهدد وحدة الاقتصاد العالمي . وهذا ما حدث بالفعل منذ القرن الثاني عشر الميلادي حين دخل العالم الاسلامي في سلسلة من الازمات بدأت مع الحروب الصليبية واستمرت مع ضغط الرحل الأتراك على كيان الدولة الاسلامية وطفيلان الاقتصاد القطاعي على الاقتصاد التجاري وبلغت حدتها مع انهيار الامبراطورية العباسية ببغداد وامتداد غارات المغول وانهيار الامبراطورية البيزنطية . وكانت النتيجة الحتمية والاخيرة لتلك التطورات ، كما ذكر « بيرين » ، نهاية الاقتصاد العالمي (15) .

2 - من النتائج التي استمر مفعولها التاريخي الى اليوم ان العرب انشأوا جاليات لها مراكزها ومستوطناتها في عدة جهات من العالم من بينها : افريقيا الشرقية حيث أسسوا عدة مدن نذكر منها « مومباسا » و « باراوا » و « زنجبار » وكذلك سواحل « مالابار » وجزيرة « سرنديب » (سيلان الحالية) والجزر الهندية والهند الصينية والصين . وما زالت

(13) M. Lombard : op cit ع. الدوري : مقدمة في تاريخ الاقتصاد الاسلامي .

(14) M. Lombard : op cit A. Miguel : L'Islam et sa civilisation

وقد ادعى هنري بيرين في كتابه « محمد وشارلمان » ان الاسلام قسم وحدة البحر المتوسط التي كانت موجودة من قبل وتسبب في تاخر اوروبا ، وهي دعوى لا تقوم على اساس تاريخي وقد فندها كل من :

(15)

M. Lombard : L'Islam dans sa première grandeur U.N.E.S.C.O. : Histoire de l'humanité III / 88

J. Pirenne : Les grands courants 11/69

الآثار والنقوش الكتابية تدل على الوجود العربي في عدد من المناطق المذكورة (16) .

3 - من نتائج النفوذ الإسلامي انتشار النقد العربي ، والدينار ، على الخصوص ، في طريق التجارة نحو الشرق الأقصى أي على السواحل المحاذية للبحر الهندي وبحر الصين (17) .

4 - ممارسة للملاحة بسائر عملياتها بالارتكاز على علم وتجربة وآلات . ومن حسن الحظ أن الملاح العربي الكبير أحمد بن ماجد احتفظ لنا في كتبه بخلاصة لكل ذلك . فهو ، وإن عاش في القرن الخامس عشر الميلادي ، خير شاهد على التراث العربي في علم الملاحة (18) وبالإضافة إلى ذلك ، تمكن العرب من استعمال أنواع من السفن الصغيرة المصنوعة من الناجيل وخشب الساج . ويسجل عدد من المؤرخين الأوروبيين أن العرب هم الذين نقلوا استخدام السراع المثلث من البحر الهندي إلى المتوسط . وهذا يفند الدعوى المترددة عند بعض المؤلفين بأن هذا السراع لاتيني (19) .

كان المحيط الهندي والبحر المتوسط ، إذن بحرین عربيين أثناء فترة تمتد على أربعة قرون ، من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر الميلاديين ، وهي الفترة التي عرفت فيها الدولة الإسلامية بتفوقها على غيرها ، سواء من الناحية السياسية أو العسكرية أو الثقافية أو الاقتصادية أو الحضارية ، بصفة عامة . فكانت الدول الإسلامية الواقعة على البحرين تنطلق من مركز قوة وتمتلك كامل المبادرة في ميدان الملاحة مستندة في سترأيجيتها على خطة الهجوم لا على خطة الدفاع .

M. Lombard : op-cit p. 222 (16)

(17)

E. Fournial : Histoire monétaire de l'Occident Médiéval Nathan 1970 p. 73.

A. Miguel : l'Islam et sa civilisation p. 139 (18)

(19) ن. م. ينظر أيضا : أحمد بن ماجد : ثلاثة أزهار في علوم البحار .

وبرغم كون العالم الاسلامي لم يخل حتى في هاته العصور الذهبية من الصراعات الداخلية ، فانه استطاع ان يتخطاها ليحافظ على مناعته . فالصراعات التي نشأت مع الخوارج ، مثلا ، بالمغرب شغلت الدولة العباسية عن الاهتمام بشؤون البحر ، مما فسح المجال للبيزنطيين كي يقبضوا شيئا ما وجودهم بالبحر المتوسط كما المعنا الى ذلك من قبل . ومع ذلك ، فانهم لم يذهبوا بعيدا اذ سرعان ما تلافي المسلمون الموقف وحققوا الفتوح والانتصارات المشار اليها آنفا . وظهروا غيرتهم بانشاء تلك السلسلة العجيبة من الرباطات الممتدة على السواحل ، من مصر الى جنوب المغرب الأقصى (20) .

وكان اخطر صراع داخلي ، ولا شك ، هو ذلك الذي نشأ مع قيام الدولة الفاطمية التي اثارت كثيرا من الفوضى في العالم الاسلامي شرقا وغربا . ومع ذلك ، فلا يسوغ لنا ان نقول ان الدولة الفاطمية ، على الأقل في عهدها الاول ، كانت عامل ضعف وتدهور . بل كانت لها ايجابيات من جعلتها تقوية المركز الاسلامي في البحر المتوسط . ولا شك ان المنجزات البحرية التي حققها الفاطميون في غرب البحر المتوسط تعد قمة من قمم المجد في تاريخ الاسلام . فقد اسسوا المهدية ، فكانت قلعة من امنع الالات البحرية ، وبنوا بها دارا لصناعة السفن تتسع لمائة سفينة . كما اصلحوا دار صناعة السفن الموجودة بتونس واتخذوا من سوسة قاعدة للأسطول الفاطمي ، تخفيفا من الضعف على المهدية . وتفتنوا في صناعة السفن بمختلف انواعها من شواني وحراريق وطرادات للعمليات الحربية بالذات وطراند لحمل الخيول وشلنديات لحمل العتاد والجند . وامكن للفاطمين بهاته الاستعدادات الضخمة ان يهددوا بصورة فعالة شواطئ اوروبا في الجنوب الغربي ويقوموا بحملات قوية ويحصلوا على غنائم ويلزموا عددا من المدن والاقاليم الأوروبية بدفع الجزية (21) .

(20) ورد ذكر هاته الرباطات في عدد من المصادر القديمة حتى قيل ان الرباطات كانت تمتد من ساحل السوس الأقصى الى الاسكندرية .

(21) صابر محمد دياب : سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، القاهرة 1973 ص 95 - 110
ابراهيم احمد العدوي : الاساطيل العربية ص 92 - 156 .

ولا حاجة بنا الى الاشادة بما قام به الفاطميون في ميدان البحرية بعد تحولهم الى مصر ، فان ذلك سيخرج بنا عن الموضوع . وانما الذي يهمنا ان نلفت اليه النظر هو ان قيام الفاطميين بالغرب الاسلامي ملا فراغا كبيرا وعزز كيانه السياسي والعسكري .

وهذا ما ظهر ، بصورة جلية ، حينما انسحب الفاطميون من المغرب، فنشأ عن ذلك جانب السلبيات في سياستهم . وهو جانب يرجع ، في الحقيقة ، الى العامل المذهبي . فكان هدفهم هو العمل على الاطاحة بالخلافة العباسية نصيرة المذهب السني . ولذلك ، فان حضورهم بالمغرب وعملهم فيه ، على اهميته ، لم يكونوا ينظرون اليه الا كمرحلة موقته ، مرحلة تهيؤ لغزو الشرق الاسلامي . بحيث ان اهتمامهم كان منصبا على هذا الهدف ، فكانت النتيجة انهم حينما تحولوا الى مصر حملوا معهم اسطولهم المتكون من مائتي سفينة ، ونقضوا ايديهم من المغرب نهائيا . بل انهم حاولوا ان ينتقموا منه شر انتقام حينما جنح الى الاستقلال عنهم (22) .

ومهما يكن ، فان تجريد افريقية بين عشية وضحاها من القوة البحرية التي كانت هي انجع اسلحتها في الهجوم والدفاع ، تركها معرضة لأي غزو خارجي . وقد حاول بنو زيري ، عبثا اعادة بناء الاسطول كي يصونوا هيبة البلاد وحرمتها ، لكن لم يحالفهم التوفيق في مسعاها (23) .

معنى هذا ، في النهاية ، انه لم يكن من الممكن للعالم الاسلامي ان يحافظ على تفوقه البحري الى ما لا نهاية له ، سيما وقد اخذ خصومه في اوروبا يخرجون من سباتهم ويعون بضعفهم ويتحفزون الى الحركة ، فكان من الطبيعي ان يستهدف لدوافع المنافسة مع دول ناشئة ذات مطامع ومطامع . ومنذ ذلك العهد دخلت البلاد المغربية في حرب سجال بالبحر المتوسط مع الدول المسيحية استمرت ثلاثة قرون انتهت بترجيح كفة الدول المسيحية في ميدان القوة البحرية (24) .

(22) F. Moulail : Les Etats Barbaresques p. 28

(23) نفس المصدر . يضاف اليه : أ. ر. لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص 293 - 361 .

(24) نفس المصدرين .

وعرفت الملاحة بالخليج نفس الفتور للأسباب التي اشرنا اليها من قبل نضيف اليها الصراع الذي قام بين الفاطميين المسيطرين على البحر الأحمر والعباسيين المسيطرين على الخليج ، لكن الوضعية بالبحر الهندي كانت ، على العموم ، اقل خطورة بالنسبة للعالم الاسلامي من الوضعية بالبحر المتوسط كما سنرى .

وليس من موضوعي أن أعرض بالتفصيل لكل حلقات الصراع التي عرفتها هاته المرحلة ، وانما الذي أريد أن ألفت النظر اليه هو أن العالم العربي تكالبت عليه قوى معادية وطامعة من غربه الى شرقه . ففي الشرق توالى ضغوط الشعوب التركية والمغولية على ما بقي من الخلافة العباسية فأضعفتها ، أولا ، ومزقتها الى اقطاعات ، ثم محتها من الوجود أخيرا ، في الوقت الذي كانت فيه الحروب الصليبية تهدد الواجهة العربية في شرق البحر المتوسط .

وفي الغرب ، ظهر رد فعل الأوروبيين ، أولا ، في انتفاضة المدن الإيطالية وتحركات بيزنطة وتحول الى هجوم خطير في القرن الثاني عشر مع تحركات النورمانيين . واكتسى ذلك الهجوم صبغة صليبية إذ نرى البابا فيكتور الثالث يشرف على خلف يتزعمه رؤساء ((بيزا)) و ((جنوة)) ، مما يمكنهم من مهاجمة المهدية في سنة 1087 م بأسطول قوامه 300 سفينة وتكرر الهجمات من هذا النوع (25) .

وفي هذا النطاق ، واصل النورمانيون العمل بخطة محبوكة ، فاستولوا على صقلية ، وفتحوا بذلك الطريق للحملات الصليبية . واصبحت لهم ، بالفعل ، هيمنة في البحر المتوسط جعلتهم يضايقون الوجود العربي في مياهه ، ذلك الوجود الذي افتقد حوافزه ودوافعه حينما فتر التبادل الاقتصادي بين شرق العالم الاسلامي وغربه ، فلم يبق مشجع ولا مدعم قوي لتحرك الأساطيل التجارية . وهذا ما أضعف قرطبة والخلافة الأموية بالأندلس ، لأن هاته الدولة عرفت ازدهارا كبيرا حينما كان التبادل قائما على أشده مع الشرق .

وهكذا ترك غياب الدولة الفاطمية ، ثم الأموية بالمغرب والأندلس فراغا خطيرا فتح الباب على مصراعيه للنورمنديين حتى يسيطروا على بعض الشواطئ والموانئ المغربية مثل جربة (1135 م) وطرابلس (1143 م) والمهدية (1148) ، وأمكن لروجر الثاني أن يحمل لقب ملك أفريقية (26) .

نعم ، أن هذه الوضعية الخطيرة وقع تلافيها توا مع قيام دول مغربية قوية مثل الدولة المرابطية والموحدية والحفصية والمرينية . لكن لا ننس أن معظم جهود هاته الدول انصب على انقاذ الأندلس العربية التي توالى عليها ، باستمرار ، ضغط المسيحيين العسكري . بحيث أن الأسطول القوي الذي أنشأه الموحدون ، مثلا ، والذي بلغ 400 قطعة كانت تحتكره مهام الجهاد بالأندلس ، قبل كل شيء . وقد استطاع الموحدون أن يطردهم النورمنديين من سواحل أفريقية ، بالفعل ، ولكن هل استطاعوا أن يستردوا صقلية أو أن يسترجعوا للمعسكر الإسلامي سطوته الكاملة في البحر المتوسط ؟

يمكننا أن نقول ، إذن ، أننا في عهد تكافات فيه القوى مع ميل الكفة شيئا فشيئا نحو ترجيح معسكر الدول المسيحية . وقد بدأ هذا الرجحان يلوح ، بصورة واضحة ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مع تزايد نشاط البحرية المسيحية في غرب البحر المتوسط ، إذ أمكنها أن تحاصر المهدية من جديد (1390) وتهاجم عنابة (1399) . وفي هاته الآونة بالذات ، علا نجم الملاحة الإسبانية المسيحية ، مع تقدم حرب الاسترداد لصالح المسيحيين الذين تمكنوا شيئا فشيئا من السيطرة على الشاطئ الشرقي لإسبانيا . وهكذا نشأت أساطيل قطلونية وبلنسية وآراغونية وقشتالية في أواسط القرن الثالث عشر وبدأت تتحكم تدريجيا في الجهة الغربية من البحر المتوسط وفي مضيق جبل طارق :

(26) ن. م. انظر أيضا : J. Pirenne : Les grands courants II/80-87.

(27)

Ch. E. Dufoureq : La question de centre au XIIIe siècle - Hesperis

وأصبح الملك فرديناند الثالث يتجه بمشاريحه نحو الجنوب ويعد الصدة للنزول في المغرب الأقصى لولا أن حال الموت بينه وبين ذلك (27) .

وكان الأسطول المريني ما يزال يتمتع آنذاك بشيء من القوة ويشتمل على 36 وحدة حسب شهادة ابن خلدون . فتمكن المرينيون ، بفضل ذلك ، أن يقوموا بحملتهم الرابعة في الأندلس سنة 1285 م ويحولوا دون سيطرة الأساطيل المسيحية على المضيق (28) . لكن الوضع أخذ يتغير قبل اطلال القرن الرابع عشر . فقد تعززت الأساطيل المسيحية ونمت عدة وعددا بفضل النشاط التجاري الذي اتسع بين البندقية وجنوة ، من جهة ، وفلاندرة على بحر المانش ، من جهة أخرى ، وفي هاته الأثناء ، تمكن الاسبانيون من اخراج المفاربة من الجزيرة الخضراء (1344 م) . واقتصر رد الفعل لدى المفاربة على بعض الامناوشات البحرية في شواطئ اسبانيا . ومعنى ذلك انه لم يكن في مستطاعهم القيام بهجوم مضاد يكون حاسما ويعيد التوازن بين القوتين لان البحرية الأوروبية الصاعدة كانت تقوم وراءها قوة مالية آخذة في النماء ، مما يجعل منها جزءا من عملية مربحة (29) .

والواقع ان تحليل الاحداث بعق يبين ان الصراع لم يكن بين قوتين عسكريتين بحريتين بل بين نظامين اقتصاديين أحدهما وهو العربي تجرد والآخر وهو الأوروبي دخل في طور من التحرك والتجدد . ففي هذا العهد نشأت اصول لاراسمالية الأوروبية مع ظهور كيانات سياسية واقتصادية بعدد من المدن ، بإيطاليا وجنوب فرنسا وفلاندرة . واتسع النشاط التجاري لتلك المدن الى جانب نشاطها الصناعي ، وظهرت فيها مؤسسات مصرفية ، ونشأت بينها علاقات ذات طابع دولي واعراف في التعامل وتأسيس الشركات ونقل الاموال . ودفعتها مصالحها النامية الى التفكير في تكوين اساطيل تجارية لنقل البضائع معززة بأساطيل عسكرية

(28) ابن خلدون : كتاب المبر - بيروت 7 / 544 .

J. Pirenne : Les grands courants 11/90

(29)

لمطاردة الملاحه الاسلاميه واحتكار المرور من الطرق التجاريه بالبحر المتوسط وبشواطئ اروبيا الغريبه (30) .

وكان من الصعب على المغرب فى تلك الآونه ان يتفرغ لمجابهة هذا الخطر وقد تراكمت عليه المشاكل وتفجرت فى ازمان متتابعه :

— فقد كانت هنالك ، اولا ، أزمة سكانية ، اذ يظهر أن عدد السكان عرف نقصا كبيرا بافريقيا الشماليه ، عامه ، مما جعل سيطره الاهالي على اراضيهم واستغلالها على الوجه المنشود غير كافيه ولا وافيه بالفرض . وقد كان للطاعون الأسود الذي اجتاح المغرب فى سنوات 1348 عواقب خطيره ، اذ لربما فتك بنف السكان حسب بعض التقديرات . ولا حاجة لتوضيح اثر تلك الكوارث على الحياه الاقتصاديه والاجتماعيه (31) .

— أزمة اقتصاديه تجلت فى عدة ظواهر منها : الصراع بين الرحل والمستقرين مما ادى الى طغيان الاقتصاد الرعوي فى عدد من المناطق الصالحه للزراعه ، والفتور الذي اصاب تجارة القوافل الصحراويه بين المغرب والسودان ابتداء من لقرن لرابع عشر ، تلك التجارة التي كانت من عوامل الازدهار الاقتصادي بالمغرب والتوازن الاجتماعي بمناطق الصحراء . وهذا الفتور كان له اثره الخطير على مداخل الدوله الغريبه التي كانت تستفيد من حركة القوافل كشريكه وكجاييه فى آن واحد (32) .

— أزمة سياسيه تجلت بعد وفاة السلطان ابي عنان المريني (1358) ، اذ دخل المغرب الاقصى فى عهد من الفوضى والصراعات الداخليه شاركت فيها القبائل والزوايا الصوفيه وبعض الأسر المتنقله . وامكن لشيوخ القبائل والولاة المحليين أن يستقلوا بمنطقتهم كاقطاعيين

(30) ن . م . F. Moulaii : Les Etats Barbaresques p. 39 (31)

(32) ن . م . يضاف اليه : Brignon, Boutaleb : Histolre du Maroc

مطيين يساندون هذا الأمير ، تارة ، وهذا الآخر طورا في سعيه الى
تولي الحكم تبعا لمصلحتهم العاجلة (33) .

— ازمة اجتماعية مترتبة عن قلة الوارد من ذهب السودان
وتجارة القوافل الصحراوية والانتقال من اقتصاد المبادلات الى اقتصاد
المعاش . وقد تفاقمت بورود العديد من مسلمي الاندلس الفارين من
الاضطهاد الديني باسبانيا (34) .

لم يكن ، اذن ، في مستطاع المغرب وهو في مثل هذا الوضع ان
يواجه بفعالية كافية هجوم الدول المسيحية التي تحولت الى طور ارقى
من حيث التنظيم الاقتصادي والسياسي وعرفت كيف تقيم التعاون فيما
بينها ، في اطار التنافس ، من اجل محاصرة الغرب الاسلامي والهيمنة على
موارده الاقتصادية والبشرية (35) .

فاذا انتقلنا الى جهة البحر الهندي ، نجد ان الوضع كان يختلف ،
نظرا لبعد المنطقة عن اوروبا ، مما جعل العرب يسيطرون على الملاحة بها
انطلاقا من البحر الاحمر ومن الخليج . وفي هذا الصدد يؤكد « بيرين »
ان « الملاحة بالبحر الهندي كانت كلها في يد العرب عند بداية القرن
السادس عشر وانهم كانوا يتوفرون على موانئ مهمة لهاته الغاية مثل
مسقط « (دهليز الصين) » في بحر عمان « (وزنجبار) » على الساحل الشرقي
بافريقيا (36) ، وكانوا يمتلكون ، بالاضافة الى ذلك ميناء هرمز الذي
يصلهم بالقطر الايراني والذي بلغ من الثروة والازدهار ما اثار قرائح
الشعراء . واسال اقلام الزوار الذين تركوا شهادات لا تخلو من تنويه .
ناهيك بعدن التي كانت تربطهم بسواحل البحر الاحمر وتقوم بدور مزدوج
تجاري وعسكري ، بحيث ان المبادلات التجارية بين الهند والفرس
والصين وافريقيا ظلت الى مستهل القرن السادس عشر في يد العرب .

(33) ن . م .

(34) ن . م .

(35) F. Moulaii : Les Etats Barbaresques

(36) J. Pirenne : Les grands courants 111/332

نعم ، ان ابناء المنطقة كانوا يعانون من الانحطاط العام الذي اصاب العرب في كل مكان ، ولكنهم ظلوا الى ذلك العهد آمنين في ممارسة انشطتهم المعتادة بالبحر الهندي (37) .

وفي هاته الحقبة بالذات ، اندفعت دولة البرتغال البحرية في خطة هجومية محكمة على العالم الاسلامي كان من شأنها ان تضعفه وتجعله تحت رحمتها . وكانت هاته الخطة تبني على خلق جزء كبير منه اقتصاديا وعسكريا ، وذلك بالسيطرة على مياهه ومناقله الحيوية ومحاصرته حصارا بحريا لا هوادة فيه . وتجلّى ذلك منذ القرن الخامس عشر في الحملات البرتغالية الموجهة الى الشواطئ المغربية من اجل الاستيلاء عليها والى اهم الممرات البحرية المحيطة بالجزيرة العربية والمؤدية الى البحر الهندي .

وقد بدا الهجوم على المغرب منذ بداية القرن الخامس عشر وكان يدخل في خطة استعمارية واسعة النطاق يهدف البرتغاليون من ورائها الى استكشاف سواحل افريقيا الغربية والتوصل الى ذهب السودان . وهكذا ساروا في خطوات منهجية ، فاستولوا على ميناء سبتة في 1415 م ، واخذوا ينظمون حملات سنوية ابتداء من 1419 ، وامكنهم في سنة 1434 ان يصلوا الى راس بوجدور في الصحراء والى الراس الاخضر في 1445 . واسند هنري الملاح الى « ديجو جوميز » مهمة استكشاف وادي جامبيا (1446 - 1460) والحق ان الملك هنري الملاح هو الذي خط لدولة البرتغال الناشئة مصيرها وجعل منها دولة بحرية استعمارية تعتمد في وجودها وتوسيع نفوذها على الملاحة . ولم يتردد في اصدار الامر بتحويل سكان المناطق الافريقية المكتشفة الى رقيق يباع في اسواق النخاسة بمساعنة البابا نيولا الخامس .

وفي هاته الاثناء ، كانت الحملة تتركز على الشواطئ المغربية بصورة خاصة ، لأسباب تاريخية وظرفية معلومة ، فاستولى البرتغاليون على طنجة وأصيلا في سنة 1471 ، وبعد ذلك بقليل أي في سنة 1480

(37) عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية ، دار النهضة 1973 - بيروت ص 130

تصبح مدينة آسفي تدين لهم بالتبعية واستطاعوا ان ينزلوا في نقط اخرى من الشاطئ . وكان برنامج البرتغاليين هو ان يجعلوا من المغرب مستعمرة لهم يحتكرون مواردها الزراعية والصناعية والبشرية ويحكمون منها سيطرتهم على باقي القارة الافريقية ، ويضعون قبضتهم على تجارة الذهب المستخرج من السودان وعلى القوافل الصحراوية التي كانت تقوم بتجارة كبيـــــرة (38) .

ورغم المنافسة بين اسبانيا والبرتغال ، فانهما ، في الواقع ، كانا يتعاونان على احكام حصارهما البحري والعسكري للبلاد المغربية من جميع الجهات . فمن ناحية البحر المتوسط ، تستولي اسبانيا ، منذ سنة 1497 على مدينة مليلية ، ثم على جزيرة باديس ، وتمارس حصارا صارما على كل الشواطئ ، وتقتصص ، دون هوادة ، من كل تحرك بحري يقوم به المغاربة . ومن جهة المحيط الاطلسي ، كان البرتغاليون هم الذين يحاصرون الشواطئ المغربية ويحتلون عددا من مدنها ويحاولون التوغل في اراضيها الداخلية ، ويحولون بالقوة دون اى اتصال بينها وبين الخارج . وهكذا قطعوا بالقوة علاقاتها مع تجار الهندية وجنوة اللين ظلوا طيلة قرون عديدة يترددون عليها بقصد المبادلات التجارية ، فطاردوا اولئك التجار بعنف ولم يترددوا في قتلهم احيانا . (39) وفي الجنوب ، توغل البرتغاليون نحو مصادر الذهب ووصلوا في 847 هـ (1443 م) الى ارجين ثم الى مينا واكسيم بافريقيا الاستوائية في سنة 891 هـ (1486 م) ، وامكنهم اثر ذلك ان يحولوا جزءا كبيرا من الذهب المستخرج نحو سفنهم الراسية على الشاطئ ، بدل ان يتركوا ذلك الذهب يتابع طريقه التقليدية نحو الشمال اي نحو المغرب ، عبر الصحراء . ومن المعلوم ان المغرب كان يعتمد يومئذ في توازنه الاقتصادي والاجتماعي على تجارة القوافل الصحراوية ، وخاصة على تجارة الذهب (40) .

(38) J. Brignon, B. Boutaleb : Histoire du Maroc p. 171-179

(39) م. ن. م. : Les Etats Barbaresques

(40) J. Brignon, B. Boutaleb : Histoire du Maroc

بهذه الصورة كان الحصار البرتغالي الجهنمي مطبقا على المغرب من جميع الجهات ، ما عدا الجهة الشرقية ، ولكن هنا ، ايضا ، سيصطدم المغرب بالحملة التركية العثمانية اثناء القرن السادس عشر ، وسيجد نفسه مضطرا لاقامة جبهة دفاعية اخرى حفاظا على استقلاله وحدوده . فكانت الظروف ، اذن ، قاسية عليه بكل ما فى الكلمة من معنى (41) .

فى نفس الوقت ، كان البرتغاليون يسرون فى خطة مماثلة بالشرق العربي . وكما لاحظ « كيرك » فى كتابه عن تاريخ الشرق الأوسط ، فان هدفهم كان هو « مواصلة عمل الصليبيين بمحاولة الالتفاف حول « ديار الاسلام » وحصرها من الوجهتين البحرية والتجارية ، مع انتزاع تجارة الذهب وغيره من حاصلات افريقيا الغربية من يد المسلمين » (42) .

ولتحقيق هذا الهدف ، قاموا باتصالات مستمرة مع الحبشة التى كان يهيمن على مصيرها القس يوحنا (1487) من اجل ابرام حلف بين الجانبين الفرض منه مهاجمة المسلمين من الجنوب . وترددت المراسلات وتعددت السفارات بين الطرفين فى بداية القرن 16 . وكانت الحبشة ، من جهتها ، تبحث عن حلفاء لانها كانت فى صراع مستديم مع جيرانها المسلمين .

ثم جاءت مرحلة الحصار المباشر للمياه العربية فى منافذ البحر الهندي ، وذلك اثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (1488) . واتضح ان هدف البرتغاليين هو السيطرة السياسية فى المنطقة ومهاجمة الاسلام فى اماكنه المقدسة واحتكار تجارة البحر الهند لدولة البرتغال . وتوالى الحملات البحرية باطراد . فجاء « فاسكو دي جاما » فى سنة 1502 ، ولم يتردد فى مهاجمة ميناء كاليكوط الهندي بالقنابل وفى الفارة على سفن الحجاج وتقتيلهم . وحاول الماليك بمصر ، فى هاتئ الأثناء ، ان يصدوا الهجوم البرتغالي ، لكن هزموا فى معركة ديو (1509) .

(41) الناصري : الاستقما - دار الكتاب ج 5 و 6 .
الوفراني : نزهة الحادي .
(42) كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ص 97 .

وجاءت حملة برتغالية جديدة بقيادة السفاح البوكيرك ، فاستولى على جزيرة سقطرة (1506) التي لا تخلو من أهمية كمدخل للبحر الأحمر ، واتخذ من « جوا » على الساحل الهندي قاعدة لولايته ، ثم وجه أسطوله نحو الخليج ليقنبل المدن ويحرقها ويخربها . وبدأت نية البرتغاليين واضحة في مواصلة الزحف داخل الخليج حتى البصرة وداخل البحر الأحمر حيث توجد البقاع المقدسة . لكن ، هل من قوة اسلامية قادرة على إيقاف هذا الزحف ؟ كانت القوة الوحيدة التي تستطيع ان تؤدي هاته المهمة هي قوة الماليك . لكنها حاولت وانهزمت . وعلى هذا ، فقد أصبح الوضع ينذر بالخطر والياس من الجانب العربي (43) .

وهكذا ، فان المحيط والخليج ، اللذين كانا يشكلان فيما مضى حماية قوية للعالم العربي من الشرق الى الغرب ، أصبحا معرضين لنفس العدوان الصليبي الاستعماري ، الذي استطاع ، بخطته الجهنمية ، ان يطبقا عليهما حصارا عسكريا واقتصاديا لم يكن من الميسور فكاه والتخلص منه .

فكيف واجه العرب الموقف ؟ وكيف امكنهم ان يخرجوا من هاته الورطة ، وهم في حالة تدهورهم التاريخي لم يكونوا مسلحين ماديا ومعنويا لمجابهتها ؟

ليس من قبيل الصدف ان يتعرضوا في نفس الوقت لنفس المحنة لانهم تحملوا مسؤولية تاريخية مشتركة وهي ان يكونوا بناة حضارة وحملة رسالة كان لها شان في التاريخ . فهم ، بعبارة اخرى ، من الشعوب التي وقفت موقف التحدي . ولئن كانوا عرفوا كيف يعانون المأساة بصبر وثبات ، فانهم عرفوا كيف يردون الفعل بشهامة واستماتة

(43) عن هاتنه النقطة يراجع :

محمد انيس والسيد رجب حراز : الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر

23 - 42 .

عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية 127 - 150 .

حينما حان الحين للتعبير بلغة الافعال لا بلغة الاقوال عن ارادتهم . في الدفاع عن حريتهم وكرامتهم (44) .

ففي المغرب ، ما لبث الشعور ان تعمم في كل مكان بان المعركة ضد الاستعمار البرتغالي هي معركة الدفاع عن النفس ، عن الحياة . وباتت كل القوات الروحية والسياسية وكل الفئات الشعبية مجمعة على وجوب حمل لواء الجهاد لتحرير البلاد من الهجوم الاجنبي . وما هي الا سنوات حتى اتت هاته الحركة اكلها تحت قيادة الدولة السعيدة الناشئة التي اسندت اليها زعامة الجهاد الوطني من لدن شيوخ البلاد وعلامتها . وجاءت النتيجة المنشودة على التو ، حيث طرد البرتغاليون من معظم المدن والسواحل المغربية في النصف الاول من القرن السادس عشر ، وغدا وجودهم بها اثرا بعد عين . ووجدوا عزاء عن ذلك في الاتجاه باهتمامهم نحو امريكا والبرازيل ، بصفة خاصة (45) .

لكن الفكرة الاستعمارية راودتهم من جديد نحو المغرب في عهد الملك دون سباستيان (1557 - 1578) الذي حاول ان ينتهز فرصة نزاع على العرش المغربي فاتى بنفسه ، مدفوعا بروح العصبية الدينية ، على راس جيش كبير وعتاد وفير ونزل الى ارض المغرب بقصد اخضاعه ومحو سيادته ، لكنه هزم شر هزيمة وقتل في المعركة الشهيرة في التاريخ باسم « معركة الملوك الثلاثة » او « معركة وادي المخازن » (986 هـ - 1578 م) التي كان لها صدى كبير بالمغرب واروبا ، والتي قضت على غطرسة البرتغال واكسبت المغرب حرمة وهيبة لمدة طويلة (46) .

لكن المغاربة لم يكتفوا بهاته الاعمال الحربية الكبرى ، بل تجندوا في حركات جهاد مستمرة . ومن ابرز ما فعلوا في هذا الصدد انهم

(44) نلتقي هنا مع فكرة توينبي الذي يرى ان التاريخ يتطور بمفعول التحدي الذي تعرض له الشعوب . انظر :
Toynbee : Histoire Elsevrien 1958

(45) Ch. A. Julien : Le Maroc face aux imperialismes

(46) ن . م .

انشأوا اساطيل الجهاد البحري . وقد دعيت حركتهم تلك ، خطأ ومن باب التنقيص والنس ، حركة القرصنة او اللصوصية البحرية . والواقع انها كانت حركة جهاد لفك الحصار المضروب على البلاد ، لان الدول الأوروبية اصبحت تدعي آنذاك ان البحار ملك لها لا يشاركها فيها احد (47) .

والى نفس هذا الموقف اتجه اخواننا فى الخليج واليمن برغم تشتت قواهم وتصدع صفوفهم . وكما يقول المؤرخ الكبير احمد عزت عبد الكريم ، ان ((ان القوى العربية فى اليمن وعمان ومسقط والخليج الفارسي لم يجمعها تنظيم سياسي واحد يلم شتاتها ويجمع قواها ، وقد مضى على اهلها قرون انصرفوا فيها عن تعبئة القوة البحرية العسكرية الكافية لتأمين تجارتها وهي المصدر الرئيسي لحياتهم)) (48) .

ومع ذلك ، فان اهل البلاد قرروا الاستماتة فى الدفاع عن حريتهم وكيانهم . وهكذا ، فان ((البوكيرك)) لما تقدم نحو مسقط للاستيلاء عليها، لقي مقاومة شديدة ، مما اثار حنقه ، فاحرق المدينة بمينائها وجامعها وسفك بسكانها ومثل بالأسرى من رجال ونساء . وحينما تقدم الى هرمز للاستيلاء عليها ، وجد نفسه امام 30 ألفا من المقاتلين و 400 سفينة . كما ان البرتغاليين فشلوا فى الاستيلاء على عدن ، فلم يستطيعوا التسرب الى البحر الأحمر .

وانتظر السكان المدد او الانقاذ من الدول الاسلامية القوية ، فابطا عليهم ذلك ، بل ان الشاه اسماعيل الصفوي تنازل للبرتغاليين عن هرمز وتخلّى عن ملكها الذي استجار به . وعندئذ قرر اهل البلاد القيام بثورة عامة وغارمة شملت هرمز ومسقط والبحرين وقريات وصحار ،

F. Moulaï : Les Etats Barbaresques

(47)

R. Coindreau : Les corsaires de Salé

يجب ان نلاحظ الاختلاف بين وجهتي نظر المؤلفين ، الاول يسلم بان القرصنة كانت دفاعا عن النفس امام طغيان الدول الأوروبية ، بينما الثاني يدافع عن موقف الاستعمار التقليدي .

(48) دراسات تاريخية فى النهضة العربية ص 190 .

واستطاعوا مهاجمة القوات البرتغالية من جهة البر والبحر وضرب ملك
هرمز الحصار على الحصن البرتغالي في الجزيرة (49) .

حقا ، ان كل هاته المحاولات لم تستطع صد البرتغاليين عن
مشاريعهم الاستعمارية ، ولكن كان من شأنها ، على اى حال ، ان ترفع
المعنوية العربية ، وقد تبين ان تفوق الملاحة العسكرية البرتغالية لم يكن
من اللين القضاء عليه . فقد جاءت الدولة العثمانية بقضها وقضيضها ،
وكل ما استطاعت ان تفعله هو انها احتلت عددا من المراكز باليمن والبحر
الاحمر لكنها لم تستطع ان تحصل على انتصار حاسم على البرتغاليين ،
برغم الحملات المتكررة ، والاساطيل الكبيرة التي اتى بها العثمانيون في
البداية (50) .

ما ذا كانت نتائج الحصار البرتغالي على المنطقة ؟

هنالك ، اولا ، النية المبيتة من لدن البرتغاليين من اجل القضاء
على النشاط البحري العربي في البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط
الهندي ، وكان هذا النشاط مهما ومزدهرا وحيويا بالنسبة للمبادلات بين
الشرق والغرب . وطبيعي ان يكون لذلك اثره الخطير على التجارة في
مصر والشام اي في موانئ الشرق العربي الكبرى التي كانت تعيش من
تلك التجارة . وطبيعي ان يمتد ذلك الاثر الى البندقية التي كانت تعتمد
كثيرا على تلك التجارة . ولكن الى اى حد استطاع البرتغاليون ان يحققوا
اهدافهم من هاته الناحية ؟

كان الراي السائد عند عدد من المؤرخين الاوروبيين والعرب الذين
اخذوا عنهم هو ان البرتغاليين استطاعوا ان يقضوا قضاء مبرما على
التجارة العربية في المحيط الهندي . والواقع ان الأبحاث الحديثة تفند
هذا الراي تفنيدا باتا . فالمؤرخ الكبير « فرنان بروديل » يلاحظ في
كتابه عن « البحر المتوسط » كيف ان البرتغاليين فشلوا في حصارهم

(49) عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية : 127 - 150 .
حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث : 27 - 45 .

(50) ن . م .

التجاري وكيف ان البحر الاحمر عرف ازدهارا كبيرا في اواسط القرن السادس عشر ولمدة تتجاوز عشرين سنة . ويلاحظ ((كيرك)) في كتابه المذكور آنفا ان البرتغاليين لم يستطيعوا مطلقا ((تحويل التجارة برمتها عن الطريق البري ؛ فقد بقي تجار العرب طوال القرن السادس عشر يقومون بجلب الحراير والأفاويه والأصباغ والعقاقير من الشرق والبن من اليمن وينقلونها جميعا في البحر الاحمر ، ثم عبر الصحراء الى القاهرة والأسكندرية)) . ويقول الدكتور احمد عزت عبد الكريم : ((اذا كان الجانب الأكبر من التجارة الشرقية قد تحول الى الطريق البحري المباشر، فان أسواق العواصم والثغور العربية في بغداد والبصرة ودمشق وحلب والأسكندرية ظلت عامرة بمنتجات الشرق مما تجلبه اليها القوافل ويتردد عليها التجار من جنسيات مختلفة ليتزودوا منها بما يريدون)) (51).

لكن الانتصار الحقيقي على البرتغاليين لم يأت من المحاولات العثمانية كما ذكرنا ولا من أي جهة أجنبية عن العرب ، بل جاء في الحقيقة من التضامن الفعلي بين العرب . اقول هذا ، وان كنت اردد وقائع تاريخية معروفة ، لأنني رايت بعض زملائنا في الشرق يجهلونها او يتجاهلونها . فهذا الدكتور عبد العزيز سليمان نوار حينما يتحدث عن هذا الموضوع يقول : ((لكن الذي حدث هو انه في الوقت الذي بلغت فيه السيطرة البرتغالية ذروتها في الثمانينات من القرن السادس عشر ، كانت البرتغال قد فقدت فعلا كيانها المستقل واصبحت تحت حكم فيليب الثاني ملك اسبانيا)) .

ولم يتساءل استاذنا الفاضل لماذا حدثت هاته التطورات ، ولماذا خف الحصار عن الخليج العربي . ولو فعل لادرك ان الفضل في ذلك يرجع الى معركة وادي المخازن التي ابرزت في تلك المناسبة التضامن الفعلي بين المحيط والخليج ، ولبين بالدليل الملموس ان العرب

(51)

F. Brandel : La Méditerranée et le Monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II

كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط .
د. احمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية ... ص 192 .

استطاعوا ، فى فترة التدهور والانحطاط ، ان يردوا عادة الاستعمار
ويدافعوا عن حريتهم (52) .

وما احوجنا اليوم لآخذ العبرة من هذا الماضي ! فايادي الطمع
عادت تتربص من جديد بجناحي العروبة وتحاول تشتيت العقد المنظوم
بضربه من الطرفين . ولئن كان التضامن العربي قد قام فى الماضي
بدوره الفعال الناجع ، بصورة تلقائية ، بدون تشاور ولا اتفاق ، فالأمل
معقود على ان يكون اليوم الفعل وانجح نظرا لما أصبح يتسلح به العرب من
وعى وادراك لاتجاهات السياسة العالمية ومطامع الدول الكبرى . اننا
لا نقول ان التاريخ يعيد نفسه ، ولكن نعتبر ان التضامن العربي من
الثوابت التاريخية التي لا تريد الايام الا رسوخا وان كل المواقف
المبنية على الانانية او الطمع نشاز ما تلبث ان تزول . ذلك ان قوة
المغرب بجمعه لأطرافه هي قوة للعرب جميعا ، وكذلك قوة الخليج ، وهو
يكتشف ثرواته وينميها .

د. محمد زبيير

سـلا

(52) عبد العزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية ص 145 .

خَاطِبَاتُ مَنْ فَايسُ

عبد العلي الوزاني

خاطبة فاس ما زالت موجودة ، لان وجودها لا بد منه ، كفلكلور قومي ينبغي المحافظة عليه .. لكونه جزءا من التراث .. وبضعة من الاصاله .. وبقية عطر الاحباب من اجدادنا الراحلين .. لكن خطوتها اصبحت اجراء شكليا ليس غير .. فر منها المفزى .. وانسحب المضمون .. وصارت مطلوبة بقصد التبرك .. وقراءة الفاتحة .. ذلك ان الذين يعنيه الامر مباشرة قد وضعوا يدا في يد .. واقتسموا العيش والملح .. وقرأوا شعرا معا .. وقرأوا نثرا معا .. وقال كل واحد لصاحبه : احبك .. وادى له حقوق الحب .. مع الاحتفاظ احيانا ببعض منها ليمنح في الوقت المناسب .. فلو استنفذت كلها لاختفى من بينهما عنصر المفاجاة .. وهو عنصر لا بد منه لاستمرار كل منهما متشبثا بصاحبه حتى النهاية .. في انتظار اكتشاف جديد .. بين يوم وآخر .. وهنا نتذكر فصول الرواية .. فلا بد ان تخفي في نهايتها مباغته للقارئ لسو قدمها الكاتب الروائي لكانت النهاية باهتة باردة .. مجرد اعادة لما سبق .. في رقابة مملة .. ونغمة مكررة معادة .. الزواج عندنا صار عسريا .. ولكنه قديم في بعض طقوسه واجراءاته .. يريد التوفيق بين الاصاله

والمعاصرة .. وخلق نوع من الانسجام بين سبعة الوالد .. والسلسلة
النائمة على صدر الحبيب .. بين رذانة العائلة .. ونزوات أصابعه الكثيرة
النزق ..

خاطبة اليوم سلية نساء كن في وقت مضى من مراكز القوى في
المجتمع .. يعمرن بيوتا ويخرين أخرى .. ويضعن مفاتيح السعادة عندما
يركبن الشيطان .. أو يهين تأشيرة الدخول إلى الجنة إذا هزتهن أريحية
ورثتها عن جدود .. بأيديهن كن ينشرون لواء المحبة ، ويعقدن عرى
المودة ، ويوثقن أوأصر الوصال .. يقمن الجسور بين الجزر المتعادية ..
ويمددن المعابر بين الحضيض الفقير ، والقمم المتعالية .. حتى ياتلف من
القلوب ما اختلف ، وينسجم من الطباع ما تنافر ، يلتئم من الجراح ما
استعصى على العلاج منذ أمد بعيد .. زيارتهن للعائلات كانت تعتبر حدثا
يشكل منعطفًا كبيرًا في حياتها .. إذ يتحدثن لغة تنقلها من بساطة النثر،
إلى توتر الشعر .. ويعطين البنات انطباعًا بأن واحدة منهن على الأقل قد
صارت أكبر من أن تبقى في أحضان الوالدين .. إذ لم تعد تدفئها بما فيه
الكفاية .. لكون نارها انطقات جنوتها وأوشكت على الخمود .. في الوقت
الذي ازدادت فيه حاجتها إلى مزيد من الدفء .. وتوقد الجمرات .. أما
البنات الكبرى نفسها فتتمر في هذه اللحظات بحالة شبيهة بحالة الفاكهة
الناضجة المعرضة لدرجة عالية من الحرارة .. بعد مرور زمن على
مرحلة التخمير واختزان مزيد من السكريات والنشويات .. بينما تمتد
ابناؤهن عبر أم البنات إلى السيد الواقف خلف جدار العادات .. امتداد
حوار الحمائم إلى الأسد الرابض في العرين .. فيخلق له وسواسا يورطه
في قبيحات الظنون .. واين بعض هذا من خاطبة اليوم ؟ فما زيارتها إلا
تدشين لبناء تم انشاؤه .. وتبريك لمعاهدة أنهى إبرامها .. وحضور
لحفلة الافتتاح .. بعد تأليف المسرحية .. وتوزيع الأدوار .. وأحضار
الديكور اللازم .. واعداد الأضياء الضرورية .. فالأولاد ، البنون منهم
والبنات ، تركوا الرسميات وتمددوا على العشب في حدائق الجامعة ..
أو تجاوزوا على المقاعد في دور السينما .. أو تقاذفوا الكرة فوق شاطئ
البحر .. أو تناولوا (الساندويتش) بأفاريز الطرق .. وهناك تبادلوا

الكتب والدفاتر .. وتهادوا الصور والاقلام .. وتقاطعوا بالأيدي والاقلام .. فسبقوا الأحداث .. واختصروا المسافات .. بطريقة القفز على الحواجز .. والاسراع بعقارب الساعة .. وجعل المسافة بين النظرة والضمرة .. واقرب من الصلة التي بين التفاح وقشره .. والزهر وعطره .. والمسك ونشره .. فلا يلوح حينئذ بناء العائلة الا كبعض المعابد ، عندما يجنح بعض روادها الى تبادل النكت والابتسام .. اثناء الاستماع الى موعظة الاحد ..

كانت محاولة الخاطبة شبيهة بعمل الناقد ، عندما يتوسط بين النص الادبي والقارئ المتنوق .. قصد ترجمة النص البارع الجميل الى شراب لذيد منعش ، يرشفه القارئ على مهل .. او الى فاكهة سهلة التناول يتلمط بها واقفا تحت تأثير نكهتها المشوقة .. وكثيرا ما يكتفي القارئ بالشروح والتعليقات عند غياب النص .. وفي انتظار الوصول اليه ، يحاول بواسطتها تصويره وتذوقه واخذ فكرة عن ابعاده .. ولكنه حينئذ لا يكون الا كمن يمارس التقبيل من فوق اللثام .. اذ لا شيء يفني عن الاتصال المباشر بالنص .. والاحتكاك به دون وسيط ..

وهنا تتفاوت الخطابات تفاوتا كبيرا . فمنهن من تمتلك طاقما جاهزا من النعوت والصفات ، تخلعها على جميع النساء .. فلا تملك الا ان تقول مثلا : لقد قضيب خيزران ، والعين زهر القحوان ، والخذ استدارة تفاح او حمرة رمان ، والزهر عناقيد وتيجان .. فهي كبعض نقدة الادب الذين كل اديب عندهم وحيد دهره ، وفريد زمانه ، وعديم النظير في رقة لفظه وسحر بيانه ..

لكن منهن من تكون دقيقة الوصف ، بارعة التناول . الجمال النسوي عندها لا يوزن بميزان البطاطس .. وانما بميزان الذهب .. حتى لا تنسى ان تتلصقا عند الشامة الدقيقة على الخد .. او الحرير النابت على الصدين .. او العشب المخملي الناعس فوق المعاصم .. فتكون كبعض نقدة الادب البارعين ، اذ ينظون اللفظ لاستخلاص الالفاظ الصالحة لكل حالة

شخصية على حدة .. وبذلك تتمكن من تحويل الرجل الفاخر فاه امامها الى مادة شمعية .. موضوعة في درجة عالية من الحرارة .. انه شهريار القديم .. له انبعاث لدى كل حالة من هذا النوع .. اكبر نقط الضعف فيه انه قابل للتخدير السريع حين تساق اليه بضغ كلمات موشاة مشتقة من ادق مراكز جهازه العصبي ..

ولا تلبث الخاطبة الساحرة ان تلمم اطراف ثوبها قائمة الى شانها ، تاركة صاحبنا للذهول والخيال الملهب ، ينخر فيه .. ويجعل بعضه يتمرّد على بعض .. حتى ليستعصي عليه اخضاع بعض مناطق لطيفة النظام ..

اصناف من الحسنات كانت تخرج من ثوب الخاطبة .. ما بين شقراء ، وسمراء ، وبيضاء ، كما قيل عن خروج مجموعة من الابداء من معطف جوجول .. تسويهن بكلمات من عندها كائنات حية .. وشخصا متحركة .. تنقل خطوها على المسرح .. وتقوم باستعراض نفسها في جاذبية واغراء .. بعد ان تنتقي لهن رفيع الثياب .. وتزوقهن بجميل المساحيق .. وتأخذهن بضروب من التوشية .. ثم ترفهن الى بعولتهن .. وتستبتحن بنين وبنات .. آخذة في ذات الوقت بيد الازواج المساكين المستسلمين .. فدالة اياهم على مفاتيح الجنة التي هم بابوابها واقفون .. كل هذا تصنعه بمجرد الحديث .. باشاعة وهم جميل في الجو .. ومن حولها آذان مسخورة ، واحلام مخبولة ، وعيون مبهورة ، وامان مرفرفة .. بينما تكون الى يدنا ادارة دفة الحديث ، والى لسانها مهمة التشكيل والتظليل والتلوين ، والى ذوقها وظيفة تشغيل ما صنعتها ملكاتها امام اعين الحاضرين ..

يتقمصها الرجل وهي تجيل بصرها في الكواكب الابكار .. من خلالها يمد عينيه نحو المتجردات الزاهيات في لبسة المتفضل .. يراقب فيهن ارتجاج الازداف .. ولولة الخصور ، وارتعاش الصدور .. واشراق النحور .. وتقلب الاعين .. وبريق الثنايا .. ولين المفاصل .. ومن ثم

كانت عيون بعض الخاطبات لا تنظر عادة من وقاحة .. ومن جراءة .. ومن
رغبة أكيدة في الاقتحام .. كانها تفتصب بالنظر ، ما يؤخذ عن طريق
الهصر بالاذرع .. والامساك بكماشة الاصابع .. لكان عيونهن ذكرت بعد
تأنيث .. او انشت بعد تذكير .. فامتزجت فيها الطبيعتان .. وكثيرا ما
ترى اشدهن وقاحة وهي تداعب خد هذه .. او تهز ذراع تلك .. او تخط
مؤخرة اخرى .. متصاحكة متماجنة .. فتتحى يدها في رفق .. وتزاح
في دعابة .. وما كان لها ان تفعل ذلك لو كانت خالصة لنفسها غالبا ..
ولكن الرجل المختفي تحت لسانها .. ومن وراء اهدابها .. وخلف
واجهتها الامامية .. هو الذي يفعل بالنساء هاتيك الافاعيل .. وجراءة
امراة على امراة بضرب من الغزل المكشوف .. مع صدور الاستجابة ولو
بطرق ملتوية مصروفة الى جو المزح والدعابة ، هي الوجه الآخر للحياء
المرشح من طرف العرف السائد ، ليكون من قيم النبل والطهر والعفاف ..
فعندما تتوقع بعض النساء - ومنهن صنف من الخاطبات - في جو نسوي
خالص ، فينبذن الحشمة والوقار ، نافثات من السنتهن سحرا يفك حزام
الطبيعة الانثوية ويفريها بالعودة الى مواهبها الفطرية .. يكون الحياء قد
دار على عقبه .. والتف حول نفسه .. مرتدا الى جيوبه الخفية .. ناظرا
الى مياله الجوفية .. واهبا لذاته حق الاستراحة من غص البصر ..
وانكسار النظر .. وهذوء الاوصال .. واسبال الرموش ،
وعقدة اللسان .. فمن الحياء ما يكون كوداعة الورد حين يخفي الاشواك ..
او كرقعة الطفل حين يضمر العدوان .. او كمروءة الرجل الطيب ، حين
ينصت الى وساوس ضعفه البشري .. ومنه ما يكون كالفاكهة الشهية ،
المقدمة الى كليوباترة .. في لحظاتها الاخيرة .. او كالخلة الجميلة ،
المهداة من قيصر الروم الى امريء القيس .. الملك الضليل .. ومنه ما
يكون وقاية من ضغط المواجهة .. وتواريا عن مجال المماحكة ..
وازورارا عن الصراحة المشوية بالخرج .. والبوح الشبيه بالاعتراف
بالذنب .. والامراة بغزيرتها تترك جيذا ان كنوزها كمناجم الذهب ..
لا بد من ان يتحمل العناء كل من يريد الوصول اليها .. فلا تهب كل ما
عندها دفعة واحدة .. ولا تنزع ثوبها منذ اللحظة الاولى ..

وقاحة بعض الخطابات كانت تفضح الحياء البادي للعيان ..
وتكشف عن أوراقه الشخصية .. وعن التنظيم السري الذي ينتمي إليه ..
وعن الطقوس التي يمارسها خفية .. وعن مراسلاته المشبوهة غير
المبعوثة عن طريق البريد الرسمي .. كما أنها في ذات الوقت تدل على
حقيقة ولاته الخاص .. والشفرة التي يتعامل بها مع الجهات المعنية ..

يعجبني أحيانا أن أفاجئ الممثلين والممثلات في غرف التجميل
الواقعة في بعض أجنحة المسرح .. بين فصول الرواية .. وما يتخللها
من فترات استراحة .. لأرى شخصية الممثل كيف تنهيا لأخذ طابعها
المسرحي .. في الوقت الذي تعفى فيه الشخصية الحقيقية من مهامها ..
لتنضم إلى جمهور المتفرجين ..

ومع ذلك فخاطبة فاس كانت مدينة للحياء بالشيء الكثير .. إذ كل
باحث عن الزواج وكل باحثة عنه لم يكن أي واحد منهما يدري كيف يخلق
التوافق والانسجام بين نعمته ونعمة الطرف الآخر .. كل منهما يعزف
عزفا منفردا .. ويود لو انضم إليه شريك في العزف .. لتكون الألحان
متكاملة .. فلا يبقى العود بعيدا عن الدف .. ولا المزمار منعزلا عن
الكمان .. ولكن تقف بين النغمتين واللحنين والأداتين عوائق وموانع
يحتاج تذليلها إلى نغمة ثالثة أو أداة ثالثة تأخذ من هذه لتعطي تلك ..
وتضرب بينهما موعدا للقاء المأمول .. وإذا كان الراغبون اليوم في اللقاء
أيا كان أظاره ، يتمكنون منه بسرعة ، ولو كان واحد في باريس ، والثاني
في سنغافورة ، وبدون أي وسطاء .. فيكفي التعارف البسيط .. فإن
اللقاء بين الراغبين فيه من الجنسين ، كان عندها في زمن مضى لا يتم إلا
بواسطة ، وبعد إجراءات معقدة .. ولو كان أحد الطرفين يسكن بدار
ملاصقة لدار الآخر .. للدرجة أن السطوح والنوافذ والجدران تكون أحيانا
مشتركة ، حتى ليستطيع أحدهما سماع صوت الثاني وتخيله وهو يتحرك
داخل الدار ، دون أن يستغنيا عن الوسيط الذي هو الخطابة .. فهي
كانت المقدمة الطبيعية لمجيء العليلين ساعة كتابة عقد الزواج .. لا بد
أن يفسح لها المجال أولا .. حتى إذا وصلت الخيوط .. وسرى التيار

الكهربائي بدون حواجز .. وكانت الانارة اللازمة .. تقدمت العمامتان
الموقرتان لاضفاء الشرعية على الموقف .. ومباركة وتركية مرور التيار
من بيت الى بيت .. ما رأيك فى انها عدل مؤنث .. لا يمثل الشرع ..
وانما يمثل الحب .. ولا يضع على كتفيه برنسا .. وعلى عينيه نظارة
طبية .. وانما يضع فى فمه قطعة (مسكة) .. وفى لسانه توابل
ومستملحات .. وفى عطفه بشارت الافراح ، والليالي الملاح . ؟ يمثل من
الزواج جانبه الواقعي .. البشري .. بينما تمثل العمامتان الموقرتان
جانبه المثالي .. ولا يكمل احدهما الا بوجود الآخر .. لانهما يشخصان
القانون والغريزة .. اذ القانون هو المنظم للغريزة ، والمتسامي بها ،
والمرخص لها بممارسة حقوقها الطبيعية .. فهو - اى الزواج - كعض
الاجهزة الاجتماعية ، لا بد فيه من وجود قمة وقاعدة ..

كانت خاطبة فاس المتيدة لا تعتمد فى اعطاء الرجال صوراً عن
النساء او النساء صوراً عن الرجال ، الا على موهبة لسانها ؛ تديره بمهارة ،
وتغمسه فى الشهد ، وترطبه بالثناء ، وتمد له فى أسباب البراعة وحسن
الاداء .. ولكن لم يلبث التصوير الفوتوغرافي ان نزل بالآلة الى المدينة ..
فقيد الحاظا .. وامسك قدودا .. واحتجز وجوها .. واصدر للرجال
جوازات السفر الى مخادع النساء .. وظهرت صورة الرجل تبعاً لذلك
داخل العلب العاجية .. ونامت بين الثياب المطوية .. واندرت خلف
المرايا الشخصية .. كما رقدت بين الصدر والنحر .. وترددت بين
الهمس والجهر .. وتراوحت بين الطي والنشر .. كانت الواحدة اذا
خبأت صورة رجل خيل اليها انه دخل بين جسمها وثوبها .. وتوسط بين
صمتها ونطقها .. واربك ما بين سرها وعلنها .. تخاف ان يسقط منها
فى اية خطوة .. وان يفضحها لدى كل قومة او قعدة .. دافئ فراشها
اذ تتوسطه .. لطيف وسادها اذ تتوسطه .. جميل حلمها اذ تتامله ..
رفيق خاطرها اذ تتمثله .. ولكن ذلك مشوب بالشعور بالذنب .. قلق
بالترقب .. مطارد بالخوف من المجهول ..

وامسكت بعض خواطب فاس شبه المحترفات بالصورة يستمن بها

على أداء مهامهن .. امسالك الجاسوس برسم بياني لارض مرشحة للغزو ..
واختلطت الصور تحت ثيابهن .. عجوز تعاقب شابة .. وذميمة مزروعة
في اهاب فاتنة .. وشباب رقيق يجثم عليه بطين ثخين .. وهن يدخلن
أيديهن في صدورهن .. او يضربن بها على جيوبهن .. فيخرجن الصور
من مخبئها وينتقين منها ويخترن ، حسب المواقف والاحوال .. ومن يوم
أن استعن بالصورة بدأت مواهب السنتهن في الاداء تتعرض للتراجع
والترايل والهزال .. اذ الصورة اعفتن من ثلاثة ارباع الموقعة .. فلا
يبقى امامهن الا بعض التنوعات واللمسات .. يجرينها على هامش الصورة
او على متنها .. تكون شبيهة بايضاح المناسبة التي نظم فيها القصيد من
الشعر .. والموقف لا يخلو من عنصر الفكاهة .. فالرجل اذ تنشر
الخاطبة من ذلك النوع المبتذل بين يديه صورا لنساء شتى قائلة مثلا :
انظر الى هذه ، سبحان من خلق .. ! وانظر الى تلك .. ما ابهى وما
اروع .. ! وهذه ، انظر الى النونين فوق صدغيها .. وزغب الخوخ على
خديها .. والحدود في عينيها .. ! وما رايت في هذه التحفة الفنية . ؟
ويلي من اهدابها الطويلة ، وعينيها الكحيلة ، وطلعتها البهية .. ! فلا يكاد
الرجل يتملى من محاسن صورة حتى تسحبها لتضع تحت عينيه اخرى
.. اليس شبيها بطفل يتفرج على صندوق الدنيا (صندوق العجب) وهو
صندوق بداخله صور لنساء واباطال وهميين .. كان يحمله رجل متجول ،
حتى اذا وجد جمعا من الاطفال نصب صندوقه فوق قائمتين من خشب ،
ورفع صوته يقول : (اتفرج يا سلام .. !) فكنا ونحن اطفال نجتمع حوله
باحثين باصابعنا في اعماق جيوبنا عن قروش شحيحة ندفع بها الى الرجل ،
ليسمح لنا بالنظر داخل صندوقه العجيب .. فما ان يضع الطفل عينيه
على زجاجة مستديرة صغيرة القطر ، حتى تبرز له صورة امرأة صارخة
الالوان .. ضخمة الوركين .. عبلة الذراعين .. واسعة العينين .. وقد
تمددت على وسائد عديدة .. - واذكر اننا كنا نشاهد نفس الصورة على
غلاف بعض علب السجائر - بينما ينطلق صوت الرجل : هذه السيدة حب
الزمان ، ابنة العظيم قمر الزمان ، التي اختطفها ملك الجان .. ! ثم لا
يلبث ان يسحبها - ولا ندري كيف - ليدفع باخرى ، ثم ثالثة ، ورابعة ..
ونحن ذهول .. لا نحقق شيئا من معاني ما نسمع ..

يقول الجاحظ وهو بصدد المفاضلة بين الحرية والامة ما مؤداه ، ان جل الرجال في عصره كانوا يفضلون الاماء على الحرائر ، معللا ذلك بان الجارية كان الرجل يقدم على تملكها بعد المعاينة ، اما الحرية فلا يراها ، وانما تتوسط بينها وبينه الخاطبة ، فتروي له من محاسنها ما تشاء ، كان تقول كان عينها غزال ، وكان عنقها ابريق فضة ، وكان شعرها العناقيد ، وقد لا يتفق ذوقها وذوقه ، والرجال بالنساء ابصر . فالى اي حد كانت الخاطبة عندنا توفق بين ذوقها وذوق الرجل الذي وسطها في اتحاف فراشه بالنصف الحلو . . وامتناع لياليله بالمباهج والمسرات . ؟ انه قبل تطوعها للبحث عن مكافاة لطيفة لرجولته على اقتدارها وبروز مواهبها ينظم لها شعرا من نوع الغزل المكشوف . . يضمه مقاييس الجمال النسوي كما يراها . . وربما كان هو الشعر الوحيد الذي صاغه في حياته . . لوتجسست كلماته لكنت زيدا ممزوجا بعسل . . او فاكهة ناضجة مضرجة الخدود . . تقطر حلوة ، وترشح شهدا . . ثم هو يحملها على ان تحفظ شعره ذاك عن ظهر قلب . . وتردده على مسمعه . . ليتأكد من انها لا تكسر له وزنا . . ولا تهمل قافية . . ولو سقطت منه شفة او رمش او خصلة شعر لكنت قد اضاعته شعره ذاك . . وعليها بعد ذلك ان تذهب للبحث عن مصداق آيته الفنية كما صاغها بنفسه كلمات . . طالبها بالاتيان بمدلولاتها الواقعية . . هو قام بالتجريد . . وهي مدعوة الى التشخيص . . والبحث عن مدلولات اللفظ في الواقع ، امر يحتاج الى تشذيب اللفظ لتتلاءم مع المحسوس . . او تهذيب المحسوس ليتلاءم مع اللفظ . . اما ان يبقى كل منهما كما هو ، ثم ينتظر ان يتطابقا تطابقا تاما ، فهذا غالبا ما يكون غير ممكن . . ها هنا يتدخل ذوقها للملاءمة بين ما يريد وما هو موجود فعلا . .

الخاطبة لا تحاور البنت التي هي مدلول الكلمة المحشو بها . . تنقلها من شئ الى شئ كأنها قطعة لبان . . وقد تبتلعها اذا هي تعرضت لصدمة او خيبة امل . . تلوكها مسكا . . وتبتلعها حنظلا . . بعد ان تكون حلاوتها قد مزجت بمرارة تربو عليها في المقدار . . ولو تنازلت البنت الى ان تكون طرفا في حوار مع هذا الصنف من النساء ، لكنت كالمدينة

التي لها استعداد لتسليم مفاتيحها لرسول غاز يقف اسفل اسوارها .. بعد
مفاوضة بسيطة .. بذلك تبقى كجزيرة يحرم اختراق مياهها الاقليمية ..
ولا يقع الابطار نحوها الا بترخيص خاص .. تحاول الخاطبة الاقتراب منها
ما وسعها ذلك ، فتولي مذعورة كحمامة تخبطت واربتك جناحها اذ فاجأها
ظل الصياد .. وافزعها وقع خطواته على مقربة .. مدخرة مواجهتها
المباشرة للوجه الذي يحلق فيها بعينه المسددتين من بعيد .. من خلف
حجب تكاد نظراته المركزة تخترقها محدثة فيها الخروق والفجوات ..
فيوم تمسك بصاحبه تعرف كيف تفهمه لماذا هي ولت هاربة من مبعوثه
معرضة عما دعتها اليه من حوار .. ان الجدول اذ يرتد عن مجرى من
المجاري فانما ليحت خطاه نحو مجرى آخر يتدفق عليه ويفمره ويتخلل
كل مسالكه .. وان الفزال اذ يشب مذعورا من همس انسان ، قد يندفع
نحو فج ينتظره على بعد خطوات .. يلهث في احضانه حيناً من الزمن ثم
يهدأ ..

وخلف الابواب قد تقف لاستراق السمع ، الى ما يدور عنها من كلام
.. وعن ذلك الرجل القابع في انتظارها .. متقلبا على مثل جمر القضا ..
ياكل اظافره .. يعد لها جنته وناره .. ويمد نحوها يده المليئة بالهبات ..
ونظراته المفعمة بالرغبات .. ويخبيء لها مفاجاته والعبه السحرية .. في
سرهما ترد على ما يصل اليها من كلام .. جملة مبتورة .. وفقراته مخرمة
الحواشي .. مبهمة الصدور والاعجاز .. كمكالمة تلفونية مشوشة بين
بلدين جد متباعدين .. تتجسس على حديث عليها ان تحفظه جيـدا ..
لكونها سوف تؤدي فيه امتحانا بعد حين .. يوم تواجه بالسؤال الاكبر ..
في هذه اللحظات ، وحديث المرأتين يتراعى اليها ، تشعر بان ريحا حارة
تلف جسمها .. وبان عينيها صارتا لا تنظران الى الخارج .. وانما الى
الداخل .. وبان هناك شخصا غريبا يقف في مواجهتها .. رائحة عرقه
طافية .. وانفاسه تهب عليها دافئة جدا .. يكاد بدنهما يتصيب لها عرقا ..
وكانما امتدت منه اليها حبال معنوية لفتها لفا محكما حتى لا تكاد تقدر على
الحركة .. فتبقى جامدة في موقفها مأخوذة بالحديث الخطير ذي المطارح
والشجـون ..

أنها طرف في قضية لا يتكافأ مع الطرف الآخر .. يقصر به عن ذلك
انه محجوز منذ البداية .. منذ أن رأى النور .. مصروف عن مثل هذه
الشؤون الى بدنه يحشوه بالمشهيات .. والى لحمه يطربه بالاسترخاء ..
والى اطرافه يوافيها بالتهذيب .. والى مرآته يطالعها بالتعاقب .. نعمة من
نعم ربك الفاخرة لا بد ان تنمو مع مرور الايام لتتسع قاعدتها .. وتمتد
لها فروع متفجرة من شيع وري .. فتصبح مركز جانبية .. كثرة عائلية
واعدة بايام زاهرات ، وسنين مشرقات ، ومباهج متبرجات .. قصورها
ذاك رفع عنها ضربا من التكليف الاجتماعي .. والحققا بالتحف الفنية ..
خصوصا اذا كانت مترفة تقضي أجمل ايامها داخل شرنقة من ناعم الحرير
.. فتتقدم حاضنة الشرنقة لتأخذ عنها امر نقلها الى مناخ آخر .. تتعود
على ريحه ومباغثاته تدريجيا .. وتالف عاداته وتقلباته مع مرور الايام ..

اكانت الخاطبة مجرد ساعي بريد .. لا يتحرك على عجلة .. ولا
يتدلى على جنبه جراب .. وانما يتحرك على بركة الله .. وكل رسائله
شفوية .. محفوظة جيدا .. مفهومة جيدا .. كمبعوث رسمي يحمل
رسالة شفوية الى رئيس دولة صديقة .. ؟ الحق ان الخاطبة لم تكن مجرد
ساعي بريد .. فهي كثيرا ما تنجز مهمتها لوجه الله تعالى ليس غير .. اذ
يعز عليها ان ترى فراش رجل موحشا كئيبا .. وهو الذي يود اكمال نصف
دينه .. وابعاد وساوس الشيطان لعنه الله .. وقد تكون اما تود ان ترى
ابنها يزكو ويرو .. وتصبح سنبلة كثيرة الحبوب .. وغصنه زاهي
الاوراق .. مثقلا بالثمار .. انه مشروع معطل .. يمكن استثماره
واستغلال طاقته المستعدة للعطاء .. وامكانياته المخزونة القادرة على
الانتاج .. لذلك قلت انها لم تكن مجرد ساعي بريد .. ولو انها اكرم
 واجمل والطف ساعي بريد عرفه الناس .. الساعي الذي تخصص في
حمل رسائل الحب .. الحب المقنن .. المنظم .. المشروع .. الحامل
في يد لكتاب الفقه .. وفي يد لباقة من الورد .. وهل جاءك ان ساعي
بريد يتلو رسائله قبل نقلها الى اصحابها .. مترنما بها .. واقفا عند كل
مقطع من مقاطعها .. وكأنه يعمل لحسابه الخاص .. ؟ وهل جاءك ان
ساعي بريد لا يأخذ احيانا من مرسله الا المادة الخام .. الا عناصر

الموضوع .. ويبقى عليه ان يدع منها انشاء يصفى عليه طابعا من عنده ..
ويعبىء كلماته بطيوب تبعث على الانشراح .. ويزودها باجنحة تقيها شر
الوقوع على الارض .. فتنشر كالبشائر تروق الخواطر وتشرح
الصدور .. ؟

ليس اقتياد امرأة بواسطة امرأة اخرى من جنسها الى فراش الرجل
ودائرة نفوذه ومجال استعراض عضلاته وحدود ملكيته الخاصة شبيها بما
يصنعه بعض افراد الحمام .. ؟ حيث تغادر الحمامة عشها قصد القيام
بجولتها المعتادة ، تفرع الفضاء ، وتحوم فوق رؤوس الاشجار ، وتلتقط
الحب ، وتهبط الى منابع الجداول ، ولكنها لا تعود احيانا الا وفي صحبتها
حمامة اخرى غريبة .. غازلتها ودعتها الى بضع تحويمات .. ولكن ما ان
اتسقت الاجنحة .. وتداينت المدارات .. وتوحد معدل السرعة .. حتى
استدارت الحمامة بصاحبها نحو عشها تستحثها على ان تخرج عليه ...
ونفس الشيء تفعله العصفير والفرلان والبجع والاسماك .. والرجل هو
المستفيد الاكبر من المراتين معا .. اذا سلط احدهما على الاخرى ...
واغراها بها ، تنمق لها العيش المامول ، وترشوها بالحظ المرتقب ، وتدنو
بها من القد المرجى ، حتى اذا خلبت لبها بجمال اللفظ ، ورققت لحظها
بروعة الطيف ، واسكرت اذنها بعذب النغم ، لا يبقى الا بعض الترتيبات
لتتبعها الى المصير المحتوم .. منعوا الرجل من ان يخطب المرأة الى
نفسه بنفسه .. صادروا كل ضمير للمتكلم .. وعوضوه بضمير الغائب ..
رفضوه حاضرا .. ولكن قبلوه غائبا .. كطرف في حوار .. كل حديث
عنه وباسمه ممكن .. بشرط ان يبقى بعيدا .. تنقل اخباره ومشاريعه
فقط .. اذا اريد للخطبة ان تتم في احسن الظروف .. قال الرجل :
اتفقنا على هذا الاساس .. وابتعد وامعن في الابتعاد .. منييا عنه ضميره
الغائب .. تنطق به الخاطبة حذرة من ان تظن به اسوء الفنون ..

وفي مجتمع يرى المرأة مناقضة تماما للرجل ، وفي كل شيء تقريبا
.. لم يكن من المعقول ان يتم لقاء مباشر بينهما ليخطبها الى نفسها ..
فلا بد من حلقة متوسطة للربط بين طرفين متباعدين وان كانا متجاذبين ..

لا بد من تجزئة المسافة الممتدة بينهما الى مراحل .. بحيث يسبقه التراجمة والرسل والهدايا .. تبشير مقدمه أولا .. نسماته الهادئة كمقدمة لعاصفته الآتية من بعد .. همساته الرقيقة المتلوة لا محالة بصيحاته العالية .. الحادة النبرات .. الرجل كله دفعة واحدة منذ البداية امر لا يمكن احتماله .. لان الشراب الذي يقدمه مدمر اذا لم يؤخذ على جرعات .. ومطالبه لا تخطو من عنصر المفامرة الوخيمة العواقب .. وهو ولو بلغ درجة عالية من التهذيب ، وكان يتكلم شعرا .. ويتنفس شعرا .. وكل جيوبه مزروعة بالقصائد .. لا بد ان يكون رابضا في باطنه كائن عدواني .. يظهر في اللحظة المناسبة .. ولذلك لا محيد عن اخذه بالتقسيت .. بحيث يقدم حسابه منحلا الى عمليات صغيرة .. تمهيدا للدخول في العمليات الصعبة .. المحتاجة الى تاهيل خاص .. ومن ثم كانت الخطوبة تمرينا رياضيا بطيئا تنهيا معه العضلات للتمارين الشاقة الآتية .. فلو بدىء بهذه الاخيرة لكانت العضلات معرضة للكسر .. والتمزق الشنيع .. الخطوبة هي فصل الربيع .. الواقف بين الشتاء والصيف .. بدونه يرتبك ميزان الحرارة .. ويختل توازن كثير من الأشياء .. ولكن فصل الربيع يرفع الحرارة تدريجيا .. ويعد الثمار لايام النضج .. ويشجع السنابل على ان تشد من قامتها وتشرئب الى فوق .. ويستحث العصافير على بسط اجنحتها على سعتها في الفضاء .. بعد اختفاء خطر الرياح الهوج .. مبتعدة عن اوكارها ضامنة سلامة العودة .. والخطوبة تكييف للهواء من حول بعض الزهور .. كاجراء مبدئي حتى تستطيع الحياة في المناخ الجديد الذي ستنقل اليه .. والا عاشت في ظروف صعبة للغاية .. وبعض الزهور تكون من الصغر والطف والقابلية للعطب السريع .. بحيث تتطلب اطالة مدة التكيف .. قبل اقتلاعها من منابتها واحضان امهاتها .. لتوضع في احضان اخرى يختلف أسلوبها في الاحتواء والاحتضان ..

عبد العلي الوزاآني

فاس

في تحليل مصادر تاريخنا

II البيذق والمهدي بن تومرت

عبدالقادر زمامة

يكاد يكون انهيار دولة المرابطين من الألفاظ التاريخية التي تقلدنا في متاهات من الفروض والحدسيات . ندور في حلقاتها المفرغة . الا اننا نقف امام المهدي بن تومرت ودعوته . وحركته . وشخصيته . وحقيقة امره . نفس الموقف من الفروض والحدسيات . والذي يعمق في نفوسنا الشعور بهذه الحقيقة هو ذلك التصوير الغريب المثير الذي تولى ((البيذق)) تسجيله في كتابه عن المهدي وقيام دولة الموحدين في المغرب . والاصطلاحات التي استعملها والمواقف والافكار التي عبر عنها .

فانهيار دولة المرابطين وهي في اوج عظمتها لغز ... ! والمهدي ودعوته وحقيقته لغز ثان ... ! اما اللغز الثالث فهو هذا (البيذق) الذي تولى تاريخ الدعوة كما تولى الدفاع عنها بكل ما يملك من قلم ولسان ... !

وسنحاول هنا - بعد دراسة كتاب البيذق - ان نرافق هذا المؤرخ الغريب ونطل المعلومات التي يقدمها قبل ان يواجه المهدي المرابطين في مراكش ... وبعد المواجهة ...

ولعل في هذا التحليل المعمق ما يفيد المهتمين بالدراسات القرية
ومصادرها التاريخية ...

قبل مواجهة مراكش

يتبدى البيئق في القسم الموجود من كتابه . حديثه عن المهدي
في مدينة تونس . فيعيد الضمير عليها قائلا : « وكان طلبتها ياتون الى
الامام رضي الله عنه . ياخذون عنه العلم » . ويذكر حادثة المسجد يوم
الجمعة حيث ان المصلين لم يصلوا صلاة الجنازة على احد الموتى هناك .
فيل لهم انه يهودي . . ! فاستغرب المهدي ذلك واستفسر الحاضرين عن
حقيقة امره . فاجيب بانه كان يصلي . . ! اذ ذاك اقيمت الصفوف خلف
المهدي وام بهم الصلاة على الجنازة . ثم ويخ - يقول البيئق - الفقهاء
وعرفهم بالسنة . وبين لهم الكتاب العزيز . فصاروا ياخذون عنه العلم
اياما عديدة .

وهنا يضع البيئق يدها على مفتاح يتعلق باسمه ونسبه وبشيء من
احواله وارتباطاته بالمهدي فيقول : « فخرجنا من تونس ونحن اربعة نفر .
كما كنا اول القنوم : سيدنا المعصوم رضي الله عنه . ويوسف الدكالي .
والحاج عبد الرحمن . وعبدكم الفقير . . ! المؤلف لهذا ابو بكر بن علي
الصنهاجي المكنى بالبيئق » .

فمن هذا المفتاح نستفيد انه قدم مع المهدي الى تونس ثم خرج منها
معه . وهو رابع اربعة . كانوا يكونون الخلية الاولى التي اعترفت بالمهدي
وعصمته . والتفت حوله . ورافقته في حله وترحاله ، ايام الدعوة الاولى .
وان اسمه ابو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيئق . . !

ولكن هذا التعريف المكرر في الكتاب لم يزدنا الا غموضا وخفاء . اذ
لا نجد له - فيما نعلم - ترجمة فيما كتب من معاجم الاعلام او كتب التاريخ
مما يحملنا على التساؤل عن حقيقة امره . والى اي صنهاجة ينتسب . . ؟

فهل هو من صنهاجة افريقية . ؟ او من صنهاجة الصحراء . ؟ او هو منتسب الى فرع آخر من فروع هذه القبيلة الكبرى التي لها في الجبال والسهول والاقاليم المغربية فروع لا تحصى .. ؟

كما يحملنا على التساؤل عن اشياء اخرى تتعلق بالكيفية التي تم الاتصال بها بين البيئتين والمهدي . زمانيا ومكانيا . وكيف اقتنع بفكرته اقتناعا كلياً ، حتى أصبح له خادما صادقا ، ومساعداً اميناً . يبلغ دعوته . ويحفظ سره . ويحمل حاجته . ويقود دابته . ويحمل عليها كتبه واسقاطه !! مما كرره في كتابه . في عدة مناسبات .

واذا سمحنا لانفسنا باطلاق العنان لها للاستمرار في هذه التساؤلات فاننا نريد ان نعرف - لو كان في امكاننا ذلك - هل رافق البيئتين المهدي في رحلاته عبر بلاد المشرق ؟ ومن اين قدم معه الى تونس .. ؟ ومتى دعي بالبيئتين . ؟ ومن دعاه بها اول الامر .. ؟

ومعلوم ان كلمة بينق مغرب ((بينه)) الفارسية كما نص على ذلك ابو منصور الجوالقي في كتاب ((المغرب)) وتعني الراجل ... وهو عادة في الحروب خفيف الحركة سريع التنقل . وبينق الشطرنج معلوم . والبيئتين بمعنى القصير الخفيف من الرجال مستعمل قديما وحديثا ...

وهكذا لم يكن في امكان البحث ان يصل بنا الى ما نريد ، او الى قريب مما نريد ، من حقيقة هذا الرجل ، الذي عمل في خلفية الدعوة الموحدية وعلم من اسرارها وخفاياها الشيء الكثير .. الا انه لم يكتب يوم كتب عنها الا ما سمحت به ظروف الكتابة ومقام ((الخليفة)) المرفوع اليه الكتاب او ((السيد)) الذي رغب في ذلك ... كما ان الزمان عمل عمله في بتر كتاب البيئتين واتلاف بعضه .. !

ويرافق البيئتين المهدي في رحلته من تونس الى مراكش . قبل ان تقع المواجهة هناك بينه وبين امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين .

وحديث البيهقي هنا ليس حديث سفر ، وطريق ، ومعالم ، ومسالك فقط . ولكنه حديث يتناول بث الدعوة . وكسب الانصار . والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . والاشارة الى خوارق العادات التي تجلت في اتصالات المهدي . واقبال الناس عليه . وانتصاراته في كل غمرة خاضها . وفي كل خطوة خطاها . حيث يصوره بطلا موهوبا . فصيح اللسان . قوي الجنان . غزير المعرفة . واسع الحيلة ! ويكرر ذلك في كل مناسبة . ويلونه باللون الخاص . الذي يتطلبه سياق الرحلة من جهة . وسياق الدعوة من جهة اخرى . عبر المدن والقرى والمساجد والمنازل . حيث ان المهدي كان يحل بالمراكز التي لها في نظره اشعاعات دينية واجتماعية . كالمساجد والاسواق . ويتصل بالشخصيات التي لها في نظره ، قدرة على الاقتناع والاقناع . من طلبة العلم ، وائمة المساجد وغيرهم . ممن لهم تأثير معنوي او مادي في المجتمع . حيث يمكنه ان يبرز امامهم شخصيته . ودعوته . واسلوبه في تشخيص الانحرافات والمذكرات . وطريقته في القضاء عليها . باراقة اواني المشروبات المحرمة . وكسر أدوات اللهو . وتفريق الجموع التي تكون مظنة اختلاط النساء بالرجال ! ويتخذ من طريقته في العيش ، وبساطته في المظهر حجة يقنع بها الناس ، انه مخلص ، صادق ، هدفه الاصلاح ، وسلاحه الفيرة على المقدسات ، والمحافظة على الاعراض والحرمان . . .

هكذا فعل في تونس . وهكذا فعل في قسنطينة . وبجاية . وقرية ملالة . ومدينة تلمسان . وغيرها من المراكز التي حل بها . غير اننا لا نريد ان نسجل - اجمالا او تفصيلا - كل الاخبار التي اشار اليها البيهقي في كتابه او مذكراته التي بين ايدينا . ولكننا نقف وقفات بحث ودوس واستنتاج . عندما نرى صنيع البيهقي يقتضي ذلك . . .

نقف معه اولا في مدينة بجاية ونسأله : كيف خرج المهدي من بجاية . . . ؟ هل خرج دأما مختارا . ام خرج خائفا مضطرا . . . ؟ الواقع ان سياق البيهقي يقتضي ان الامر كان عاديا . حيث ان حاكم بجاية انتقد تصرف المهدي في تدخلاته المعهودة لتفريق الجموع . التي يختلط

فيها النساء بالرجال ... ونصحها الا يستعمل الاشياء في غير موضعها ...
اذ ذاك - يقول البيهقي - خرج الامام الى ملالة ... !

اما سياق ابن خلدون فكان هكذا : « وتعرض يوما لتغيير بعض
المنكرات في الطريق ف وقعت بسببها هبة انكرها السلطان والخاصة ..
واتتمروا به . فخرج منها خائفا . ولحق بملالة على فرسخ منها .. وبها
يومئذ (بنو وياكل من قبائل صنهاجة) وكان لهم اعتزاز ومنعة ... فأووه
واجاروه . وطالبهم السلطان صاحب بجاية باسلامه اليه . فابوا واستخطوه
... واقام بينهم يدرس العلم اياما ... » (1)

فكون المهدي يحتمي ببني وياكل الذين كانوا اذ ذاك في احواز بجاية .
ويستخطون السلطان بعدم تسليمه . امر على جانب كبير من الاهمية بالنسبة
لحركة المهدي . وتطوراتها . واساليب الاقناع والافتناع بها . ولكن
البيهقي يسكت عن ذلك كما يسكت عن اشياء اخرى . وبذلك ، فاننا نلمس
في كلامه ما يدل على انه كان ينتقي من ذاكرته ما يقدمه . ولا يكتب كل ما
يعلمه .. ! لاعتبارات لا تخفى علينا الآن .. وكانت لا تخفى ايضا على من
قدم اليهم ما كتب في شان زعيم منزههم . وقيام دعوتهم ...

ولقاء عبد المومن في ملالة بالمهدي . وهو في طريقه الى الشرق
لاستكمال الدراسة والتفقه في العلم والدين . مناسبة دعت البيهقي الى
افراغ ما جمعه في كنفاته طيلة سنوات من مصاحبة المهدي ايام الدعوة ..
ومرافقة عبد المومن ايام الخلافة .. ليسطر ما سمعه من الخوارق
والمعجائب التي احاطت بعبد المومن منذ ان كان حملا في بطن امه .. !
ومنذ ان صار فتى ثم شابا ، يرى المنامات وتراءى له الاحلام . وكأنه
يستشف منها مستقبلا غير عادي ينتظره لترفعه فيه الايام الى مصاف
القادة والابطال والملوك ... !

وخيال البيهقي في هذا الميدان . خصب جدا وحافل جدا بالخوارق

(1) العبر ج 6 ص 467 ، ط . بيروت .

التي علمها أو علمها . وهي بطبيعة الحال داخلة في نطاق الدعوة التي قامت

عليها سياسة الموحدين اول الامر . من مهدوية . وعصمة . وما يحيط
بهما من تكهنات بالمستقبل الذي ينتظر الافراد ، والجماعات التي تدخل في
فلكتها . وتؤيدها قولا وفعلًا ...

والمهدي في نطاق دعوته . كان يعد الناس ويمنيهم . كما كان يعد
اصحابه الاقربين اليه ويمنيهم . ويشير الى المستقبل الذي ينتظرهم يوم
ياخذون زمام الامر . . . ! وقد اشار البيهقي الى ذلك كثيرا في حديثه عن
المراحل التي قطعها مع المهدي من تونس . الى فاس . الى مراكش .

ففي - البطحاء - يجد المهدي واصحابه رحابة صدر ، وكرم ،
ضيافة . عند شيخها . استحق بهما ان يعده المهدي ويمنيه ويقول له :

((... اعطني جلدا . فدفع له جلدا من مزود . فاخذه المعصوم .
وجعل له حرزا . وقال له : يا شيخ امسك هذا عندك . فان مت يكون
عند بنيك . فانه خير لك ولعقبك . حتى يصل الى هذا الموضع ملك
وعسكر . فادفع البراءة من يدك ليد الملك . ولا تعطها احدا غيره !
فقال له : نعم !)) (2)

وفي ((امليل)) من بلاد غياثة . سال عن اسم المكان . ف قيل له : هو
امليل . فرد يده الى عبد المومن وقال له :

((اعقل على هذا الموضع . . لا بد لك ان تركزعليه ان شاء الله . . .))
ولا شك اننا ونحن نرافق البيهقي استفدنا نماذج من اساليب المهدي
وطرقه في الدعوة . كما استفدنا اتجاه الرؤية التي يرى بها البيهقي هذه
الاساليب وهذه الطرق وكيف يدون ما يريد تدوينه منها ...

(2) اخبار المهدي بن تومرت ص 19 ، ط . الرباط 1971 م .

ويصل المهدي الى مدينة فاس . ولا شك ان المهدي كان يعلم مركز هذه المدينة في الاشعاع الحضاري والعلمي . وما يجتمع فيها من عناصر السكان وطلبة العلم . والبيدق لا يخفي ذلك ولا يتجاهله ولكنه يصفى عليه حلة من الاهتمام والاطناب في التفصيل ... ! فالمساجد التي عاوى اليها المهدي . وطلبة العلم الذين توافدوا عليه . وقاضي المدينة . وحاكمها . والمشرف عليها . كل ذلك يهتم به البيدق ويجعله أطارا لاقامة الدعوة في هذه المدينة .

ويشاء القدر ان يترك المهدي في هذه لمدينة - والى الآن - اسمه مضافا الى مسجد يعرف الى الآن في الوثائق والسجلات القديمة . وحوالات الاحباس باسم مسجد المهدي ، وهو المسجد المحمول على ساباط بالطالعة الكبرى . وله بابان احدهما بطريانة . والاخر بدرب بنسالم ... !

وحيث ان هذا المسجد محمول على ساباط به حوائيت على طول جانبيه فانه عرف ايضا باسم ساباط المهدي ... ! وتحتة ممر عمومي بالطالعة .. ولا شك ان هذه الاضافة انما اتت من كون المهدي عاوى الى هذا المسجد على عادته . ودرس به العلم . واملى فيه على طلبته ما شاء من احاديث تتعلق بدعوته ومذهبه الذي يبشر به لأول مرة في هذه المدينة .

وكما عهدنا في اسلوب المهدي المختار للفت الانتظار واثبات الذات فانه امر سبعة من اصحابه - فيهم البيدق وعبد المومن - باقتطاع مقارع من شجر التين . وقادهم الى زقاق بزقالة (3) وامرهم بكسر ما يجدونه في الحوائيت من آلات اللهو .. ! وبذلك قامت في المدينة ضجة . وصل امرها الى القاضي ابن معيشة ، الذي كان له موقف سلبي . لانه استصوب فعل هذه الجماعة . في اباداة ادوات اللهو ... ! ورواه من الناحية الدينية امرا مرغوبا فيه ...

(3) هذا الزقاق غير معروف الآن بهذا الاسم .

ويطلب البيلق في حديثه عن اقامة المهدي بفاس فيذكر لنا حاكم الناحية من قبل المرابطين وهو « يناتو » سلطان الغرب الذي كان مقره بالقلمة المرابطية في (تاودة) المعروفة الآن باسم فاس البالي في قشتالة شمال فاس . كما يذكر لنا حاكم المدينة انقائد « مظفر » والمشرف « الجياني » الذي سيكون له دور بارز في تسليم المدينة الى الموحدين بعد حصارهم الشديد فيما بعد ...

ولا ينسى البيلق وهو يحكي مشاهداته مع المهدي في فاس . ان يذكر رجوع « ينالو » سلطان الغرب . وحاكم الناحية من قبل المرابطين . من حملته على ثوار غمارة . حيث جاء بالفنائم . وعلق رؤوس الثوار على باب السلسلة . التي ما يزال اسمها معروفا بفاس الى الآن ... !

ويتابع المهدي رحلته فيمر بمكناس . وسلا . حتى يصل الى نهر ام الربيع . وهناك يواجه مع اصحابه مشكل تقديم المكس من اجل عبور النهر ... ! حيث ان الموكلين بذلك . ياخذون قدرا معيناً من كل انسان يود العبور ... !

وهنا يضع البيلق يدنا على مفتاح آخر من المفاتيح المتعلقة بكشف بعض ما نريد الكشف عنه . من امر المهدي . والبيلق ايضا ... حيث يقول : « وما كنا نعرف ان الامام يتكلم باللسان الغربي ... ! » .

ويقصد باللسان الغربي القبائل الامازيغية ... فالبيلق لم يكن يعرف .. واصحابه لم يكونوا يعرفون . ان امامهم يعرف هذا اللسان ويتكلم به . حتى فاجاهم بهذه الجمل التي خاطب بها الموكلين بالنهر ونهاهم عن التعرض له ولاصحابه . لان ذلك عمل مخالف لما جاء به الاسلام ... !

وهذا المفتاح يدلنا صراحة على ان المهدي منذ وصوله الى تونس وعبوره مع اصحابه الى بجاية وتلمسان وفاس ومكناس وسلا . لم يستعمل

في احاديثه واتصالاته « اللسان الغربي » ولم يضطر الى التفاهم به . لا في المدينة ولا في القرية ولا في المفازات التي قطعها . والمسالك التي سلكها . حتى وصل الى نهر ام الربيع ... فاضطر الى استعماله في مخاطبة قوم . يظهر انهم لا يعرفون سواه ... ولهذا دلالة بالنسبة لانتشار اللغة العربية واستعمالها في الحياة ... والدرجة التي تبواتها عند سكان هذه الاقاليم في ذلك العصر . لا سيما ونحن نعلم ان المهدي كان يخاطب في كل محل نزل به طبقات متعددة المستويات من حكام وطلبة وشيوخ وتجار وفلاحين ... ويحدثهم احاديث مختلفة تلبس حياتهم العامة والخاصة ...

مواجهة — مراکش

في مواجهة المهدي بمراكش لعلي بن يوسف بن تاشفين .. اظهر البيلق انه كان على علم تام بالضجة التي احدثها المهدي . والبلبلة التي وقع فيها الجميع . فعلي بن يوسف لم يتخذ موقفا ايجابيا . ووزراؤه لم يكونوا رايا اجماعيا . والحاشية تقاذفتها العواطف . والمشاعر . امام رجل له في العقيدة الدينية . والحياة الاجتماعية . والاخلاق الانسانية . رأي يبديه . وعلم يمليه . وطريقة جدلية يتغلب بها اثناء المناقشة والحوار . وجاذبية شخصية تعلن عما وراها من مطامح واهداف قريبة وبعيدة ... كل هذا جعل المهدي يخرج مع اصحابه من مراکش تاركا وراءه ضبابا من البلبلة والشك يغطي كيد الكائدين واعجاب المعجبين . وقلق الحاكمين !..

وبمجرد الخروج من مراکش . والنجاة من نتائج المواجهة . نشعر ان اسلوب البيلق تغير . تبعا لما طرا على اسلوب المهدي في الدعوة . من عناصر جديدة . وكأنه — كما يصور البيلق — دخل الى منطقة تحبه ويحبها . وتفهمه ويفهمها . وكأنه على موعد مع اهلها ...

ففي اغمات ايلان . واغمات وريكة . وعلى طول الطريق التي اجتازها . والتي حافظ البيلق على اسمائها . واسماء القبائل التي

تسكنها . . كنا نجد المهدي وكأنه دخل منطقة نفوذ . يأمر وينهي ويسالم ويقاقل . ويستقبل الوفود . ويسمي جماعات الانصار باسماء مستمدة من طريقته في الدعوة . واسلوبيه في تربية الاصحاب والمؤيدين الى ان يصل الى ((ايكلي)) موطن اهله وعشيرته من هرغة . . . !

ومعلوم ان البيئق ذكر في كتابه : المقتبس من كتاب الانساب افراداً من اسرة المهدي كانوا احياء بايكلي . يوم رجع اليها . فيهم والده ووالدته وعمه وعمته واخته واخوانه الثلاثة . . . !

ولعل المهدي لم يشأ ان يقيم في ايكلي لانها لا تملك حصانة طبيعية من جبال وأوعار تصد عنها هجمات المرابطين . فاختار الرجوع الى تينمل . وقد كان يعرف مناعتها . ودور هذه المناعة في حمايته . وحماية انصاره من الهجومات التي سيتعرض لها بعد ان ظهر امره ، وانتشرت دعوته . وتمت عند مؤيديه بيعته . . . !

واهتم البيئق بتلخيص اخبار المهدي طيلة ايام الصراع بينه وبين المرابطين اذ انه دام ما يقرب من عشر سنوات . خاض فيها مع الانصار عدة معارك كان البيئق يسميها الفزوات . ويظهر ان المهدي كان يحضر بعضها وانه جرح وعولج كما يقول البيئق . . . ! كما اهتم بالحصون الحربية التي شيدها المرابطون . وتنمل مركز المهدي ويسدل البيئق على موته الاطار المعهود عند الموحدين من الابهام والغموض . ويكون هذا الموت حافزاً لعبد المومن واخوانه من مؤيدي الدعوة ان يستمروا في الصراع مدة طويلة تقرب من خمس عشرة سنة حتى يتمكنوا في الاخير من طهي صفحة دولة المرابطين .

وهنا نجد البيئتي يرافق الصراعات ويؤرخها
وكانه مسجل حربي يرافق الموحدين بعد ان بايعوا
عبد المومن ، في كل المعارك التي خاضوها في حاحة
وسوس والجبال والسفوح القريبة من مراكش والبعيدة
عنها ، لم في داخل البلاد ...

ويعطينا بصفة خاصة في اخبصار هذه الصراعات ما
نجده من اعلام جغرافية وقبيلية ومفاهيم يعبر عنها
المهدي باصطلاحات كانت مفهومة عنده وعند معاصريه
من امثال الدلالات التي يستعملها لكلمات سوس ،
والقرب وجبال درن . والهواء « بمعنى المطر » وغيرها مما
يمكن ان يكون موضوعا للبحث والدرس لاستخراج لفة
البيئتي في هذا التأليف وبيان ما كان منها عاميا
نازلا . وما كان استعمالا اصطلاحيا . تطورت دلالاته على
ممر الاحقاب والمصور ...

عبد القادر زمامة

فاس

أَصِيلَا

عبد العزيز ابن عبد الله

هي إحدى دوائر عمالة تطوان تضم جماعات عياشة والفريية وبني اعروس والساحل وبني كرفط وتازدوت وسيدي اليماني ، وهي أيضا مرسى على شاطئ المحيط الاطلنطيكى يبعد بنحو خمسين كلم جنوب غربي طنجة على مقربة من الوادي الطو .

واصيلا مدينة قديمة اشار اليها سترابون (STRABON) في جغرافيته (الجغرافي اليوناني المتوفى فيما بين 21 و 25 بعد الميلاد) والنسبة اليها اصيلي وهي ايضا نسبة الى اصيل بلد بالاندلس ينتسب اليه عبد الله ابن ابراهيم الاصيلي (390 هـ / 999 م) حسب (ياقوت الذي اكده في معجمه ان ابا الوليد بن الفرصي كتبها (اصيلة) في كتابه حول الفريية الطارئين على الاندلس وقد ذكر البكري في (المسالك) ان والد الاصيلي المذكور اديب شاعر من اهل فاس ، وقد كتبها صاحب (معجم البلدان) (ج 1 ص 278) اصيلا وازيلي وعرف اسمها (زيليس) (Zills) في كل من Itineraire d'Antonin و Anonyme DE RAVENNE

كما سماها (زيليا) (Zilia) كل من بطليموس الجغرافي الفلكي المصري
الغريقي المتوفى في القرن الثاني بعد الميلاد وصاحب (المجسطي)
الذي كانت جغرافيته مرجعا هاما في العصور الوسطى وعصر النهضة
باروبا . غير ان المؤرخين القدامى لم ينبسوا ببنت شفة عن هذه المدينة
الاصيلة التي يخمن البعض بانها كانت في البداية مركزا تجاريا فينيقيا في
الوقت الذي برزت (ليكسوس) كاول حاضرة في المغرب الأقصى
اسست منذ 1101 م .

وتقول بعض المصادر العربية بان موسى بن نصير (77 - 98 هـ)
انحدر بعد فتح طنجة الى سهول الاطنطيك بعد ان عرج على سبتة ثم توجه
الى فاس حيث استولى على مدينة (سكومة) الأروبية التي تقع بالقرب
منها فلا يبعد ان يكون قد مر في طريقه بالساحل على اصيلا (1) . ويحيى
ابن المولى ادريس هو الذي تولى بعد وفاة والده - اثر التقسيم الذي
طرا على المملكة الادريسية بالمغرب - منطقة اصيلا والعرائش والبصرة
وبلاد ورغة . وقد نص صاحب الجنوة (ص 110) على ان البصرة كانت
عنصرا هاما في المجموعة الادريسية التي امتدت من السوس الى وهران
وفاس ثم البصرة (2) .

وفي عام 310 هـ / 922 م ثار بفاس الحسن الحجام حفيد القاسم
ابن ادريس فاجلى عاملها (ربحان) واستعاد نفوذ الادارسة من فاس الى
البصرة ، وقد اجلى الادارسة عام 313 هـ / 925 م الى (قلعة النسر)
بالجبل وهي السنة التي ظهر فيها (حامي المتنبى) الذي اختلق قرآنا
وسن شرائع على نمط البرغواطيين في (غمارة) فقتله الناصر الاموي
عام 315 هـ / 927 م . وقد ساهم الادارسة بهذه المنطقة في الصراع
بين الشيعة والامويين والقاموا بالريف منطلقين منها لحكم معظم المغرب
ايام القاسم كنون اخي الحسن الحجام (عام 337 هـ / 948 م) ثم ولده
ابي العيش (348 هـ / 959 م) ثم احمد الفاضل الذي مال الى الامويين

(1) تاريخ المغرب - عبد العزيز بن عبد الله ج 1 ص 78 .

(2) تاريخ المغرب ج 1 ص 91 .

فتنازل لعبد الرحمن الناصر عن سبتة وطنجة وانحاز الى البصرة .
وقد اولاهما المؤرخون والرحالون العرب بعض العناية حيث وصفوا معالمها
ومن بينهم ابن حوقل والبكري الذي اشار الى هجوم النورمانديين عليها
مرتين خلال القرن الثالث الهجري في حين قدمها الشريف الادريسي
كقرية منهاراة في القرن السادس وسماها اصيلا او ازبلا (3) . وفي عام
633 هـ / 1235 م بعث (العزفي) صاحب سبتة اجفانه (اي مراكبه)
لتخريب اصيلا وهدم قصبتها لأنها كانت قد خلت من الناس فخشي ان
يمتلكها العدو (الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ص 113 طبعة
الجزائر 1920) .

ومنذ هزيمة العقاب (609 هـ / 1212 م) تضعف العمران بالمغرب
وانتشرت الأوبئة وانحل الحكم خاصة في عهد (المنتصر) مما شجع
المرينيين على التوغل في البسائط الثرية حتى وصلوا الى الريف وهزموا
الموحدين عام 613 هـ 1216 م بامر عبد الحق والتفوا حول ابي سعيد
عثمان الذي والى غاراته من الملوية الى فاس والقصر الكبير والهبط وقد
عاشت اصيلا في هذا الخضم المضطرب الى ان وطد المرينيون الأمن في
شمال المغرب بعد فتح فاس عام 646 هـ / 1248 م ، وكانت جيوش
يعقوب المريني عربية معظمها من الشمال وهم سفيان والخلط وذوو حسان
ورباح والهبط فازدهر الاقتصاد خاصة بعد ان حرر الأمير المريني سبتة
وطنجة وما والاها عام 672 هـ / 1273 م ، غير ان (بني نصر) كانوا
يناورون للاستيلاء على المنطقة وكان ذلك مطية لتنازل الأمير (يوسف)
عام 692 هـ / 1292 م لابن الأحمر عن مراكز بلاندلس منها وادي آش
وكانت لبني شقيلولة الذين اقطعهم يوسف بدلها عمالة القصر الكبير
(697 هـ / 1297 م) ولم يدم ذلك طويلا لان اعتزاز الثالث الشمالي
وهي اصيلا والعرائش والقصر الكبير ما لبث ان انتفض عام (703 هـ /
1303 م) فتحرر الثالث على يد عثمان بن ابي العلاء المريني ، الا ان

(3) (إفريقيا الشمالية ص 109 وهي مقتبسة من نزهة المشتال) .

المصادر الاوربية التي لم يكن يعنيتها سوى الاستغلال الاقتصادي في المراكز الساحلية المغربية قد تراءى لها في اصيلها نوع من النشاط والرفه اوائل القرن التاسع وهو عصر بداية الغزو الاسباني البرتغالي على الشواطىء المغربية . ويظهر ان التجارة مع الخارج كانت مزدهرة حيث اكد (ابن خرداذبة في القرن الثالث الهجري ان التجار الصقالبة الذين كانوا ينتقلون في كثير من مناطق العالم وصلوا الى السوس الأدنى اي المغرب الشمالي عن طريق طنجة وفي ضمنه اصيلها والبصرة ومن هناك كانوا يتوجهون نحو افريقية ومصر بل وحتى البصرة الشرقية (راجع بحثنا بـصرة المشرق وبـصرة المغرب وصلتان من الخليج الى المحيط) والذي يؤكد قوة التبادل التجاري هو عناصر الدعم التي حظي بها الاقتصاد المغربي آنذاك حيث عرف المغرب لأول مرة بعد الفتح الاسلامي عملة وطنية سكنت بفاس وهذه السوق الجامعة كانت تقام ثلاث مرات في السنة . . . وتسامع الناس امرها من الاندلس واهل الامصار فقصدوها في الاوقات المذكورة (وهي شهور رمضان وذو الحجة ومحرم) بضروب السلع ثم بنوا شيئا بعد شيء - حسب تعبير البكري - ففمرت واقام سورها القاسم بن ادريس بن ادريس وبها قبره (4) .

وقد لاحظ ابن زيدان (5) ان القاسم هذا اخرج اخوه محمد من البصرة فنزل اصيلها وزهد في الملك وبني مسجدها على ضفة البحر وسورها وقصرها ثم تولاه ابنه ابراهيم واولاده الى ان صارت للحسين الحجاج ثم لموسى بن العافية عام 311 هـ / 923 م الى ان نزل عليها اسطول بني العزفي اهل سبتة عام 663 هـ / 1264 م فهدم ابو القاسم منهم قصبتها وفي عام 876 هـ / 1471 م اتخطها محمد بن ابي زكرياء الوطاسي مؤسس دولة بني وطاس عاصمة له واحتلها في اسطول برتغالي في غيبة الامير فظفر ببيت ماله واسر ولده محمدا وظل البرتغاليون بها الى ان حررها المولى اسماعيل .

(4) (المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب للبكري ص 112 - طبعة الجزائر 1911) .

(5) (الاتحاف ج 2 ص 72) .

وقد كان بها تجار يهود وجنويون وقشتاليون في السنة التي اصيب البرتغاليون بنكبة قاصمة امام طنجة عام 841 هـ / 1437 م وكان الوطاسيون قد جعلوا من اصيلا سندا لتعزيز وجودهم بفاس .

وقد بدأ المؤرخون الفرييون يهتمون باصيلا اهتماما خاصا ابان الاحتلال البرتغالي لها (اي بين 876 هـ / 1471 م و 957 هـ / 1550 م) حيث استولى عليها الملك (الفونسو الخامس) المشهور بالافريقي (المتوفى عام 886 هـ / 1481 م) بمساعدة ابنه الذي تولى عرش البرتغال باسم (يوحنا الثاني) (دوکاستر - السعديون - س . ا . - م . ا ص 15 - 674 / (م . 2 ص 205 - 307 / م . 3 ص 95 - 756) .

وقد تم هذا الاحتلال باسطول يضم اربعمائة وسبعا وسبعين (477) قطعة وثلاثين الف رجل وقد اسر البرتغاليون خمسة آلاف رجل في اصيلا منهم ولد محمد الشيخ وزوجته وابن الوزير ابي زكري قائد المدينة ، وجماعة من الاعيان وابتنزوا بيت مال الوطاسي وبقي محمد الوطاسي عند البرتغال سبع سنين ثم افتكه والده وقد ورد خبر احتلال البرتغال (اصيلا) على محمد الشيخ الوطاسي وهو يحاصر مدينة فاس (6) بعد اغتيال الشريف الادريسي مولاي محمد بن علي للسلطان عبد الحق المريني فهب لانقاذ اصيلا ولكنه اضطر الى التنازل وامضى معاهدة لم يعثر على نصها ، وقد تقرر بموجبها الهدنة لعشرين سنة وسلمت العرائش للبرتغال يوم 10 شتنبر (1473 م / 878 هـ) .

وفي عام 914 هـ 1508 م حاصر المغاربة اصيلا واحتلوها ولجأت الحامية البرتغالية الى القلعة (7) . واستعرت وقعة الحمر قرب اصيلا حوالي 940 هـ / 1533 م (8) ، والواقع ان اصيلا ظلت سندا حاميا لطنجة

(6) (الاستقصاء ج 2 ص 159) .

(7) David Lopes, histoire de Arzila p. 123-146

دوكاستر - س . ا . - السعديون - البرتغال ل 2 ج 2 ص 698 .

(8) (الاستقصاء ج 2 ص 176) .

التي ما لبثت أن سقطت هي الأخرى لقمة سائفة في قبضة العدو والذي بادر - تعزيزاً لمواقعه - بإقامة قلعة قوية وسور يحيط بالمدينة كلها ولكنه ظل رغم تحصيناته المتينة عرضة لغارات الأشاوس من أبناء المنطقة وخاصة القصر الكبير والعرائش وتطوان والشاون معاضدين بقوات نظامية من جيش ملوك بني وطاس وخاصة محمد البرتغالي .

وقد انطلقت أيدي البرتغاليين منذ صدور مرسوم التقسيم البابوي لمناطق النفوذ بين أسبانيا والبرتغال من طرف البابا الإسكندر السادس في 14 مايو 1494 م / 900 هـ غداة الكشف عن أمريكا (9) .

وقد زحف الجيش البرتغالي (912 هـ / 914 هـ / 1506-1508 م) نحو أصيلا التي بدأ احتلالها منذ 876 هـ فوق الالتحام داخل المدينة وانتصر الأسطول البرتغالي والاسباني الذي عزز مراكزه على المتوسط والاطلنطيكى بتأسيس (بادس) واحتلال (وهران) عام 914 هـ / 1508 م ثم (المعمورة) أو (المهدية) (920 هـ / 1514 م) .

وقد استغرق البرتغاليون ثلاثة أرباع قرن لاحتلال مراسي الشمال إلى نهر (سبو) وما يقاربها محاولين الزحف إلى مراسي الجنوب (من مصب أم الربيع إلى السوس عدا سلا وبادس) ، وساعدهم على ذلك التقسيم البابوي المذكور غير أن الانتفاضات الشعبية ضعفت الوجود البرتغالي في الشمال بينما أدى تخاؤل بعض قبائل الجنوب إلى حماية برتغالية فعلية ونفوذ اقتصادي خطير من السوس إلى درعة ومن آسفي إلى الرحامنة وأرباض مراكش وبالرغم من محاولة أحمد بن محمد البرتغالي مهادنة البرتغاليين في (الهبط) فإن الجماهير ظلت في عراك عنيف مع المسيحيين تبلور في وقائع منها الصراع الذي أجج أواره قرب أصيلا القائد عبد الواحد العروسي عام 940 هـ / 1533 م .

(9) (دوکاستر - السطيدون ج 1 ص 44) .

وقد تكبدت أصيلا حصارا موصولا تبلور عام 914 هـ / 1508 م عن تحريرها وظلت الحامية البرتغالية قابضة بين جدران القلعة لم يخلصها من وحاتها سوى تضايف الأسطولين البرتغالي والإسباني ولكن في عام 957 هـ / 1550 م جلا عنها البرتغاليون بأمر من ملكهم يوحنا الثالث (المتوفى عام 965 هـ / 1557 م أي بعد جلائهم ببضعة أسابيع عن مدينة القصر الكبير وذلك لتكتيل قواهم المحدودة في كل من طنجة وسبتة .

وقد قاد الثورة في الجنوب السعديون الذين حاربوا المسيحيين في (حاحة) و (الشياظمة) فتحررت (فونتي باكاير) (عام 947 هـ / 1540 م) ثم (آسفي) و (أزموور) (عام 948 هـ / 1541 م) .

وفي نفس الوقت تحررت عاصمة الجزائر وتلمسان على يد الأخوين عروج وخير الدين من قبضة الأسبان ثم (عنابة) و (قسنطينة) وتونس الخضراء عام 940 هـ / 1533 م . وكان الأحرار يقضون مضاجع العدو بأصيلا فقد قام إبراهيم بن علي راشد الشاوي قائد الجيش بتزويج اخته عائشة الست الحرة لمحمد المنظري الحفيد قائد تطوان وقاما معا بمهاجمة البرتغاليين في أصيلا بعد 917 هـ / 1511 م (10) .

وفي عام 985 هـ / 1577 م استعاد البرتغال أصيلا حيث سلمها (محمد المسلوخ) إلى الملك (سيبيستيان) قتل (معركة وادي المخازن) مما فتح المجال أمام مرابطة الأسطول البرتغالي استعدادا لخوض المعركة ضد المولى عبد المالك ،، وبعد انهزام (محمد المتوكل) أمام عميه عبد المالك وأحمد المنصور قام أحمد هذا وهو خليفة لأخيه في فاس بتجهيز العرائش لمواجهة حركة البرتغاليين بأصيلا وتعقب (أبو مروان) (المتوكل) في شعاب الأطلس فادا إلى بادس وطنجة لاستصراخ البرتغاليين حيث تطارح في أشبونة على الملك الشاب (الدون سيبيستيان) وكانت الحشود البرتغالية (125.000 حسب (نزهة الحادي) و (المنتقى المقصور) و 60.000 حسب (الذخيرة السنينة) ونحو مائتي مدفع قد تجمعت في

(10) تاريخ تطوان ج 1 ص 113 .

طنجة واصيلا عام 986 هـ / 1578 م حيث فتح ابواب المدينة للمسيحيين ومن اصيلا سار الأجناد البرتغاليون في حركة بطيئة بعرياتهم ومعداتهم الثيلة نحو (وادي المخازن) حيث انزل المغرب الضربة القاصمة بالجيش البرتغالي وقضى على استقلال البرتغال ليف وستين سنة اندمجت خلالها في المملكة الاسبانية ولكن الاسطول البرتغالي ظل مرابطا في اصيلا حيث لجأت الفلول المهزومة وقد عقب (روبر ريكار (R. Ricard) (11) على (صاحب الاستقصا) فلاحظ ان العرائش لم يحتلها البرتغاليون قط وان الاسبان هم الذين استولوا عليها من عام 1610 م / 1019 هـ الى 1689 م / 1101 هـ ، اما اصيلا فقد احتلها البرتغاليون من 1471 م / 876 هـ الى 1550 م / 957 هـ ثم من 1578 م / 986 هـ الى 1589 م / 998 هـ ومنذ ذلك التاريخ لم تقع في قبضة اية دولة اوربية (ص 201) .

وقد اتهم (ريكار) الناصري بانه المسؤول الاول عن الاغلاط الفادحة المرتكبة غالبا في وصف الحملات الاوربية بالمغرب كما حمل (ليفي بروفنصال) عام 1922 على الناصري استنادا الى وثائق اوربية ونحن نرى ان الاستناد الى جهة واحدة لا يخدم الحقيقة لهذا ، يجب التنظير بين النصوص مع كامل التحري في الترجيح ، وفي عام 1542 م / 949 هـ طرد البرتغاليون اليهود من اصيلا (12) . وقد واجه المنصور السعدي في غمارة والهبط عام 993 هـ / 1585 م ثورة الحاج (قرقوش) الذي ادعى امارة المومنين فقتل ، وقرقوش هذا رئيس ارمني ثار وتسمى بامير المؤمنين وكان اول امره حانكا (13) . واسترجعت اصيلا من يد النصارى في 20 ذي القعدة عام 997 هـ / 1588 م بعد ان نزع (ابن تودة) قائد الفحص والهبط الى النصارى في عهد (المعتصم) وسلمها اليهم ثم انتزعها

(11) (مجلة هسبريس ج 33) Hesperis
(12) (دوكلستر - س. ا. - السعديون - البرتغال ج 4 ص 108) .
(13) (الاستقصا ج 3 ص 56) .
(مناهل الصفا - مختصر الجزء الثاني ص 52) .

احمد المنصور بعد خلافته (14) . وبعد هذه الواقعة خاطب ابو العباس
ابن القاضي المنصور قائلا :

يا ايها المنصور ابشر بالعدا فإله ابلغ في العدا المامولا
الى ان قال :

واذ يتم كيد الخيـث بهمة وفتحتم دار العدا اصيلا

وقد تنازل البرتغاليون عن اصيلا حسب المصادر الاجنبية عام
998 هـ / 1589 م حيث سلمها الى المنصور فيليب الثاني ملك اسبانيا
والبرتغال (15) ، وذلك بعد (وقعة وادي المخازن) باثني عشر عاما . وقد
كان (فيليب الثاني) هذا يطمح الى احتلال العرائش فاضطر الى التنازل
عن اصيلا ربما نهائيا عام 1001 هـ / 1592 م لحمل السلطان على عدم
تأييد (الـدون انتونيو) الطامع في عرش البرتغال .

ولم يغب عن ذهن المنصور في هذا الخضم من المناورات الداخلية
ما كان يهدد كيان المملكة من الخارج لولا النزعات الاوربية التي وجد فيها
ال خليفة حاجزا موقتا وكان الصراع قائما آنذاك بين النمسا وانجلترا
وفرنسا وهولندا مما قلص سياسة التوسع الافريقي الاسبانية ، ومعلوم
ان (شارل الخامس) Charles Quint ملك اسبانيا كان
امبراطورا للنمسا والمانيا وحارب ملك فرنسا (فرانسوا الاول) طوال
ثلاثين سنة وكذلك الاتراك وخلفه ولده (فيليب الثاني) الذي ملك الى
جانب اسبانيا هولندا ثم البرتغال بعد مرور ثلاث سنوات على (وادي
المخازن) (988 هـ / 1580 م) .

وقد عرف المغرب كيف يستغل قضية (انتونيو) الذي كانت
انجلترا تحضوه الى مساعدته فاحتفظت بنجل هذا الامير وبدأت انجلترا
تخطب وده طامعة في التحالف معه ضد اسبانيا والاشترار معا في غزو

(14) (الاستقصاء ج 3 ص 57) .

(15) (دو كاستر - ج 2 - ق ص 286 (فرنسا) Histoire de Arzila, Colmbra

الهند . وعندما كان الخضر غيلان باصيلا عقد معاهدة مع الانجليز الذين كانوا بطنجة عام 1076 هـ / 1666 م التزموا بامداده بكل حاجاته طول مدة اقامته باصيلا اي الى عام 1079 هـ / 1668 م حيث خلى سبيل اصيللا وركب البحر الى الجزائر حسب المصادر الفريية (وبالمرور بطنجة حسب المصادر الانجليزية) صحبة اترك (16) .

وقد توفي (غيلان) عام 1084 هـ / 1673 م وفر اصحابه مع (اولاد النقيس) الى سبتة وقصد المولى اسماعيل آنذاك بلاد الهبط للقضاء على الحركة الفيلانية التي كان الانجليز والجزائريون وراءها ومعلوم ان هذه الطائفية التي تزعمها اولاد النقيس هي التي اضعفت الجيش الوطني وفسحت المجال للاجنبي فاقتطع من شواطئ المغرب جيوبا تشمل مليلية وسبتة وطنجة واصيلا والبريجة والعرائش والمعمورة (المهدية) . وكانت الاساطيل القرصنية محط رعاية المولى الرشيد بمصب ابي رقراق لانها كانت تشكل حاجزا دفاعيا ضد المغير الاوربي الذي بدا يتعلل آنذاك بابطس الاسباب للتدخل في المغرب وكان هذا الاسطول يقض مضاجع الفريين الذين انبثوا على الساحل فالانجليز في طنجة والبرتغاليون في البريجة (الجديدة) والاسبان في المعمورة (مهدية) واصيلا والعرائش بينما طفق الفرنسيون يمحرون بسفنهم الحربية على طول المراسي المغربية بين الريف ومصب الملوية عباب البحر الابيض المتوسط حيث حصن المولى الرشيد مرسى الحسيمة او المزمة وحجرة تكور وصارع الانجليز الذين كانوا يعملون وراء الخضر غيلان .

وقد الى المولى اسماعيل على نفسه ان يحرر من ربة البرتغاليين والاسبان جميع المراكز التي كانوا يرابطون فيها بالسواحل المغربية فحرر المهدية عام 1092 هـ / 1681 م بعد احتلال دام نحو من سبعين سنة ثم توجه عام 1095 هـ / 1683 م الى الشمال لفتح طنجة حيث جلا عنها بعد حصار السلطان لها وبعد خمس سنوات 1101 هـ / 1689 م حوصرت

(16) (تاريخ تطوان ج 1 ص 235) .

العرائش طوال بضعة أشهر فاستسلم الأسبان تحت تأثير الالغام المفريية التي احدثت ثغرات في الاسوار وعددهم نيف وثلاثة آلاف نقل معظمهم الى مكناس وبعد ما استقرت الحامية الريفية السلطانية في العرائش حاصر المجاهدون اصيلا سنة كاملة فلم يرحماتها الدخلاء بدا من الجلاء عنها بحرا وكان التحرير مرفقا بالتعمير حيث اقيمت المساجد والمدارس والحمامات والمرافق الحيوية . وظل المغرب يناضل ضد الاسبان ولم يستطع المولى اسماعيل اقناع فرنسا بمساعدته ضدهم رغم جهود الاميرال ابن عائشة او تحرير الاسرى المغاربة المشتغلين في الزوارق الملكية بالمياه الفرنسية فاستدعت فرنسا قنصليها في كل من سلا وتطوان وتوقفت العلاقات مدة اربعين سنة تبوات التجارة الانجليزية خلالها المقام الاول .

ولاول مرة انبسط حكم شخص واحد هو القائد علي بن عبد الله الحمامي الريفي (وهو من عائلة احمد بن حبو الذي حكم تطوان عام 1084 هـ / 1673 م) على مجموع منطقة الشمال اي ما اصبغ يسمى (المنطقة الخليفية) في عهد الحماية الاسبانية وذلك عام 1090 هـ / 1679 م خلال العهد الاسماعيلي وبقي قائدا لتطوان (الى عام 1125 هـ / 1713 م) (17) .

وقد ادرج المولى اسماعيل قبيلة (الخلط) في جيشه الذي كان مكونا من شراكة والاداية والشراردة والمغافرة والعبيد واهل السوس (بقايا بني معقل) واولاد مطاع ووزارة والشبانات واهل عبدة والمنابهة والرحامنة واولاد احمر فجمع بذلك بين قوات الشمال والجنوب ، والمولى اسماعيل هو الذي امر القائد عليا بن عبد الله الريفي ان يشتري للاعراب من عبيد البخاري الاماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطاوين ويعين لهم قوادهم ويبعث بهم الى المحلة (18) ، والمولى اسماعيل هو الذي نفى (محمد اعليش) الى تطوان وامره بجمع حراطينها وهو يعلم انه لا حراطين بها . ينكف وينزجر ولكنه ضايق الناس فطرده السلطان (19) ، وكان (اعليش) قد وصل الى تطوان عام 1121 هـ / 1709 م بقصد جمع

(17) (تاريخ تطوان ج 2 ص 44) .

(18) (الاستقصا ج 4 ص 27 / الجيش المرمم ج 1 ص 69) .

(19) (الدر المنتخب لاحمد بن الحاج الفاسي ج 7 ص 218 - مخطوطة الخزنة الزيدانية)

الحراطين اي الذين اصلهم عبيد ورحل في نفس السنة وجاء اليها لنفس
الفاية القائد بكور بعد مفادرة عليلش في نفس الشهر ورحل عنها عام
1123 هـ / 1711 م (20) ، وقد كتب الشيخ احمد بن عجيبة في شان
فتنة عبيد البخاري فللكة (ص 41) .

وقد حاصر المجاهدون اصيلا بامرة القائد احمد بن حدر البطوني
سنة كاملة عام 1102 هـ / 1690 م وعمرها اهل الريف وبنوا بها كما بنوا
بالعرائش مسجدا ومدرسة وحماما وبنى القائد دارا بقلعتها (21) . وعندما
كان (المولى يزيد) (1204 هـ / 1206 هـ) محبوا لدى والده سيدي
محمد بن عبد الله اثيرا عنده لفتوته وبطولته واستقامته رشحه للخلافة
فبايعه اشراف الحرم المشيشي بعد وفاة والده وتوالت عليه الوفود من
طنجة واصيلا والعرائش وكان اول الامر اهلا لهذه الثقة لانه بادر بالجهاد
لتحرير بقية الجيوب المحتلة في الشمال حيث انبرى لمحاربة الاسبان
فوجهوا سفيرهم في طنجة لتهنئته فلم يحفل به وامر باعتقال القناصلة
والرعايا الاسبان بالصويرة والعرائش وهب لمحاصرة سبتة التي كادت
تتحرر لولا انتفاض اهل الحوز ببلاد الرحامنة مما اودى بحياته بعد ان ملك
سنتين .

وظلت المنطقة مركز الحركات الجهادية لللب عن حوزة الوطن في
العهد السليمانى حيث كانت الاجفان الجهادية اي السفن الحربية الشعبية
تتربص للمراكب التي تخترق المياه الاقليمية المغربية وقد ساق بحارو
العرائش عام 1245 هـ / 1829 م مراكب (نمسوية) لعدم توفرها على
الجواز الضروري للدخول في مياه المغرب فقبل النمسيون المدينة ونزلوا
الى البر ولكن رد فعل الجماهير في مجموع المنطقة كان عنيفا اوقف تيار
الزحف الاجنبي فقتل الكثير من المغيرين وفر الباقون مما حدا انجلترا
الى التدخل بين المغرب والنمسا التي جاء وفد مرفق بالسفير الانجليزي

(20) (راجع كناشا للقيه ابن رحمون نقل عنه الاستاذ داود في تاريخ تطوان ج 2 ص 36)

(21) (الاستقصا ج 4 ص 36 / تاريخ تطوان ج 2 ص 21 .)

الى بلاط مكناس عام 1246 هـ / 1830 م وأبرمت في طنجة عام 1273 هـ / 1856 م معاهدة بين البلدين .

وفي العهد الحسني كانت ناحية الشمال تضم تطوان وطنجة واصيلا والقصر الكبير والعراش ووزان ومركزها العام هو العاصمة الادريسية وذلك ضمن ست عمالات هي :

- 1 (المغرب الشرقي) من وجدة وتازة الى تافيلالت .
- 2 (الغرب) مركزه مكناس .
- 3 (العدوتان وتامسنا) الرباط - سلا - الشاوية ودكالة .
- 4 (ناحية الحوز) مراكش) مع اسفي والصويرة .
- 5 (الجنوب ويمتد من المحيط الى حدود الجزائر ويندرج فيه اقصى الجنوب الى نهر السنغال) شنقيط والساقية الحمراء وتوات وعين صالح وكورارة وتيديكلت الخ .

اما سكان اصيلا فتقول المصادر الاسبانية بان عددهم ارتفع من ستة آلاف عام 1935 الى اقل من ستة عشر الفا عام 1949 كانت من بينهم اقلية يهودية ضئيلة مع جالية اسبانية ، وقد تزايد هذا العدد بعد الاستقلال .

ومن رجالات اصيلا :

عبد الكريم بن تودة عامل اصيلا (1010 هـ / 1601 م) .

لجا الى البرتغال بعد معركة وادي المخازن ثم عاد الى المغرب عام 1008 هـ / 1599 م وهو الذي سلم اصيلا للبرتغال عام 985 هـ / 1577 م وكان في خدمة ملك البرتغال الدون سبستيان آنذاك (22).

(22) بوكستر - س. ا. - السديون (1961) .

• عبد الله بن إبراهيم الاصيلي (392 هـ / 1001 م) (23) •

• عبد الله بن الزويزي بن ايمن قاضي اصيلا (24) •

• عبد الواحد بن مسعود بن محمد عنون الاصيلي (25) •

• علي بن محمد بن علي بن هذيل الاصيلي (26) •

• محمد بن عبد الله بن إبراهيم الاصيلي (27) •

ومن رجالات البرتغال الذين قاموا بدور هام في المدينة :

بيدرو دو مزكيتا Pedro de Mesquita وكان احد حكام اصيلا
خلال الحكم البرتغالي (28) • وكذلك (بوربا) (29)

D. VASCO CONTIMHO, Comte de Borba

• ومن القرى التي كانت مشهورة قرب اصيلا قيمورة (30) •

الرباط عبد العزيز بن عبد الله

(23) (معجم البلدان ج 1 ص 278 / ج 6 ص 331 (مادة فاس) / مسالك البكري ص 117)
الشذرات ج 3 ص 140 .

(24) (المصداق ليعاض ص 265) .

(25) (ذرة الحجال ج 2 ص 385) .

(26) (الدليل والتكملة ل 5 ص 369 / معجم اصحاب الصدي ص 284) .

(27) (التكملة ص 111) .

(28) (دوکاستر - السعديون - س. ا. م 1 ص 569) .

(29) (دوکاستر م 1 ص 423) .

(30) (الترجمانة الكبرى للزباني ص 476) .

- David Lopes, Historia de Arzila durante O dominio portugues, Coimbre 1924-25.
- Bernardo Rodrigues, Anais de Arzila, éd. David lopes ; 2 vol. Lisbonne 1915-19.
- Adolfo L. Guevara, Arcila durante la ocupacion portuguesa, Tanger 1940.
- Sources inédites de l'hist. du Maroc, Portugal 5 vol. Paris 1934-53
- Tomas Garcia Figueras, Miscelanea de estudos historicos sobre Mar-ruecos, Larache 1949 (p. 421).
- R. Ricard. Apuntes para la historia eclesiastica de Arcila y Tanger du-rante la ocupacion portuguesa, in Archivo Ibero-Americano (Madrid), 2e époque, T.I., 1941 (p. 56-75)
- B. Rodrigues-Anais de Arzila, Cronico inedita de Jesus do seculo XVI Lisbonne, 2 Vol. 1915-1919.
- Santos (Reynaldo dos) - As Tapeçarias datomada de Arzila, Lisbonne, 1925.
- David Lopes, 1) Historia de Arzila durante o dominio português (1471-1550e 1577-1589) Coimbre, 2) Les Portugais au Maroc, in Revue d'his-toire moderne (Paris) T. XIV, 1939 (p. 337-368).

A.B.A.

مأساة الحسين في الأدب الأندلسي

(4)

د. عبد السلام المراس

وهناك شاعر آخر معاصر لصفوان بن ادريس وهو ناهض الوادي
أشي (ت 615) الذي رثى الحسين رثاء يفيض بالأسى وينبض بالصدق
والوقار ، ولعل للرجل قصائد متعددة في الموضوع ولعله لم يقتصر على
رثاء الحسين دون الحسن وغيره من آل البيت الذين لقوا مصرعهم على
يد أعدائهم لأن هذا الموضوع كما قلنا كان موضوع العصر يتنافس فيه
الأدباء والشعراء والمؤلفون ولكننا لا نملك إلا قصيدة واحدة وأبياتا منها
احتفظ لنا بها المقرئ ، هذه القصيدة اختار لها الشاعر اطارا فنيا أضفى
عليها ظلالا من الأسى وشحنها باتغام حزينة ملتاعة ؛ فقد استهلها بخطاب
موجه الى حمامة - رمز الألم والحزن لدى الشعراء - فارقت ألفها ولكنه
يشك في ألمها او في صدق ادعائها له لأن مظاهر الحزن بعيدة عنها ،
ويستغرق اهتمامه بحزن الحمامة ومناقشته أياها تسعة أبيات يقول : (1)

(1) نفع الطيب 5 / 70 - 71 .

أمرنة سجمت بعود أراك
 أجفالك الفك أم بليت بفرقة
 لو كان حقا ما ادعيت من الجوى
 أو كان روعك الفراق اذن لما
 ولما الفت الروض يارج عرفه
 ولما اتخذت من الفصون منصة
 ولما ارتديت الريش بردا معلما
 لو كنت مثلي ما افقت من الكرى
 ايه حمامة خيرنسي انسي
 فولي مولهة : علام بكـاك
 أم لاح برق بالحمى فشجـاك
 يوما لما طرق الجفون كـراك
 ضنت بماء جفونها عينـاك
 وجعلت بين فروعه مفضـاك
 ولما بدت مخضوية كفـاك
 ونظمت من قزح سلوك طلاك
 لا تحسبي شكواي من شكـواك
 ابكي الحسين وانت ما ابكـاك ؟

وهو يريد أن يقتعنا بإيراده هذا الحديث من جانب واحد أن آلامه
 واحزانه أبعد غورا وأعمق جرحا وأكثر صدقا من أحزان الحمامة ...
 انه لا يطرق جفنه كرى ولا تكف عيناه عن ارسال العبرات والدموع ولا
 يانس بالطبيعة ولا يرتاح للرياض ولا يفيق من البكاء ، لذلك كانت شكوى
 الحمامة من غير شكاته ذلك انه لا يبكي فقد الف ولا فراق حبيب ، انه
 يبكي الحسين ثم يسترسل قائلا :

ابكي قتيل الطف فرع نينـيا
 ويل لقوم غادروه مدرجـا
 متعفرا قد مزقت اشلاؤه
 ايزيد لو راعيت حرمة جـده
 أو كنت تصفي اذ نقرت بثفره
 اتروم ويك شفاعه من جـده
 ولسوف تنبد في جهنم خالدا
 اكرم بفرع النبوة ذاكـي
 بدماته نفخوا صريع شكـاك
 فريا بكل مهند فتـاك
 لم تقتنص ليث العرين الشاكـي
 فرعت صماخك انة المسـواك
 ميهات لا ومببر الافلاك
 ما الله شاء ولات حين فكـاك

وتشترك هذه القصيدة مع القصيدة الثانية لصفوان بن ادريس في البكاء الحار على الحسين وفي الحملة على قتلته وبخاصة يزيد وعبيد الله بن زياد وقد ابرز - بالحاح وعناية - بعض مشاهد المأساة التي تفجر الآلام والدموع وتملا النفس حقداً على القتلة وان كان صفوان اكثر استرسالاً وتنوعاً في تقديمه لتلك المشاهد بطريقة فنية بارعة غير مباشرة . لكن ناهضاً عمداً الى طريقة اخرى - وان كانت مطرقة في ادبنا العربي - فعرض علينا المشهد الاول - المقدمة - يستعرض فيها سمات الحزن الصادق ومظاهر الألم العميق التي تجردت الحماسة منها ليصل الى ان شكواه لا عهد لها بها في اغزر آلاماً واحزاناً ، لانه يبكي قتل الطف وفرع نبينا صلى الله عليه وسلم وكفى بذلك حزناً واكتئاباً !!

وهو هنا لا يقل عن صفوان في حملته على يزيد وانذاره بسوء المصير وقد بلغ به السخط الى ان يقسم على حرمانه من شفاعته النبي صلى الله عليه وسلم وجد الحسين وان المصير هو جهنم خالداً فيها الى ما شاء الله (!!)

وفي هذه الظروف نظم ابن المناصف (موسى بن عيسى ت 627) ارجوزة في مقتل الحسين نظمها باقتراح ابراهيم الدرعى الكفيف وقف عليها ابن عبد الملك بخطه ، وموسى هذا اخو ابي عبد الله ابن المناصف التونسي الاصل قاضي بلنسية واستاذ ابن الأبار (2) .

كما ألف ابو عبد الله محمد بن التجيبي (540 - 610) كتاباً سماه « مناقب السبطين » الحسن والحسين (3) رواه عنه ابن الأبار واجازه فيه فيما اجازه من كتبه ورواياته وسنه لم تتجاوز الثالثة عشرة .

ومن اهم الآثار والنصوص التي حفظت لنا في رثاء الحسين وآل البيت رسالة « درر السمط في خبر السبط » لابن الأبار ، وله تأليف

(2) الدليل والتكملة مخطوط رقم 1705 ص 167 - 168 الخزائن العامة بالرباط .
(3) التكملة 2 / 589 ، الدليل والتكملة 6 / 357 ، النسخ 2 / 161 .

آخر في الموضوع لم يصلنا لحد الآن بعنوان : « معدن اللجين في مراثي الحسين » يقول عنه الفبريني : (4)

« لو لم يكن له من التأليف الا هذا الكتاب لكفاه في ارتفاع درجته وعلو منصبه وسمو رتبته » .

ويبدو لي ان هذا الكتاب يحتوي على مراثي شعرية في مقابلة الدر الثري ، او قد يكون الكتاب جمع فيه ابن الأبار قصائد في رثاء الحسين له ولغيره ، ونستبعد أن يكون هذا الكتاب هو نفس « در السمط » .

وقد أثنى غير واحد على در السمط ، ومن أجمل ما وصف به هذا الكتاب ما قاله المرحوم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد مؤلف كتاب « ابن الأبار حياته وكتبه » يقول : (5) « فابن الأبار مؤرخ أديب مسلم تعلق قلبه بحب الرسول وذريته ، وقد كان هذا الكتاب منه انتاج العقل والقلب معا ، انتاج الرجل العالم المثقف الذي وعى التاريخ وعرف حقائقه فلا صعوبة عليه في ذكرها ، والذي ملك أنة البيان فلا صعوبة عليه في التعبير باللغة التي يريد بها والأسلوب الذي يريده والذي تملكته عاطفة الرسول والوفاء لآل الرسول فلهبت خياله واطلقت قلمه بالتعبير ، ولا احسب هذا الكتاب الذي جمع بين قوة العقل وقوة الحب وقوة الخيال الا كتابا معبرا تعبيرا صادقا عن قدرة مؤلفه البلاغية وممثلا له تمثيلا صحيحا صادقا » .

والحق ان « در السمط » نمط جديد من الكتابة بالانـدلس وان نحا فيه منحى ابن الجوزي . فشخصية ابن الأبار الموسوعية وعمق آلامه واحزانه طبعا الكتاب بطابع فريد مما جعله جديرا بالرواية والتداول والشرح والتعليق . وقد رواه بعض تلامذة ابن الأبار فروي عنهم ، وهذه الرواية مصدرها تونس وبجاية حيث كان يقيم ابن الأبار . وعندما مر العبدري عند عودته من رحلته بتونس لقي بها تلميذ ابن الأبار ، ابا محمد

(4) عنوان الدراية ص 312 .

(5) ابن الأبار وكتبه ص

ابن هارون فاكثر مجالسته وتردد اليه للأخذ عنه والقراءة عليه ، فكان من جملة ما قرأ عليه « درر السمط » ، يقول : (6)

« وقرأت عليه درر السمط في خبر السبط لأبي عبد الله القاضي وحدثني به عنه سماعا وقراءة وهو جزء وضعه في مقتل الحسين رضي الله عنه نحا فيه نحو طريقة أبي الفرج بن الجوزي وكنت أتكلم معه في تعقب بعض مواضع منه فيعجبه قولي فيها » .

ثم مر ببجاية ولقي بها ثانية الشيخ الفقيه الخطيب المحدث الفاضل أبا عبد الله بن صالح أحد تلامذة ابن الأبار الملازمين له فقرأ عليه فيما قرأ بعض « درر السمط » وناولته آياه بحق قراءته آياه على مؤلفه أبي عبد الله القاضي (7) . ولأبي القاسم محمد بن أحمد الشريف السبتي (ت 760) تفهيد غير تام على « درر السمط » (8) .

وأوفى شرح للكتاب هو الذي قام به أبو جمعة سعيد بن مسعود الماغوسي المراكشي (ت بعد 1016) أمره بذلك السلطان أبو العباس المنصور السعدي وجعل بين يديه خزائنه العلمية فانتقى منها خمسمائة كتاب استعان بها على حل تلميحاته وإشارات التاريخة ووضع شرحا أبدا فيه وأعاد وأسماه « نظم فرائد الفرر في سلك فصول الدرر » وقد أعجب به السلطان وأجازه على ذلك جائزة فائقة (9) .

وان استعانة الماغوسي بخمسمائة كتاب على حل تلميحات الكتاب وإشارات البلاغية ليكشف عن قيمة هذا الكتاب وكثافة أسلوبه وموسوعية مؤلفه .

(6) رحلة البغدادي 271 - 272 .

(7) نفسه 276 .

(8) الأحاطة 2 / 185 .

(9) روضة الأس للمقري ص 227 .

والكتاب عبارة عن رسالة صغيرة لا تتعدى ثمان ورقات (16 صفحة)
في كل صفحة 23 سطرا بخط دقيق في حجم صغير حسب نسخة الأخ
الكاتب الأستاذ الحسن السائح وهو يتضمن مقدمة وأربعين فصلا .

وموضوع الرسالة لا يقتصر على مأساة الحسين وإنما يبدأها بتحية
آل البيت جميعهم ، الذين أبان عن فضلهم الكتاب المبين (ص 2)
فهم أظهر الناس وأفضلهم وأجدرهم بالمحبة ، ويختتم المقدمة بقوله (ص3)
اولئك السادة احيي وافدي والشهادة بحبهم اوفي واؤدي « ومن يكتمها
فانه آثم قلبه » متناولا خلالها لقطات من سيرة الرسول صلى الله عليه
وسلم .

ثم يلخص في فصول ثلاثة مأساة آل البيت وتعرضهم للقتل وذلك
قدرهم الذي يرصدهم . واخيرا يحمل على بني امية حملة شديدة ، وهو
كلما اشاد بآل البيت انتقص من الأمويين ، وبعد ذلك يبدأ في الحديث عن
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مبتدئا بمكانة خديجة وزواجها من
رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزول الوحي عليه وتصديقها له « فركنت
الى الركن الشديد وسددت للهدى كما هديت للتسديد يوم نبىء خاتم
الانبياء وانبيء بالنور المنزل عليه والضياء » .

ويتناول فترة تخت رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء في
شهر رمضان ومثابرته على كل حسن وحسن قبل البعثة ونزول الوحي
عليه فتجيء رؤياه التي كانت تأتي مثل فلق الصبح ثم نزول الوحي عليه
اثناء توجيههم الى اهله وتوسطه الجبل ، ويسير مع سيرة رسول الله
صلى الله عليه وسلم يلتقط صورا منها ليصل الى فاطمة وزواجها من علي
وبيان مكانتها ثم خلافة علي وموقعة صفين ، يأخذ منه ذلك كله سبعة
عشر فصلا .

ويبدأ في الفصل العشرين عن الحسن وقضية سمه ، وفي الفصل
الواحد والعشرين يتحدث عن فضائل السبطين . وفي الفصل الثاني
والعشرين الى الثالث والثلاثين يتناول مأساة الحسين . وفي الفصل

الرابع والثلاثين يقارن بين الحسين ويزيد . وفي الفصل الخامس والثلاثين يثني على موقف عبد الملك بن مروان . وفي الفصلين التاليين يشيد بعمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب . وفي الفصل الذي يليه يرى ان تقليده الخلافة كان من سليمان . وفي الفصل التاسع والثلاثين يقضي براه في حرمان آل البيت من الدنيا لأن أباهم طلفها ثلاثا ((وزوج الأب على الابن حرام)) ويحمل على الدنيا التي هي أهون من موسى . وفي الفصل الأخير يعبر عن حسرته على ما فرط في جنب الله ويكشف عن مأساته وعما يعانيه في حياته متوسلا إلى الله ألا يحرمه من شفاعته النبي صلى الله عليه وسلم ويدخر لديه هذا الكتاب ...

وهكذا يتبين لنا ان كتاب ((الدر)) هو أقرب ما يكون الى تسجيل عواطف وانفعالات صادقة تعبيرا عن حب آل البيت دون الالتزام الحرفي بعنوان الكتاب لذلك كان أشبه بكتابة مبكرة في موضوع ((على هامش السيرة)) النبوية وآل بيته الطامرين من اول البعثة الى نهاية الخلافة واخلاد ثورة الحسين على النحو الذي آلت اليه .

ان ((درر السمط)) اعتبره في قمة الكتابة الأدبية بالاندلس لما يمتاز به من صدق عاطفي وبعد اغوار الاحساس ومن تركيز للأفكار وبراعة في تكثيف المعاني وتاليف بينها وحشد هائل لعلمه الغزير وثقافته الموسوعية من اقتباسات وإشارات واستشهادات شعرية ونثرية تتخلل افكاره ، كل ذلك في سياق فني جميل ونسج محكم وسبك معجب .

وقد يتراوح أسلوبه ما بين الانفجار العاطفي وهدوئه ، وأحيانا يتوسط في ذلك حسب الموقف وهو حين ينفجر فكانما هو بركان هادر او يوم عاصف او اعصار مخيف ، وعندما يهدأ يسير ببطء وتأن يهتم بالفكرة وتفصيلها في نطاق ما حدد من فقر او فصول قصار . فاذا توسط ارتفع ونزل او صاح وان واعول وكظم .

ولنقدم بعض الأمثلة في ذلك : يقول في الفصل الاول (ص 4 - 6)

(حياها اوجها على السفح غرا وقبأبا بيضا ونوقا حمرا)

اي صفحات شربت ماء بشرها الصفاح ، وترحات ما شفى تباريحها
الا الصفاح « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » .

« يالهوة لليلة وهت معاقدها وهوت فراقدها ، فتسلط الانقص على
الأكمل ، واختلط المرعى بالهمل « أن في ذلك لآيات للمتوسمين » شد
ما شالت النعامة ومالت النعامة ، وآلت الى الاستكائة الزعامة تالله ما
راعت تلك الأحداث حتى قعد مقعد الشيخين الأحداث ؛ ولي امر الامة
الاغمار فسفكت الدماء ونهبت الأعمار ، واسى ابن عمر لاعتزاله يوم قتل
عمار ، فود الاسلام - اذ جد به الاصطلام ، واعيا الاجتماع بعد الافتراق ،
وحيا بغير الحياة اهل الشام اهل العراق ، لو عمر عمر فلأزمه النساء
وسالمة الصباح والمساء حتى لا يراق دم ولا يراقب ندم (اي لا يخاف)
« ولو شاء الله ما أقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد » كان بعده كسر الباب
(اي قتل عمر) سبيا لتقطع الأسباب . والمقدور كائن . جدد الحثف ،
وجرد السيف فايح حمى المهاجرين والانصار ، واتيح لأهل البيت يوم
كيوم الدار (اي يوم قتل عثمان) (تلك الرزية لا رزية مثلها) .

في هذا الفصل لخص مأساة آل البيت بل مأساة المسلمين وكان
ذلك قدرا مقدورا . ويقول في الفصل التاسع والعشرين (ص 55 - 59):

« عاشر المحرم ابيحت الحرمات ، وافيفت على النور الظلمات
فتفاقم الحادث ، وحمل على الطيبين الأخابث ، وضرب السببط على
عاتقه ويسراه ، وما أجرا من أسال دمه وأجراه ، ثم قتل بعقب ذلك ذبحا ،
يبكي حتى العاديات ضبعا ، اجزاء حائلة الحلى واشلاء كرمين على البلى ،
ومال الفواة على المتاع والثياب ونازعوا النساء ما عليهن في النهاب الى
خدود خدوها وقودود قدوها ومحارم استخطوها وانتهكوها وأكارم ابقوا
جثثهم وتركوها (جزرا لخامعة ونسر قشعم) فيا لله من ايد عادية
وانفس مصادية فصلت بالخسران خزايا وحملت كرائم اظعان سبايا .

(فما في حريم بعدها من تخرج ولا هتك ستر بعدها بمحرم)

باب النذبة هنا يحسن ، فدح ما يسر لمن يحزن .

(اترجو امة قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب)

ما لقي في عاشوراء رداه الا والعشر مما يعد صداه ، حموه المناهل
العذاب واباحوه المناصل العصاب ، يا لك من نظام نثر بالعضات الموارد ،
وظام يريغ الماء قد حيل دونه ، سقوه ذبابات الدقاق البوارد ، اعجبهم
ان يتخبط غليلا قبل ان يتشخط قتيلا : ((ان هؤلاء يحبون العاجلة
ويلدرون وراءهم يوما ثقيلا)) .

اتنتهب الايام افلاذ احمد وافلاذ من عاداهم تتوود
ويضحي ويظمى احمد وبناته وبنات زياد وردها لا يصرد
افى دينه فى امه فى بـلاده تضيق عليهم فسحة تتوود
وما الدين الا دين جدم الذي به اصدروا فى العالمين واوردوا

فهو يصف الحادثة وصفا دقيقا بجمل متلاحقة حيناً وبجمله واحدة
دالة حيناً آخر ، ويحلل ذلك بأفكار يدلي بها عن الحدث ويعزز الفكرة أو
الصورة بآية من القرآن أو بحديث نبوي شريف أو بحكمة أو بشعر أو
بتلميح تاريخي .

((وقد اختار لهذا الكتاب أن يكون أسلوبه من اللون المسجوع وربما
كان لا يصلح فى مثل هذه المواضع المثيرة غيره من الأساليب ، فالصنعة
البديعية والجرس اللفظي كان لهما اثرهما القوي على نفسية القارئ
العربي فى مثل هذه العصور ، فغير بدع أن ترى المؤلف يلتزم أنماطاً
من السجع والوانا من التجنيس وضروبا من التضمين والاقتراس
والتلميح)) .

وهو لا يكتفى بأن يعقد السجع بين الجملتين بل قد يتمدى الى
ثلاث جمل أو أكثر كقوله : ((اي بني الطلقاء ما أقعدكم عن الإبقاء ،
واقامكم الى العناء)) كما انه لا يكتفى كذلك باتفاق اواخر الفواصل فى

حرف واحد بل يطلب الاتفاق في أكثر ، فمن التزامه ثلاثة أحرف :
« فقل في قوم شرعوا الدين القيم ، ومنعوا اليتيم أن يقهر والايام ، ما قد
من اديم آدم أطيب من أبيهم طينة ولا أخذت الأرض من مساعيهم زينة » .

ومن التزامه أربعة أحرف يالك انجم هداية لا تصلح الشمس
لهم داية) .

ومن التزامه خمسة (... تذاامروا ، والردى موجه يلتطم وتوامروا)

ومن التزامه ستة (... مكثت للرسالة مواسية وآسية فثلثت في
بحبوحة الجنة مريم وآسية) .

وفي التجنيس يعتمد كثيرا الجناس الناقص ويلجا الى الكلمات
المتشابهة الحروف والنطق فيصوغها متجاورة في العبارة الواحدة او
الجملة « فان تميزوا فبشريعتهم البيضاء او تحيزوا فلعشيرتهم
الحمراء » . (10)

وكما المعت الى ذلك سابقا فان الفقرات تنتهي بآية قرآنية او حديث
نبوي او قول ماثور او شعر او مثل سائر ... ويستغل معاني ما يورد من
ذلك استغلالا بارعا يدعم به فكرته ويزين به دعواه .

وابن الأبار في هذا الكتاب كان متائق الروح متوهج العواطف حاد
البديهة يقطر الفؤاد متوتر الأعصاب ، لعله الفه وهو منفي في بجاية مجبرا
على الإقامة فيها غير قادر على مفادرتها رغم انه ألح مرارا أن يلبي الأمير
رغبته في زيارة بيت الله وقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن
يستجيب لرغبته تلك (11) .

وقد اتهم ابن الأبار بالتشيع بسبب هذا الكتاب ، يقول ابن
الأحمر : (12)

(10) انظر مقدمة درر السمط صفحات (ق ر) لا

(11) السروض المطار .

(12) مستودع العلامة ص 28 ، وانظر مقدمة الدرر ص (م) .

((... لكنه تشتم من تصنيفه ((درر السمط)) رائحة التشيع

وتستطلع منه انباء الشقاوة اذ منعه عن الطعن التصنع .
ويقول المقرئ بعد ما اثنى على الكتاب واورد منه فصولا كثيرة (13):

((ولم اورد منه غير ما ذكرته لان في الباقي ما تشتم منه رائحة التشيع والله يسامحه بمنه وكرمه)) . وقد قلنا في مقدمة الدرر ما يلي : (14)

((والحق ان في الكتاب تقديسا لآل البيت وغضا من قدر بني امية ولكن في غير غلو ولا انحراف ، وابن الأبار يرى بان عليا وصي بل سيد الأوصياء وآخر الخلفاء ، ومعاوية اول الملوك ، ورغم ان بين الرجلين فرقا في المزايا فانهما سيجتمعان في الجنان ... وله من الخصائص والمميزات ما جعله في مكانة سامية فهو اول الذكور آمن وله بالنبي آصرة الأبوة ثم آصرة الاخوة والبنوة وبهذه المناسبة يقول ابن الأبار : ((فلولا ان لا نبي بعدي نص في الامتناع لكان : (انت مني بمنزلة هارون من موسى) حجة في الاتباع)) ويطلق العنان لعواطفه عند تصويره لمأساة الحسين فيبكيه بحسرة ووله ويصبح غاضبا : ((ما عذر الأموية وابنائها في قتل العلوية وافنائها ؟ اهم يقسمون رحمة ربك ، كم دليل في غاية الوضوح على انهم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق)) ويشهد ابن الأبار الله على ان يظل طول حياته حزينا على رزء الشهيد ، مضطرب البال مضطرم القلب ، وهو يتوسل بهذا الى الله ليجعله بين يديه حجة لا تدحض وحسنة لديه لمحو سيئاته ترحض حتى ينعم في دار القرار بمجاورة الأبرار ، وهو لا يندم يوم السؤال على اعلائه هذا وأسراره ، ويختتم قوله بهذه العبارة :

((ويا من ادخر نديته للمثاب وافتخر بالوجد فيه والاكتساب)) .
ولابن الأبار تاليف آخر في بكاء الحسين سماه ((معدن اللجين في مرثي

(13) النسخ 4 / 506 .
(14) مقدمة الدرر صفحات م ، ن ، ص .

الحسين » ، يقول عنه الفبريني : « لو لم يكن له من التأليف الا هذا الكتاب لكفاه في ارتفاع درجته وعلو منصبه وسمو رتبته » . ولعل هذا الكتاب يحتوي على مرائي شعرية في مقابلة الدرر النثري .

وليس في الكتاب قول بالامامية او العصمة وآراء اخرى من صمم مذهب الشيعة الكلامي . وابن الأبار من علماء السنة وحفاظها ولا نجد له في مؤلفاته الاخرى نزعة غير نزعة اهل السنة من المغاربة والاندلسيين وهو نفسه يبرأ من كل مذهب غير حب الله ورسوله ولعل هذا كان اثر تجربة الحيرة التي مرت به ، يقول في قصيدة يمدح فيها العلماء :

نصبت لاخلاصي لهم وتخلصي بارشادهم من حيرة الرفض والنصب
فاتبع حب الله حب رسوله وليس مثاب الواصلين سوى الحب

كما نراه يبرئ الاندلسيين من التشيع ، الذين تمسكوا بالشريعة واحبوا آل النبوة لكنهم عادوا الشيعة كمذهب يقول في رسالة كتبها لابي المطرف بن عميرة :

« كلا بل دانت (الاندلس) للسنة وكانت من البدع في احضن جنة ، هذه المروانية مع اشتداد اركانها وامتداد سلطانها اقلت حب آل النبوة في حبات القلوب ، والوت ما ظفرت من خلعه ولا قلعه بمطلوب الى المراقبة باقاصي الثفور ، والمحافظة على معالي الامور ، والركون الى الهضبة المنيرة والروضة المريعة من معاداة الشيعة موالة الشريعة » .

ولذا فان تشيع ابن الأبار ينبغي ان تفهم في إطار الحب لآل البيت حبا شرعيا كما عبر عن ذلك عبد المهيمن الحضرمي .

د. عبد السلام الهراس

فاس

مُنشآت مَرِينِ فَاسِ بِمَنَاحِيَةِ فَاسِ الْجَدِيدِ

محمد المنوني

الى جانب مآثر بني مرين داخل فاس الجديد ، جملوا خارجها
بمنشآت معمارية وفلاحية حفت بها من أكثر الجهات .

ففي الشمال الغربي قامت المآثرتان المتناظرتان : حديقة المصارة
والزاوية المتوكلية .

وفي الشمال الشرقي تركزت قباب بني مرين .

وفي الجنوب الغربي : القصر المشتهر باسم الدار البيضاء .

وعلى بعد من هذه الآثار - الى الغرب - القصر المشيد عند منابع
وادي الجواهر .

ويحاول هذا البحث الكشف عن واقع هذه البنيات ، لعرضها حسب
ترتيب ذكرها وشيئها .

* * *

حديقة المصاراة :

المصاراة - بضم الميم - تعبير عربي معروف ، وجاء ذكر المادة في الآموس (1) هكذا : « ومصر الفرس كعني استخرج جريه ، والمصاراة - بالضم - الموضع تمصر فيه الخيل » .

ويرسمها هذا المصدر بالصاد ، وهو الوارد عند مؤلفي القرب الاسلامي : ابن ابي زرع (2) . وابن الحاج النميري (3) . وابن الخطيب (4) . وابن الاحمر (5) . وابن خلدون (6) . والمقري (7) . غير ان العمري (8) ينفر بكتابتها بالسين ، فيخالف الرسم اللغوي للكلمة .

وقد استعمل هذا الاسم بالاندلس للدلالة على الفضاء الواسع في جوار المدن ، حيث يكون ميدانا للالعاب الفروسية وعرض الجيوش

ومن الاندلس انتقل للمغرب واشتهر في صاحبة فاس ، ثم في ناحية مدينة تازا عند مزارع بني عبد الله (10) .

-
- (1) المطبعة لامصرية ، الطبعة الثالثة 2 / 134 .
 - (2) « روض القرطاس » ، ط. ف. 1305 - ص 23 ، 25 .
 - (3) « فيض العباب ... » مخطوط خ. م. 3267 - ص 39 - 43 ، حيث يرد ذكرها ثلاث مرات .
 - (4) « الاحاطة » مطبعة الموسوعات بالقاهرة - 2 / 14 .
- « اللوحة البدرية » المطبعة السلفية - ص 114 .
- « نفاسة الجراب » دار الكاتب العربي ... بالقاهرة - ص 184 ، 263 ، 317 .
 - (5) « نثير الجمان » مطابع دار الملاح في بيروت - ص 343 ، 350 .
- « نثير فرائد الجمان » دار الثقافة في بيروت - ص 351 ، 355 .
« بيوتات فاس الكبرى » دار المنصور بالرباط - ص 48 .
 - (6) « المير » ط. مصر 1284 - 7 / 255 .
 - (7) « ازهار الرياض » مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة - 201/1 ، 316/2 .
 - (8) « مسالك الابصار » : القطعة المنشورة منها في مجلة (البحث العلمي) بالعدد الاول من السنة الاولى ، حيث جاء ذكر المسارة بالسين ص 138 .
 - (10) « حوالة احباس تازا » مصورة على الشريط ، خ. ع. 134 - ج 6 لوحة 56 .

وعرف هذا الاسم بفاس في صدر الدولة المرينية ، وضمن منجزات
السلطان يوسف بن يعقوب ، يتدرج الحديث عن مصارة المدينة البيضاء
كالتالي :

في رجب من عام 685 هـ - 1286 م ركب على وادي الجواهر
الدولاب الكبير المنفصح المدار .

ثم في شهر صفر من السنة التالية بدأ هذا الجهاز في الدوران .
وفي السنة ذاتها غرست « المصارة » حسب تعبير ابن أبي زرع (11)
مصدر تسلسل هذه المنجزات .

وحسب إشارة في « روض القرطاس » (12) فإن هذه الحديقة كان
موقعها بالضاحية الشمالية لفاس الجديد . ويحدد البعض (13) مركزها
بأنه على مقربة من المكان المعروف بالملعب ، حيث تقام ألعاب الفروسية
أيام الأعياد على ضفة وادي الجواهر .

* * *

والى هنا : فإن هذه المائرة - في نشأتها الأولى - تمثل حديقة
مفترسة ومجهزة بدولاب مائي لسقيها ، وفي عهد أبي الحسن المريني
ترد إشارة إلى دار فخمة مشيدة بالبستان ، وكان العمري (14) أول من
أعلن عن هذه الدار ، في فقرة يصف بها « المصارة » ويقول بعد ذكر

(11) « روض القرطاس » ص 297 .
وقد أكن بجوار مدينة فاس حديقة مذكورة تحمل اسم « البحيرة » فتحدث عنها ابن
منقضي « رسالته المغربية » 6 حسب قطعة مسالك الأبصار المنوه بها وشيكا -
ص 141 من العدد الأول من مجلة (البحث العلمي) ، ثم أشار لها ابن غازي في
« الروض الهتون » : المطبعة الملكية ص 6 - 7 .
فهل جاءت عملية غراسة المصارة أحياء لهذا البستان الموحد 6 بعد ما اندثر
متأثرا بالأحداث التي واكبت نقل السلطة إلى بني مرين ؟ .

(12) ص 23 .

(13) هو محمد الفاطمي العقلي في تعليق له على روض القرطاس بمناسبة ذكر المعارة ص 23 .

(14) قطعة « مسالك الأبصار » المنشورة بالعدد الأول من مجلة (البحث العلمي) ص 138 .

وادي الجواهر : « وعليه الناعورة المشهورة ، ترفع الماء الى بستان السلطان المعروف بالمسارة ، وهو بستان جليل فيه قصر جميل ، وهذا البستان خارج المدينة الجديدة ، وهذه الناعورة مشهورة الذكر : يضرب بها المثل ويتحدث بها الرفاق » .

ويشيد كاتب اندلسي (15) بهذا القصر أيام أبي عنان ، فيصفه مع المباني العربية الفاخرة : الخورق والسدير والجعفرية العباسية .

كما يتحدث الكاتب ذاته (16) عن دولابين قديمين بالحديقة المرينية : الناعورة الكبرى وأخرى صغرى تتصل بسور المدينة البيضاء .

ويعقب المؤلف نفسه (17) بوصف خمسة دواليب جديدة جهز بها أبو عنان مرتفعات روض « المصارة » ، فانتظم سير الدورة المائية في الدولابين الكبيرين ، بينما آل أمر الدواليب الثلاثة الصغار الى التعطيل .

والى جانب هذا الوصف الاندلسي ، نقفي بوصف مغربي للمصارة ، في نبذة من قصيدة رفعها لأبي عنان منشئها ابن عبد المنان : أحمد بن يحيى الأنصاري الخزرجي ، المكناسي الدار الاندلسي الأصل ، وقد تلخص أثناءها لوصف جنة المصارة ، وذكر دولابها الفسيح المنار :

احسن بها من روضة غناء قد	غنى الحمام بها طروباً او شدا
حاكت لها الانواء مطرف سندس	ارج وشاه يد الربيع بما وثى
وبجانب البيضاء منها مرتقى	جبارة الارزاء سامية الدر
كرحى الصياقل ما سعت لتديرها	رجل ولا نسبت لامهء المدي
أترى حسام النهر جل متنه	صدا فما تنفك تجلوه جلا
ناعورة ، لا بل ابشك انة	وغدت تكنفه البروج وقد رقا ؟

(15) ابن الحاج النميري في « فيض الباب » ص 33 .

(16) « المصدر » ص 34 - 36 .

(17) « نفس المصدر » ص 36 - 41 .

وبالبنية ذاتها ، يجلس أبو سالم لوفد سلطان مالي وما إليها لتتبل
هدية الزرافة عام 762 هـ (22) (1360 - 1361) .

وبها - أيضا - كان يقتعد نفس العاهل المغربي لتوديع سلطان
غرناطة : محمد الخامس ، منصرفه من التجائه بفاس ليحاول استرداد
عرشه السليب عام 762 هـ (1361 م) ، ويسمي ابن الخطيب - هنا -
برج الذهب بقية العرض ، ثم يقول عن ابن الأحمر : « ... واستحضر
السلطان فصعد إلى القبة ... » (23) ، اعلنا بارتفاع هيكلها .

* * *

وقد استمر روض المصارة بعد عهد أبي سالم ، فيتحدث عنه ابن
الأحمر ويفيد أنه يزدان بقصور ، لا بقصر واحد كما رأينا سلفا ، ويشير
إلى بعض أنظمته ، فيسجل اسم الناظر المدير لشؤونه أيام أبي الحسن
المريني ، وهو يورد في بيوتات فاس الكبرى (24) اسم محمد بن حسين
ابن الخوف الصنهاجي ، ويعقب بهذه الفقرة :

« وكان عاملا على الروض الأفيع المسمى بالمصارة ، حيث قصور
السلطان من ظاهر دار الإمارة بالمدينة البيضاء ، حيث برج الذهب
مجلس السلطان - يوم الخميس والاثنين - لعرض الجيوش والفصل بين
الناس » .

ونتبين من هذا النص وضع جنة المصارة بعد عصر أبي سالم حوالي
نهاية المائة الهجرية الثامنة ، ونقفي على ذلك بوصف الروض ذاته في
فترة لاحقة ، حيث يسجل المصدر المعني بالأمر (25) ما يلي :

(وقد كان لأحد سلاطين بني مرين - ولعله السلطان أبو يوسف (26) -
حديقة ملكية كانت تحتل سفح تل تكسوه غابات الزيتون ويقع إلى الشمال

(22) « المصدر » 7 / 310 .

(23) « نفاضة الجراب » ص 184 .

(24) ص 48 - 49 .

(25) « فاس في عصر بني مرين » تأليف روجيه لوتودنو ترجمة الدكتور نقولا زياده ،
نشر مكتبة لبنان ص 56 .

(26) تبينا - سلفا - أن منشئ الحديقة الملكية هو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المريني .

فلك مضي في الروض ما حكمتبه ادواره والقطب منه وما اقتضى
ففضى برفع الماء اه انـه قد خفض الادواح عيشا والري (18)

* * *

والآن : نشير الى بنية شامخة بحديقة فاس الجديد ، وهي قبة
عالية تحمل اسم « برج الذهب » ، وقد اشار له ابن مرزوق (19) وهو
يتحدث عن يوميات السلطان ابي الحسن المريني ، فذكر انه لما يكون
بفاس ينتقل يومي الاثنين والخميس « لبرج الذهب » ، فيستعرض
- امامه - الجيش ويتفقده ، ويلعب - بين يديه - الفرسان ليعرف
الفارس من غيره ، كما يستمع الى المشتكين ، وتعرض عليه الهدايا وما
يحمل من الاموال ، ويختتم هذا المصدر فقرته قائلا : « وهناك يجلس
كبراء ارسال الملوك وابناء الملوك اذا وفدوا » .

ومن الزائرين الكبار الذين كان نزولهم بهذه القبة : سلطان غرناطة
محمد الرابع في وفادته على ابي الحسن عام 732 هـ (1331 م) ، وقد
انزله بروض المصارة لصق داره حسب تعبير ابن خلدون (20) ، حيث
سنستشف منه تحديد موقع « برج الذهب » ، بعد ما تبينا - وشيكا -
انه كان معدا لاستضافة امثال الوافد لافرناطي ، فتكون بنية النزول
المقربي تتصل - في وضعها - « بقصر المصارة » الذي هو دار العاهل
المريني في تعبير ابن خلدون .

وبعد ابي الحسن يتردد - أكثر - اسم « برج الذهب » ايام ابي
سالم ، فياتي ذكره بمناسبة جلوس السلطان المريني لثائر وقع في
قبضته عام 761 هـ (1360 م) ، « فجلس ببرج الذهب - مقعده من
ساحة البلد - لاعتراض عساكره » ، حسب تعبير ابن خلدون (21) .

(18) « نثير الجمان » ص 350 - 351 .

- « نثير فرالد الجمان » ص 355 .

(19) « المسند الصحيح الحسن » : مخطوط الاسكوريال رقم 1666 : عند الفصل الخامس
من الباب الرابع .

(20) « الميسر » 7 / 255 .

(21) « المصدر » 7 / 310 .

من فاس الجديد ، وقد كان فيها بركتان لا تزال بعض آثارهما قائمة الى الآن ، وكانت البركتان لري الحديقة ، كما كانتا مبعث سرور للسلطان وجلسائه ، وكانت توصل المياه اليهما ناعورة ضخمة كانت تقوم على مقربة من باب السباع ، فكانت الناعورة ترفع الماء من النهر الى قناة تحمله - بدورها - الى البركتين ، ولا شك في ان المكان كان رائعا لما نمت الاشجار واينعت الزهور ، وكانت الحديقة تعلو المدينة الملكية بعض الشيء ، فكان الواقف فيها يتبين احياء المدينة والمنظر العام لسهل سايس وجبال الاطلس الاوسط التي غالبا ما كان الثلج يغطيها ، وكان في الحديقة بيوت بنيت اكراما للضيوف والزوار الممتازين ليقضوا فيها ليلتهم » .

* * *

الزاوية المتوكلية :

بعد حديقة المصارة ننتقل الى الماثرة المرينية الثانية بضاحية فاس الجديد ، وسنتبين انها تحمل اسم « الزاوية المتوكلية » ، وقد كان المغرب المريني يستعمل كلمة الزاوية للدلالة على مؤسسات احسانية تشيد باربابض المدن او في الفلوات ، برسم استقبال الواردين عليها لايوائهم والقيام بضيافتهم ، وذلك ما يشرحه ابن مرزوق في هذه الفقرة :

« والظاهر ان الزوايا - عندنا بالمغرب - هي المواضع المعدة لارفاق الواردين ، واطعام المحتاجين من القاصدين » (27) .

* * *

والآن : نشير الى المعلمة المعنية بالامر ، وتسمى « بالزاوية المتوكلية » (28) نسبة الى مؤسسها ابي عنان المريني الملقب بالمتوكل

(27) « المسند الصحيح الحسن » عند الباب 42 : الفصل الرابع .

(28) هو الاسم الذي يذكرها به مؤلف فيض العباب .

على الله (29) ، ثم صارت تعرف « بدار الضيفان » (30) تلميحا لوظيفتها
الاحسانية .

ويرجع تأسيسها الى عام 754 هـ (1353 م) ، حيث قامت
على الضفة الشمالية لوادي الجواهر في مواجهة فاس الجديد ، ولئن
صارت - الآن - الى الاندثار ، فان مصدرا معاصرا لفترة انشائها ،
حافظ على وصف هذه الماثرة وهي في رونق جدتها ، وهو ابن الحاج
التميري في « فيض العباب » (31) :

فيصفها بانها شامخة البناء ، منفسحة الساحة ، مبيضة المظهر ،
يتوم في قلبها جامع زينت سقفه ببدايع الزخارف ، وقابله - في الشمال -
قبة سامقة ازدوج فيها الحسن الباطن مع الجمال الظاهر .

ويدور بالزاوية - من جهاتها الأربع - مباحات بديعة الاختراع ،
متقابلة الأشكال والأوضاع ، قامت اساطينها كأنها عرائس تجلى ، وكسيت
ارضها من الصنائع حللا .

وقد امتد من الجامع الى القبة صهريج بديع الطول والعرض ،
ينتصب على حافتيه اسدان مصوران من الصفر ، ليقظا - من افواههما -
الماء النازل للصهريج .

وفي كل ركن من اركان الزاوية باب ينفذ الى دار بديعة البناء ،
متناسبة الاجزاء ، مكتملة المنافع ، الا الباب الواقع في الشمال الغربي ،
فانه يشرع الى دار وضوء مستوفية المرافق .

والديار الثلاث : احداها لامام الصلاة ، والاخرى للقائم بالآذان ،
والثالثة للناظر في الأوقاف ، المتصرف في اعداد الطعام وترتيب الناس .

(29) « روضة النسرین » المطبعة الملكية ص 27 .

(30) هذه التسمية مستفادة من تعليق بخط البعض على هامش ص 67 من مخطوطة
« فيض العباب » .

(31) مخطوط الخزنة الملكية رقم 3267 ص 67 - 70 .

ويتصل بالزاوية دار معدة لاستقبال الواردين ، مفتحة ابوابها لنزول القاصدير ، تقابلها دار أخرى برسم الطبخ .

وللزاوية والدارين المتصلتين بها : باب جليل في جهة الشرق ، مقابل لمدينة فاس انجديد ، وبمقرية منه قامت المنارة العالية ، وهي من احسن الصوامع صنعة ، تكسوها اشغال الزليج الملون في شكل بديع ، وتتوجها تفافيح منبهة .

ويتصل بالزاوية - من الغرب الشمالي - روض أريض مفترس بالأشجار المنتظمة سطورا بديعة الجمال .

ولتجهيز الزاوية بروافد للدورة المائية ، كان بغريبها صهريج عميق تتدفق المياه في جنباته ، وفي موازاتها - خارجا عنها - قامت سائبة بديعة الأشكال ، لسقي الروض وسد حاجة المرافق من الماء .

ثم نصب على وادي الجواهر دولا ب يضاعف كميات الماء ، حيث يتفرغ في قناة وأصلة الى الزاوية .

ذلك وصف دار الضيافة المرينية بضاحية فاس الجديد حسب المصدر المنوه به .

ويؤكد ابن بطوطة (32) - من جهته - تفوق هذه المؤسسة - اطلاقا - في اتقان الوضع وحسن البناء والتأش في الجص .

(32) « تحفة النظار » نشر المكتبة التجارية بمصر 1 / 23 ، مع 2 / 185 .
ويؤكد الرحالة - في الموضعين معا - أن الزاوية المتوكلية لا نظير لها في العمود من الوجهة الفنية .
والغالب أن ابن بطوطة غير مجازف في ارتسامته ، فمن ناحية تفوق المقاربة في الحفر على الخشب يشهد ابن مرزوق : أن أهل المشرق لم يجز لهم في بنائهم احتفال في نقش الخشب ، حسب « المسند الصحيح الحسن » عند الفصل الثاني من الباب 40 .
وعن الفن المريني عموما : يسجل أندري جوليان : أن تأثيره وجلاله لا مثيل لهما ، لا في بلاد البربر بأكملها فقط ، بل حتى في المشرق ((تاريخ إفريقيا الشمالية)) : الترجمة العربية 2 / 243 .

وقد استمرت قائمة حتى صدر المائة الهجرية الحادية عشرة ،
حيث يسجل المقرئ (33) الكتابة المرفومة عليها في نتفة شعرية سباعية
الآبيات ، من نظم محمد بن أبي القاسم ابن جزى الذي يقول فيها :

هذا محل الفضل والايثار والرفق بالسكان والزوار
دار على الاحسان شيدت والتقى فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي ملجأ للواردين ومـورد لابن السبيل وكل ركب سار

الى ان يقول في تاريخ بنائها :

في عام اربعة وخمسين انقضت من بعد سبع مئين في الأعصار



قـباب بني مـرين :

وهي الماثرة الثالثة الملحقة بفاس الجديد ، وموضعها هو المعروف
بـ « قلل بني مرين » ، أعلى التل المشرف على خارج باب الجيسة ، وقد
كانت هذه الهضبة تعرف - قديما - باسم « جبل العرض » (34) ، ثم
بـ « جبل الزعفران » (35) .

ولنتبين اهمية المكان قبل ان يتصير روضة مرينية ، نشير الى
رابطة بالجهة ذاتها ، لعم اسمها من مطلع القرن الهجري السادس .

(33) « ازهار الرياض » 3 / 196 .

- « نفع الطيب » المطبعة الأزهرية المصرية 3 / 290 .

(34) « التشوف » لابن الزيات مطبوعات الفريقية الشمالية الفنية بالرباط ج. 10 ، 71 .

(35) مخطوط « الروض المطر الاناس » لابن عيشون عند ترجمة أبي جبل ، مع « سلوة
الاناس » ط. ف. 3 / 149 .

فذكرت - أولا - بمناسبة دفن أبي جيل الفاسي جوارها لما توفي عام 501 هـ (1107 - 1108 م) ، حسب فقرة « روض القرطاس » (36) عن ملحد أمام فاس : « ودفن بظاهر الرابطة التي بخارج باب أصليتين من أبواب فاس » .

ومما يحدد موقع هذه الرابطة قول ابن الزيات (37) في الموضوع ذاته : « وقبره بجبل العرض » ، وأوضح من هذا فقرة ابن عيشون (38) : « وقبره بجبل العرض يعني بجبل الزعفران » ، وسنتبين أن هذا الجبل - باسميه - هو الذي تعلوه بني مرين .

وهكذا نستجلي - على وجه التقريب - موقع هذه الرابطة التي تبيننا أنها عرفت من أول المائة الهجرية السادسة ، وفي أواسط نفس المائة يرد ذكرها للمرة الثانية ، حيث أقبر قبلها محمد بن عمر الكاتب المالقي المتوفى عام 563 هـ (1168 م) ، ويقول عنه ابن الأبار (39) :

« وتوفي بفاس ... ودفن بجوفي الرباط الذي بمقربة من المصلى هنالك » .

والغالب أنه يقصد مصلى القرويين القديمة ، وهي التي أحدث البناء بها محمد الناصر الموحد عام 604 هـ (40) (1207 - 1208 م) ، ويعين ابن القاضي (41) موقع هذه المصلى قائلا : « وهي موضع (بستيون) باب الجيسة اليوم ، الذي هو قريب من القلة » .

(36) ص 118 ، وقد أشار ابن الزيات إلى أن أبا إسحاق الأندلسي ابتنى « رابطة » خارج باب الجيسة ، حسب « التشوف » ع. 154 . ولما ذكر ابن أبي ندع باب المغيرة في مدونة القرويين عقب عليه قائلا : « ومنه يخرج إلى الرابطة القديمة التي في رأس المقبة » حسب « روض القرطاس » ص 23 .

(37) « التشوف » ع. 10 .

(38) مخطوط « الروض المطر الأنفاس » عند ترجمة أبي جيل .

(39) « التكملة » ط. مجريط ع. 558 .

(40) « الأخيرة السنية » « دار المنصور » بالرباط ، ص 42 .

(41) « جلوة الاقتباس » « دار المنصور » بالرباط عند الترجمة رقم 166 .

وقد تكون الرابطة المنوه بها هي التي تمت بها بيعة نواب فاس
للأمير أبي بكر بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين ، فقد جاء في « اللخيرة
السنية » (42) ، أنهم بايعوه بـ « الرابطة » التي بخارج باب الشريعة ،
وعند ابن خلدون (43) : « وكانت البيعة بـ « بالرابطة » خارج باب
الفتوح » .

ولا تنافي بين التعبيرين ، وإنما يؤكد ذلك أن الرابطة بين البابين
جهة موقع القلعة .

والى هذا فإن هذه الهضبة - ذات الأسماء الثلاثة - تعتبر من القدم
مقبرات فاس العتيق ، فمن مفتتح المائة الهجرية الخامسة دفن بها قاضي
فاس ابن محسود : عبد الله بن محمد الهواري ، المتوفى عام 401 هـ (44)
(1010 - 1011 م) .

ثم أقبر بها - أواخر المائة الهجرية السادسة - أبو محمد يسكرين
موسى الجورائي ، المتوفى عام 598 هـ (45) (1202 م) .

* * *

والى هنا تبينا - من هذا العرض - أهمية قل القلعة على المستوى
الروحي ، وفي الميدان المعماري شيد بالبقعة ذاتها - أوائل القرن هـ
السابع - قلعة حصينة تشرف على المدينة القديمة ، بنى بها محمد
الناصر الموحدى أربع قباب يحوطها سور ، بنى خارجه جامعا وحماما ،

(42) ص 72 ، مع « جلوة الالتباس » ع. 24 .

(43) « المبسر » 7 / 174 .

(44) « سلوة التفاس » 3 / 161 .

(45) « المصدر » 3 / 166 .

وجلب الماء للجميع من وادي فاس في مسافة طويلة ، ثم خربت البناية
أيام المجاعة والوباء آخر عصر الدولة الموحدية (46) .

ويبدو أن الأهمية المزدوجة - الروحية والمعمارية - لتل المنوه
به ، كانت الحافز للمرينيين المتأخرين أن يختاروا الموضع مكانا لمرقدهم
الأخير .

ويمكن أن القباب الموحدية استمرت قائمة الأطلال ، فرمها هؤلاء
المرينيون وعدلوها ، ثم اتخذوها مقبرة ملكية عرفت بقباب بني مرين ،
واشتهرت بقعتها باسم « القلة » .

وهذا الاسم الأخير بدأ ذكره يتردد من النصف الثاني للمائة
الهجرية الثامنة ، فاعلن به ابن الخطيب ثم ابن الأحمر وابن السكالك (47) .

وحسب إشارة « نصيح ملوك الإسلام » (الأوسط) (48) كانت
قباب بني مرين ثلاث مشيدات :

(46) ورد هذا في تقييد مخطوط (خاص) لا يزال بحاجة إلى دراسة ، وهو يحمل اسم
« كتاب البستان » في الاعتبار وأخبار الزمان » ، وينسب لابن أبي زرع ، فيتناول
الأنساب وبعض الأخبار المغربية .

وللمقارنة مع الفقرة التي نعلق عليها ، نشير إلى فقرة مماثلة - في الجملة - وردت
في كتاب « فاس في عصر بني مرين » حسب الترجمة العربية ص 56 : « لقد أنشا
أحد سلاطين بني مرين - في وقت لا ندره بالضبط ، ولكنه لا يفصله عن الفترة التي
تحدث فيها إلا القليل من الزمن - منزها على التل المشرف على فاس البالي
- مباشرة - من جهة الشمال ، وقد سميت هذه - فيما بعد - قبور بني مرين ،
لأن مقبرة اخلت تحتل سفوح التل صريجيا ، أما في أول الأمر فلم يكن سوى منز
ومسجد لا تزال بعض أثاره قائمة » .

وقد ختمت الفقرة التي نعلق عليها بالإشارة إلى أيام المجاعة والوباء آخر عصر
الموحدين ، ونوضح - هنا - أن هذه المأساة امتدت عشرين عاما من 618 هـ حتى
637 ، حسب « روض القرطاس » ص 29 ، مع « جنى زهرة الأسي » المطبعة الملكية
ص 45 .

(47) انظر مصادر التطبيقين التاليين رقم 48 و 49 .

(48) مخطوط في نسخة فريدة أول مجموع : خ. ع. ك. 1256 - ص 100 ، وينسب لابن
السكالك : محمد بن أبي غالب المكناسي القبيل الفاسي الدار ، وهو مؤلف « نصيح
ملوك الإسلام » (الأصغر) المنشور بالمطبعة الحجرية الفاسية ، وانظر « سلسلة
الأنفاس » 3 / 166 - 167 .

— القبة العالية البناء التي تقابل المدينة القديمة ، وبها دفن
السلطان المريني أحمد بن أبي سالم .

ثم القبة الفخمة ، وهي مقابلة لسابقتها في مواجهة المدينة ، حيث
مدفن عبد العزيز الثاني بن أحمد بن أبي سالم .

الثالثة : يجعلها نفس المصدر في ناحية الأولى ، وهي ملحد أبي
عمر أخي عبد العزيز الثاني .

وهكذا افادتنا إشارة المصدر المنوه به ثلاثة أسماء الحدوا بهذه
المقبرة ، ونضيف لهم زمرة أخرى من دفناء القلة ، فيأتي — على رأس
القائمة — أبو سالم ، حيث كان أول سلطان مريني ذكرت مواراة جده
بهذه البقعة ، بعد مقتله عام 762 هـ (49) (1361 م) .

ثم الأميرة آمنة بنت أبي العباس أحمد بن أبي سالم (50) ، وهي
التي يضاف لها بستان آمنة بالقصر الملكي في فاس الجديد .

ومن الوزراء الوطاسيين ، علي بن يوسف (51) ، ويحيى بن عمر بن
زيان (52) ، ومحمد بوزكري دعي الحلو (53) .

ومن السعديين : عبد الملك المعتصم شهيد غزوة وادي
المخازن (54) ، حيث يتبين أن الدفن بالقلة استمر بعد انقراض دولة بني
مرين إلى أواسط عصر السعديين ، وهي ملاحظة أشار لها ابن القاضي (55)
فيذكر أن هذا التل « مدفن بني مرين وغيرهم من الملوك » .

-
- (49) « نفاسة الجراب » ص 276 ، مع « روضة النسر » ص 31 .
(50) سترد الإشارة إلى الوليقة التي تحدد مدفن الأميرة المرينية عند التطبيق رقم 57 .
(51) ابن القاضي في « جلوة الاقتباس » ع. 506 ، مع « درة الحجال » المطبعة الجديدة
بالبساط ع. 1262 .
(52) المصدران : « الجلوة » ع 616 ، و « الدرة » ع 1435 .
(53) « درة الحجال » ع 592 .
(54) « تاريخ الدولة السعدية » لمؤرخ مجهول الاسم ، المطبعة الجديدة بالرباط ، ص 66
(55) « جلوة الاقتباس » ع 166 .

وسيبقى - بعد هذا - استجلاء الوصف المعماري لمدافن بني مرين بالقلعة ، ولحسن الحظ فان الحسن الوزان الفاسي (56) ، حافظ على ملامح من بهاء مشيدات هذه المقابر قبل تراجعها ، فيذكر فخامة زينتها ، في زخارف باهرة على الأحجار والرخام ، الى كتابات منقوشة عليها منمقة بالوان زاهية ، تثير اعجاب وتقدير المتاملين فيها .

وبالاضافة الى ليون الافريقي نشير الى وثيقة تسجل وقف ربعة قرآنية على ضريح الاميرة آمنة المرينية آنفة الذكر . وتحدد الوثيقة موقع الضريح بأنه الذي بالقلعة من خارج فاس : على ان يقرأ في الربعة هنالك ، ويتبرك بها ، على عادة المصاحف المحبسة (57) .

وفائدة هذه الوثيقة انها تلقي الضياء على بعض مظاهر الاعتمار بهذه المشاهد المرينية ، وتذهب بالذهن الى انها قد تصاهي - في الاحتفال بها - واقع اضرحة شالة ، ((حيث الحسنات المكتتبة ، والقباب كالازهار ، مجودة بذكر الله آناء الليل واطراف النهار)) ، حسب ابن الخطيب في ((معيار الاختيار)) (58) .

وهو الذي يقول - ايضا - في مطلع رسالة (59) في الاتجاه ذاته :
((... حيث الجلال قد رست هضابه ، والملك قد كسيبت باستار

(56) « وصف افريقيا » ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن حميدة ، ومراجعة الدكتور علي عبد الواحد وافي ، نشر كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، عام 1399 هـ - ص 675 .
- « جغرافية المغرب في السنوات الاولى من القرن 16 م » نقلا عن كتاب وصف افريقيا لليون الافريقي ، تأليف المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون ، كتبه بالفرنسية ، وطبع في الجزائر سنة 1906 - ص 231 .

Maroc par prosper Ricard : 7 ème édition

Librairie Hachette 1950 p 347

(57) الوثيقة المنوه بها غير تامة ، والباقي منها قطعة مكتوبة - في صفحة واحدة - على جزء من ربعة قرآنية تجزئة 30 ، في 49 ورقة ، مسطرة 7 ، مقياس 280 / 250 سم ، مكتوبة بخط أندلسي مبسوط جميل عتيق ، وقد صارت الى خزانة جامع الاندلس بفاس ، ومنها الى خزانة القرويين ، حيث تحفظ بها تحت رقم 3 / 80 .
وكان وقوفي عليها ووصلها ضحوة يوم الثلاثاء 1 رجب 1388 - 24 شتنبر 1968 .

(58) « مطبعة احمد يمنسي » بفاس ص 42 .

(59) « نفائسة الجراب » ص 91 - 92 .

الكعبة قبابه ، والبيت العتيق قد ألحفت الملابس الامامية اثوابه ، والقرءان العزيز ترتل احزابه ... » .

والآن يصل بنا المطاف الى حاضر « قباب بني مرين » فى تل القلة، وقد سنحت الفرصة فوقفت عليها ضحى يوم الأحد 12 شوال 1384 - 14 فبراير 1965 ، حيث لم يتبق منها سوى اطلال لبنياتها الثلاثة فى وضع مربع :

اثنتان منها فى مواجهة فاس العتيق ، وسقف احدهما ساقط ، بينما الاسوار لا تزال شاخصة فى علو يشير الانتباه .

والشرقية منهما اكثر ارتفاعا : فى علو نحو 12 مترا ، ويتوج قوس بابها - فى اتجاه فاس - كتابة داخل اطار مستطيل ، يوازيها - من داخل القوس - بقايا نقوش على الجبس (كباقي الوشم فى ظاهر اليد) ، ويتخلل اعالي الجدران بعض النوافذ وآثار للسقوف ، ولها بابان متقابلان .

وامام باب البناية - الى الشمال الشرقي - يظهر اثر مدفن مغطى بالاجر ، وعلى مقربة منه مقبرة رخامية خالية من الكتابة ، كانها تشير الى مشهد جدت مرموق .

اما البناية الغربية فهي دون سابقتها فى الارتفاع ، وبداخل قوسها اثر زخرفة على الجبس .

بينما ينحدر عن هذه وسابقتها : بقايا البناية الثالثة فى علو متوسط، وهي تتجه الى الغرب فى مقابلة لمطة ، ويفطياها سقف سقط طرف يسير منه .

واستنادا لاشارات ابن السكاك السابقة ، قد تكون البنية الشرقية على ضريح احمد بن ابي سالم ، والبناية الغربية على مدفن عبد العزيز الثاني ، والثالثة على ملحد ابي عامر .

* * *

واسفل هذه القبة الأخيرة في مواجهة لمطة ، توجد اطلال بناية مربعة واطنة ، تقوم على أربعة اقواس سقط سقفها ، وتحيط بها بقايا سور يمتد الى مسافة طويلة ، وفي شرقيه - بعيدا منه - سور آخر ، وتعرف هذه البناية بـ « حمام الفولة » .

وقد ورد عند ابن عيشون (60) ذكر قبرين بهذه الجهة : لابي علي عمر بن سيد الناس ، وولده يوسف المتوفى عام 728 هـ (1328 م) .

وحدد نفس المصدر موقع المشهدين قائلا : « وهذان القبران بأعلى جبل القلة عن يسار المار في الطريق الى المصلى القديمة المرينية ، بمقابلة ما بين الحارتين ، وبهذه الروضة امانة السكنى ، وبها جب الماء ، وبها مسجد حسن ، وهذان القبران بازاء المحراب خارج المسجد مما يلي القبلة » (61) .

ونضيف لفقرة ابن عيشون اشارة وردت باحدى حوالات فاس القديمة (62) ، فيتكرر بها اسم « زاوية ابن سيد الناس » ، مع تعيين موقعها بانه خارج باب الجيسة .

ومن هذه الاشارة باضافة الفقرة قبلها ، يمكن ان نستنتج ان البناية التي نعلق عليها هي « زاوية ابن سيد الناس » ، ولما خربت وخلت من السكان بدا يتراءى بها خيالات غريبة ، فنسبت للجن واشتهرت باسم حمام الفولة .



(60) مخطوط « الروض الطير الانفاس ... » عند ترجمة المذكورين : ابي علي عمر بن سيد الناس وولده يوسف : وقد جاء ذكر الاب عند ابن مرزوق - لذا ترجمة ابي سعيد المريني الاول - في هذه الفقرة : « واحاديثه مع الصالح عمر بن سيد الناس شهيرة » حسب مقدمة « المسند الصحيح الحسن » .

(61) نقل هذه الفقرة وعلق عليها في « سلوة الانفاس » 3 / 164 .

(62) خ. ع. رقم 53 من قسم الحوالات الحبسية ، ص 288 و 310 .

الدار البيضاء :

جاء في « روض القرطاس » (63) ذكر بناء الدار البيضاء من البلد الجديد عام 686 هـ (1287 - 1288 م) ، وهنا يعلق البعض فيشير الى ان هذه هي دار الدبيغ التي يقال لها « الدار البيضاء » (64) .

وفي « العبر » (65) بعد ذكر السلطان المريني : ابي سعيد الاول :
« ... وانزل ابنه ابا الحسن بالدار البيضاء من قصوره » .

ثم استمر هذا الاسم معروفا الى عهد السعديين ، فورد ذكره خلال الحديث عن معركة ايام محمد الشيخ الثاني (66) .

وفي العصر العلوي يشيد السلطان عبد الله بن ابي الفداء قصرا بدار البيغ عام 1155 هـ (67) (1741 - 1742 م) .

فهل كان بناؤه على انقاض الدار البيضاء المرينية ؟ واذا صح هذا الافتراض فهو يحدد موقع هذه الدار على وجه التقريب ، حيث ان بقايا القصر العلوي هي التي كانت مقرا لادارتي المالية والمدفعية بفاس عام 1356 هـ (1937 م) وقت طبع « الدرر الفاخرة » (68) مصدر هذا التحديد .



-
- (63) الطبعة المتكررة الذكر ص 297 .
(64) التعليق وارد في قطعة مخطوطة من « روض القرطاس » بها زيادات على المطبوع ، مع تعليقات هامشية قصيرة ، ج. ع. 2152 ص 151 : فمن مجموع .
(65) 244 / 7 .
(66) « تاريخ الدولة السعدية » لمؤرخ مجهول الاسم ص 93 .
(27) « اتعاف اعلام الناس » لابن زيدان ، المطبعة الوطنية بالرباط 4 ، 425 .
(68) لابن زيدان ايضا : المطبعة الاقتصادية بالرباط ، ص 53 - 54 .

قصر رأس الماء :

اشار له كل من الجزنائي (69) وابن الأحمر (70) ، وكان العاهل
المريني أبو سعيد الأول أمر بتشيدته غربي فاس - على بعد 13 كم . -
عند الموضع المعروف بـ « رأس الماء » ، ليكون مشرفا على منابع وادي
الجواهر ، ثم لم يكتمل بناؤه بعد .

والغالب ان هذا القصر هو الذي لا تزال اطلاله قائمة على ربوة
بالمكان المشار له ، في بناية مربعة لها نوافذ تطل على منابع الوادي ،
غير ان معظمها صار - الآن - مغلقة ، ومن الجهة الخلفية يوجد باب كبير
كانه المدخل الرئيسي للقصر .

محمد المنوني

الرباط

-
- (69) « جنسى زهرة الاس » ص 34 .
(70) « نوصة النسرين » ص 20 .

ملحق بآخر المقال

توضيحات :

لعدد الترجمة بالمصدر المرقمة تراجمة	اشارة ع.
المطبعة الحجرية الفاسية	اشارة ط. ف.
الخزانة العامة : قسم حرف الدال	اشارة خ. ع، د
الخزانة العامة : قسم حرف الكاف	اشارة خ. ع، ك
الخزانة الملكية .	اشارة خ. م.

تذكر حالة المصدر - مخطوطا او مطبوعا - في الاحالة الاولى ، ولا يتكرر
ذلك اذا وردت احالات تالية .

الأبواب في الإندلس

-2-

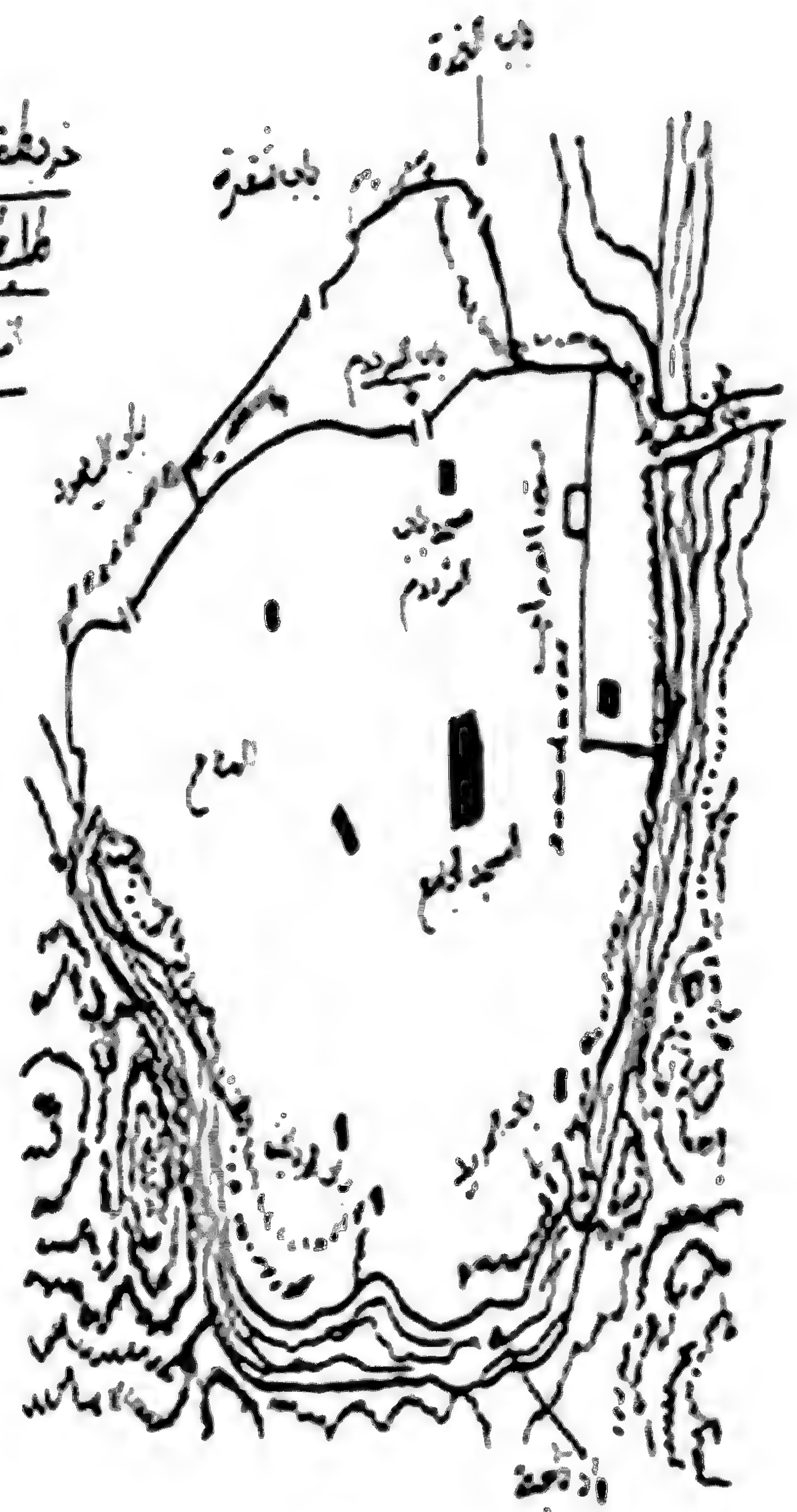
د. التهامي الراعي الهاشمي

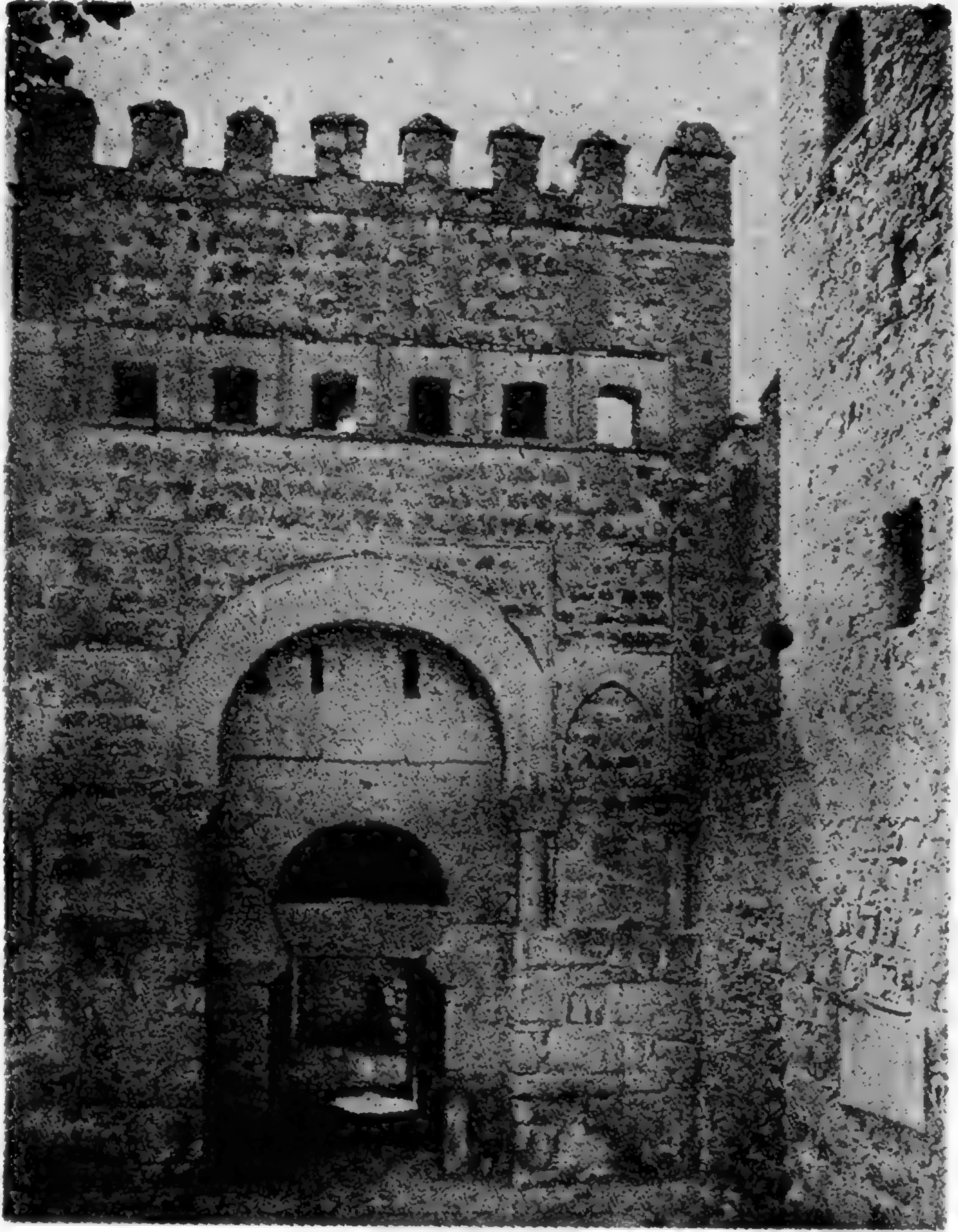
باب شقرة :

توجد هذه الباب بمدينة طليطلة : يعرف الاسبان اسمها فيقولون :
Puerta de Bisagra. لقد ارغم نهر التاجة الذي يكاد يحيط
بطليطلة من الجهات الرئيسية هذه المدينة على العيش داخل حدود معينة
لا تتعداها طيلة قرون عديدة . لذا كان لزاما على القاطنين عليها ، مدة هذه
الحقبة الطويلة ، ان يحافظوا على الاعمال العمرانية التي اقيمت للدفاع عن
المدينة ، مثل باب شقرا (انظر موقعها في الخريطة البيانية لمدينة
طليطلة المنشورة مع هذا البحث ، وكذلك الصورة الرائعة لهذه الباب
الجميلة التي ما تزال قائمة الى الآن - الرسمان 1 و 2) .

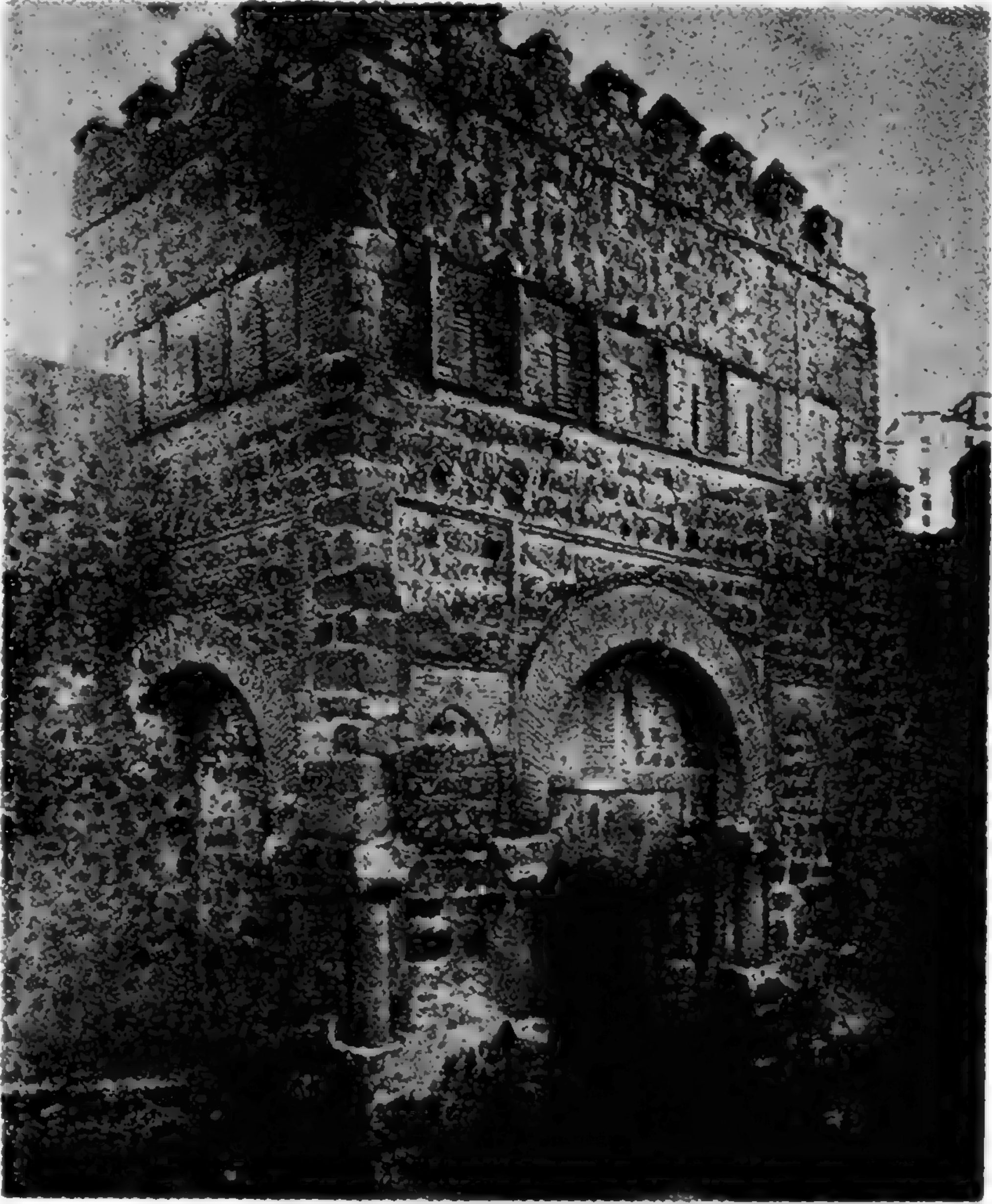
ويظهر بوضوح لمتأملها ان اجزاء هذه الباب السفلى تتكون من حجارة
كبيرة الحجم مما لا يترك مجالا للشك انها من صنع معماريين حربيين
مسلمين عاشوا في القرنين الحادي والثاني عشر الميلاديين ، وان اجزاءها
العليا التي تتكون ، على الخصوص ، من لبنات قد اعيد بناؤها من جديد ،

خريطة مدينة
المنيرة
المنيرة

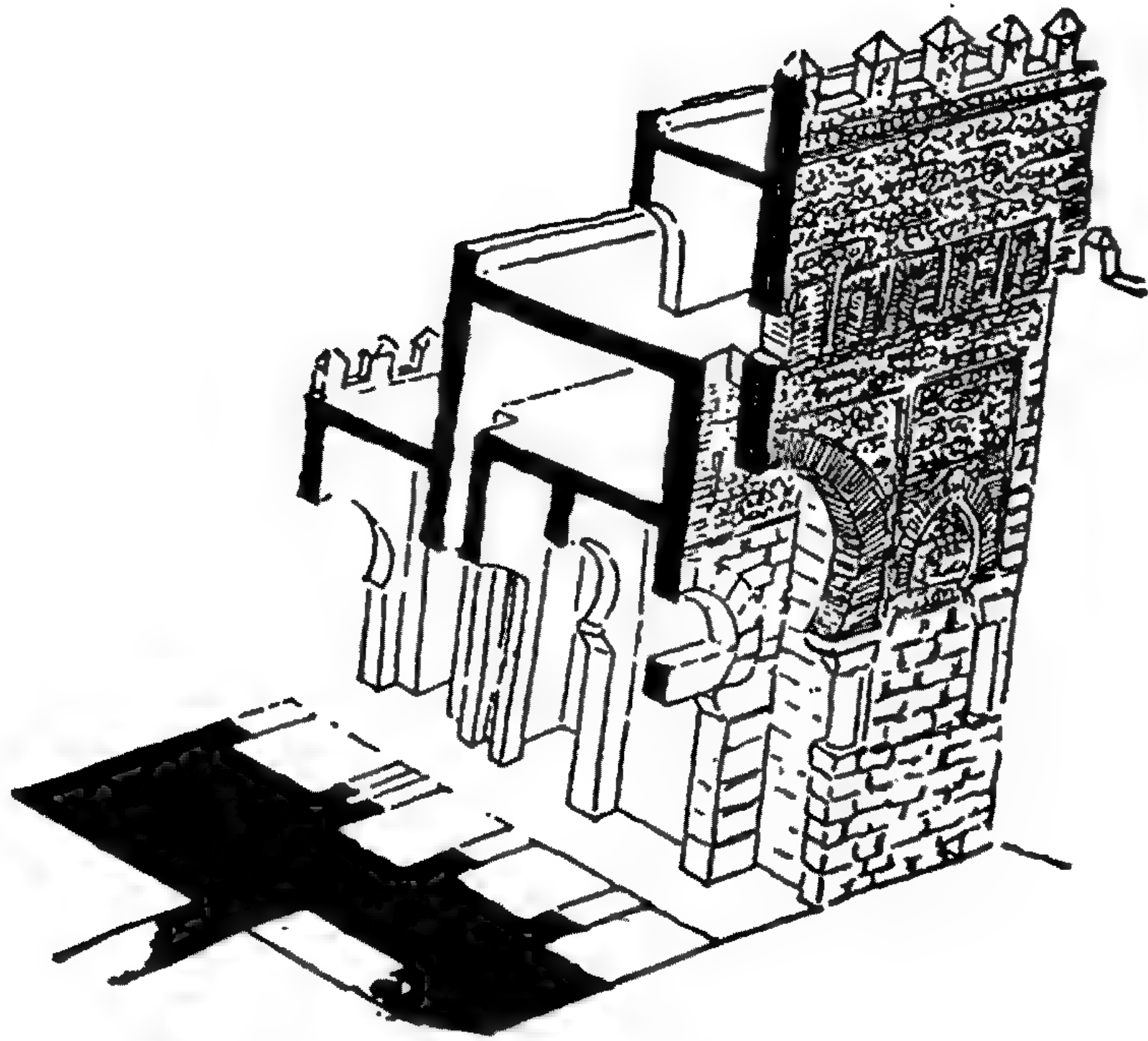




باب شقرة بطليطة



- طليطلة - باب شقرة - (اخذت من جهة اخرى)



طليطلة - باب شقراء

ذلك انها تمثل الفن المعماري المدخر الذي ساد هذه المنطقة في القرن الثالث عشر بعد الميلاد .

قال ابن سعيد المغربي : « واطنب الحجازي في وصفها (يقصد طليطلة) ووصفها بعظم الامتناع ، واحداق الشجر بها من كل جهة ، وانه كان يتفرج من باب شقراء في الجلنار الذي لم ير مثله ، اذ الجلنارة تقارب الرمانة . وفيها من ضروب التركيب والفلاحة ما تفضل به غيرها ، وابن البصان ، صاحب الفلاحة منها » (1) .

اول اشارة اشير بها الى هذه الباب التي تؤدي بالخارج من المدينة الى ناحية شقرة Sagra كانت سنة 400 هجرية (1009 - 1010 ميلادية) (2) .

باب الشطائين :

توجد هذه الباب بمدينة غرناطة . اشارت اليها رواية ابن الاحمر عن نهاية لسان الدين بن الخطيب بما ياتي : (3) « وقال حفيد السلطان ابن الاحمر في تاريخه ما صورته : لما لحق الرئيس ابو عبد الله ابن الخطيب بالمغرب عام اثنين وسبعين ، وكان من وفاة مجيره والمحامي عنه السلطان عبد العزيز ما المعنا بذكره ، شد الوزير ابو بكر ابن غازي يده على ابن الخطيب بانيا على اشد الاشياء الا يسلمه لمولانا جدنا مع توقع البفضاء ، واقتدى هذا الوزير بالسلطان عبد العزيز في اعراضه عن العقود الموجهة من الاندلس بالمقدع من مويقات ابن الخطيب ، ولج في الغلواء ، وسجل موجبات الوفاء ، والبواعث من مولانا جدنا تتزايد ، والاساطيل تتجهز ،

-
- (1) المغرب في حلى المغرب ، الجزء الاول ، صفحة 8 ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف .
(2) انظر « الصلة » لابن بشكوال ، صفحة 23 . اذكر ، انني بالنسبة لكتاب الصلة اعود الى طبعة Codera التي انجزت بمديرية في السنتين : 1882 و 1883 .
(3) نفع الطيب من فطن الاندلس الرطيب ، تحقيق الصديق الدكتور احسان عباس ، الجزء الخامس ، صفحة 108 .

والآراء بالقصد الخطير ينتقي منها الصواب ويتميز ، حتى خيم مولانا جدنا بظاهر جبل الفتح وكان اذ ذاك راجعا الى ايلة المغرب ، فاناح عليه كلكل الجيش ، واهمهم ثقل الوطاة ولم يبال مولانا جدنا بما ارسلت اثناء الليل واطراف النهار من شآبيب الانفاط ، والجوار من باب الشطائين قريب ، والخالصة من الثقات مستريب ، والنجاة من تلك الاهوال من الامر الغريب ، ولم يبق من غرناطة من له خلوص ، ولا من تتراعى به همة الا واعمل السير الحثيث ولحق بمولانا جدنا لحاق المحب بالحبيب .

باب الشمس :

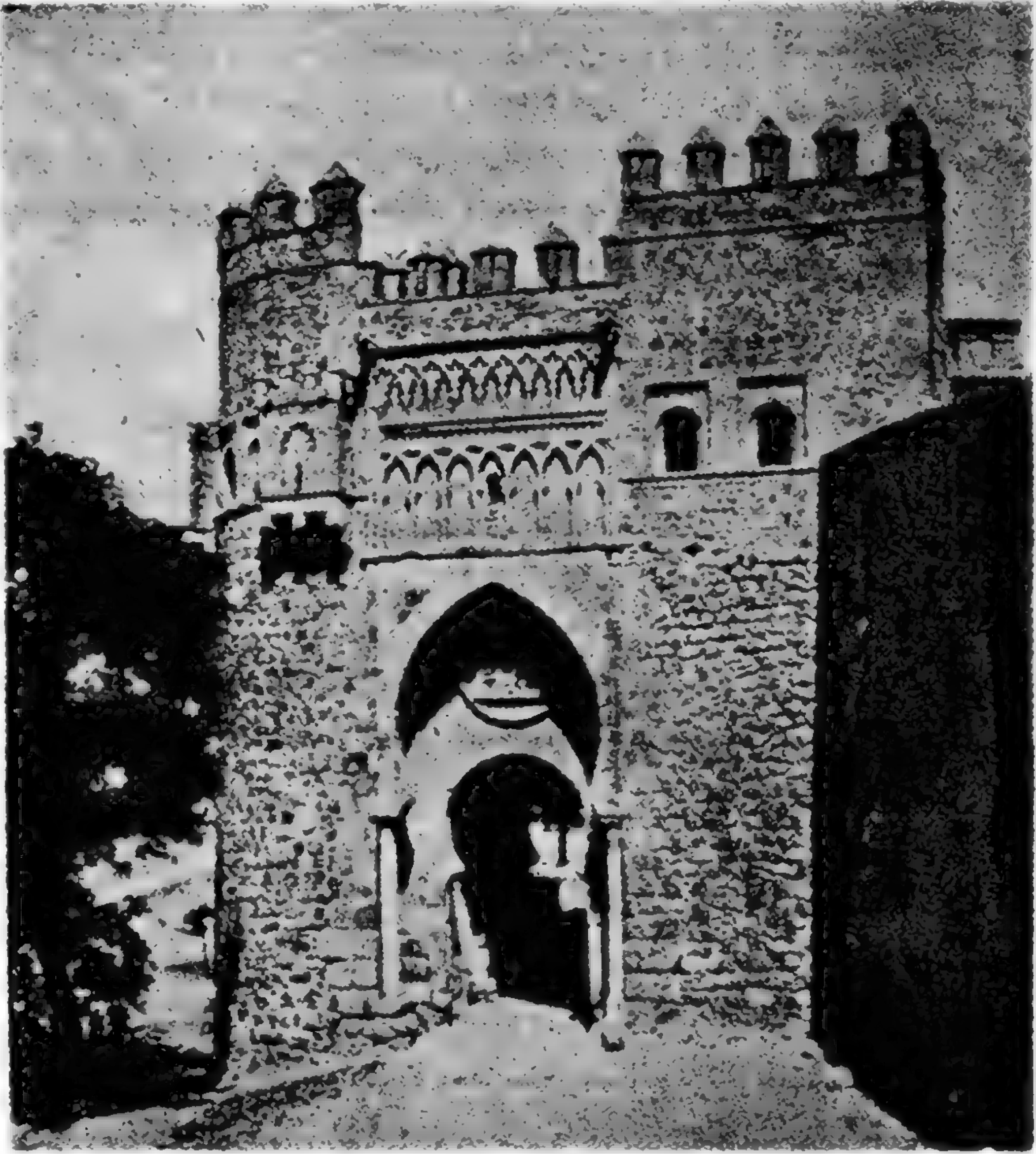
توجد هذه الباب بمدينة طليطلة ايضا . واعتقد ان هذه الباب لم تذكر في المراجع العربية التي بين ايدينا ، لانها : اولا من عصر فن المدخر ، ولانها ثانيا من بناء رئيس اساقفة طليطلة Pedro Tenorio (1375 - 1399) . كانت تعرف في بداية امرها بباب الحديد .

اعتقد ان التخطيطات الرئيسية لهذه الباب منقولة نقلا عن باب العدل التي تؤدي الى قصر الحمراء بغرناطة ، الا ان الممر تحت باب الشمس ، بخلاف ممر باب العدل غير مرفق (3) .

يسبق هذا الباب ، مثل ما يسبق باب شقرة السابقة الذكر انفتاح مقبب اكثر اتساعا من الباب نفسه ، كما نرى في الصورة المرفقة مع هذا البحث . واحب ان اشير الى ان هذه التسمية (باب الشمس) اخذتها من الاسم الاسباني الذي اطلق عليها بعد سقوط المدينة طبعاً في يد النصارى Puerta del Sol (4) .

(3) مكرر القصد ب « غير مرفق » انه ليس هناك اي انكسار في ممر الباب «non coudée»

(4) انظر : Mariategui, Arquitectura militar (El Arte en Espana) III p. 21 - 22



طليطلة - باب الشمس

باب الصباغين :

توجد هذه الباب بمدينة اشبيلية ، وهي مشهورة . وزادها شهرة ان قتل عندها مالك ولد المعتمد ابن عباد ، صاحب اشبيلية يوم دخول الملتمين المدينة ، رآه ابوه مطروحا بها .

واعتقد ان احسن من وصف هذه الحال هو المقرئ في كتابه نفح الطيب . قال : « وجهز ابن تاشفين القطائع لاشبيلية ، وجد في حصارها والمعتمد مع ذلك منغمس في لذاته ، وقد القى الامور بيد ابنه الرشيد فلم يشعر ابن عباد الا والعسكر معه في البلد ، فافاق من نومه ، وصحا من سكره ، وركب فرسه وحسامه في يده ، وليس عليه الا ثوب واحد ، فوافق العسكر قد دخل من باب الفرج ، ووافى هناك طبالا فضربه بسيفه ضربة قسمه بها نصفين ، ففر الناس امامه ، وتراموا من السور ، ووقف حتى بان الباب ، وفي ذلك يقول الابيات المذكورة فيما يأتي :

ان يسلب القوم العدا ... الخ .

فلما وصل الى باب الصباغين وجد ابنه مالكا مقتولا ، فاسترحم له ، ودخل القصر ، وزاد الامر بعد ذلك ... » (5) .

باب الصناعة :

اشرت الى هذه الباب حين تحدثت عن باب السدة . وكنت قلت آنذاك انها توجد في قصر قرطبة الاسلامية (6) ، وانها كانت مغلقة لا يدخل

(5) انظر نفح الطيب ، الجزء الرابع ، صفحة 247 .

(6) راجع انن باب السدة من هذا البحث وكذلك ازهار الرياض في اخبار القاضي مياض ، الجزء الثاني صفحة 285 ونفح الطيب الجزء الاول ، صفحة 378 .

منها الناس رغم قربها من المسجد الذي كان يصلي فيه كبير علماء المالكية
في ذلك العهد ، ابو ابراهيم ، ويلقي فيه الدروس على الطلبة (7) .

باب الصومعة :

باب بقرطبة مشهور ؛ اقترنت شهرته بشهرة الوزير ابن عامر احمد
ابن عبد الملك بن شهيد الاشجعي وباخباره . ومن الطف الاخبار التي
جمعت بين ذكر هذا الباب والوزير ابي عامر هذا ما حكاه لنا المقرئ .
قال (8) :

« واخبرني الوزير ابو الحسن بن سراج - وهو بمنزل ابن شهيد -
وكان من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة في اعلى مراتب
التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرابه ، ولا نغيب عن بابه ، وكان له بباب
الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه اكثر نهاره ، ولا يخليه من ثمر دبره
وازهاره ، فقص في ليلة 27 من رمضان في لمة من اخوانه ، وائمة
سلوانه ، وقد حفوا به ليقطفوا نخب ادبه ، وهو يخلط لهم الجد بهزل ،
ولا يفرط في انبساط مشتهر ولا انقباض جزل ، واذا بجارية من اعيان
قرطبة معها من جواربها ، من يسترها ويواربها ، وهي ترتاد موضعا لمناجاة
ربها ، وتبتغي منزلا لاستغفار ذنبها ، وهي متنقبة ، خائفة ممن يرقبها
مترقبة ، وامامها طفل لها كانه غصن آس ، او ظبي بمرح في كنس ، فلما
وقعت عينها على ابي عامر ولت سريعة ، وتولت مروعة ، خائفة ان يشبب
بها ، او يشهرها باسمها » .

(7) ان لا ادعي انني ساذكر ابواب الاندلس جميعها وفي قصر الزهراء بقرطبة فقط ما ينيف
على خمسة عشر الف باب حسب ما يحكيه المؤرخ ابو مروان بن حيان . قال المقرئ :
« وذكر المؤرخ ابو مروان بن حيان صاحب الشرطة ، ان مباني قصر الزهراء اشتملت
على اربعة آلاف سارية ، ما بين كبيرة وصغيرة ، حاملة ومحمولة ، ونيف على ثلاث
مائة سارية زائدة ؛ وفسر بعضهم هذا النيف بثلاث عشرة ، منها ما جلب من مدينة
رومة ، ومنها ما اهداه صاحب القسطنطينية ؛ وان مصاريع ابوابها ، صغارها وكبارها ،
كانت تنيف على خمسة عشر الف باب ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه ، والله
اعلم ، فانها كانت بين اهل ما بناء الانس ، واجله خطرا ، واعظمه شائنا » .
(انظر ازهار الرياض ، الجزء الثاني ، صفحة 268 ، ابتداء من السطر التاسع) .

(8) انظر نفع الطيب ، الجزء الاول ، صفحة 622 .

باب الصورة :

توجد هذه الباب في قرطبة ايضا . ولا شك ان هذه التسمية اتتها من ذلك التمثال الذي كان في واجهتها . ولنا يسميها الاسبان ب :
Puerta de la Estatua (9) .

باب طلبيرة :

توجد هذه الباب بقرطبة ، عاصمة الخلافة الاندلسية بالاندلس Puerta de Talavera . وكانت توجد في السور الذي كان يحيط بالمدينة . والمقصود بالمدينة هنا الحي القريب من الوادي (Guadalquivir) وهو الحي الذي كان يشتمل على المسجد الكبير وقصر الخليفة ، تحيط به المتاجر والمخازن التي تكون قيسارية قرطبة (10) . اما الاحياء التي توجد خارج هذا السور فتسمى ، كما سبقت الاشارة الى ذلك مرارا وباضا ، وهي اللفظة التي ما زالت مستعملة في اللغة الاسبانية (11) . وكان الاندلسيون يسمون مجموع الارياض « جوانب » .

قال المقرئ نقلا عن ابن بشكوال : « وذكر ابن بشكوال رحمه الله ان ابواب قرطبة سبعة ابواب (12) ، باب القنطرة الى جهة القبلة ويعرف باب

(9) بيان المغرب ، صفحة 14 من الطبعة التي انجزها Levi-Provençal وطبعت ببائس سنة 1930 م .

(10) كانت هذه القيسارية قريبة من الحائط القبلي للمسجد الكبير . ما زلنا نشاهد في الخريطة التي انجزها سنة 1811 كل من المهندس Minas Baron de Karvinakj والمهندس Dr Joaquin Rillo ساحة في الطريق الموازية للنهر تحمل اسم Plaza de Alcayceria سمي هذان المهندسان خريطتهما بـ Plan topografica de la Cuidad de Cordoba امساح السيد Orti Belmonte طبع هذه الخريطة برعاية اكلمية قرطبية سنة 1930 في كتاب سماه « قرطبة خلال حرب التحرير »

(11) يقول الاسبان فيها Arrabal ، وسماها الساكن في السواحي Arrabalero الذي يطلقونه على الشخص غير المهذب ، الفظ .

(12) ذكر نفس هذا العدد المؤرخ ابو الفداء - انظر « تقويم البلدان » من صفحة 174 الى صفحة 249 .

الوادي ، وباب الجزيرة الخضراء وهو على النهر ، وباب الحديد ويعرف
بباب سرقسطة ، وباب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة ، وباب رومية
وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة فانس الى
قرمونة الى قرطبة الى سرقسطة الى طركونة الى اربونة مارة في الأرض
الكبيرة ، ثم باب طليطلة ، وهو ايضا باب ليون ، ثم باب عامر القرشي
وقدame المقبرة المنسوبة اليه ، ثم باب الجوز ويعرف بباب بطليوس ، ثم
باب العطارين ، وهو باب اشبيلية » .

باب الطوابين :

يسمى الاسبان هذا الباب ب : Bibataubin

كنت ، حين تحدثت على باب بفاف ذكرت التقسيم الذي اعطاه لنا ابن
فضل الله العمري لمدينة غرناطة ، وكنا راينا انها تنقسم الى اربعة ارباض،
ثالثها رباط الفخارين الذي يحتوي على باب الطوابين . كما كان يحتوي
هذا الرباط على باب اخرى كانت تملكها زوجة ابي عبد الله ، اعتقد انها
كانت في المكان الذي يحمل الآن اسما عربيا محرفا هو Bibalachar
وهو اسم يطلق ايضا على زنقة توجد قريب حارة المنجرة الى

Almanjarra Meyor

فان كنت الآن في زقاق Elvira وواصلت السير مارا بشارع
San Matias الذي كان يسمى آنذاك Axibln (لعله تحريف لفظة
عشابين) ، خرجت من المدينة بباب الطوابين . والطوابون كما هو معلوم ،
هم Los ladrilleros

باب القرشي :

توجد باب عامر القرشي في قرطبة (13) . فتحت هذه الباب في
سور هذه المدينة وبالصبط في غربها لتكون منفذا لمقبرة تحمل هي ايضا

(13) انظر الحلة لاسن الابار الصلحتين : 52 و 53 . وكذا مقال صديقي
Ocana Jimenez, Manuel المنشور في مجلة Al-Andalus العدد الثالث
سنة 1935 ، صفحة 143 . عنوان هذا المقال هو :
Los puertas de la Medina de Cordoba

مقبرة عامر القرشي . وعامر القرشي هو عامر بن عمرو القرشي العبدي
أحد رجالات قریش بالاندلس شرفا ونجدة وأدبا (14) . قتله يوسف بن
عبد الرحمن الفهري مع ابنه وهب بوادي الرمل على خمسين ميلا من
طليطلة سنة 138 هجرية (755 ميلادية) .

يخبرنا أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي أن
الفقيه الزاهد ، الصالح العادل أحمد بن علي بن محمد الأنصاري الأوسي
دفن سنة 607 هجرية خارج باب عامر (15) .

باب عبد :

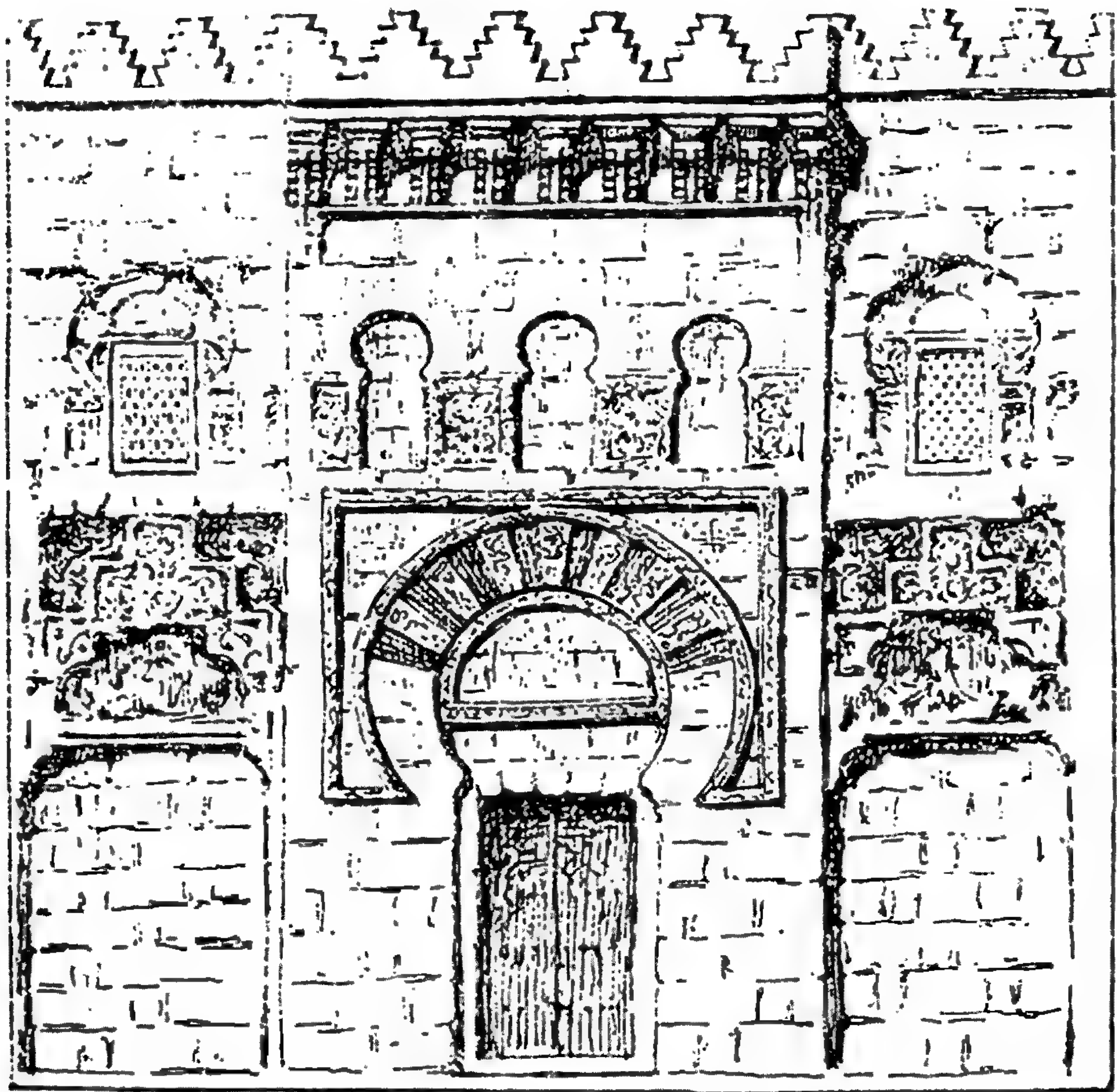
توجد هذه الباب بقرطبة . لم أشر عليها مذكورة إلا في قصيدة أبي
القاسم عامر بن هشام القرطبي (16) التي أنشدتها حين رقت حاله بقرطبة
وزين له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدين مراکش ؛ جاء
فيها : (انظر صورة باب عبد الرحمن الثاني) :

فظلت الثم من تعظيم حقكم	مجر اذبالها والوجد يفريني
مسارح كم بها سرحت من كمد	قلبي وطرفي ولا سلوان يثيني
بين المصلى إلى وادي العقيق وما	يزال مثل اسمه مذ بان يبكييني
إلى الرصافة فالمرج النضير فوا	ديالدير فالعطف من بطحاء عبدون
ل باب عبد سقته السحب وإبلها	فلم يزل بكؤوس الأنس يسقييني
لا باعد الله عيني عن منازلها	ولا يقرب لها أبواب جيرون

(14) انظر ترجمته في الحلة السيرة ، صفحة 52 .

(15) انظر كتاب الدليل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق الزميل الدكتور محمد
بين شريفة ، صفحة 327 ، طبعة دار الثقافة ، بيروت .

(16) ترجم له ابن الأبار في التكملة ، صفحة 693 ، كما نجد له بعض الإشارات المتعلقة
به في « المغرب في حلى المغرب » ، الجزء الأول ، صفحة 75 .



قرصبة - باب عبد الرحمن الثاني

باب عبالس

توجد هذه الباب ، حسب ابن الأبار في مدينة قرطبة ، وهي التي تؤدي إلى المقبرة التي تحمل نفس الاسم وإلى ذلك الجزء من مقبرة المسلمين الذي يعرف عادة بمقبرة السقايا ، وهي قريبة من منزل أهل هابل . (17) .

باب عبد الجبار :

ذكر هذه الباب محمد بن أيوب بن غالب (18) في كتابه « فرحة الأنفس » (19) فقال (20) : « ومنها الرصيف المشهور بالاندلس ، قال في بعض أخبار رومية : أنه لما ولي يوليش المعروف بجاشر ، وابتدأ بتوزيع الأرض وتكسيورها ، كان ابتداءه بذلك من مدينة رومية إلى المشرق منها وإلى المغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب ، ثم بدأ بفرش المبلطة ، وأقبل بها على وسط دائرة الأرض إلى أن بلغ بها أرض الاندلس وركزها شرقي قرطبة ببابها المتظام المعروف بباب عبد الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلي قرطبة إلى شقننة إلى أستجة إلى قرمونة إلى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية ، وذكر أنه أراد تشقيفها في بعض الأماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف هـول الشتاء » (21) .

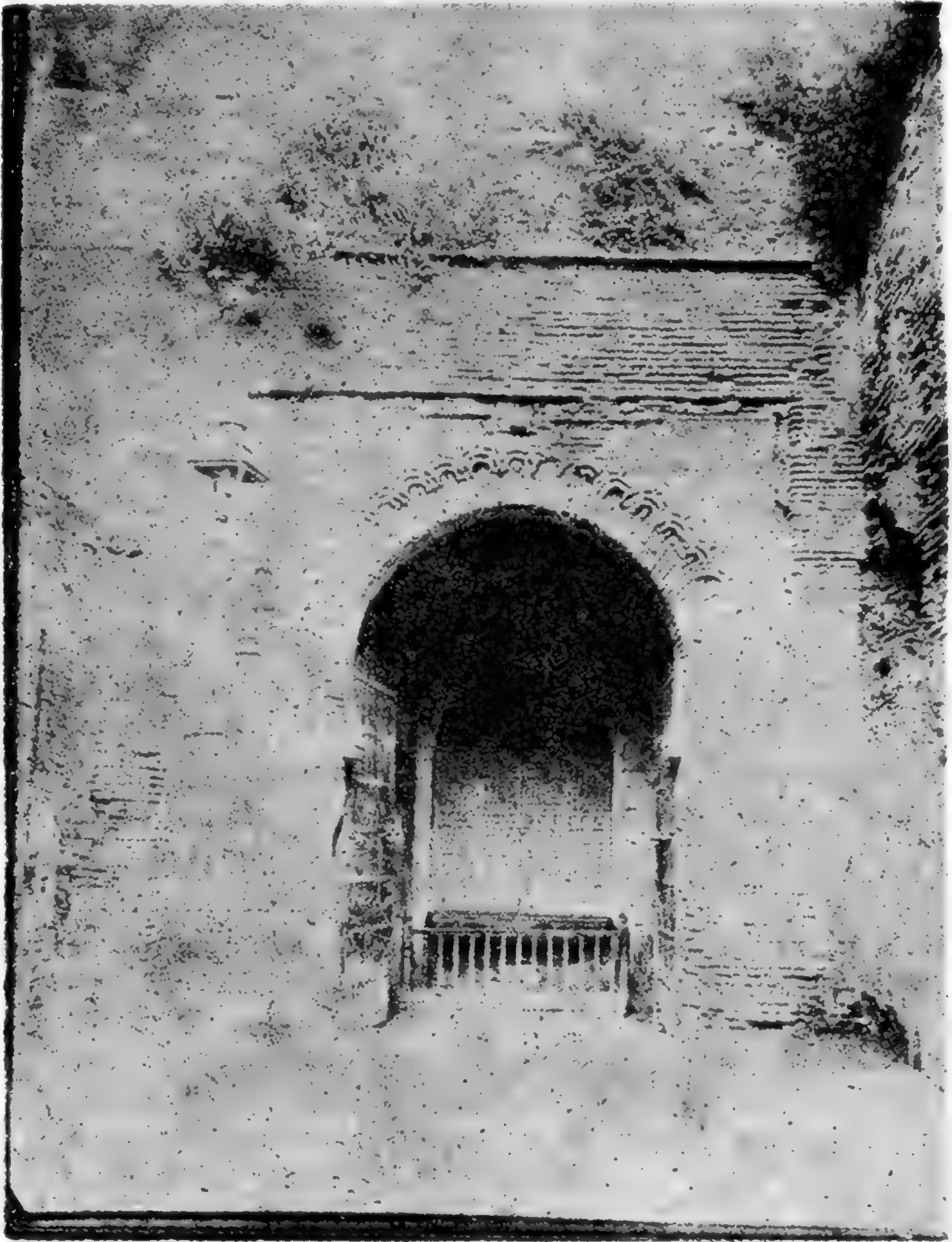
(17) انظر « التكملة » رقم الترجمة 2029 من طبعة مدريد ، وكذا كتاب *Histoire d'Espagne Musulmane* لمؤلفه Lévi-Provençal ص 380 من الجزء الثالث .

(18) هو محمد بن أيوب بن غالب صاحب كتاب « فرحة الأنس » الذي ينقل عنه المقرئ كثيرًا .

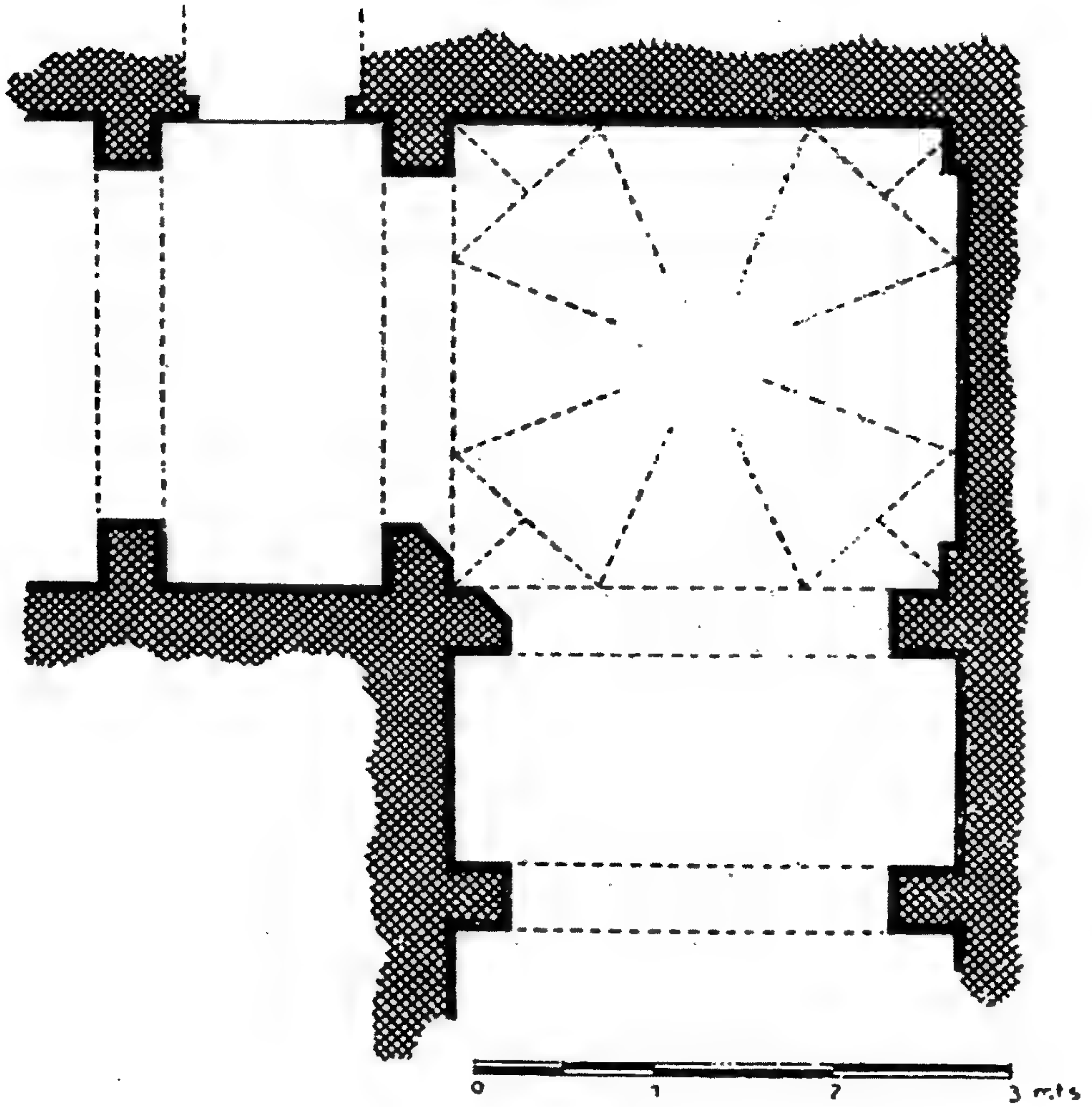
(19) بقيت من هذا الكتاب قطعة نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات في الجزء الأول ، من صفحة 272 إلى صفحة 310 .

(20) انظر « فرحة الأنفس » صفحة 281 .

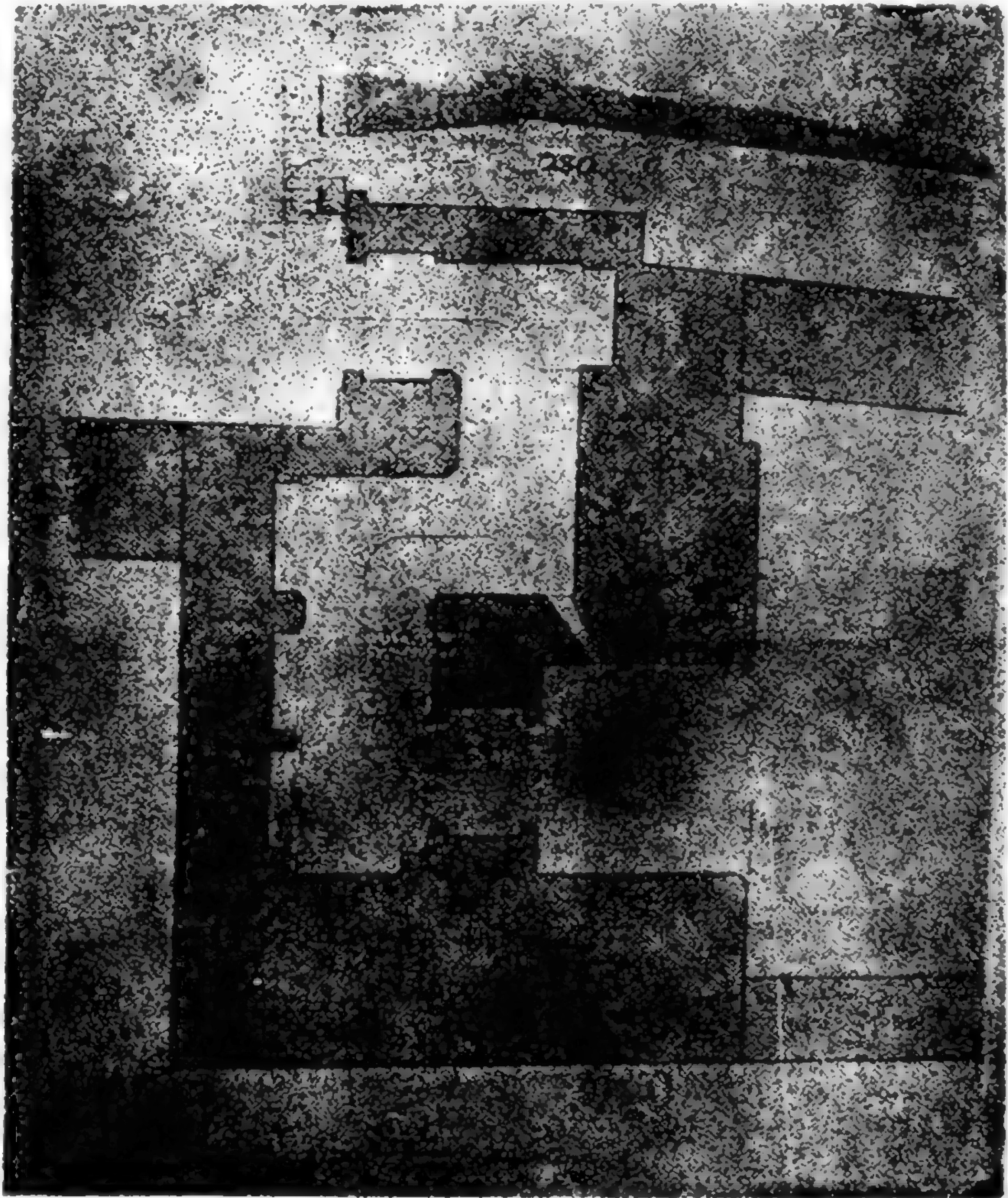
(21) وانظر كذلك « نفع الطيب » الجزء الأول ، صفحة 203 .



باب العبد



مخطط الباب المؤدية الى القصر الاشبيلي من جهة الملاح



مخطط باب المدخل في قصر الحمراء بقرطاجنة

باب المعدل :

توجد هذه الباب بقصر الحمراء بقرطبة (انظر مخططها وصورة رائعة لها مع هذا البحث) . وهي باب بنيت كلها ، كما نشاهد في الصورة بالاجرات .

باب المطارين :

توجد باب المطارين (Puerta de los drogaderos o especieros) بقرطبة . واعتقد أنها كانت توجد بهذه المدينة شرقي رياض الرقاقين Arrabal de los Pergamineros وحارة الرقاقين (22) barrio de las Pergamineros وهذه هي الباب السابعة في تعداد ابن بشكوال ، الذي قال عنها : « ثم باب المطارين وهو باب اشبيلية » وهو غير الباب الموجودة في طليطلة (23) .

وكان يوجد بجانب هذه الباب قصر جميل يسمى بقصر البستان ، كانت تعقد فيه مجالس اللهو والقصف . قال الفتح بن خاقان مشيرا الى ذلك : « فبينما هم يتعاطونها (24) صفارا وكبارا ، ويدبرونها انسا واعتبارا ، اذ برسول المعتمد قد وافاهم برقعة مكتوب فيها :

حسد القصر فيكم الزهراء ولعمري وعمركم ما اساء
قد طلعت بها شموسا صباحا فاطلعوا عندنا بدورا مساء

(22) انظر المقرئ - نفع الطيب (Analectes) طبعة Dozy بـ Leiden سنة 1856 ، صفحة 304 من الجزء الاول . وكذا الصلة لابن بشكوال طبعة Codera بمadrid سنة 1902 ، الصلحتين 15 و 573 .
(23) انظر نفع الطيب ، الجزء الاول ، صفحة 465 ، السطر 14 .
(24) يقصد كلوس الخمر ، فقد قال قبل : « ويتبدلون الفصون بجنى وهصر ، ويتوفلون (اي ينتقلون) في تلك الفرات ، ويتعاطون الكلوس بين تلك الشرفات ... »

فصاروا إلى قصر البستان بباب العطارين ، فالقوا مجلسا قد حار فيه الوصف ، واحشند فيه اللهو والقصف ، وتوقدت نجوم مداامه ، وتاودت قدود خدامه ، ورأى على الخورنق والسدير ، وأبدى صفحة من أضرار المدير » (25) .

باب العقاب :

هذه باب من ابواب مدينة المرية ، وكان عليها ، كما يقول المقرئ (26) ، صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر (27) .

باب الفدر :

هذه الباب هي الباب (28) التي تسمى أيضا باب سبع اراض . وقد سبق ان قلنا عنها انها موجودة في قصر الحمراء . وهي من فن مملكة غرناطة الذي كان ما يزال يستعمل الفن المعماري القديم الحارص على تنويع الابواب المهمة بروج . ولا شك ان هذا الفن المعماري كان يحاول ان يقلد الفن الموحد .

كان لهذا الباب سرادب بمنعطفين يمر بين برجين مربعين يؤديان إلى الخندق . وكان يوجد على البرجين غرف مربعة نسبهما كما نسب الممر بأكمله الفرنسيون عند مغادرتهم لغرناطة سنة 1812 م .

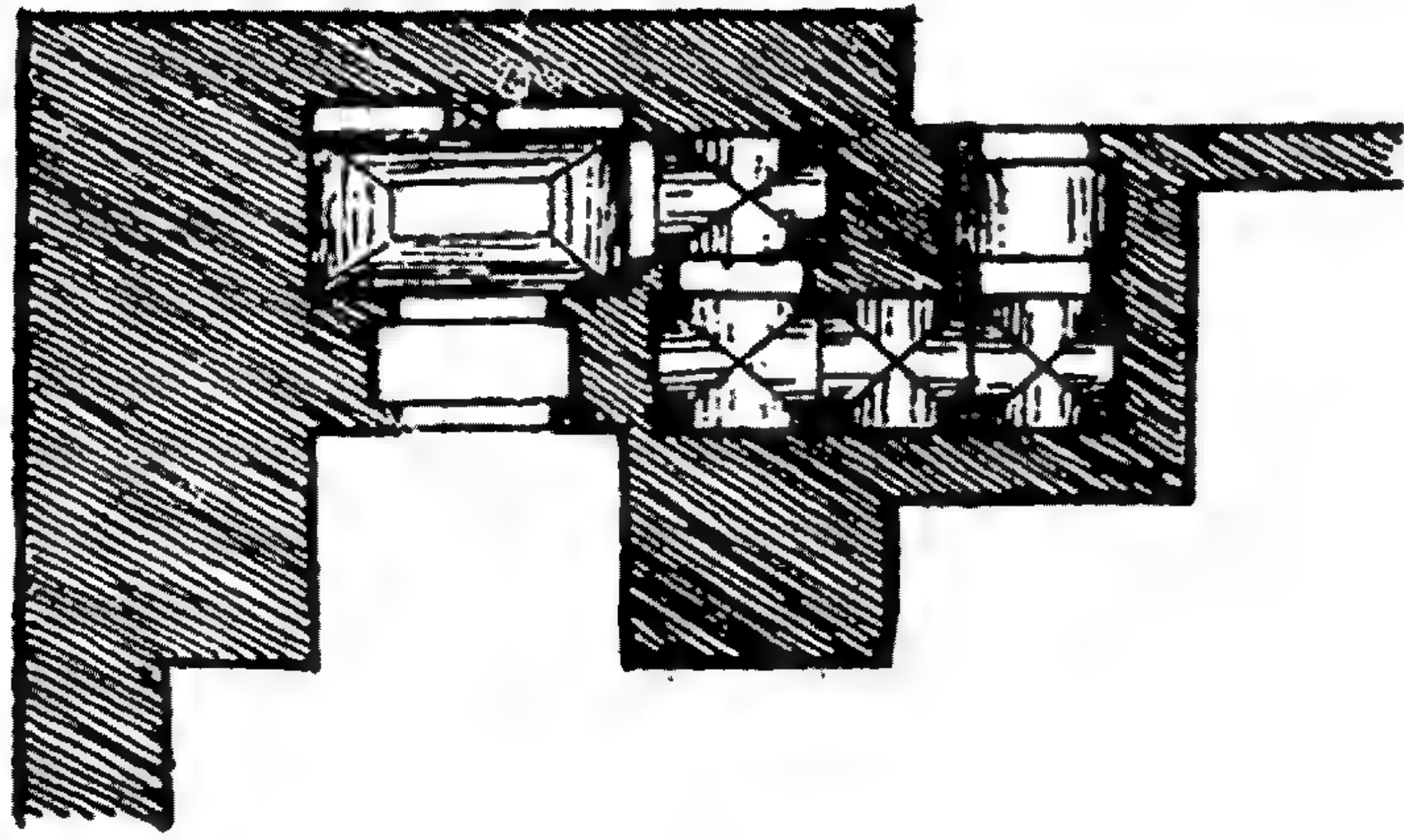
(25) . فلان العيان ، صفحة 10 من طبعة بولاق 1283 .

(26) . نفع الطيب ، الجزء الاول ، صفحة 162 ، آخرها .

(27) . انظر كتاب : The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, by Ahmed Ibn Mohammed Al-Makkari

لصاحبه Pascual de Gayangos طبعة لندن سنة 1843 .

(28) . يجمع الفدر على فدر (بضمتين) وفدر (بضم فسكون) وفدران وفطرة .



غرناقمة - باب الصدل تقصر الحصار
(مخطط آخر)

باب الفتح :

كانت باب الفتح La Puerta de la Victoria موجودة في مدينة الزاهرة قرب مدينة قرطبة .

باب الفتح :

كانت باب الفتح موجودة أيضا في مدينة الزاهرة حسب المؤرخ الفرنسي Levi Provençal (29) .

باب فحص اللوزة :

كان الاسبان يسمون باب فحص اللوزة ب La Puerta de Fajalauza محرفين اللفظة العربية الى لغتهم . ثم أطلقوا عليها فيما بعد ، تخلصا من لغة الفاتح La Puerta del Collado de los Almendros كانت هذه الباب توجد في غرناطة . ومنها كان يخرج الزائر الى تلك الحدائق الرائعة التي كانت تسمى عند العرب عين الدمع والتي حرفها الاسبان الى Alnadamar

كانت هذه المنتزهات مقامة على السفح الغربي للكدي المجاورة . لقد اثنى ابن بطوطة الثناء العاطر على هذه البساتين ، كما ان ابن الخطيب خصها بوصف رائع (30) .

يخبرنا Luis Marmol Carvajal ان سكان غرناطة من المسلمين كانوا يخرجون من هذا الباب ليقيموا طيلة شهر فصل الربيع الثلاثة في بساتين عين الدمع (31) .

(29) انظر : La péninsule Ibérique صفحة 214 .

(30) الإحاطة ، الجزء الاول ، صفحة 24 و صفحة 25 .

(31) انظر : Historia de la rebelion del Moriscos للإله Luis Marmol Carvajal الجزء الاول ، صفحة 35 .

باب الفخارين :

توجد باب الفخارين La Puerta de los Alfareros
في غرناطة كما يخبرنا بذلك غير واحد (32) .

كانت هذه الباب توجد بهذه المدينة في المكان الذي يسمى الآن
el Realejo ، لانه كان ، ولا شك ملكا خاصا لملوك غرناطة
الذين كانوا يقضون فيه ، حسب ما يخبرنا Marmol الصيف .

وكان يتاخم هذه الباب ((المنجرة الكبرى)) التي كانت في آخر
القرن الخامس عشر في ملك الملكة حرة ام الملك ابي عبد الله (33) .

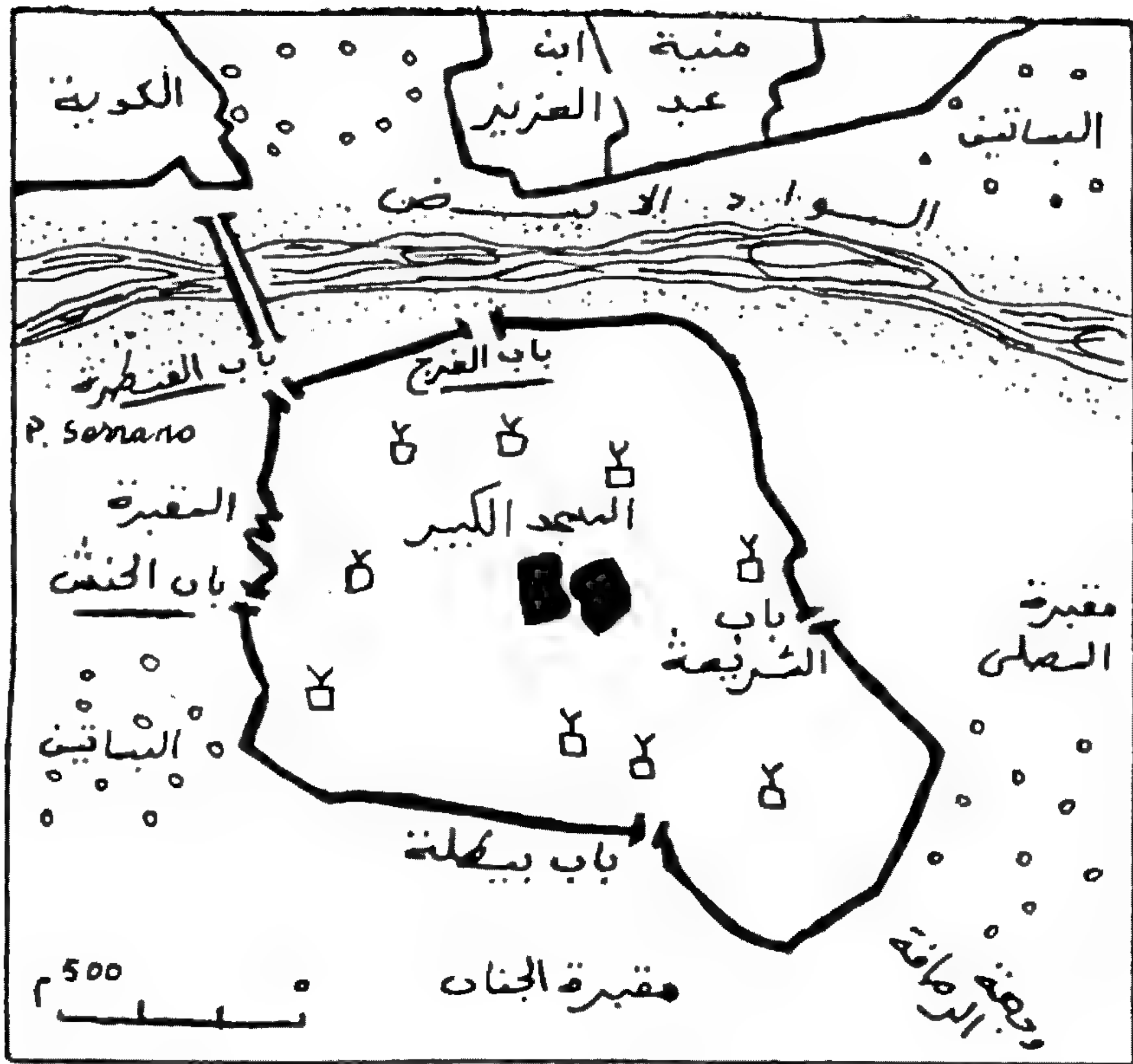
باب الفرج :

هذه باب من ابواب مرسية ، حسب ما ورد في التكملة (34) كما انها
باب مشهورة باشبيلية . لقد ذكر هذه الباب المراكشي في مستهل القرن
الثالث عشر الميلادي . كما ذكرها المقرئ في ذلك الوصف الرائع الذي
اعطاه للساعات الاخيرة لحكم المعتمد اشبيلية . قال : ((... شرع ابن
تاشفين في خلع ملوك الاندلس وقتالهم ، وارسل الى كل مملكة جماعة من
اهل دولته واجناده يحاصرونها ، وارسل الى حضرة المعتمد اشبيلية ،
وشرع في قتالها ، والناس قد ملوا الدولة العبادية وسئموها ، على ما

(32) العمري مثلا في مسالك الابصار ، صفحة 230 ، الاضافة ، الجزء الاول ، صفحة 1
وكندا Luis Seco de Lucena Paredes في كتابه
De Toponimia Granadina طبعة 1951 ، صفحة 62 .

(33) لاحظ السكان المجاورون لهذه البساتين ان وثيقة 5 أبريل 1492 تنص على ان
الملوك المسيحيين منحوا هذه الرياض الى الراهب Tomas de Torquemada
لتكون في عداد الولف التابع لـ Santa Cruz la Real ولـ Santo Domingo
انظر مزيدا من التفصيل في الكتاب Los alquezars de Santa Fe
لصاحبه Miguel Garrido Atienza الصلحتين 60 و 61 طبعة غرناطة
1893 .

(34) التكملة لكتاب الصلة ، الجزء الثاني ، صفحة 505 . يوجد قرب هذا الباب مسجد
كان يؤم فيه الفقيه محمد بن حارث بن محمد بن فيدة بن حيون بن سكرة الصدي .



رسم بياني لمدينة بلنسية الإسلامية . يظهر باب الفرج
وباب القنطرة وباب الحنش وباب الشريعة وباب بيكخانه

جرت به العادة من حب الجديد ، لا سيما وقد ظهر من ابن عباد من التهلك
فى الشرب والملاهي ما لا يخفى امره ، فتمنى اكثر الناس الراحة من
دولتهم ، ولما اشتد مخنق المعتمد وجه عن النصارى ، فاعدلهم ابن
تاشفين من قتيهم فى الطريق ، فهزمهم ، وجهاز ابن تاشفين القطنع
لاشبيلية ، وجد فى حصارها ، والمعتمد منغمس فى لذاته ، وقد القى
الامور بيد ابنه الرشيد ، فلم يشعر ابن عباد الا والعسكر معه فى البلد ،
فوافق من نومه ، وصحا من سكره ، وركب فرسه وحسامه فى يده ،
وليس عليه الا ثوب واحد ، فوافق العسكر قد دخل من باب الفرج ،
ووافى هناك طبالا فضربه بسيفه ضربة قسمة بها نصفين ، ففر الناس
امامه ، وتراموا من السور ، ووقف حتى بان الباب « (35) .

اما الباب الكائنة فى مرسية والتي اشار اليها ابن الابار (36) ،
فكانت موجودة قرب مسجد بن سكرة الصوفي (37) .

باب القبلة :

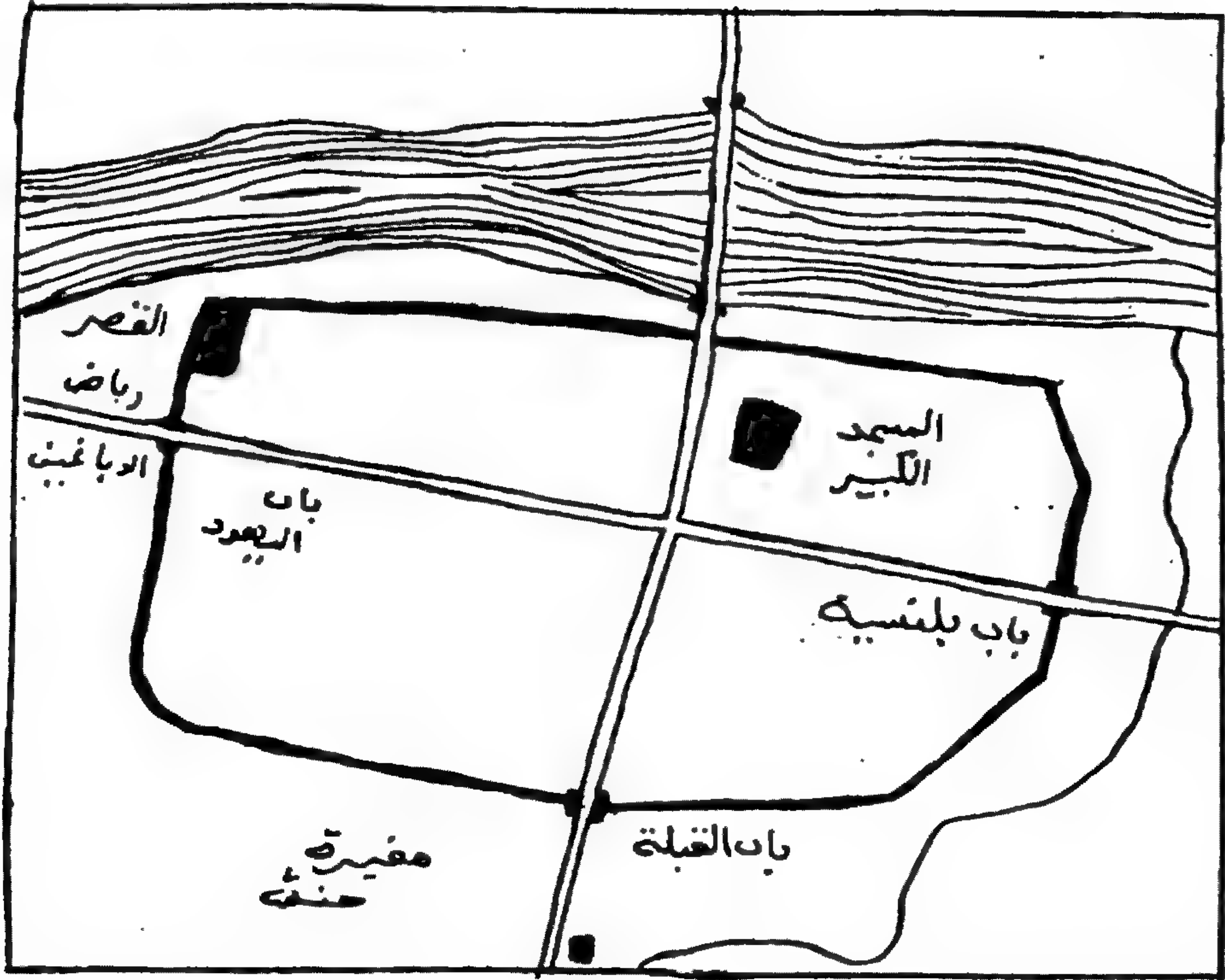
توجد هذه الباب فى كل من سرقسطة (38) ووشقة . اما التي فى
وشقة ، فكانت تعرف بهذا الاسم فى سنة 1189 . اما التي فى سرقسطة
فكان الناس يستعملونها للخروج الى المقبرة المجاورة لها والتي كانت
تعرف بمقبرة باب القبلة . تلك المقبرة التي دفن فيها ، سنة 493 هجرية،
ابو الحزم ابن هاشم العبدي الذي شهد المستعين جنازته ومشى امامها
راجلا من داره الى قبره .

(35) نفع الطيب ، الجزء الرابع ، صفحة 247 .

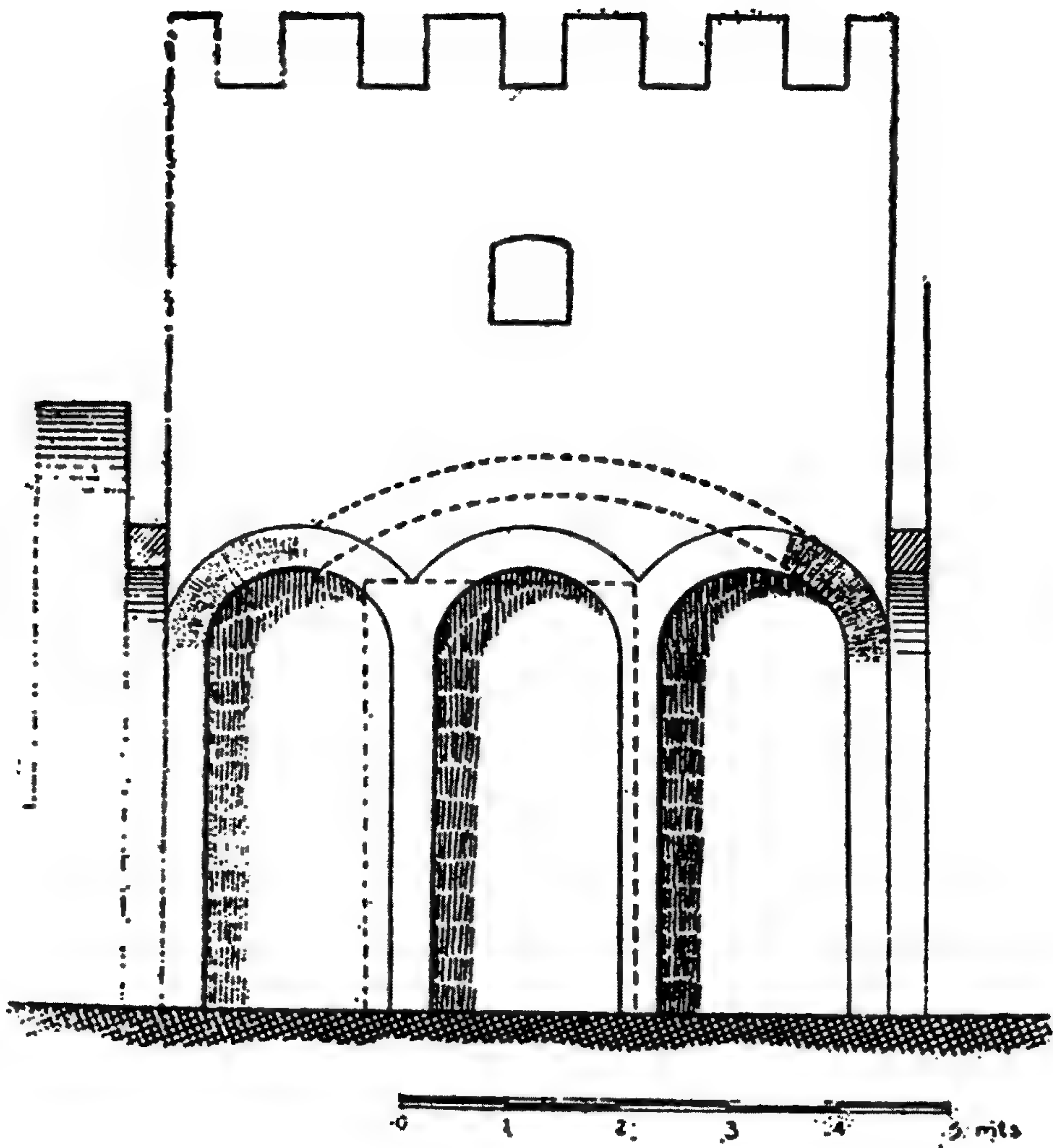
(36) التكملة لكتاب الصلاة ، الجزء الثاني ، صفحة 504 .

(37) انظر ترجمته فى الرقم 1386 من الجزء الثانى .

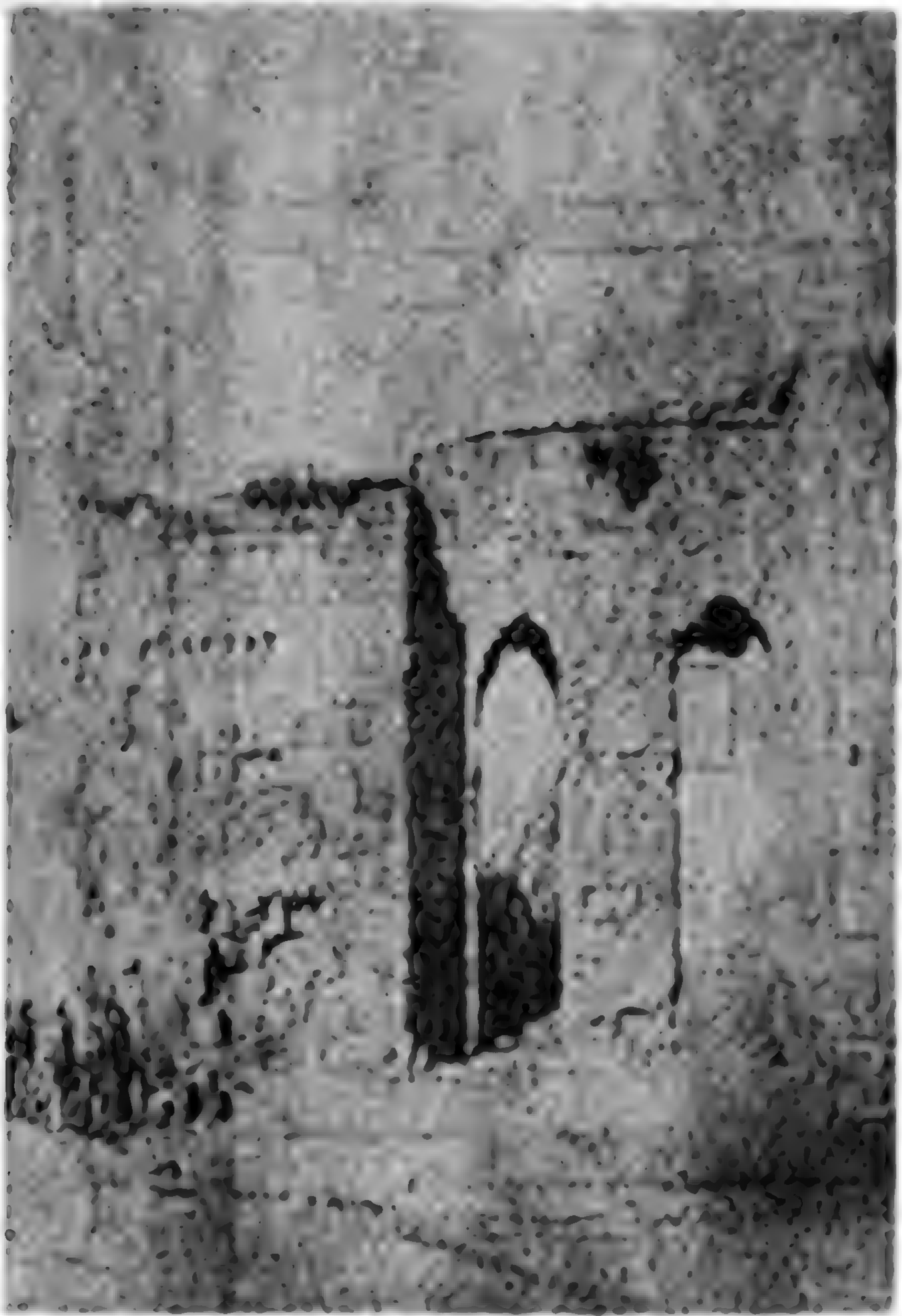
(38) انظر : La Péninsule Ibérique ، صفحة 214 .



الرسم البياني لمرقوسة الإسلامية
يظهر مكان باب اليهود وباب القبلة
واقام باب الدباغين .



تقطيع طرولي لباب قزکبة باقئیلية



وحد ز طالع بیدار به ایتیا

باب قرطبة :

توجد هذه الباب في اشبيلية ، وهي الباب التي كانت تؤدي الخارج منها الى مدينة قرطبة (39) (انظر الصور)

باب قرمونة :

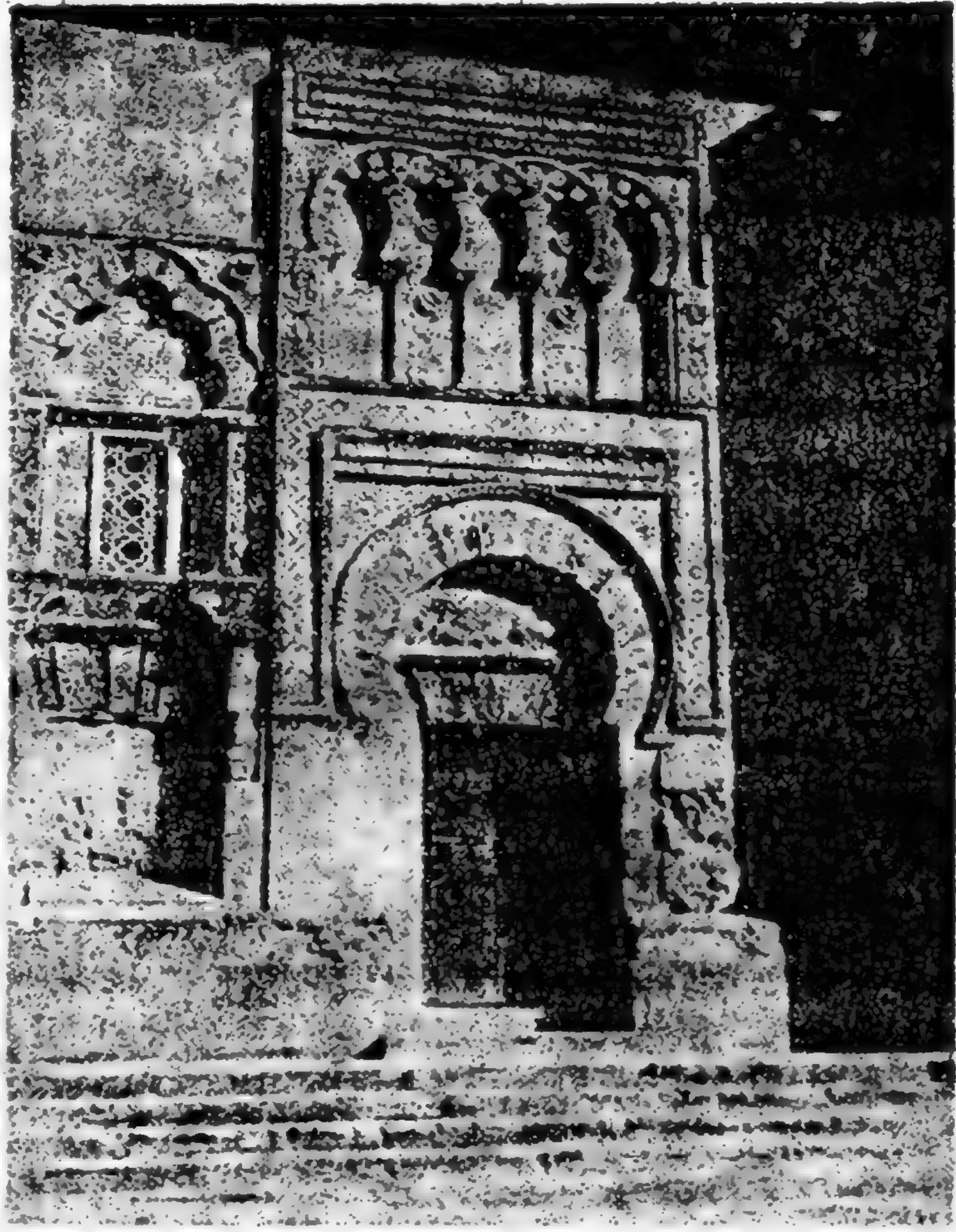
توجد هذه الباب باشبيلية ، وهي الباب التي شهدت صلاة جنازة العلامة علي بن ابي القاسم احمد بن عبد الرحمن بن احمد بن عبد الرحمن ابن يعيش بن حزم بن يعيش بن اسماعيل بن زكريا . قال عنه ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الانصاري الاوسي المراكشي : ((مولده بباجة سنة تسعين وأربعمائة ، وتوفي باشبيلية ليلة الثلاثاء ، منتصف ربيع الاول وقيل لاربع عشرة ليلة بقيت منه سنة سبع وستين وخمسمائة ، ودفن عقب صلاة العصر يوم الثلاثاء المذكور بخارج باب قرمونة ، وصلى عليه ابنه الوزير ابو القاسم بمقبرة من شفير قبره ، وكانت جنازته مشهورة والثناء عليه جميلا)) (40) .

باب القنطرة :

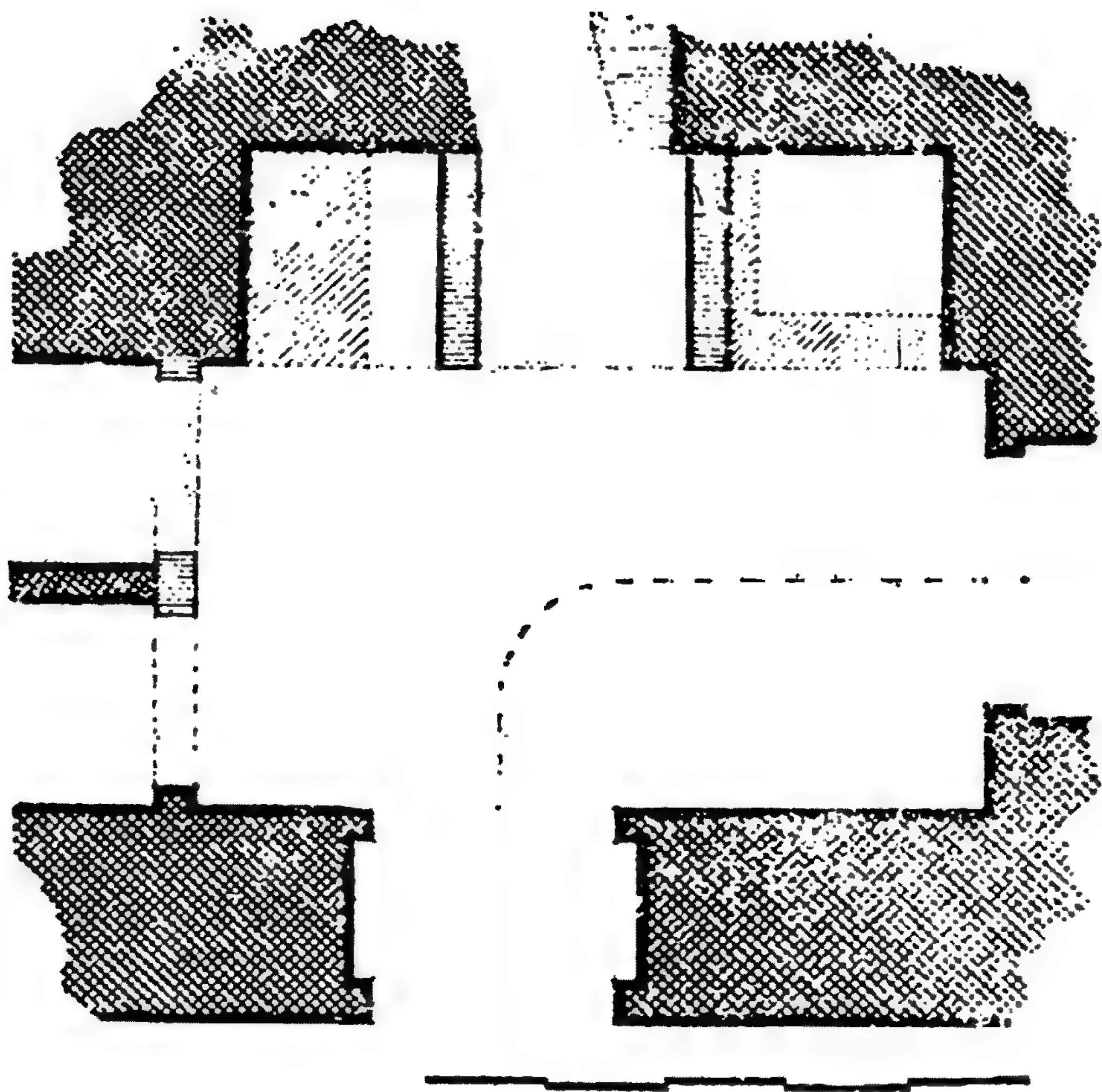
كنت المحدث لهذه الباب حين تحدثت عن باب الحديد . وكنت قلت هناك : ((اما الزقاق الرئيسي الذي كان يصل شمال المدينة بجنوبها ، فكان ينطلق من باب مستودع العظام او باب ليون ، وهو الزقاق الذي يمر الآن في قرطبة الحالية بزقاق Calle de Jesus y Maria فالعقبة ، فالقصر ، فالمسجد الكبير ليخرج من المدينة من باب القنطرة .

لا مفر ، عند ما تكون المدينة على ضفة نهر غزير المياه ، من بناء

(39) انظر « التكملة » لابن الأبار ، طبعة E.1 وابن شبيب ، صفحة 200 .
(40) « الدليل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » ، تحقيق الصديق الدكتور احسان عباس السطر الخامس ، القسم الاول ، صفحة 164 ابتداء من السطر 8 .



الباب الجانبي لمسجد قرطبة



مخطط باب قرطبة باشبيلية



باب القصبة بقصر الحمراء بفرناطة

قنطرة للدخول الى المدينة والخروج منها . وكانت الباب تفتح دائما في سور المدينة على آخر القنطرة . فكانت الباب المقامة في هذا المكان تحمل دائما باب القنطرة . فكنت تجدها في قرطبة (41) ، وفي طليطلة (42) ، وفي بلنسية (43) ، وفي استجة (44) ، وفي اريولة Orihuela (45) ، بابا تحمل هذا الاسم .

كانت باب القنطرة الموجودة في قرطبة توجد في جهة القبلة للمدينة . قال المقرئ ، ناقلا عن سبقه من المؤرخين : « واقبل (46) بها على وسط دائرة الأرض الى ان بلغ بها أرض الأندلس وركزها شرقي قرطبة بياها المتكامن المعروف بباب عبد الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلي قرطبة الى شقنة الى استجة الى قرمونة الى البحر » (47) .

وكان بقرب باب القنطرة بقرطبة مسجد جامع (48) ؛ كان صاحب الصلاة فيه ، هو المقرئ الفقيه محمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن صاف اللخمي القرطبي (49) .

اما في اريولة فكان باب القنطرة (50) هو ايضا قرب مسجد جامع ام فيه حياته كلها الشيخ الصالح الثقة ، الورع العدل محمد بن معط التميمي (51) .

-
- (41) « الروض المعمار » للحميري ، نشره وترجمه المستشرق Lévi-Provençal طبعة ليدن سنة 1938 ، الصفحتين 187 - 188 .
- (42) انظر : Los mozarabes de Toledo لمؤلفه Gonzalez Palencia
- (43) « تكملة الصلاة » ، طبعة Codera صفحة 189 و 538 .
- (44) La péninsule Ibérique صفحة 21 .
- (45) « تكملة الصلاة » ، صفحة 223 .
- (46) يقصد بالضمير الكائن في « اقبل » يوليش المعروف بـ « بجاشر » .
- (47) « نفع الطيب » ، الجزء الاول ، صفحة 203 ، السطر العاشر .
- (48) انظر « التكملة لكتاب الصلاة » ، الجزء الثاني ، صفحة 470 .
- (49) مقرئ من اهل قرطبة ، واصله من جيان ، اقرا بقرناطة وبلنسية . وكان يام في صلاة الفريضة بمسجد رجة . استقر عند انقراض دولة الملمين بوهران ، وهناك توفي سنة 544 هجرية .
- (50) انظر « التكملة » ، الجزء الثاني ، صفحة 505 .
- (51) شيخ صالح ثقة ، مقرئ مجود . كان يقرئ على الناس « التيسير » لابي عمرو الداني ، مات بعد سنة 565 هجرية .



طليطلة - باب القنطرة

اما باب القنطرة الموجودة فى اريولة فما زالت قائمة حتى الآن ،
وهي تقابل القنطرة التي بناها المسلمون على نهر التاجنة
(انظر الصورة التي تمثل بقايا هذا الباب مع هذا البحث) .

باب قورية :

توجد هذه الباب فى قرطبة . قال المقرئ نقلا عن بشكوال : « قال :
ومن ابوابه التي فتحها الله لنصر المظلومين ، وغيث الملهوفين ، والحكم
بالحق ، الباب الذي عليه السطح المشرف الذي لا نظير له فى الدنيا . . »
ألى ان قال : « وله باب ثالث يعرف بباب الوادي ، وله باب بشماله يعرف
بباب قورية ، وله باب رابع يدعى باب الجامع ، وهو باب قديم كان يدخل منه
الخلفاء يوم الجمعة الى المسجد الجامع على السباط . »

باب الكحل :

كان فى غرناطة (52) فى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر
الميلادي) زقاق يدعى بـ « زقاق الكحل » Calle del artimorio
الذي كان يؤدي الى باب الكحل الذي لم يستطع الباحثون حتى الآن
المثور على المكان الذي اقيم فيه (53) .

وكان فى اشبيلية ، فى عهد الموحدين ، قرب النهر والقصر باب
الكحل Puerta del alcohol o sulfuro de plomo
وهو طلي البرنيق الذي يستعمله الزلاجون بالاندلس .

كما كان يوجد باب يحمل هذا الاسم فى ميورقة . وما يزال يوجد من
هذا الباب الذي هدم فى بداية هذا القرن آثار باقية حتى الآن . كما كان
بسببة باب يحمل هذا الاسم (54) .

(52) انظر المقال المنشور فى مجلة « الاندلس » الاسبانية تحت عنوان
Il regno di Granata nel 1465-66 nei ricordi di un viaggiatore egiziana.
العدد الاول من سنة 1933 ، صفحة 324 .
(53) انظر « مسالك الامصار » للممري ، صفحة 229 .
(54) انظر « اختصار الاخبار » لابن عبد المالك الانصاري ، مقال نشره فى Hesperis
العدد 12 ، السنة 1931 المستشرق Lévi-Provençal

باب ليون :

كانت العادة في الاندلس ان تحمل الابواب اسمين او اكثر ؛ يكون احدها ، في كثير من الاحيان اسما رسميا ، في حين يكون الآخر شعبيا ، ومن هذه الابواب ، باب ليون في قرطبة الذي كان يعرف ايضا بـ « باب اليهود » كما كان يحمل ، في حقبة من تاريخه باب « مستودع العظام » Puerta del Osario . ومن هذا الباب ينطلق كما سبق ان قلت ، (55) ، الزقاق الكبير المسمى المحجة العظمى ، رابطا هذا الباب باب القنطرة .

كان باب ليون يوجد شمال المدينة الاسلامية . وبما انه كان يحادي رباض اليهود (56) ، صار يعرف ايضا بهذا الاسم . كما كان الخارج منه يصل الى مقبرة اليهود (57) التي لم يكن يفصلها عن مقبرة المسلمين الا طريق ضيق . وكان بالمرية باب يحمل ، حسب ما يخبرنا به الفقيه Simonet ، يحمل هذا الاسم (58) .

وجدير بالذكر ان نشير الى ان ابن بشكوال يسمي هذه الباب بـ « باب طلبيرة » . يقول المقرئ تفلأ عنه : « وباب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التي تشق دائرة الارض من جزيرة قادس الى قرمونة الى سرقسطة الى طركونة الى اربونة مارة في الارض الكبيرة ، ثم باب طلبيرة ، وهو ايضا باب ليون » (59) .

الرباط د. التهامي الراجي الهاشمي

-
- (55) تعرضت لهذا حين تحدثت عن باب الحديد ، فانظره هناك .
(56) انظر بحث صديقي Manuel Ocana Jimenez المنشور في مجلة Al-Andalus تحت عنوان Las puertas de la Medina de Cordoba الصفحتين 149 و 150 ، العدد الثالث من سنة 1935 .
(57) انظر « الصلاة » لابن بشكوال ، صفحة 300 رقم 672 ، طبعة مدريد ، 1882-1883 .
(58) Historia de los mozarabes de Espana ، صفحة 75 ، العاشية رقم 3 وانظر كذلك العاشية رقم 11 من مقالنا المنشور في العدد 13 من المناهل .
(59) « نفع الطيب » ، الجزء الاول ، صفحة 465 .

الورد في الأدب الفطري

مصطفى القصري

كان الشعراء العرب الاقدمون يستهلون قصائدهم بالوقوف على الاطلال والبكاء على الدمن والتعسر على انتجاع الاحياء ، ويصفون خصر المحبوبة بكتيب الرمل ، وقدما بفصن النقا ، ولحظها بعين انظية الشroud.

تلك كانت بعض العناصر المكونة للشعر الذي علقوه باستار الكعبة ، وجمعوه ورتبوه وتدارسوه واحتفظوا به ، وتلك ظلت الطريقة التقليدية المتبعة خلفا عن سلف ولمدة من الزمان ، فلم يخل شعر جاهلي او مخضرم من مساءلة الاطلال ونعت الاماكن والديار وارسال الديموع على رسم الاحباب ، وهذا امر طبيعي في ارض قفراء لا تنبت سوى الشيع والطلع والفضاة ، وتمر بها ربح الجنوب والشمال فتعفي آثارها ، ويقل بها الماء والكلاء فلا يتوقف اهلها عن الانتاج في طلبهما .

وخلاف هذا هو الذي من شأنه ان يشير تعجبنا واستفرابنا ، فالشاعر العربي ابن بيئته العربية ومناخه العربي ، يصف ما يراه حوله من الاشياء ، وما توحى اليه الطبيعة به من حر او برد ، وخضرة او يبوسة ،

وتقوم تشبيهاته ومعانيه أولا على المحسوسات التي يراها بعينه المجردة لا على أشياء لم يتح له أن رآها من قبل ، فيشبه مثلا ممدوحة أن مدح بالكلب في الوفاء ، وبالتيس في قراع الخطوب ويصف فرسه أو ناقته أو سيفه بما يتأتى له من ملاحظة ما حوله من الأشياء .

أما بلاد فارس ، فقد أثرتها الطبيعة منذ أقدم العهود بسهول خصبة وانهار جارية وأشجار باسقة عم بها العشب ونور الزهر ، وأصبحت فيها الأرض بستانا تنفتح الورد في رحابه .

ومر الفارسي المرهف الحس بهذه الجنة فلم يجد بها أثرا للرسوم الدوارس والنوي والآثافي التي كانت العربية الحجرية حافلة بها ، بل اعترضته الجداول في طريقه ، وظلته الأشجار في بطائعها ، والكروم في دساكرها ، ومدت إليه الفصون فواكهها وطيباتها ، وهب عليه أريج الزهور من كل جانب وترك عطره في يده وثيابه ، ونبتت اذكي الورد عرفا واجملها بهجة في جبالها واريافها بصفة طبيعية ، فكيف والحالة هذه الا يكون شعره حافلا بكل هذا الجمال ، كما كان شعر العربي حافلا بكل ما تيسر في مناخه من مرثيات ؟ كيف لا يتغنى بالورد ويصفه ويشيد به ويتمثل بما يوحى اليه من احساس وعواطف ومشاعر وعبر وهو يراه عن شماله ويمينه ، وأمامه وخلفه منذ ان فتح عينيه على الوجود .

ومن العسير علينا ان نتتبع منشأ الورد في بلاد فارس ، كما ذكرنا ذلك في العدد 13 من هذه المجلة بخصوص اصل الورد ومنابتها الاولى ، ولكن الشيء المؤكد او شبه المؤكد هو كما قلنا انها عرفت هناك منذ العصر الفارسي ، وقد تمهدا ملوك الفرس الاقدمون بانفسهم في بسايتهم ، كالملك قورش بن دارا ، وقد ذكر كتاب دياناتهم القديمة الورد ذات المائة ورقة كما ذكر النسرين ، وقال ان لكل زهرة منهما ملكا حافظا يحرسها ويحميها ، وان الورد ذات المائة ورقة خلقت اول ما خلقت بدون اشواك ، حتى ظهر مبدا الشر ((اهرمان)) فتسلحت بشوكها لتحمي به نفسها منه .

ويقول المؤرخ اليوناني بلوطارك (1) Plutarque بان كسرى
انو شروان ارسل الى انطاليسيداس اكيلا من الورود والزعفران ضمخ
بالعطر ، ولاحظ ان هذا العطر افسد جمال تلك الزهور .

وكما تمثل الشاعر العربي القديم بالرسوم العافية وقد اوحى اليه
عبرتها فارسل سخيها العبرات تمثل الشاعر الفارسي بالورد الذي اوحى
اليه عبرته في النضارة ومائية الديباجة ثم سرعة الذبول ، فنرف على هذه
الزهرة من دمه مبركا ان لا بقاء لشيء في هذه الحياة وان لا دوام للشباب ،
واسرع يركض في حلبة التمتع والنعيم مبتسما احيانا للجمال ، باكيا
احيانا على سرعة فنائه واستحالة دوامه .

ان هذه الملاحظات تجعلنا ندرك الدوافع والاسباب الحقيقية للثورة
التي قامت في الادب العربي في صدر الخلافة العباسية وللتمرد على الشعر
القديم وتعويض البكاء على الاطلال بالدعوة الى افتتاح القصائد برفع الكاس
واحتساء الخمر ، واجتياب الحانات واقتطاف الورد من الوجنات ، وقد
تزعج هذه الحركة الشعراء الذين كانوا من اصل فارسي وقريبي العهد
بالاسلام او الذين تتلمذوا على الفرس حتى اصبحوا بهذه الصفة من
جنسهم وطبقتهم وصنفهم ، وفي طبيعتهم جميعا ابو نواس انذي شهر لواء
التمرد بصتيحته الشفوية المدوية :

عاج الشقي علم رسم يسائله وعجت اسال عن خمارة البلد
يبكي على ظل الماضين من اسد لا در درك قل من بنو اسد
ومن تميم ومن قيس ولفهم ليس الاعارب عند الله من احد

ان الشعر الفارسي زاخر بوصف الطبيعة ، حافل بالازها والاطيار ،
فلا يخلو قصيد من التفني بالوردة ووصف جماتها ونضارتها .

(1) بلوطارك : 45 او 50 - 125 ؟ - من حكماء اليونان ومؤرخيهم ، تعلم في اثينا ثم رحل
الى مصر وسوريا واسيا ، له كتاب في ترجمة الاعلام وسيرهم ، كما ألف في
السياسة والديانة والفلسفة .

وقد يرجع هذا الاهتمام بالرَّبيع وجماله - زيادة على ميل النفس اليه بطبيعتها - الى معتقدات الفرس الاقدمين التي كانت تقوم على مشاهد الطبيعة وعبادتها وتحويل الوجهة نحو المشرق سجودا للشمس كابرز مظهر لما يستحق العبادة والتقديس والسجود . ولما جاء زرادشت حول هذا الدين الطبيعي البسيط الى ديانة حافلة بالمراسم والطقوس .

وحافظ الشيرازي اشهر شعراء الفرس اشادة بجمال الورد وعطرها ورشاقتها ، واكبرهم تعمقا في استخراج الطف المعاني واستنباط ارق الصور من لونها وشكلها واريح عرفها حتى انها اصبحت في شعره شخصا يتحدث اليك ، ونفسا واعية تسعد وتشقى ، وروحا تفرح وتبكي وتعبد وتفي ، وتخطب وتعاتب ، وتسخط وترضى ، وجسما يشعر بالنسيم يداعب برده وبالندي يزين نحره ، وبالخريف يجرده من جماله ، وبالشمس تحرق اكمامه ، وفتاة جميلة رفيقة الحاشية يتعشقها البلبل ويطير لها ليه فرحا بالعناق او بكاء على البعاد والفراق ، فيطرب ويترنم باعذب لحن عند الوصال او ينوح باشجي دمع عند الهجران ، والورد والبلبل عند حافظ عنصران متكاملان ، فالورد يكتسي في شعره بهاء خاصا اذا اولناه بالحب المادي ، وبهاء اخص واعلى اذا اولناه بالحب الصوفي ، ورمز الى الحبيب المطلق الذي تشرئب اليه اعناق المتيمين بالحب الالهي ، كما يرمز البلبل الى العاشق الذي عذبه هذا الحب واقض مضجعه ، ويرى بعض النقاد في قصائد حافظ شطحات صوفية ترتقي بالفرد الى الانتصار على مشكلة الحياة فيكون بهذا شاعر العشق الالهي ، والمشاهدات الربانية واعلى المقامات عند اهل الزهد من المتصوفين ، ويرفضون ان يكون شاعر المرأة والخمر والحب والنعيم في هذه الحياة (2) .

ومن مميزات الشعر الفارسي - زيادة على هذين العنصرين الاساسيين اللذين نجدتهما عند حافظ وكثير غيره امثال جلال الدين الرومي ، وسعدي الشيرازي وفريد الدين العطار وكرماني - نلاحظ ان

(2) اول من عرف بحافظ الشيرازي في الغرب هو العالم الالماني هامر الذي ايد فكرة التصوف عند الشاعر الفارسي .

شعراء الفرس يتغنون بعنصر ثالث في كثير من الاحيان ، يتغنون بالخمرة الصوفية و خمر الدنان ، يصفون رائحتها بريح الورد ، ولونها بلون الورد ، ولا يشربونها الا على نخب الورد ، ويتغنون في المعاني والصور التي يوحىها هذا الترابط والتجانس بين الورد والخمر ، حتى ان كبير الفرس كسرى قيل عنه بانه مر بوردة ساقطة على الارض فصاح : ((اضاع الله من اضاعتك)) ، ونزل عن دابته وتناولها وشرب في مكانها اقداحا . (3)

وكذلك الشأن في وصف جمال المحبوب ومحاسنه وعطر نكهته ولون خده ، وقد تسربت كل هذه المعاني الى اشعار العرب حتى اصبحوا فيها اساتذة العالم في زمانهم وفاقوا الفرس انفسهم بعد ان تتلمذوا عليهم اثر الفتح الاسلامي .

واذا اردنا ان نعرض في لوحة واحدة محملة ما اوحى به الورد الى الشعر الفارسي ، نجد ان رجاله قد جعلوا منها العنصر الاساسي وحجر الزاوية واحاطوها بعناصر كونوا منها حاشية لها واعمدت تنكيء عليها . فهذا البلبل الصداح يعشق الورد ويرسل نغماته العذبة لاغرائها وسحر سمعها ، وهذا النسيم يحمل عبيرها الى البلبل مطرا به الارجاء ، والربيع لا يتم موسمه الا بتفتحها ، والنيروز لا تكمل بهجته الا بتوابعها ، اذ انها فاقت كل اخواتها الزهور حتى اصبحت من بينها عنوان جمال الطبيعة . والحكمة تتجلى للنفس المتطلعة بين اكمامها والزهور الاخرى تنحني امام جمالها الرائع وتملكها على نفسها ، والخمرة لا تسكر الا اذا كانت لها رائحة الورد ، والجميل لا تتم محاسنه الا اذا انكشيت ازوار الورد خجلا من حسنه ، وليس هنا اليق من الورد قربانا يتشفع به العاشق لحبيبه او حبيبه ، نقول تطرق شعراء الفرس او ايران - فالحدود مما يفيسره الزمان وتغير عليه الايام على الدوام - الى موضوع الورد والبلبل على الخصوص واسهبوا فيه ايما اسهاب ، وتعمقوا في معانيه واستخرجوا منه لآليء ودررا في العبر والحكم والصور والتشبيهات حتى ان بعضهم جعلوا

(3) معاصرات الادباء ومناظرات الشعراء للاصبهاني .

من الوردية والبلبل رمزا فلسفيا وصوفيا بلغ التعمق في ما يوحي به اليهم حد محاولة سبر اغوار السر الغامض الذي لا تزال ولن تزال الانسانية الحائرة تضل في شعابه ، الا وهو سر هذا الوجود الذي زجت بنا فيه يد قاهرة ، وهذا المصير الذي يصير اليه الانسان مضطرا ، وهذا الخالق الذي يحدثنا من وراء حجاب كثيف ، وهذا الابد الذي وعدنا به ، وهذا الموت الذي لا نستطيع ان نؤجله او نؤخر حدوده ، الى غير ذلك من التساؤلات ونقط الاستفهام التي حارت البشرية - من انسان الكهوف الذي خلف لنا حيرته منحوتة على جدران مغاراته الى الفراعنة المحنطين الذين ابرزوها في صورة اهرام ومسلات ومعابد ، ومن سقراط والمعري الى علماء الذرة في القرن العشرين - في الجواب عليها واستكناه حقيقتها واشفاء الفيل في الاطلاع على مكنونها وبدايتها ونهايتها ، تساؤلات ترمي كلها الى معرفة حقيقة النفس وحقيقة هذا الكون اللانهائي الذي نسبح في امواجه المتراكمة المتعاقبة المتضاربة المتغيرة ابد الدهر .

ومن النقاد من ينسب حافظ الشيرازي وعمر الخيام الى المدرسة الصوفية ، وان الخمر والبلبل والوردية انما هي عندهما رموز يرمزان بها الى المعاني العميقة التي تصدر عن فلسفتها .

نجد هذه الحيرة متجلية في شعر حافظ والخيام اللذين وان لم يحيرا جوابا فقد حاولا الوقوف على سبر اغوار الحقيقة ، في نوع من الومضات الروحانية والخلجات النفسية مترددين بين الزهد والانغماس في الملذات ، وكذلك نجدها عند بعض الشعراء الآخرين وعلى رأسهم المولى جلال الدين الرومي الذي حاول في سمته الصوفي ان يصل بفضل رمز الوردية والبلبل الى تعبير رائع عن وحدة الوجود واندماج المخلوق في الخالق والخالق في المخلوق .

هذا بجملته ما يميز الشعر الفارسي عن الشعر الانساني في تناوله موضوع الوردية ، وقد احتذى حذوه في ذلك شعراء الهند وتركيا اللذين ظهر تأثيره في انتاجهم الادبي ظهورا جليا عند فاضلي (960 هـ) ونديم التركييين .

والا ما كان الشعر الفارسي تميز عن بقية الآداب الانسانية بما
سردنا في هذه العجالة ، فانه من جهة اخرى يلحق بركبها في تمثيل
سرعة الزمن وذبوله وفنائه بحياة الوردة نفسها ، وهذا المفهوم لا يخلو من
اي شعر من الاشعار التي نظمها الشاعر في اي لاد من البلدان وفي اي
زمن من الأزمنة .

وها نحن نورد في الصفحات الآتية بعض النماذج من الشعر الفارسي
نرجو ان تكون وفقنا الى اختيارها لتدعيم ما ذكرناه وما استنتجناه من
مختلف مطالعاتنا .

وقد رتبنا المقطوعات التي انتخبناها للقارئ العربي وتطرقنا الى
الوردة حسب مختلف المواضيع التي اشرنا اليها في هذا المقال ، ورتبنا
المواضيع التي تطرق اليها الادب الفارسي في تناوله زهرة الورد حسبما
انتخبناه من مقطوعات كما يلي ، على ان بعضها قد يدرج في هذا الباب او
ذاك على السواء :

- 1 - الربيع والجمال .
- 2 - الببل والورد .
- 3 - الشطحات والتجليات الصوفية .
- 4 - الحكم والامثال والمبر .

وكل هذه المقطوعات التي نوردها هنا ، فضلنا ان نترجمها بنفسها
الى اللغة العربية من المؤلفات الفرنسية والانجليزية التي تعرضت الى شعراء الفرس
ونقلت اشعارهم وخصوصا حافظ الشيرازي من بينهم ، لما وجدناه
- ويا للأسف - من ركاكة ورطانة في اسلوب بعض الترجمات العربية التي
وقعت في يدنا والتي يمجها اللوق السليم في غالب الاحيان ، على اننا لم
نلجأ الى الترجمة في بعض الاحيان الاخرى حينما وجدنا في النصوص
العربية ما لا يمج هذا اللوق وما ارتاحت اليه نفسنا في اسلوبه وتركيبه
وغنائيته . والله الموفق .

1 - الريس والجمال والخمر :

عمر الخيام (4)

* * *

اشرب وحطم الكاس

طوبى لمن حطم الكاس بعد احتسانها
صحبة ذات قد كالفضة في البياض
وقد صبغ البنفسج برדתه
وتعلق النسيم بأذيال الورد .

وقوف الباهت

عندما يصطبج السوسن بالندى
ويميس فرع البنفسج في المروج
لكم اقف باهتا امام ازرار الورد
وهي تستجمع غلائل بردها .

الأمس مضى

ما أجمل الندى على الورد يوم أس السنة ،

(4) عمر الخيام : (1074 - 1132 م) شاعر وعالم في الرياضيات والفلك ، عاش أيام السلجوقيين ، ساهم في اصلاح الحساب السنوي ، تعلم على ابن سينا واتصل بحسن الصباح الاسماعيلي ، من مؤلفاته العلمية كتاب المصادرات على اقليدس ومشكلات الحساب ، وله في الشعر رباعياته التي اخترقت الافاق واصبحت اليوم من نفائس الادب لا تخلو منها مكتبة او خزانة في أي بقعة من العالم ، مترجمة الى مختلف اللغات واحسن ما وقفنا عليه من الترجمات العربية ، ترجمة توفيق مفرج .

وما أجمل الحسناء تنزه بالمروج طرفها ،
مالي ولما تحكيه عن اليوم الذي مضى ؟
فاغتنم لذة الحاضر ولا تتحدث عن الأمس .

بعد موتني

يا نسائم الشمال ، هبي على قبري بعد ان اموت
وانثري عليه الزهر والياسمين والورود ،
واذا مر غريب وسال لمن هذا المزار
فقلولي له : طير غنى ثم طار .

كل الى هباء

ايها الساقى اهتز الورد فرحا والمرج طربا ،
فانعم بهما فلن يبقى منهما بعد ايام سوى الهباء ،
اشرب واقطف وردة ، فبعد نظرة القيتها
لن يبقى من الورد سوى التراب ومن المرج سوى يابس الاعشاب

بعد موتنا

انظر الى جيوب الوردة تتفتح للنسيم
استمع الى البلبل وقد اطربه جمال الزهور
اجلس تحت ظل شجر الورد
فكم وكم ستتبعثر زهوره بعد موتنا .

* * *

أبو عبد الله جعفر بن محمد رودكي : (5)

خمرة كماء الورد

أحضر هذه الخمر يا قوتنا خالصا مذابا
وأحضرها سيفا مجردا في وجه الشمس المشرقة
صافية حتى لتحسبها في الكأس ماء الورد .

الورد يعير الخمر أريجيه

فإذا شممت هذه المدام خلت الورد الأحمر
أغارها أريجيه ، وكذلك المسك وغنيسر بابسان (6) ،
بهذه الخمر يصير الشحيح ذا مروءة ، والضعيف ذا همة ،
وإذا احتسى منها الشاحب الوجه ، عاد محياه حديقة ورد .

* * *

أبو منصور محمد بن أحمد دقيقي : (7)

جنة عدن

أي معبودي ، قد بسط سحاب الجنان
على الأرض خلعة الريع ،
ومروج الورد جنة عدن

(5) من شعراء العصر الساماني ، له ديوان شعر بالفارسية ، ولد في أوائل القرن الرابع الهجري في بلدة رودك ، قريبا من سمرقند ، وتوفي سنة 329 هـ - 940 م ، نظم قصبا كبيرا من كتاب « كلیلة ودمنة » شعرا بالفارسية .

(6) اسم حي من أحياء مرو .

(7) من شعراء أواسط القرن الرابع الهجري ورواد الشعر الفنائي والملحمي الفارسي ، توفي سنة 368 هـ - 978 م ، مات مقتولا .

والأشجار المحلاة صور الجنان
والأرض كالياقوت المطرز بالديباج
والسماء لباس من حرير أزرق .
فعل الكيمياء

ومن الورد ينطلق ريح ماء الورد
حتى لتحسب أن الورد امتزج بعضها في بعض .

* * *

أبو منصور قطران العسدي التبريتي : (8)

صورة زيتية

تفتحت في أرجاء الدنيا حداثق الورد أينما كانت
وعلى رؤوسها طيور السحر تصيح مفردة .

وردة تطل على النبع

عندما تقبل الوردة الوحشية بوجهها إلى ينبوع
الشمس موضعا على شطه لتحسني الخمر مع الحبيب
وقد فاقت المرجان لونا شقائق النعمان .

مبـد

وصارت الحديقة كالجمر من نسيم السوسن والورد

(8) من علماء الشعراء في القرن الخامس الهجري ، توفي سنة 465 هـ ؟ (1072 م) ،
وصفه للطبعة فيه رقة وعلوبة ، له ديوان مطبوع بالفارسية .

ومن انفاس معبودي وغدائره صار الحي كالمعبود .

* * *

أفضل الدين بديل بن علي خاقاني شرواني : (9)

زهر يموت وزهر يولد

اذ تنتهي آجال الرياحين يعقبها الورد

وحينما يمضي الصبح الصادق تولد الشمس .

الرقى

كان بهرام جور يملك جنة تسحر الأبواب شبيهة بجنة عدن

كان تراها ينشر عطرا ذكيا من العنبر

وكانت لفواكهها أشجار في السماء

واذا وجدت من بين كل ورودها شوكة

فانما كانت هنا رقية تتقي العين بها

— من قصة بهرام جور والملكة البيضاء —

* * *

نظامي كنجوي : (10)

(9) كان يقال له حسان المعجم ، قضى اواخر ايامه في تبريز بعد ان عانى محنا كثيرة هو وامه ، توفي عام 595 هـ - 1198 م ، كان يفخر كثيرا بثقافته العربية ، اتصل في رحلاته بالخليفة العباسي المقتضي لامر الله .

(10) نظام الدين أبو محمد الياس بن يوسف بن زكي بن مؤيد ، شاعر صوفي من أدربجان (535 - 599 هـ) - (1140 - 1203 م) ، تقلب في بلاطات عدد من أمراء الفرس ، له ديوان شعر وكتاب « خمسة » أو القصائد الخمس ، وهو مقسم الى خمسة ابواب :
1 - مخزن الأسرار 2 - قصة الملك خسرو وجارسته شيرين 3 - قصة مجنون ليلى
4 - الصور السبع التي تحكي قصة الملك بهرام جور 5 - اسكندر نامه .
ولد في كنجة بالقوقاز ، درس التصوف وظهرت آثاره جليلة في ديوانه الاول « مخزن الأسرار » .

أوقد المصابيح يا بستاني

اقبل ايها البستاني لتجدد سرورنا بفتح بستانك
الى الوردة ذات الشفاة البيضاء كاللبن، العطرة باريج
العنبر، ولون زهر ياسمينك بلون الزعفران، واجر
الماء الصافي في رياضك التي تحمر فيها الورود
كمصابيح موقدة» .

* * *

حافظ الشيرازي : (11)

دولة الورود

يا احبائي ، بشرى لنا فقد اقبلت دولة الورود
الطريق المستقيم

يا ساق استقي فقد اهل النوروز
لا احد في موسم الورد جلس امام كأس فارغة
فاغتنم لذة هذا اليوم وقد ملا قلبك السرور
ابحث عن الفرحة في المدام وقد افعم قلبك بالحب

(11) شمس الدين محمد حافظ الشيرازي ، ولد سنة 1320 م بشيراز في القرن الثامن الهجري 791 هـ مات سنة 1389 م ، شاعر صوفي غنائي من بلاد الفرس ، جتته مدفونة في ضريح من الالبستر شيده له السلطان بابر حفيد ظميران بشيراز ، كان من الشيعة الاثني عشرية ، نقلت اشعاره الى الالمانية والانجليزية والفرنسية والعربية وغيرها ، له شعر غزلي رقيق في وصف مشاهد الحب والطبيعة ، والخمر ، وكثيرا ما يرمز شعره الى معان صوفية ، تختلط مشاعره بخطرات الوجد الرباني على الطريقة الصوفية ، سمي بحافظ لانه كان يحفظ القرآن واشتغل بتدريسه وتفسيره ، واشتهر بهذا الاسم في الادب العالمي والثقافة الانسانية ، امضى جل حياته بشيراز ، وكان مقربا للملك المظفر ، اول من عرف به في الغرب هامر الالمانى ، وقد نقلنا شعره هذا من الفرنسية .

حلبة الولاثم

ليفتح الورد المضاعف اكمامه
وليقدم لنا النرجس النشوان جامه
طوبى لمن تحرر من سجن الهموم واسرع يركض
فى حلبة الولاثم كما يسرع الحباب

تنب من توبتك

هات الكاس يا ساق ، لنشربها فرحين متسامرين فى هذا
الروض الجنى ، ولنتب من توبتنا فقد اهل موعد الورد
اترعوا اكواب الفرح تحت ظلال هذه الاشجار ولا تنتظروا
ذلك امر الورد ، تذكر عند عودة الريح ان عاما
من العمر قد فات ، واستسق الساقى تحت هذا المهد
من الورد

لا تعبأ بالانبياء

ليكن الورد قدوتك فى الحياة ، خذ من العيش لنفسك من جبين
الشمس الوضاء ومن انداء الفجر وهبوب النسيم العليل الذي
لن يموت ، انظر الى الاخوان من اهل البطالة يضحكون مبتهجين
غير عابئين بموسى ولا ببقية الانبياء

عمر الورد قصير

حقا ان الورد جميل ولا شيء اجمل منه ، اشرب وسط هذه
المروج والمراعي المزهرة ، وتذكر ان عمر الورد قصير .

ملك داود وسليمان

السوسن والورد اكسبا الخلد لهذه الحياة الدنيا ، ولكن ماذا
نجني من وراء كل ذلك نحن الذين لسنا بخالدين فيها ، لتسخر
الوردة لنفسها نسيما تمتطيه كما سخر الريح لسليمان
ولترتل اناشيدها كما نفخ داود في المزمـار .

عند ما يراك الورد

ازداد الورد تنكـمـش خجـلا عند رؤيتك

عرق الخجل

خجلت الوردة من صفاء خلد البهي ، فارتدت بالعرق خائبة

انت والشمس والوردة

انكـمـشت الورد في غلائلها خجلا من حسنك
واحمر الخيري الذي اسكرته بحضورك
كيف للوردة ان تتشبه بك وانت تعطين للشمس ذلك الضياء
الذي تمنحه الشمس الى الورد

طبيعة باسمه بالورود

سلمت عند الصباح على المروج المرتدية بلؤلؤ الندى
وكانت الطبيعة باسمه تفتح آلاف الورد

على نخب الورد

فرشت الورد لنفسها فراشا من الزمرد
هاتوا لي بسرعة خمر من الياقوت الأحمر لتمجيدها

باقية الوجه

لتساقط اوراق كل وردة في المروج على دياحة وجهك

الملك الحق

الورد بصدري ، والكأس بيدي ، والحبيب بجاني ،
هو ملك الدنيا تحت قدمي

اندماج

قلبي كزر الورد يتفتخ للنسيم

قربان

هب يا نسيم وكوني يا رحي
ياوردة قلقت من دمي

كوني قرباني الى فم الحبيبة

السجود للجسمال

خرجت وردة المروج من العدم الى الوجود

قأنحنى البنفسج على قدميها فى ذلة الخشوع

ريـح مباركة

سترفع الوردة عن برقعها اذا سخرت لها الريح .

النسيم يفتح حزام الورد

قلبي الذي علق بك يسيل دما

كلما رأى هناك زرا من الورد حل النسيم حزامه .

حديث الراوي

— قال النسيم كلمة من فمك الى كل وردة .

تنبيه الى النسيم

— ايها النسيم ، اذا كانت اعشاب المروج

تميل عند هبوبك فوق الصرو والورود والحبق

* * *

جرجاني :

دوافع الانيس

آه على بعد الحبيب
يجمل بي ان اطلق الصيحات والأهات
فانا بمناي عن الحبيب الشبيه بورد حديقة الربيع
ويلآثمني ان اردد الآهة التي يشتغل بها القلب
لاني بعيد عن ذلك الروض الذي يضيء القلب

2 - البلبل والورد :

ابو القاسم حسن الفردوسي : (12)

بكاء الورد

احمرت الرياض خجلا من بهاء الورد
وكسا الهضاب رداء من زهر الخيري والسوسن
بكى البلبل بين فروع الأغصان ، فرددت الورد
نشيد شكوا

الورد

نور الورد سبعين مرة وذبل سبعين مرة وتغنى
به البلبل ثم سكوت سبعين مرة

(12) ابو القاسم حسني الفردوسي شاعر ولد قرب توز (933 - 21 او 1025 م) ، ذهب صغيرا الى غزنة التي كان السلطان محمود يتولى امرها ، امره السلطان محمود بكتابة تاريخ الفرس وايامها شعرا واعدا اياه بأنه سيصله بدينار ذهب على كل بيت نظمه ، وسمى الفردوسي كتابه الذي قضى 32 سنة في تأليفه « شاهنامه » (60.000 بيت ، وقدمه الى محمود الذي امر باعطائه الصلة ففقد لا ذهابا ، فغضب وهجا السلطان محمود الذي تراجع وعزم على أن يصله ذهباً ، ولكن وجدده قد مات ، والشاهنامه من اهم ما انتجه الادب الفارسي .

سعدى الشيرازي :

حب البلبـل

تحدث السعدى فى كتابه « جولستان » (13) فى قصة البلبـل والنملة عن الحب الذي يكنه البلبـل للوردة ، ويرينا الطائر يحلق بجناحيه ليل نهار حول خمائل الورد وهو يرتل اغانيه الساحرة النغم ، وبينما تتعب النملة وتضني نفسها ، نرى البلبـل يسر للنسيم عن حبه للوردة ويطلب منه أن يبلغ لها برحاءه ، وها هو الخريف يقبل فتنزع الرياح الاوراق من الاشجار فتساقط ذابلة صفراء .

ثم يقبل موسم الشتاء والبرد ، فياتي البلبـل لزيارة الخمائل التي سحرت لبه وحن لها قلبه ولكنه لا يجد فيها ما كان يتمتع به من بهجة الورد ونضارة الاشجار المورقة وعطر ازهار الياسمين ، فاحس بنفسه تفنى امام هذه الخمائل المجردة العارية ، وتوقف صوته فى حلقه امام ذلك الصمت المهول ، ومكث هكذا الى ان اصابه الجوع والبرد فلجا الى النملة يستنجدها بعض الوقت ، ولكن النملة امتنعت من التصديق عليه ببعض الحب قائلة : كنت تقضي الليالي فى العشق ومسامرة الحبيبة ، ولم يشغلك سوى جمال الوردة ونعيم الربيع ، الم تكن تعلم ان الربيع يعقبه ، لا محالة ، الخريف ؟

حافظ الشيرازي :

هربت من جنة جائرة

دخلت الى جنتي لأقطف وردة الصباح

فجاء صوت البلبـل بطرق سمعي

(13) للشاعر الفرنسي لافونتين La Fontaine قصيدة قد تكون مقتبسة من هذه الرواية الشعرية ، عنوانها : « الزيز والنملة »

ان هذا الشقي يعشق الوردة مثلي
وهو يبكي وينوح فى الخميلة عند السحر
فطفت انزه بصري عبر البستان
وقد سحرني حسن الوردة والبلبل ،
قلت لنفسي ان الشوك الذي يعشق الوردة
لا يمنع البلبل من الهيام بها
انا ادري يا فؤادي بجور القدر
فهذه الوردة تجهل الحب
وهذا البلبل لا امل لهواه
هربت من هذه الجنة التي جارت الوردة فى ربوعها
والتي يخرج العاشق فيها نفسه وهو يجردا من غلائها
لا تأمل شيئا يا حافظ من دورة الأفلاك
ان السماء الحافلة بالالام تجهل الرحمة والاحسان

البلبل والشاعر

- نح ايها البلبل وبع بشكواك اذا كنت خيلي ، فانا وانت عاشقان
متيمان تليق بهما الشكوى .
- جنبني عطر الورد فرحت بين الخمائل لأهديء كالبلبل من بلالي
- نظرت عيناى فى عين الوردة التي كانت تلمع كالمصباح عند الفجر
وتباهى بجمالها وشبابها لأن البلبل ملكها نفسه
- شكاة البلبل الحنون
تعبى عما يعانى به من بلابل

يا بلبل ، ما ادراني بحزنك ، فليس الحب لي ولك سوى شقاء وعناء

.....

— اعلمي ايتها الوردة انه لا يليق بك ان تفخري بجمالك وتعجبي بنفسك
حتى انك في خيلانك لا تسالين عن البلبل الحزين

.....

— انصتوا الى البلبل وهو يردد اغانيه بين فروع الصفصاف
لا تقرين عين الحاسد من الوردة لتنظر اليها
ايها الوردة ، يا اميرة الحسن النشوى بسعادتها
لا تبتعدي من البلابل المسكينة ، متدلة تائهة عليها

.....

— البلبل يفكر كيف يجعل من الوردة حبيبته
ولكن الوردة لا تفكر الا في تعذيب البلبل

سبب تفريد البلبل

— أمس غرد البلبل في قلب الوردة التي تغنى بجمالها وقال : « أسقوا
الصباح ، افيقوا ايها الشاربون وقوموا الى اغتنام الملذات »

رسالة البلبل

— بهجة الربيع الجديد تكسو الروض بدياجتها
والبلبل يبعث رسالة لا نهاية لها الى الوردة

— اعجابك بحسبك ياوردة هو الذي جعلك
لا تعبئين بالبلبل وهو يرفرف فوقك بجناحيه
اسعد مع الوردة يا بلبل الصباح

لأن طرب الحب وسط الخميعة هو طربك

— الوردة الحمراء تكشف عن صدرها للبلبل
اسكروا يا اصحاب الحضرة ، يا عباد الخمرة

مزمـار داوود

— الوردة امتطت الريح كسليمان
والبلبل نفخ مترنما في مزمـار داوود

غـدر الابتسامة

— بسمت لك الوردة ايها البلبل فحذار من هذا الشرك
ولا تعتمد عليها رغم انها اجمل ما في الدنيا
.....

— يا طير الصباح الصغير ، ردد انغامك في مزمـار داوود
فقد عادت الوردة (14) التي وعدتك بوصلها

اقلني من كبرياتك يا وردة

قال البلبل لوردة الصباح :

« اقلني من كبرياتك ، فلست وحدك متفتحة في البستان »
فابتسمت الوردة مجيبة :

« ان الحق لا يؤلمني ،
ولكنني اجهل مثل هذا الخطاب عند العشاق » .

(14) يعني بالوردة : سليمان .

حديث نقله النسيم

— قال بلبل الفجر الى النسيم :

« ما اكثر ما اقايسيه من حب الوردة » .

شرب دم قلبه

— شرب البلبل دم قلبه فوهبت له وردة
ولكن النسيم القاسي وضعه على شوكةا

السر

— الشباب ليس زمن ازدهار الرياض
ذلك ما اسرت به الوردة الى البلبل الصдах .

محمد تقى بهار : (15)

سبب حمرة الورد

« لا تعجبوا من حمرة الورد
ذلك راجع الى السم دفين :
ان الوردة قضت موسم الشتاء كله
مسلطة شوكةا على البلبل لامتنصاص دمه »

3 - الشطحات والتجليات الصوفية :

(15) لقب بملك الشعراء ، ولد سنة 1304 هـ - 1886 م ، ظهر له ديوان بطهران سنة 1957 ، اضاف الى سعة اطلاعه على ادب الفارسي معرفة واسعة بالادب العربي .

جلال الدين الرومي : (16)

عرق المصطفى

« اليوم عيد النيروز وموسم الورود ، ابتسمت الخميعة فيه الى
البلبل وانتشى الترجس ببهاء الوردة وجمالها ، لسان الآس يهمس في
آذان الصفصاف أسرار الوردة ، لا يستطيع العالم ان يدرك سر الوردة ولا
الفكر ان يتصور روعتها ، الوردة رسول بستان الأفراح وتمثال الجمال ...
ان عرق المصطفى ينشا لؤلؤا على جبين الوردة ، الوردة بدر تم صنع من
الاهلة ، سيحيا الفكر حياة جديدة ما دام يستتشق عبير الوردة الذكي ،
هب نسيم الربيع فنشأت الوردة كما نفخ ابراهيم في الطير من روحه » .

ماتم البنفسج

« هجر الورد البنفسج ، فلبس البنفسج ثوب الحداد » .

عشق الصوفية

« والله لنن جاوزت هذا الشوك الى البستان لانوحن نواح البلبل .
اعجب لبلبل يفتح فاه لياكل الشوك والورد ، اي بلبل هذا ؟ انه تنين ناري
يحب اليه العشق كل مكروه ، هو عاشق الكل والكل نفسه ، هو عاشق
نفسه وطالب عشق نفسه » .

(16) جلال الدين الرومي هو محمد بن محمد بن الحسين بن احمد البلخي القونوي الرومي
(604 - 672 هـ / 1207 - 1273 م) حنفي متصوف ترك الدنيا والتصنيف ،
صاحب الطريقة المولوية وهو عند بعضهم صاحب « المثنوي » المشهور بالفارسية
الذي ترجم بعض فصوله العميد عبدا لوهاب عزام وقدم له ، ولد في بلخ بفارس ،
وانتقل الى بغداد فترعرع بها في المدرسة المستنصرية ثم استقر في قونية ، عرف
بالبراعة في العلوم الاسلامية ودرسها ، ثم تصوف فشغل بالرياضة ، ونظم الاشعار
وانشدها ، وكتابه « المثنوي » منظوم بالفارسية وترجم الى العربية والتركية ، وهو في
25.700 بيت ، توفي بقونية وقبره معروف الى اليوم ، كتب عنه البارون كارادولو
في دائرة المعارف الاسلامية ، سمي الشيخ عبد الرحمن الجامي « المثنوي »
القروان بالفارسية .

شطحات الصوفية

« صمت البلبيل عن الحائنه حين غاب الورد عن بستانه
ميت العاشق والمعشوق حيي كل المعشوق والعاشق في » (17)
« انظرن في القلب روضا ناضرا من رياحين وسروا زاهرا
حجب الأغصان فيض السورق واختفى المرج بورد مـونق
ريح ورد حيث لا ورد يـرى فورة الخمر ولا خمر ترى » (18)

.....

وقد ذكر بعض الصوفية ان الانسان صلة العالم كله بالله ، وهي
فكرة جلال الدين الرومي ، وكان يقول في شان البلبيل :

« البلبيل من الأرواح المجاهدة : مناجاة دائمة ورقى مستمر » .

وكان يقول : « ليس هناك جراح ، كل ما هناك رحمة ومحبة ، ولكن
وهيك حجاب خلف الباب » .

وقال في وحدة الوجود : « ان سكارى الله واحد ، ولو كانوا الوفا ،
وان لم يكن من سكارى الهوى الا واحد ، فهو اثنان » .

— « الخلق كطير الماء ، خلقوا من بحر الروح ، وكيف يسكن الى
المقام هنا طائر » .

حافظ الشيرازي :

تجنب الزهد

حفظنا الله من الزهد في الخمر في موسم الورد .

(17) ترجمة عبد الوهاب عزام .

(18) ترجمة عبد الوهاب عزام .

المطار الأعظم

ليست كل المطور التي تنشرها الوردة او تخفيها سوى اريج المطار
الذي افضله على نفسي .

مسكها من ذاتها

لا حاجة للوردة بمسك التبت والصين
لان مسكها يتضوع من غلائل بردتها
عبد الرحمن الجامي :

الفيض والتجلي

ومن غواصي بحر هذا الفلك
انطلقت هذه الصيحة : سبحان ذي الملك
وقد صنع من ذرات العالم مرايا
قد انعكس بطلعته في كل مرآة منها
ووقعت على الوردة من تلك اللمعة أضواء
فسرت من الوردة الى البلبل حرقرة الروح
واتقدت خدود الشمع بقبس من تلك النار .

صدر الشاعر

وصدر الشاعر منجلي سر الحسن

تشرق من سينائه (19) أنوار الحسن
من نظرتـه يزداد المذب عنوبة
والطبيعة من سحر بيانه اقوى فتنة
ومن نقاته تعلم البلبل التفريد
ومن خضاب دمه اشتعلت وجنة الورد
ناره فى الفئدة الفراشات (20)
والمشق افانين من اساطيره

.....

فيه تنفس الورد ، وتنفس الخزامى ، وتنفس السوسن
تغازله الورد : عليك ان تبقى امامنا قليلا ،
وتضحك البراعم وتجذب اليها اذباله

محمد اقبال :

تلك الكلمة جذوة القلب ، هي سر ولا سر
افضيت بها اليك ، فمن ذا استرق السمع ؟ ومن اين سمع ؟
قد سرقها الظل من السماء ، وافضى بها الى الورد ،
وسمعا البلبل من الورد ، وحملتها الصبا من البلبل .

(19) اشارة الى النار المباركة التي آتسها موسى فى سيناء من جانب الطور .
(20) لانها تهيم بحب نار الشمس وهو كناية عن الوجد .

محمد اقبال
(1873 - 1938 م)

للشاعر محمد اقبال ، صاحب فكرة انشاء دولة باكستان ، اناشيد وقصائد ودواوين عديدة بالفارسية والاردية ، وتبلغ دواوينه تسعة ، ثالثها في الصدور ديوان « بياض مشرق » الذي نشر عام 1923 م ، وكان جوابا على ديوان الشاعر الفيلسوف الالماني جوتييه (الديوان الغربي) .

وهذا الديوان للشاعر محمد اقبال « بياض مشرق » اي « رسالة المشرق » باللغة الفارسية ، هو الذي اخترنا منه ما يتصل بالورد ، وان كانت دواوين اقبال كلها عامرة بالاناشيد في الطبيعة والرييح والورود ، فلقد تغنى اقبال بذلك كثيرا ، ولو خلال اشعاره الصوفية او الفلسفية او السياسية او الاجتماعية ، ولا غرو فقد ولد اقبال وتوفي في شهر الربيع والورود : شهر نيسان .

وقد ترجم ديوان « بياض مشرق » او « رسالة المشرق » من الفارسية الى العربية المرحوم عبد الوهاب عزام ، وعنوان المجموعة الاولى من هذا الديوان : شقائق الطور ، وهي مكونة من مائة وثلاثة وستين بيتا من الشعر المترجم للعربية ، وهي رباعيات .

استعمل اقبال في « شقائق الطور » الزهور والطبيعة وخاصة الورد كثيرا ، ومن بين ما يقول فيها :

يقول الصنليب : ايا صاحبــي	اغير الفم في هذا التراب
يشيخ الشوك في عرض الفياض	وينوي الورد في عمر الشباب
ويقول ايضا :	

انا في المرج حديث الطيور	ومقول كل برعوم صفيـر
فاسلم للصبا بموتـي	فما لي غير طوف بالزهور

الورد يبدى كل شيء فما سر الشقائق فى لهيب
ويقول :

الام تعيش فى رث الالهـاب الام تعيش نملا فى تراب
فطر كالصقر معتزما وحلق الام اسير حب فى اليبـاب
تخذ فى الورد والازهار عشا ومن طير دروسا فى اتخـاب

اما المجموعة الثانية من ديوان اقبال « بياض مشرق » فهي بعنوان
« افكار » وهو يستهلها بقطعة عنوانها : « الورد الاول » يقول فيها :

لا ارى فى المروج لي من فروع انا اولى زهور هذا الريـع
ابتقي فى الغدير صورة نفسي لارى وجه مؤنس لي سميع
فى سطوري رسالة يـسـراع خط سطر الحياة فى ترصيع
امسى قلبي وعبرة اليوم عيني وغدي منيتي وكل بديع

وانا النجم خلفته الثريا

نسج الترب ثوب ورد عليها

وفى هذه المجموعة ايضا قطعة بعنوان « رائحة الورد » يقول فيها :
وحوراء فى الخلد ضاقت فقالت جهلنا بما تحتنا من جهات
يحير عقلي نهار وليـل وما قيل عن مولد او ممات
غدت ربح ورد وثمرت بفصـن بعالم مـاض وآت
وتفتح عينا وتبسم كما وبعد نماهـوت فى شتات
لهذي الطليقة لم تبق ذكـرى سوى آهة سميت بالشـداة

وقصيدة طويلة بعنوان « الريح » منها :

ودراجـه والقـطا في تهادي
على حافة النهر جنلي شوادي
شقيق وورد ضحوك ينادي
فطرك سرح بهذا المراد
هلم فان سحاب الريح
يخيم فوق الري والوهاد

وقد جعل اقبال من بين الالزمات التي يبدأ ويختم بها احد مقاطع
هذه القصيدة قوله :

هلم فـلـى الـرى والسـهـول قوافل ازهاره والـورود

اما في المجموعة الثالثة من ديوان « بياض مشرق » وهي بعنوان :
« الخمر الباقية » فنجد ايضا الريح والورد ، اذ يقول في احدى قطعها :

لا تفتـرد بـمـلـوم الكاس خـير شـهـيد
ضم الـرىـع شـتـيت الـوراق بالـتنفـيـذ
وبـث رـيحـا ولـونـا انـظـلـرنا فـي الـورود

ويقول في قصيدة بعنوان « النهر » :

يقصد البـحر ذا العـباب طـروبـا وعزوف عن كل شـيء غـريبـا
منحتـه يد الـرىـع طـريقـا من اقـاح ونرجس وشقـيق

يضحك الورد ان تلبث لدينا
وهو قال عرائس المرج ماضي
ويقول البرعوم : قف يا صديقي
في الرى والوهاد غير رفيق

وقال فى مجموعة « الخمر الباقية » ايضا مخاطبا العرب والمجم :

ليرد العرب دمعي داميـا
وليرد المـجم انفاـسي وقـد
روضة تنبت وردا وشقيقـا
ضوحت جناتهم روضا انيقـا

وفى مجموعة « نقش الافرنج » التي يناقش فيها الحضارة الفريية
المادية ، يقول اقبال فى قطعة بعنوان « شونهار ، ونيتشه »
وهما فيلسوفان لمانيان ، عرف
الاول بالتشاؤم وعرف الثاني باعجابه بالقوة الارادية (او ارادة القوة)

طائر من عشه يسير بروض
لعنا لروض والزمان ونـادى
وراي وسمة الشقائق جـورا
قال : ذي الدار شيدت باعوجاج
ناح حتى تقاطرت نغمات
وشجا الهدد النواح قوافـي
قال : اخرج من كل خسرة ربـما
فاصابته شوكة من زهـور
بثبور لنفسه والطـيور
وظلم البرعوم خدع خيـر
كل صبح بها الى ديجـور
من دماء بدمع عين غـرير
ينزع الشوك من جناح الكسير
مزق الورد صدره للمبـير

واجعل الجرح بلـسا فـسترضى

والف الشوك تغدو كلك روضـا

وفى مجموعة « دقاتق » من ديوان اقبال نجده يقول :

يقول ورد دوش عيش الريع اطي

وصبح مرج عندي من الجميع اطي
من قبل كل جور كف لزنة تقطفني
موت بعضن نصل من الفروع اطي

ويقول ايضا :

قطوف الورد لا تجزع لشوك كذاك الشوك من نفس الريع

ومما هو جدير بالذكر ان اكثر دواوين اقبال كانت باللغة الفارسية ،
وهذا ما دعانا الى ايراد شعره في الورد مع الأدب الفارسي .

4 - الحكم والمبر والأمثال :

نظامي كنجوي :

وردة الفجار

النساء أشبهه بوردة الفجار
في باطنها الخبث ، وفي ظاهرها الجمال .

سعدى الشيرازي : (21)

مقدمة جولستان

في مقدمة جولستان يتصور السعدى نفسه وهو في بستان حافل
بالأشجار الباسقة والأزهار اليانعة ، والفصل ربيع والبلبل يرتل أغانيه

(21) الشيخ مصلح الدين سعدى الشيرازي (1193 1 - 1291 م) ولد في شيراز وتعلم
في المدرسة النظامية ببغداد ، - كان من مريدي الشيخ عبد القادر الجيلاني -
ففى عمره فى الدرس والاسفار ، ونظم الشعر وتصف ، نقلت مؤلفاته الى لغات
عديدة ، الف كتابا فى الحكم والأمثال والاحلال ، وسماه « جولستان » اي جنة الورد.

وسقط العروش والأغصان ولكن الشاعر لا يعزب عن ذهنه إن كل هذه الأشياء هالكة ، ولذا فانه يقدم لصاحبه - عوض الورد والآس والسوسن الذي كان ملا بها اعطاف جلبابه - كتاب بستان الورد الذي لا تجري عليه رياح الخريف الهوجاء ، ولا تقدر أحداث الدهر وتقلبات الزمان ان تبدل بهجته ونصرتة الربيعية الى كآبة الخريف .

.....

« رايت يوما شجرة ورد تحيط بها طاقة من الأعشاب ، فصحت في نفسي : هل هذه الأعشاب في مقام الورد حتى تكون بجانبه وفي صحبته ؟ وهممت باقتلاعها فقالت لي في تواضع : « مهلا عليك ، حقا لست بوردة ولكن المرء يعلم من رائحتي بانني عاشرت الورد » (22) .

« غال الموت ولدي في صنعاء اليمن ، كيف أعبر لكم عن الألم الذي احاط بي بعد وفاته : ان المشيئة الربانية لم تصور وجهها اجمل من وجه يوسف الذي ابتلعه حوت القبر كما ابتلع الحوت يونس ، لم ينبت في هذا البستان الذي كنت تتجول في اطرافه » فاجاب الحكيم : « كنت عقدت تنبت الوردة على اديم الارض بعد ما دفن تحت التراب آلاف من الحسان ذوي الأعضاء اللينة كالورد » .

« يحكى ان حكيما اغرق بنفسه في حقل المشاهدة وبحر الالهام ، فلما افاق من سكرته مازحه احد اصحابه قائلا : « ماذا رجعت به لنا من هذا البستان الذي كنت تتجول في اطرافه » فاجاب الحكيم : « كنت عقدت النية على انني عندما ساصل الى شجرة الورد ، ساملا بالورود اذبال بردتي

(22) هذه القصة ترمز الى ان من صالح المرء ان يعاشر الاخيار لينال منهم الخير ويكسب على يدهم الرضى .

لأقدمها الى رفاقي ، فما ان وصلت اليها حتى اسكرني اريج الورد ، وافلتت من يدي اذيال بردتي » .

« كان ذلك اول يوم الشهر الجلالى (23) الثانى « آذار » ، وكان الببل يفتى فوق اغصانه وستطت لآلىء الندى على الوردة الحمراء مثل قطرات العرق التى تتساقط من خد جميل غضبان ، وقد لقيت صاحبي الذى ملا اذيال جلبابه بالورد والحبى والحوشن ، وساله العروس متجها نحو المدينة، فقلت له : « ان ورد البستان لا يدوم كما تعلم ، فقد قال الحكماء بان كل شىء معرض للفناء لا يستحق الحب » ، (24) فرد على قائلا : « ما هو السبيل الذى تهديني اليه اذن ؟ » فاجبته : « سانظم كتاب جولستان لشرح الصدور ومتعة الأنفس ، فلن تسلط عليه رياح الخريف فسوتها ولن تغير فيه تقلبات الدهر متعة الربيع انى خريف أهوج » .

ماذا يفيدك طابق من الورد ؟ احمل معك عوضه ورقة من بستان ورودي - الزهرة لا تدوم اكثر من خمسة او ستة ايام ، اما هذا البستان فانه يبقى جميلا على الدوام .

فما ان سمع كلامي حتى القى بالورود من اذياله واخذ بذيل جلبابي قائلا : « ان الرجل الكريم يفى بوعده » .

فسقط على ورق الكتابة فصل او فصلان فى تلك الايام كان موضوعها فى ادب المجتمع وقواعد المؤانسة بأسلوب ينفع الخطباء ويزيد فى فصاحة الكتاب ، وبكلمة ، فقد بقيت بعض الورود فى البستان عندما انتهت من كتابة كولستانى .

« لولا خشية الامواج لكنت فوائد البحر التى تجني من ركوب البحر طيبة ، ولولا الالم الذى تتركه الاشواك لكنت مصاحبة الورد شيقة .

(3) اشارة الى التاريخ الجلالى تمجيدا للسلطان السلجوقى الثالث جلال الدولة ملك شاه الذى بدل فى ايام دولته تاريخ السنة .

(24) فكرة صوفية ظاهرة .

كنت ليلة أمس آتية كالطاووس في فردوس الغرام ، وها أنا اليوم بعد
الهجران التوي من الألم كالشعبان » .

حافظ :

اقتن الخمر بزهدك

— ايها الزاهد العابد ، تعال اقطف الورد ، علق عباءتك بالأشواق
واقتن الخمرة الصافية الطيبة بزهدك ثمنا ، أطرح عنك عوائد صومعتك
واعتكافك عند سماع نغمات العود ، هات المال واسق الشاربين طيب المدام .

أجر المذال

— اذا انحنى علينا المترمتون باللام والعتاب ، وملأوا علينا شعاب
حياتنا بالأشواق ، اتبنا هؤلاء المتجهمين بالورد .

حديث الماذل

— لم ينج احد من حديث الناس وكلامهم ، ولم يقطف الورد احد
دون ان يجرحه شوكة .

حكمة ربانية

— ان الطبيعة الصناع التي تقدم لنا خمرتها الصافية ، هي تحكم
على الورد بتقطير نفسها على نار الانبيق .

عذاب سديد

— سقطت الورد في النار غيرة من جمال وجهك ، فصيرها
عطرك ماء ورد .

شهيد الشوك

— لون الوردة يصبغ قلبي بنجيع الدم

وانا شهيد شوكها على السدوم

في القصص : —————

الصمت حكمة « قصة فارسية »

كان يوجد بهمان مجمع علمي قائم على المبدأ التالي : وهو ان على علمائه ان يفكروا كثيرا ويكتبوا قليلا ويتكلموا اقل من القليل ، وقد علم احد حكماء ذلك الزمان الذي ذاع صيته في الافاق ان بالمجمع كرسيًا شاغرا .

وكان في امكانه ان يتربع عليه لو انه وصل غير متاخر ، تاسف اعضاء المجمع حيث اعطوا للنفوذ والسلطة المكان الذي كان يرجع بالاستحقاق الى العلم والحكمة ، ونظرا لكون الرئيس لم يعرف كيف يعبر عن تأسفه لهذا الموقف الذي اخجل جميع الاعضاء ، فقد طلب كاسا فارغة مלאها ماء حتى لو زينت قطرة اخرى فيها لطفحت ، وادرك العالم بواسطة هذه الاشارة انه لم يبق له كرسي في المجمع وارتد كئيبا ، وقبل ان يخرج من المكان رأي ورقة وردة بين قدميه ، فالتقطها من الارض ووضعها بلطف على ماء الكاس المملوء حتى ان قطرة واحدة لم تنزل من الكاس ، فصفق اعضاء المجمع لهذا الذكاء الخارق ورحبوا بالحكيم واجلسوه بينهم في المكان اللائق به .

— مترجم عن كتاب لغة الازهار لمدام لاطو . ص 66 —

فخر الدين أسعد جرجاني : (25)

من قصة ويس ورامين

لقد صب الدهر على وجهي ما يشبه فاقع الورد
كما خلط شبيه المسك من شعري بالكافور
ومن محياي قد فصم ماء المجلال
وقوس قدي البلوري الرشيقي كالسورة
.....

وردة جمالك وهي هكذا ذابضة
اهل لآلاف عبات الاعجاب
ففي عهد نصرتها حينما كانت فتية
كم كانت تأسر قلوب احرار الرجال
اذا احتسيت الشهد يوما مع من أسر قلبك
فلتنس هموم مائة عام
لست اوهى قلبا من البستاني
وليس حبك للحبيب اقل من تعلقه بحديقة الورد
الا ترى البستاني حين يفرس الورد
اي جهد يعاني حتى ينبت الورد
يظل النهار والليل بدون طعام ولا نوم

(25) عاش في النصف الاول من القرن الخامس الهجري واشتهر في عهد السلطان ابي طالب طغرل السلجوقي ، مات حوالي سنة 446 هـ - 1054 م ، لم يبق للأدب منه سوى قصة « ويس ورامين » التي اخذها عن الأدب الإيراني القديم .

فحينما يشذب منه ، وحينما يسقيه
وأننا يهرب نومـه من أجـله
وأننا تعاني يده وخر اشواكه
وهو يرى كل ذلك الجهاد
أملا أن يرى يوما امامه الورد مزهرا
.....

عز الدين المقدسي : (26)

حديث الورد

— « أخبرني الورد عن قدومها السعيد بريح عطرها الفواح ،
وقالت بلفتها الصامتة :

« أنا الضيف الزائر بين الشتاء والصيف ، وزيارتي قصيرة كضيف
الكرى ، عجلوا بالتمتع باللحظة العابرة التي اتفتح فيها ، وتذكروا أن الوقت
سيف باتر ، أنشر عطري على من يستنشق روحي ، وأبصت في نفس
الفادة الحسنة شعورا غامضا بالحب وهي تتناولني من يد حبيبها ، أن
زمن حياتي زيارة خاطفة للناس ، ولقد خل من أمل أنه سيملكني زمنا
طويلا » .

مصطفى القصري

الرباط

(26) من كتاب لعز الدين المقدسي عنوانه « الاطياف والاشجار » ، وهو يقدم نصائح للناس
في صورة وردة تتحدث . (مترجمة عن الفرنسية)

الأسبوع الثقافي

الأسبوع الثقافي الكويتي بالمغرب

توطيدا للروابط العريقة والعلاقات الاخوية والثقافية المتينة القائمة بين المغرب ودولة الكويت الشقيقة ، نظم بالمغرب اسبوع ثقافي كويتي افتتحه بمسرح محمد الخامس صاحب السمو الملكي ولي العهد الامير الجليل سيدي محمد ، الذي كان مصحوبا بالاستاذ السيد الحاج محمد اباحيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، والوزير المشرف على تربية اصحاب السمو الملكي الامراء والاميرات السيد محمد عواد ، وسفير دولة الكويت السيد عبد اله احمد حسين ، ورئيس الوفد الكويتي السيد خليفة الوحيان وذلك في مساء يوم الاثنين 13 ربيع الثاني 1399 الموافق لـ 12 مارس 1979 .

وقد بذل المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويتي مجهودات مشكورة لقد يمهده القظاهرة الثقافية الى الشعب المغربي تقديم يد دعم الاواصر التاريخية والحضارية المتصلة بين البلدين الشقيقين ، وعين للإشراف عليها نخبة من ذوي الكفاءات في مختلف الميادين ، كالادب ، والموسيقى والمسرح والسينما ، والفنون الشعبية والتشكيلية .

كما ان وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عملت - من جهتها - على تنظيم واشاعة هذا البرنامج الثقافي في عدد كبير من المدن المغربية ، وكان محتويا على سهرات موسيقية ، ومحاضرات وقراءات شعرية ، وعروض سينمائية ، ومعارض للكتب ، والفنون التشكيلية ، والازياء الشعبية .

حضر حفل افتتاح هذا الاسبوع بعض اعضاء الحكومة المغربية ، ورجال السلك الدبلوماسي العربي والاجنبي ، الى جانب مجموعة كبيرة من الشخصيات الثقافية والصحافية والعلمية .

وفي مستهل حفلة التدشين ، القى الاستاذ الحاج محمد ابا حنيسى خطاب الافتتاح .

وفيما يلي :

نصّ خطاب وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية السيد الحاج محمد ابا حنيسى

بسم الله الرحمن الرحيم ،

سيدي صاحب السمو الملكي ولي العهد ،

أيها الاخوة ،

أعد من نعم الله الكبرى ان يلتقى جناحا العروبة حيناً بعد حين ، ويتاح للاشقاء الذين تصل بينهم أكثر من آصرة ،

وتشدد بعضهم الى بعض ، وشائج الماضي المشترك ، والحاضر المشاع ، والمصير الواحد ، أن يتعرف قريب الى قريب ونسيب الى نسيب .

ونحن اذ نستقبل اليوم اخوانا وفدوا من الكويت الشقيق ، فانما نستقبل احبابا أعزاء ، وخلصنا اصفياء استقروا من قلوبنا في السويداء ، وان نرحلت بهم الدار ، وبعدت الشقة ، وقل على تعدده المزار .

ولئن كانت العادة الجارية والعرف المألوف ، يستوجبان في مثل هذا اللقاء ، ان يرحب المزور بالاخ الزائر ، فان ما بيننا وبين الكويت الحبيب من صلات اخاء قديم ، وروابط وداد مستحكم حديث ، لا يستدعي ان أطيل القول ، ولا ان أفيض في وصف ما يشيع في الفؤاد من مسرة وابتهاج وحسب الاخوة الضيوف الكرام أن يعلموا أن المغرب كله ، ملكه وحكومته وشعبه ، سعيد بمقدمهم الميمون ، شاكرا لوفادتهم البرة الجميلة ، عاقدا بهذا الاسبوع الثقافي الذي يقيمونه على أرضه أوسع الآمال، حريص على أن تسترسل هذه الايام القليلة مفعمة بكل ما يبهج ويسعد ، مليئة باشكال من الامتاع ، مخلفة وراءها الاثر الحميد والذكريات الغضة العذبة التي لا يبليها تجرم الايام .

ان الاسابيع الثقافية اذا كانت تحمل ركبها وتنقل من قطر الى قطر ، ، ضروبا من التعبير ، واصنافا من الابداع وانماطا من المعرفة وأفانين من التعريف بوجوه شتى من الحضارة قديمها وحديثها وتليدها وطريفها ، فانها الى هذا كله

وسيلة ناجعة من وسائل تقريب انسان الى انسان ، وايصال شعب الى شعب ، وهي من أجل هذه اداة فعالة من ادوات اعرف والتفاهم ، والتوافق والتواءم .

وان أمل المغاربة جميعا ، بالوقوف على ثقافة الكويت ، والاتصال بين الاخوة والاحباب ، والتعرف الى ما لم يتقدم الالمام به هنا وهناك أن تشرع الابواب وتتسع الآفاق ، وتنداح رحاب التعاون والتآزر ، والتضامن والتناصر .

ان بلدينا ، الحريصين على أن يسود اصقاع العالم أمن وسلام عادلان ، الساعيين بكل ما يملكان من حول وطول ، لحسم ما هو سارب في هذا الموطن او ذاك ، من عوامل التنافر والتناحر ، وأسباب التشاحن والتطاحن ، المتمسكين بالقيم والمواثيق الضامنة للحرمة والكرامة ، المتطلعين باستمرار ، الى تحقيق الرقى والازدهار ، والرخاء واليسار — ان بلدينا المؤتلفين المتضامنين لدائبان على تعاون مثمر بناء ، ومنتصبان مثالين حين لما ينبغى أن يتوثق بين الامم والشعوب من علاقات وأواصر ، ويتمكن في العالم بأسره من سعى للوثام واصرار على الخير .

ان الشعوب لا تقاس قيمتها بما يتسع لها من تراب وطني، ولا بما يتوافر لها من امكانيات ومقدرات ، وانما تقاس قيمتها بما جبلت عليه من خصائص وفطرت عليه من مزايا وفضائل ولا خير في شعوب وامم تيسر لها من الامكانيات والمقدرات الشيء الكثير ، وامتد ترابها الوطني امتدادا غير يسير ، ولكنها

حرمت مزايا الجد والاباء والحفاظ وحب العمل النافع للعموم، واستهداف الغرض الصالح للمجتمع البشري وجردت من فضائل الحكمة والاعتزان والنظر الى ما حولها من أنام ، نظر تقدير واعتبار واحترام ، وكل انسان لا يتجاوز نفسه ، او لا يحاول ان يتجاوزها في سبيل مثل عال من الامثلة العليا ، انسان يعوزه عنصر اساسى من عناصر الاريحية والكرم والشهامة وهى خلائق - كما تعلمون - لا ترتفع الانسانية بغيرها الى ذروة المثالية الحق ، والوجاهة الصحيحة ، والمجد الصراح .

وقد عرفناكم - ايها الاخوة - شعبا موصول العمل الهادف الى ما فيه صلاح بلادكم ، ونباهة شأنها وصلاح الامة باجتماع الكلمة العربية ، والتثام شمل العروبة والاسلام ، وانتشار ذكر العرب والمسلمين فى جميع الاقطار والامصار .

وها هو الشعب المغربى الذى يتوخى ، بقيادة عاهله العبقري صاحب الجلالة الحسن الثانى ، ما تتوخونه من مقاصد وأهداف ، وينشد للعروبة والاسلام ، الصيت البعيد ، والذكر الجميل ، ويبتغى - حريصا كل الحرص - أن يتبوأ العرب والمسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ، أسنى المراتب وأعلى الدرجات ها هو الشعب المغربى يحيى وفادتكم أخلص وأصدق التحيات ، ويستقبلكم معتزا شديدا الاعتزاز ، مبتهاجا عميق الابتهاج ، مؤملا أن تؤدى كل خطوة نخطوها متوافقين

متضامنين ، وكل مسيرة نسيرها متصادقين متآخين ، الى أعظم
النتائج فائدة ، وأحسن العواقب عائدة .

أسأل الله ان يطيل عمر عاهلينا الكريمين الملهمين ويمدهما
بتأييده وتوفيقيه ويبقى نعمه لشعبينا متواصلة مطردة ما تواصلت
الازمان ، وأطرت العصور ، انه سميع مجيب .

* * *

وبعد ذلك ارتجل سعادة سفير دولة الكويت الشقيقة خطابا قيما أعرب فيه
عن شكره بتفضل صاحب السمو الملكي ولي العهد الامير سيدي محمد ،
بتدشين الاسبوع الثقافي الكويتي ، كما نوه سيادته بخطاب معالي وزير
الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، وبالمجهودات التي بذلتها وزارة الثقافة
في تنظيم هذا الاسبوع في المملكة المغربية تدعيما للروابط الاخوية والثقافية
القائمة بين البلدين .

البرنامج العام للأسبوع الثقافي الكويتي بالمغرب

الاثنين بالرباط 1979/3/12

افتتاح المعارض بمسرح محمد الخامس حفل غنائي ساهر بمسرح محمد
الخامس .

الثلاثاء بالرباط 1979/3/13

محاضرة موضوعها (قضايا المسرح الكويتي) يلقيها الدكتور سليمان
الشطى ، بقاعة وزارة الثقافة . مسرحية « الزير السالم » . على مسرح
محمد الخامس .

الاربعاء بالرباط 1979/3/14

امسية شعرية يشارك فيها الاساتذة :

أحمد السقاف ، خالد سعود الزيد والآنسة نجمة ادريس بقاعة
وزارة الثقافة .

الخميس بالرباط 1979/3/15

محاضرة عن دور المرأة الكويتية في المجالات الثقافية والفنية
والاجتماعية ، تلقيها الآنسة لولوة القطامي ، بقاعة وزارة الثقافة .

الخميس بمراكش 1979/3/15

حفل غنائي ساهر بمدينة مراكش .

الجمعة بفاس 1979/3/16

دوة ادبية في مدينة فاس ، يشارك فيها :
الاستاذ خالد سعود الزيد والدكتور سليمان الشطى

الجمعة بالبيضاء 1979/3/16

عرض مسرحى في الدار البيضاء ، على خشبة المسرح البلدي

السبت بالرباط 1979/3/17

حفل ختامى ساهر بمسرح محمد الخامس .

مأدبة عشاء على شرف الوفد الكويتي

اقام السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية مساء الاحد 19
ربيع الثانى 1399 الموافق 18 مارس 1979 مأدبة عشاء تكريما لاعضاء
الوفد الكويتى بمناسبة الاسبوع الثقافى الكويتى بالمغرب ، حضرها

بعض الوزراء المغربية وسفير دولة الكويت بالمغرب ، وأعضاء من وزارة
الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية وصفوة من الشخصيات العلمية والثقافية.
وفي نهاية الحفلةلقى الشاعر المغربي الاستاذ على الصقلي قصيدة
بمعنوان « تحية » قوبلت بالأصفيقات الحارة من لدن الحاضرين .

الاسبوع الثقافي المغربي بالمملكة العربية السعودية

في نطاق التبادل الثقافي بين المملكة المغربية ، والمملكة العربية
السعودية الشقيقة ، نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
اسبوعا ثقافيا بالمملكة العربية السعودية من 16 الى 27 جمادى الاولى
1399 الموافق 25 ابريل 1979 الماضي ، افتتحه بقامة المحاضرات بالمرجع
صاحب السمو الملكي الامير فهد بن سلطان بن عبد العزيز ، وكيل وزارة
العمل والشؤون الاجتماعية للرعاية ، نيابة عن صاحب السمو الملكي
الامير فيصل بن فهد بن عبد العزيز ، الرئيس العام لرعاية الشباب ،
بسبب سفر سموه خارج المملكة ، والدكتور عباس الجراري ، رئيس
الوفد المغربي ، وكذا سفير صاحب الجلالة بالمملكة العربية السعودية
السيد محمد الناصري وسفير المملكة العربية السعودية بالمغرب ، السيد
فخري شيخ الارض .

حضر حفلة التدشين ، عدد من اصحاب السمو الامراء والمعالى
الوزراء ، وكبار المسؤولين ، ورجال السلك الدبلوماسي العربي والاجنبي
بمعية مجموعة كبيرة من الشخصيات الثقافية والصحافية والعلمية .

وقد لقي الاسبوع الثقافي المغربي اقبالا منقطع النظير تجلى ذلك
في قاعات العروض التي عرمت زوارا كثيرين اطلعوا على نماذج - من
الكتاب المغربي - التي تعكس ما يحافظ عليه الحضارة من نفائس
المخطوطات ، كما اطلعوا على نماذج من المطبوعات والمنشورات

المغربية ، وكذا معرض للصناعة التقليدية ، كما اقيم معرض آخر
اثنوغرافي اشتمل على بيت مغربي تقليدي ، ونماذج من الحلى
والاسلحة والازياء الحضرية والقروية التي اعجب بها الزوار ، بالإضافة
الى معرض المعالم التاريخية التي تبرز التطور المعماري المغربي خلال
العصور ، مع المحافظة على الطابع المغربي الاصيل ، كما اثار معرض
الفنون التشكيلية المغربي ، انتباه الزائرين الذين عبروا عن اعجابهم
بالنهضة التشكيلية بالمغرب .

وقد شمل نشاط الاسبوع المغربي اهم المدن السعودية ، كالرياض
وجدة ، وبريدة ، والظهران ، والدمام ، ومكة . ولقيت خلاله عدة
محاضرات وندوات وقراءات شعرية ، وسهرات فنية . كما لا يفوتنا
ان نسجل النجاح الكبير الذي لقيه جميع السهرات التي احيتهما
الفرق الموسيقية والفولكلورية المغربية بالمدينة المذكورة .

كما نظم على شرف الوفد المغربي عدة حفلات وزيارات للتعرف على
نهضة الشعب السعودي في مختلف المجالات خصوصا الثقافية منها .

وإثناء حفلة التدشين التي اقامها صاحب السمو الملكي الامير فهد بن
سلطان بن عبد العزيز وكيل وزارة العمل والشؤون الاجتماعية للرعاية .
خطابا ترحيبيا افتتح به نشاط الاسبوع الثقافي المغربي .

وفيما يلي :

خطاب صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم ،

ضيوفنا الاعزاء اخوانى واشقائى ابناء المغرب الشقيق .
يسعدنى ويسرنى أن افتتح الاسبوع الثقافى المغربى

في المملكة العربية السعودية وأحب أن أؤكد على شيء مهم
نشعر به في المملكة العربية السعودية تجاه اخواننا الاشقاء
في المغرب وهو اننا نعتبر انفسنا بلدا واحدا وشعبا واحدا
نسير لخدمة الاسلام وخدمة الامة العربية وبدون شك ان
شباب هذين البلدين هم الركيزة الاولى التي يمكن أن تصل
ببلادنا باذن الله الى المستوى الذي نريده لها .

في هذه المناسبة ، اود ان أكرر الشكر لما لقيناه من حفاوة
وتكريم عندما افتتح الاسبوع الثقافي السعودي في المغرب
الشقيق وجدنا الحب ووجدنا الكرم ووجدنا الاصاله ، نتمنى
بحول الله وقوته أن نستطيع ان نرد بعض ما لقيناه في المغرب
الشقيق .

أيها الاخوة نعرف بأن الثقافة والفنون هي المرآة التي
من خلالها نستطيع أن نحكم على مدى تقدم هذا البلد ومدى
الدرجة التي وصل اليها بالنسبة لحضارته ، فالفن والثقافة
هي الحياة ، وبدونها قد يعيش الانسان ولكن لن يعيش حياة
سعيدة بدون شك .

انكم في بلدكم وباسم شباب المملكة العربية السعودية ،
نرحب بكم ونرجو أن تعتبروا انفسكم في بلادكم ونتمنى ان
شاء الله أن نوفق في أن نرد كما ذكرت في السابق بعض ما
لقيناه في المغرب الشقيق .

اتمنى كل النجاح للاسبوع الثقافي المغربي واتمنى أن
تنقلوا تحياتنا الى الشعب المغربي الاصيل ، وأتمنى أن يديم

الله سبحانه وتعالى علينا نعمة الاسلام وأن يحفظ لبلدنا
أصحاب الجلالة الملك خالد بن عبد العزيز والملك الحسن الثانى.
أشكركم واتمنى لكم طيب الإقامة والسلام عليكم
ورحمة الله .

* * *

وبعد ذلك اجاب سموه الدكتور عباس الجراري رئيس الوفد
المغربى بالخطاب المرتجل التالى :

نص الخطاب المرتجل الذي اجاب به رئيس الوفد الدكتور عباس الجراري

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول
الله ، وعلى آله وصحبه ،

حضرة صاحب السمو ،
أصحاب المعالي والسعادة
أيها الاخوة الاعزاء ،

فى غمرة هذا الجو العبق العطر المفعم بشرا وابتهاجا ،
واشراقا ، ومحبة ، تبدو الكلمات غير قادرة على التعبير عن
مدى الاثر العميق الذى خلفه ترحيبكم الكريم بنا ، والذى
تركته عبارات الاكبار والتقدير البليغة التى صدرت من
سموكم صادقة خالصة نحو المغرب وملكه وشعبه . وان الكلمات
لتبدو كذلك غير مسعفة فى ابداء ما نريد الادلاء به وفيما نود

الاعراب عنه لسموكم من جزيل الشكر وعظيم الامتتان على
حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة وعلى المجهودات الجبارة
التي بذلها الاخوة السعوديون لانجاح هذا الاسبوع .

سیدی صاحب السمو ،

منذ نحو من سنتین ، أقامت المملكة العربية السعودية
الشقيقة أسبوعاً ثقافياً في ربوع المملكة المغربية كان له الأثر
الحمید والصدى البعید ، وكان بحق بادرة طيبة كريمة ولبنة
أساسية في تأكيد عرى التبادل الثقافي بين البلدين ، ونحن إذ
ننظم أسبوعنا الثقافي في هذا البلد الحبيب ، لا نقوم بمجرد الرد
فقط ، ولكننا ننظمه ونحن نعتقد جازمين بان التبادل الثقافي
أساسي في ارساء الدعائم وتثبيت الروابط . واننا جميعاً في
حاجة الى ان نقوى هذا التبادل وندعمه ونثبته .

ان العلاقات بين بلدينا عميقة وواسعة ومتعددة الجوانب
والملامح ، ولكن الحامها بالقيم والمقومات الثقافية المتبادلة لمن
شأنه أن يحصنها ويعطيها مزيداً من القوة والرسوخ ، وان
يفتح لها العديد من الآفاق والابعاد

سیدی صاحب السمو ،

لقد جئنا اليكم في هذا الاسبوع بانماط من ثقافتنا متخيرة
ومتنوعة ، تتوسل بالكلمة المكتوبة والمنطوقة ، وبالتشكيل والنغم
والايقاع ، وبالعمل اليدوي الدقيق . هي جميعها تلتقي لتبرز
خصائص ثقافتنا او بعضها منها على الاقل .

انها ثقافة وطنية باعتبارها تعكس خصوصيات البيئة المغربية، ولكنها في نفس الآن ذات جذور ومنطلقات عربية اسلامية

ثم انها ثقافة واقعية تتسم بالحدائة ، ولكنها تلتحم مع التراث الجيد الايجابى فى محاولة لحل معادلة الاصالة والمعاصرة

وهى بعد هذا ثقافة تعتمد فى جانب قيم المحببة والسلم والمعايشة والتضامن ، ولكنها فى جانب آخر ثقافة جهاد وكفاح ونضال ، تقف فى الطليعة لحماية الذات ومقوماتها الوطنية والقومية والدينية ، والحفاظ على الكيان ، والدفاع عن الوحدة الترابية ، ومواجهة كل انواع التسلط والتدخل والعدوان

واننا لنلتقى فى كثير من هذه الخصائص ، وفى هذه بالذات. ولعلنى هنا أن أسجل – وقد سجل التاريخ من قبل – وقفه الشهامة والبطولة التى وقفها اخوتنا السعوديون الى جانب المغاربة فى المسيرة الخضراء التى حررت أرض الصحراء من ربقة العبودية والاستعمار .

سيدي صاحب السمو ،

ان المملكة العربية السعودية والمملكة المغربية تتحملان أمام الله وأمام التاريخ وأمام الامة العربية الاسلامية رسالة جسيمة ومسؤولية خطيرة ، وان الطريق أمامهما طويل وبعيد ، ومحفوف بالكثير من المصاعب والعراقيل ، ولكنهما لا بد واصلتان ومحققتان الاهداف التى تطمحان الى تحقيقها . وما ذلك بعزيز

على الله وعلى همة صاحب الجلالة الملك خالد وسمو الامير فهد،
وعلى همة جلالة الملك الحسن الثانى المؤيدين بالله .

سيدى صاحب السمو ،

اسمحوا لى فى ختام هذه الكلمة أن أرجو منكم التفضل بنقل
تحيات معالى وزير الدولة ، المكلف بالشؤون الثقافية الاستاذ
الحاج محمد أبا حنينى ، وتحيات جميع أعضاء الوفد المشارك
فى هذا الاسبوع ، الى حضرة صاحب السمو الامير فيصل بن
فهد وإلى كل الاخوة الذين أتاحوا لهذا الاسبوع أن يشهد النور
ويكتسى هذه الحلة القشبية .

وشكرا لسموكم، والسلام عليكم ورحمة الله

برنامج الاسبوع الثقافى المغربى بالمملكة العربية السعودية

السبب 14 ابريل 1979

وصول البعثة المغربية الى مطار الرياض

الاحد 15 ابريل 1979

تهيئ المعارض والاعداد لحفل الافتتاح .

صباحا : مقابلة سمو الامير سلمان بن عبد العزيز ، امير منطقة
الرياض

مساء : حفلة عشاء تقيمها امانة مدينة الرياض بنادي
الفروسية .

الاثنين 16 ابريل 1979

صباحا : زيارة اصحاب المعالي وزراء التعليم العالي - الاعلام -
المعارف .

مساء : زيارة منزل الشيخ عثمان الصالح .

الثلاثاء 17 ابريل 1979

بالرياض : في الساعة الخامسة مساء حفل الافتتاح بتدشين المعارض
في قاعة المحاضرات بالربيع ، وتشتمل على :

- المعرض الاتنوغرافي (بيت مغربي تقليدي - نماذج من الحلوى
ولا اسلحة والازياء الحضرية والقروية) .

- معرض مسيرة العمارة الاسلامية بالملكة المغربية

- معرض الكتاب المغربي وصور المخطوطات .

- معرض الصناعة التقليدية

- معرض الفنون التشكيلية

وفي الساعة الثامنة مساء ، حفل تكريمي تقيمه الرئاسة العامة لرعاية
الشباب على شرف الجمعية المغربية .

الاربعاء 18 ابريل 1979

بالرياض : في الساعة الثامنة والقصف مساء بقاعة المحاضرات بالربيع
تنظم سهرة فنية كبرى بمشاركة :

- جوق الطرب الانطلسى لمدينتى فاس وتطوان .
- جوق الموسيقى المصرية لدار الاداعه والتلفزة المغربية .
- المطربين ، عبد الهادى بلخياط / عبد الوهاب الدكالى / محمد

الحيانسى

مجموعة جيل جيلالة .

— فرقة « تسكيوين » للفنون الشعبية

— فرقة « حاحا » للفنون الشعبية

— فرقة « الاخوان بوجمعة »

بجدة :

محاضرة يلقيها الدكتور عباس الجراري في موضوع : « ملامح متميزة
في مسيرة الابد المفرى » وذلك بعد العشاء بجامعة الملك عبد العزيز .
بابها :

قراءات شعرية يشارك فيها الاستاذان : مولاي على المصطفى وعبد
الواحد اخريف

الخميس 19 أبريل 1979

بالرياض :

سهرة فنية كبرى يشارك فيها الاجواق والفرق الساققة الذكر
في الساعة الثامنة والتصف مساء بقاعة المحاضرات بالمرج

ببريدة :

محاضرة يلقيها الاستاذ عبد الرحمن القاسى فى موضوع ، الحسبة
من الناحية النظرية وانتطيقية والتزوينية

ونلك بعد العشاء فى فرع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميه

الجمعة 20 ابريل 1979

ظهرا : سفر الاجواق الموسيقى والفرق الشعبية الى المنطقة الشرقية

السبت 21 ابريل 1979

ظهرا : سفر ادارة البعثة من الرياض الى المدينة .

بالظهران :

سهرة فنية كبرى يشارك فيها الاجواق والفرق السالفة الفكر فى
الساعة الثامنة والتصف مساء بقاعة جامعة البترول والمعادن .

بالدمام :

محاضرة يلقيها الاستاذ عبد الرحمن القاسى بعنوان : « الشاعر ابن
زيدون والبطشة الكبرى » . ونلك بعد العشاء بجامعة الملك فيصل

بالرياض :

محاضرة يلقيها الدكتور عباس الجراري فى موضوع : « الدعوة السلفية
وحركات الإصلاح الدينى فى المغرب » .

وذلك بعد العشاء بجامعة الرياض

— اختتام المعارض

الاحد 22 أبريل 1979

صباحا : نقل المعارض من الرياض الى جدة

— سفر الاجواق الموسيقية والفرق الشعبية الى المدينة

ظهرا : سفر ادارة البعثة الشعبية من المدينة الى جدة .

بالرياض :

محاضرة يلقيها الدكتور المهدي بنعبود في موضوع « عقيدة المستقبل
البشري » وذلك بعد العشاء بجامعة الرياض

بمكة :

قراءات شعرية يشارك فيها الاستاذان : مولاي علي الصقلي وعبد
الواحد اخريف وذلك بعد العشاء في فرع جامعة الملك عبد العزيز .

الاثنين 23 أبريل 1979

بجدة :

سهرة فنية كبرى يشارك فيها الاجواق والفرق السالفة الفكر،
وذلك بصالة الاجتماعات الكبرى بادارة التعليم في الساعة الثامنة والنصف
مساء .

بإظهاره :

**محاضرة يلقيها الدكتور المهدي بنعبود في موضوع : القوانين الثابتة
لتدبير المجتمعات البشرية وذلك بعد العشاء بقاعة جامعة البترول والمعادن**

الثلاثاء 24 أبريل 79

توجه البعثة المغربية الى مكة المكرمة والعودة منها الى جدة في المساء

الأربعاء 25 أبريل 1979

عودة البعثة المغربية المشاركة في الاسبوع الى المغرب .

دورة تدريبية حول "التقنين الدولي للوصف البيليوغرافي"

تنفيذا للتوصية الواردة في المؤتمر الاعداد البيليوغرافي المنعقد في مدينة الرياض اواخر نونبر 1973 ، قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتنظيم دورة تدريبية بالقاهرة من 10 الى 15 مارس 1979 حول موضوع : « التقنين الدولي للوصف البيليوغرافي » وذلك لفائدة خبراء الفهرسة في الاقطار العربية .

وقد اوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية الى القاهرة في التاريخ المحدد السيد محمد بوجندار ، من الخزانة العامة بالرباط لحضور هذه الدورة .

وقد كان جدول أعمال الدورة يتضمن النقاط الآتية :

- 1 - في 10/3/1979 افتتاح الندوة بإعطاء عرض تحليلي لموضوع الدورة « التقنين الدولي للوصف البيليوغرافي » .
- 2 - في 11/3/1979 (1) الوصف البيليوغرافي المغرب لسنة 1975
(2) الوصف البيليوغرافي المغرب لسنة 1976
- 3 - في 12/3/1979 (1) تقارير الاقطار العربية من امكانية تطبيقات هذا الوصف .
(2) تقديم النماذج ومناقشتها .
- 4 - في 13/3/1979 مناقشة النماذج من جديد
- 5 - في 14/3/1979 تطبيقات عملية
- 6 - في 15/3/1979 مناقشة واقرار خطة الوصف البيليوغرافي وتطبيقه في الاقطار العربية

مشاركة المغرب في الندوة العلمية للميثولوجيا اليونانية الرومانية

انعقدت بباريس في الفترة المتراوحة ما بين 18 و 19 ماي 1979 ندوة علمية تتعلق بالميثولوجيا اليونانية الرومانية ، نظمها المركز الوطني للابحاث العلمية الفرنسية ، والتي دار موضوعها حول مدى تكيف وتغيير الميثولوجيا في المناطق النائية للامبراطورية الرومانية .

هضر هذه القدوة ممثلون عن احدى وثلاثين دولة من بينها المغرب الذي منقلته السيدة نعيمة الخطيب بوجهبار الاستاذة المختصة في الآثار اليونانية الرومانية والثانية الجهوية للشؤون الثقافية بالدار البيضاء .

وفي يوم 20 ماي 1979 انعقد كذلك بنفس المكان الاجتماع العلمي لمؤسسة القاموس الاقوينسي للميثولوجيا اليونانية الرومانية حيث اعطى كل من السيد المدير العام للمؤسسة ، والسيدة الكاتبة العامة والسيد المتصرف المالي بها تقاريرات عن المتجزات والاعمال التي قامت بها هذه المؤسسة خلال السنتين الفارطتين وكذا البرامج والاهداف التي اتود تحقيقها خلال السنتين المقبلتين سواء من الناحيتين العلمية والمالية ، او من حيث علاقات المؤسسة مع دول العالم .

الناحية العلمية :

فمن الناحية العلمية حصلت المؤسسة على مجموعات هائلة من الوثائق والصور والمقالات المتعلقة بتاريخ الفن اليوناني الروماني ، حيث انها تتوفر حاليا على نموذجين من هذه المعلومات يوجد واحد منها في مدينة باريس ، ويوجد الثاني في مدينة بال بسويسرا .

ونظرا لكثرة هذه الوثائق اضطرت المؤسسة الى استعمال المحافظة الالكترونية من اجل تجميع هذه المعلومات وترتيبها وذلك بقصد تهيء الجزء الاول من القاموس المذكور والذي سيخرج الى الوجود سنة 1980 كما كان مقرا .

الناحية المالية :

ومن الناحية المالية كانت المؤسسة تتلقى مساعدات من مراكز الابحاث العلمية في الدول النامية ، وفي سنة 78 حصلت كذلك على مساعدات من منظمة اليونسكو ، ومن بعض الدول التي هي في طريق النمو كدولة تونس مثلا .

وعلى اثر هذه المساعدات تسهم المؤسسة في الرفع من مستوى المختصين في الميدان الاثري ، حيث نظمت عدة تدريبات من هذا القبيل في بعض الدول العربية كالاردن وتونس والجزائر .

مشاريع المؤسسة خلال سنتي 79-80 :

اما عن مشروعات المؤسسة خلال سنتي 79-80 فهي كما يلي :

(1) تنظيم ندوة علمية حول شخصية الاله (هركل مالكارت) ، في دول البحر الابيض المتوسط .

(2) الاستمرار في ربط صلات مع دول العالم بغية جمع اكبر عدد من الوثائق والمعلومات المتعلقة بهذا الموضوع ، وذلك بقصد تهيء الجزء الثاني من القاموس .

(3) العمل من اجل حث دول العالم على تقديم مساعدات مادية للمؤسسة ولو كانت بسيطة .

(4) استمرار المؤسسة في مساعدة الدول العربية بالرفع من تكوين المختصين في الميدان الاثري وذلك بمساهمة منظمة اليونيسكو .

ومن هذه الناحية ستنظم المؤسسة خلال هذه السنة 79 ثلاثة تدريبات في بعض الدول العربية .

وبعد الانتهاء من تلاوة هذه التقارير ، اعطيت الكلمة الى ممثلي الدول المشاركة في هذا الاجتماع لتقديم عروض عن النشاطات التي عرفتها بلدانهم في هذا الميدان ، حيث تدخلت ممثلة المغرب بعرض تحدثت فيه عن الابحاث الاثرية التي قام بها المغرب خلال السنتين المنصرمتين ، خصوصا فيما يتعلق باحصاء القطع الاثرية وترتيبها ودراستها ، وتعيين اطر مختصة على راس المناطق والمتاحف الاثرية ، وتنظيم تدريبات تهدف الى تحسين مستوى المختصين في الميدان الاثري .

وتبعا للنقطة المدرجة في برنامج المؤسسة ، والمتعلقة بإجراء تكوين للآثرين خلال هذه السنة في بعض الدول العربية ، تمت ممثلة المغرب بان يحظى بلدها بالمساعدة التي تقدمها منظمة اليونسكو في هذا الميدان ، حيث قبلت المؤسسة طلبها بكامل القرحاب .

الأيام الثقافية المنظمة بمدن الجنوب أسفى، الصويرة، أكادير، تارودانت، تافراوت، سيدي افنى، تزنيت من 24 ماي إلى 3 يونيو 1979

رغبة في تقريب الثقافة من المواطنين ، وجريا مع السياسة التي تنهجها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في رفع شعار « الثقافة للجميع » وذلك بايصال الانشطة الثقافية الى المناطق النائية من البلاد ، نظمت الوزارة اياما ثقافية متنوعة بمدن الجنوب : أسفى - الصويرة - أكادير - تارودانت - تزنيت - تافراوت - سيدي افنى ، وذلك في الفترة الواقعة ما بين 24 ماي و 3 يونيو من سنة 1979 .

وقد امتازت هذه الايام بثرائها ، وغنى موادها ، فقد احتوت على محاضرات - القاها أساتذة مختصون - في موضوعات متنوعة الى جانب عروض مسرحية للعموم ، وعروض لمسرح العرائس لاطفال المدارس الابتدائية ، وعروض موسيقية مصحوبة بتعليقات وشروح توعى المواطن بتراثه الموسيقى الزاخر ، ومعارض متنوعة للكتاب المغربى ، والمخطوطات المصورة والمباني الاثرية والمسكوكات ، والرسوم ، وقد كانت هذه التظاهرة تقام ثلاثة ايام في كل مدينة ، تفتتح مرة بتدشين المعرض في الاماكن التي تقرر اقامة المعرض بها بمحاضرة الاستاذة حبية البورقادية كما كانت تختتم هذه الايام بمسرحية « اوليدات الزنقة » التي قدمتها فرقة البدوي للمسرح .

نفى مدينة أسفى ، وهى منطلق هذه التظاهرات شهدت يوم 24 ماي 1979 حفل تدشين المعرض الثقافى بقاعة الشبيبة والرياضة حيث

تم الحفل في موكب رسمي رأسه عامل الاقليم الى جانب الباشا ورئيس المجلس البلدي بالاضافة الى جمهور من المثقفين . وقد أبدى الجميع اعجابه بهذا المعرض التثقيفي الهام . وكذلك كان الشأن بالنسبة لمعرض اكادير الذي افتتحت به ايام اكادير الثقافية ، والذي دشنته باشا المدينة والسيد الكاتب العام للعمالة ، وذلك يوم 26 ماي 1979 . اما في مدينة تارودانت ، لقد دشن المعرض الثقافي في اليوم الثاني التظاهرة الثقافية بهذه المدينة ، والذي صادف 29 ماي 1979 ، لانه لم يكن مقرر اقامة المعرض بها ، الا ان المشرفين على تنظيم هذه الانشطة لمسوا رغبة جمهور تارودانت ، مدينة العلماء والفقهاء الكبار ، في التعرف على محتويات المعرض ، فنقل من قاعة البلدية باكاير ، الى معهد محمد الخامس بتارودانت .

وفيما يتعلق بالمحاضرات التي استأذت حبيبة البورقادية محاضرة قيمة في موضوع « الثقافة في خدمة المجتمع » ، وذلك في كل من مدن : آسفي - الصويرة - اكادير - تارودانت - تافراوت - سيدي ايمنسي بتاريخ 24 ، 25 ، 26 ، 28 ، 30 ، 31 ماي وفاتح يونيو من سنة 1979 . كما ألقى الاستاذ عبد الله المعاوي بنفس المدن وفي اليوم الثاني لهذه التظاهرة بكل مدينة محاضرة بعنوان « مساهمة الجمهور في تطور المسرح المغربي » وذلك ايام 25 ، 26 ، 27 و 29 ، 31 ماي و 1 ، 2 يونيو من نفس السنة . أما الدكتور المهدي ابن عبود ، فقد ألقى في جمهور آسفي والصويرة محاضرة في موضوع : عقيدة المستقبل البشري ومواجهة الشباب للتيارات المعاصرة » وذلك يومي 26 و 27 ماي 1979 . كما ألقى الدكتور عبد الله الطيب محاضرتين قيمتين : كانت الاولى بمدينة اكادير يوم 28 ماي في موضوع « من قضايا القصيدة المعاصرة » وكانت الثانية بمدينة تارودانت بقاعة معهد محمد الخامس يوم 30 ماي في موضوع : « منزلة المدائح النبوية من الادب العربي » . هذا وقد شارك الاستاذ الحسن الشاهدي بدوره في هذه السلسلة من المحاضرات القيمة بمحاضرة في موضوع : « اسهام الجنوب في الثقافة المغربية » وذلك في كل من تيزنيت بتاريخ فاتح يونيو وتافراوت بتاريخ 2 يونيو وسيدي ايمنسي 3 يونيو 1979 .

وقد لقيت جميع المحاضرات اهتمامات كبيرا واستحسانا عظيما من لدن الجماهير .

وفي أيام الافتتاح كان سكان المدن يعيشون في التاسعة ليلا مع حفلة من موسيقى الآلة ، وطرب الملحون ، حيث أحييت الفرقة الموسيقية لمعهد مولاي رشيد بالرباط حفلة من الموسيقى الاندلسية ، كما أحيى جوق مدينة مكناس برئاسة الحسن التولالي سهرة من طرب الملحون طرب لها الجميع وتذوقها الجمهور ، بحيث اشتملت على منتخبات اندلسية صرفة وبعض القصائد من تراثنا الشعبي الخالد . وقد شهدت المنطقة اقبالا منقطع النظير وتجاوبا كبيرا أكد ذلك مشاركة أحد المتذوقين بمدينة الصويرة بإحدى قصائد الملحون ، وقد كانت مشاركته في المستوى كما استمتع بهذه السهرات ما يقرب من الف الى الف وخمسمائة شخص عن كل مدينة .

ثم يأتي مسرح العرائس للأطفال الذي شهد بدوره نجاحا كبيرا حيث كان موعد الاطفال مع المسرح الصغير في اليوم الثالث بكل مدينة وذلك في الساعة الرابعة بعد الزوال ، وقد كانت فرقة العرائس التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية تقدم عرضين بدل عرض واحد ، لما وجدته في أطفال المدن من تتبع للمسرحيات بشغف واهتمام كبيرين . وقد استفاد من هذه العروض عدد غفير من الاطفال .

أما مسرح العموم ، فقد حظى بالنصيب الاوفر من هذه النشاطات حيث كانت تقدم المسرحيتان في ظرف ثلاثة أيام التي كانت تشهدها المدينة . الاولى في اليوم الثاني (الساعة العاشرة ليلا) قدمتها فرقة الجيل الصاعد للهواة بعنوان « العرض المسرحي والثانية تختم بها الايام الثقافية لفرقة البدوي بعنوان « اوليدات الزنقة » .

ولقد لقي مسرح الكبار بدوره اقبالا كبيرا في كل المدن ، فغصت القاعات المهيأة للعرض بعدد غفير من الجمهور الذي صنف للمسرحيتين بحرارة .

مجلد القول ان هذه التظاهرة روت ظمًا 12 الف من سكان آسفى،
و 10 آلاف من سكان الصويرة ، و 13 الف من سكان أكادير . و 14 الف
من سكان تارودانت ، و 8.000 من سكان تيزنيت ، و 5.000 من
سكان تافراوت ، و 11 الف من سكان سيدي آيفنى .

نقد شاهدت منطقة الجنوب نجاحا عظيما وذلك بفضل تضامير
المجهرودات التى بذلتها السلطات والجماعات المحلية لانجاح هذه التظاهرة
الثقافية .

وتجدر الاشار الى ان عامل اقليم تيزنيت السيد احمد العلى
اسهم بدوره فى أيام سيدي آيفنى الثقافية حيث افتتحها بمحاضرة قيمة
فى موضوع : « مسؤولية الشباب المسلم فى التوعية الاسلامية » .

كما القت الاستاذة حبيبة البورقادية ، بطلب من الاتحاد النسائى
بسيدي آيفنى محاضرة تربوية توجيهية أمام عدد كبير من نساء المدينة
حول « دور المرأة فى معركة التحرير والبناء » .

احتفالات الذكرى الخمسينية لميلاد صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثانى

احتفاء بالذكرى الخمسينية لميلاد صاحب الجلالة الحسن الثانى
نصره الله وادم فى عمره ، والتى تصادف احتفالات عيد الشباب المجيد
عيد القعبنة والبناء ، وتحت شعار « طفل اليوم رجل الغد » نظمت وزارة
الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية برنامجا ثقافيا هاما اشتمل على عروض
مسرحية وحفلات موسيقية ، وعروض لمسرح العرائس لفائدة اطفال
المخيمات الصيفية وذلك خلال شهر يوليوز 1979 حسب البرنامج التالى:

الاثنين 6 شعبان 1399 - 2 يوليوز 1979

في العاشرة ليلا بمدينة أصيلة

- حفلة من الموسيقى الاندلسية أحيها جوق البريحي التابع للمعهد الوطني للموسيقى بفاس برئاسة الفنان الحاج عبد الكريم الرايس
- حفلة من طرب الملحون أحيها جوق المعهد الوطني للموسيقى بمراكش .

الأربعاء 8 شعبان 1399 - 4 يوليوز 1979

في العاشرة ليلا بقاعة الانمراح بمدينة اكادير

- أحيى اساتذة وطلبة المعهد الموسيقى بمدينة اكادير حفلة فنية بمناسبة عيد الشباب السعيد وانتهاء السنة الدراسية .

الخميس 9 شعبان 1399 - 5 يوليوز 1979

بمدينة أصيلة

في التاسعة ليلا بالساحة العمومية

- حفلة من مسرح العرائس أحيها فرقة العرائس التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

— بمدينة القنيطرة

في السابعة مساء بقاعة الغرفة التجارية

- الاستاذ ابراهيم ابن بركة حاضر في موضوع : « الاقتصاد المغربي من خلال المخطط الثلاثي »

— بتارودانت

في التاسعة ليلا بقاعة المعرض

- المعهد الوطني للموسيقى بمراكش

أحيى حفلة من الموسيقى الاندلسية وطرب الملحنون
الجمعة 10 شعبان 1399 - 6 يوليوز 1979
بمدينة أصيلة

في العاشرة ليلا

● أحيى جوق المعهد التطواني للموسيقى الاندلسية ، بمشاركة
المجموعة الصوتية النسوية حفلة من الموسيقى الاندلسية .

كما قدمت فرقة مسرح محمد الخامس
مسرحية « اليناصيب »

الاثنين 13 شعبان 1399 - 9 يوليوز 1979

في العاشرة صباحا بقاءة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
● قدمت فرقة مسرح العرائس حفلة من مسرح العرائس في
عرض جديد

في التاسعة ليلا بمسرح محمد الخامس

● حفلة فنية كبرى بمشاركة المع المطربين والمغنيين المغاربة
الاغنية المغربية في خمسين سنة
بمشاركة مجموعة من الاجواق الفنية الكبرى

الثلاثاء 14 شعبان 1399 - 10 يوليوز 1979

بقاعة الافراح بمدينة سلا

● فرقة مسرح العرائس التابعة للوزارة

قدمت حفلا من مسرح الاطفال

الاربعاء 15 شعبان 1399 - 11 يوليوز 1979

في التاسعة ليلا بمخيم تمارة

● فرقة مسرح العرائس قدمت حفلا من مسرح الاطفال
الخميس 10 شعبان 1399 — 12 يوليوز 1979

في التاسعة ليلا بمخيم عين خرزوزة

● فرقة المسرح المركزي بمدينة وزان قدمت حفلا من مسرح
الاطفال .

في الخامسة مساء بقاعة الحفلات بمدينة أيفران

● فرقة البدوي قدمت حفلا لمسرح الاطفال في السابعة مساء
بالهواء الطلق بمدينة ايفران

● جوق المدرسة الوطنية للموسيقى بمكناس قدم حفلا من
الموسيقى الاندلسية وطرب الملحون .

بمدينة المحمدية :

● فرقة مسرح العرائس التابعة للوزارة قدمت حفلا للاطفال .
الجمعة 17 شعبان 1399 — 13 يوليوز 1979

بمدينة الجديدة في التاسعة مساء

● فرقة مسرح العرائس التابعة للوزارة قدمت حفلا من مسرح
الاطفال

بمخيم تيومليلين في التاسعة مساء

● فرقة المسرح المركزي بوزان قدمت حفلا من مسرح الاطفال .
بمدينة ايفران بقاعة الافراح في الخامسة مساء

● فرقة البدوي قدمت حفلا من مسرح الاطفال

في العاشرة ليلا

● فرقة البدوي قدمت مسرحية « رأس الدرب »

السبت 18 شعبان 1399 — 14 يوليو 1979

في التاسعة ليلا بمخيم ابن صميم

● فرقة المسرح المركزي بوزان قدمت حفلا من مسرح الاطفال بمدينة ايفران :

في الخامسة مساء بقاعة الانراح

● فرقة البدوي قدمت حفلات من مسرح الاطفال

في العاشرة ليلا بقاعة الانراح

● فرقة البدوي قدمت مسرحية « راس الحرب »

الاحد 19 شعبان 1399 — 15 يوليو 1979

— بمخيم راس الماء

في التاسعة ليلا

● فرقة المسرح المركزي بوازن قدمت حفلا من مسرح الاطفال — بمدينة ايفران :

في الخامسة مساء

● فرقة البدوي قدمت حفلا من مسرح الاطفال

في العاشرة ليلا

● فرقة البدوي قدمت المسرحية الجديدة « بيوت من زجاج »
الاثنين 20 شعبان 1399 — 16 يوليو 1979

— بمدينة ايفران

في الخامسة مساء بقاعة الانراح

● فرقة البدوي قدمت حفلا من مسرح الاطفال

في العاشرة ليلا بقاعة الانراج

● فرقة البدوي قدمت المسرحية الجديدة « بيوت من زجاج »

الثلاثاء 21 شعبان 1399 - 17 يوليو 1979

- بمخيم المهديّة

● فرقة المسرح المركزي قدمت حفلا من مسرح الاطفال

- بمدينة ايفران

في الخامسة مساء بقاعة الانراج

● فرقة العرائس التابعة للوزارة قدمت حفلا من مسرح الاطفال

الاربعاء 22 شعبان 1399 - 18 يوليو 1979

- بمدينة ايفران :

في الخامسة مساء

● فرقة مسرح العرائس التابعة للوزارة قدمت حفلا من مسرح

الاطفال

- بمخيم مولاي بوسلهم

● فرقة المسرح المركزي بوزان قدمت حفلا من مسرح الاطفال

الخميس 29 شعبان 1399 - 19 يوليو 1979

في التاسعة مساء بمدينة ازرو

● فرقة العرائس التابعة للوزارة قدمت حفلا من مسرح الاطفال

- بمدينة العرائش

في التاسعة مساء

● فرقة المسرح المركزي لمدينة وزان قدمت حفلا من مسرح

الاطفال .

الجمعة 24 شعبان 1399 - 20 يوليوز 1979

— بمدينة ايموزار

في التاسعة مساء

● فرقة مسرح العرائس التابعة للوزارة قدمت حفلا من مسرح الاطفال

— بمدينة اصيلة

في التاسعة ليلا

● فرقة المسرح المركزي لمدينة وزان قدمت حفلا من مسرح الاطفال

السبت 25 شعبان 1399 - 21 يوليوز 1979

— بمخيم الغابة الدبلوماسية بطنجة

● فرقة المسرح المركزي بوزان قدمت حفلا من مسرح الاطفال

الاحد 26 شعبان 1399 - 22 يوليوز 1979

— بمخيم طنجة الحضري

● فرقة المسرح المركزي بوزان قدمت حفلا من مسرح الاطفال

الأسبوع الثقافي التونسي بالمغرب

في نطاق اعداد وتنظيم الاسبوع الثقافي التونسي بالمغرب ، ولتهيء الجو المناسب لاستقبال ضيوفنا التونسيين الاشقاء والترحيب بهم في بلادهم الثاني المغرب ، ولير هذا الاسبوع في احسن الظروف ، توالى مدة اجتماعات بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في هذا الصدد .

وهكذا انطلق ببلاطنا من 17 الى 24 اكتوبر 1979 الاسبوع الثقافي التونسي الذي افتتحه مساء يوم الاربعاء صاحب السمو الملكي ولى العهد الامير سيدي محمد ، الذي كان مصحوبا بالاستاذين الحاج محمد ابا حنينى ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ومحمد اليعلاوي وزير الشؤون الثقافية التونسي ، وسفير تونس بالرباط السيد صلاح الدين عبد الله ، ورئيس الوفد التونسي السيد عمارة السخيري .

وقد اشتمل هذا الاسبوع على مختلف الانشطة من محاضرات ، ومعارض للكتاب ، والفنون التشكيلية والمعالم التاريخية ، والصور الفوتوغرافية ، ومهرات فنية تحتوي على منتخب الدائش النبوية والطرق الصوفية ، وفرقة الشبيبة الموسيقية والفرقة القومية للفنون الشعبية بالاضافة الى الندوات الادبية واللقاءات الفكرية والعروض السينمائية في كل من الرباط والدار البيضاء ومراكش ، وناس ومكناس ، وتطوان ، وطنجة .

وجدير بالذكر ان الاسبوع سجل نجاحا ملحوظا واقبالا منقطع النظير من لدن الجمهور المغربي نظرا للتنظيم المحكم الذي سهرت عليه وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية .

حضر حفل افتتاح هذا الاسبوع بعض الوزراء في حكومة صاحب الجلالة ورجال السلك الدبلوماسي العربي والاجنبي الى جانب مجموعة من الشخصيات الثقافية والصحافية والعلمية .

وفي مستهل حفلة التدشين ، القى كل من وزيري الثقافة الاستاذين الحاج محمد ابا حنينى ومحمد اليعلاوي خطاب الافتتاح .

وفيما يلي :

خطاب وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية السيد الحاج محمد اباحنيني

بسم الله الرحمن الرحيم
سيدي صاحب السمو الملكي ولي العهد
أيها الاخ الوزير ،
أصحاب السعادة والمعالي ،
حضرات السيدات والسادة ،

كتب الله لي ، في ظرف من الزمن قصير لا يتجاوز بضعة
سنين ، ان تتصل أسبابي بأسباب الاخوة التونسيين ثلاث مرات ،
يسر الله هذا اللقاء المتجدد في مناسبات أعدها من أقوى وسائل
التعارف والتعاطف ، وأكبر عوامل التمتين والتوثيق لاواصر
المودة والصداقة وشائج الألفة والاخاء .

فقد تبادلت واياهم الزيارة التي يأنس بها الخلان ويستطيبها
الاحباب فحلوا بهذا البلد ضيوفا كراما وأقرباء أعزاء ، في حفل
بهيج وموكب جرار من مواكب المهارة والابداع . ثم حلت
بتونس على الرحب والسعة محفوفا أنا ومن رافقني من العلماء
والكتاب والادباء والفنانين على اختلاف اهوائهم وميولهم بالرعاية
التي تظل آثارها عالقة بالنفوس ونبل الشيم والاخلاق الذي
لا يبرح الذاكرة ولا يريم .

وما هو المغرب اليوم متمثلا في ملكه وحكومته وشعبه ،
يستقبل وزير الشؤون الثقافية معالي الاستاذ الكبير السيد
محمد اليعلاوي والاخوة التونسيين علماء وأدباء وأطرا وفرقا ،
وكل ما يمتلىء به الاسبوع الثقافي التونسي من ألوان الاصاله
وأصناف الحداثة استقبالا مطما بأعاليم الاعجاب وآيات
التقدير موسوما بسمة الصداقة العريقة والمودة الثابتة والاخاء
المحض الذي لا يغور ولا يغيض

ولا اخالك أيها الاخ الوزير ، ولا اخال الاخوة التونسيين
الذين سبقوك الى الحلول بهذه الديار ، طلائع تبشير ، ورسل
اعداد وتنظيم ولا الذين وفدوا علينا يوم وفادتك ، في حاجة
الى رحراح من قول يؤدي حرارة ترحيينا ، ، او مستفيض من
بيان يعرب عن عمق ابتهاجنا بمقامكم في هذا الوطن الذي يشيع
فيكم الشعور بانه وطن لكم منذ عهد قديم .

وما ذلك الا لايمانى باننا تجاوزنا نحن واياكم ، حد
الضرورة التي تدعو الى الضافي من التبيان ، واطمان بنا المسير
الى الاسترسال الذي يتجانب عن الكلفة ويستغنى بما في
السرائر عن الاعلان

بيد ان العدول في هذه المناسبة عن ركوب السنن المألوف ،
وامتطاء الجدد المعتاد ربما اضيف الى تقصير ، ونسب الى
اجحاف وعد من قبيل الاخلال بالواجب الاوجب . وحتى لا
يعزى الى شيء من هذا الامر ، فانى لما توطد بيننا
واستحكم ، وثبت واستبان مقتصر على الاجمال والاختصار ،

مكتف بهذه الكلمات التي أحملها أصدق المشاعر وأخلص التحيات
قائل لك أيها الاخ الكريم ولن معك من اخوتك واخوتنا : مرحبا
بكم جميعا في هذا البلد المجبول على المحبة والوفاء بين العشيرة
والاحباب ، والآلاف والصحاب .

أيها الاخ الوزير ،

انك تفد علينا في ظروف تمتحن فيها العلاقات بين الامم
والشعوب ، وتتوفر فيها الاجواء ، وتتفجر الازمات وتتنكر
الضمائر والقلوب ، وتذر قرون العناد والشقاق ، وتتوارى القيم
والمثل ، وتتسع لاهواء الهيمنة والسيطرة ، المنادح والآفاق. وان
من آلاء الله ونعمه أن تظل الصلات بيننا وبينكم في مأمن لا
تعصف به الهزات ويتواصل الاخاء بين بلدينا وشعبينا معتصما
بركن شديد لا تقتحمه النوائب والملمات ، ولا تعتسفه المكاره
والخطوب

وهذا الاسبوع الثقافي الذي يهل هلاله ، وتبدو بشاشته في
هذه المدينة المشتاقة كغيرها الى طلعتة الرائقة ان هو الا دليل
جديد ، يؤكد كثيرا من البراهين والادلة على ان الصرح الممرد
بين تونس والمغرب ، قام على أساس تضافر على احكامه العقل
والوجوان ، وارتفع تكسوه جدة لا تبلى ، وترينه نضرة لا
تصول .

واذا كانت هناك مضامير كثيرة تتحد فيها اهدافكم واهدافنا
وتعددت ميادين تستحكم فيها بيننا وبينكم عرى التعاون المطبوع
بطابع التفاهم والتوافق ، فان هناك الى جانب هذه وتلك ، مجالا

خصبا فسيحا نصدر فيه نحن واياكم عن مصادر لا تختلف ولا تتباين ، ونرتاده ارتيادا واحدا لا يوهنه تقلب الاحوال وتجدد الاطوار . ذلك هو مجال الثقافة ، فقد اعتمدنا على حد سواء في هذا المجال ، وما زلنا نعتمد على الاصول والاعراف التى وسمتنا بميسمها ، وأضفت على وجوه شخصياتنا وذاتياتنا الاسلامية ، الملامح والقسمات الباقية ما بقى للقرآن المجيد ولغته وللسنة النبوية الغراء ، وللآثار الفكرية والجمالية الاسلامية ، ذكر مذكور ومقام معظم محفوظ .

وليس بمجهول ولا بمنكر ان الحضارة التى أنشأها الاسلام والمسلمون قد انطلقت من كتاب الله العزيز وسنة الرسول الاعظم صلوات الله عليه وسلامه ، ومن تفكير المفكرين المسلمين على اختلاف ما ذهبوا اليه من مذاهب ، وانتحلوه من نحل . وكان من فضل الله على هذه الحضارة الناشئة أن اتسع صدرها للنقل والاقتباس وأقبلت باشتياق ونهم على ما خلفته أمم غابرة كان لها حيناً من الدهر باع طويل وذرع ذريع ، الا ان صانعى حضارتنا أفرغوا على ما أساغوه من علوم وآداب ، ألوانا من عصارة عقولهم ، وضروبا من صياغة عبقرياتهم ، فبرزت للعالم حضارة اسلامية متميزة لا تلتبس بغيرها من الحضارات ، وتآلفت في سماء المسلمين مصابيح علم وعرفان ، وازدهرت نجوم تفكير واستنباط ، وكواكب فلسفة وحكمة ، وطب ورياضيات ، وادب وشعر ، وغير ذلك من أصناف الابتكار والابداع . ولم تلبث هذه الحضارة الوضاء المشرقة ، ان انتقلت آثارها وقيمها الى أقطار دانية ونائية ، وكان لها ذلك الاشعاع

الكبير وذلك الاثر الذي تجرى الاقلام بعد قرون متطاولة ،
استجلاء لمداه وقيافة لابعاده .

وهذا التراث الذي نعتز كما تعترفون وكما يعترف جميع
المسلمين المنتشرين في رحاب الارض بما نجد فيه من غذاء
ونصيب من ثراء ورواء ، هو اصلتنا المبذولة لعقولنا وقلوبنا
بسقاء وهو القوام الثابت الصحيح لذاتيتنا وشخصيتنا .

واننا وان تفتحت لنا ولكم منذ حين حضارات غربية حديثة،
ونزعت شهوتنا الى المزيد من الكسب والثراء ، سدا لنقص عرا،
والتماسا لتقدم متحتم ، وطلابا للمغاير الجاذب الخالب ، اننا
مع هذا كله - متمادون على الوفاء لتراثنا ، وجادون في ابقاء
قيم اصلتنا مشدودة الى افئدتنا ، حية في ضمائرنا ، ممسكة
بمقاليد مسارنا ، مضيئة لمسالك خطانا .

وان في وفائنا هذا والتزامنا ، وفي عملنا الدائب الجاد ، لما
هو خليق بأن يعصمنا من انفصام الارحام وانبتات الجذور
والاعراق والتحول الى حال من لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى

سیدی الامیر الجلیل

ایہا الاخ الوزير

أصحاب السعادة والمعالي

حضرات السيدات والسادة

اننا اذ نفتتح هذا الاسبوع الثقافى ونؤكد وجهة قصدنا الثقافية المشتركة ونعزز ما بين تونس والمغرب من مختلف ألوان التعاون ، فانما نرتسم ما رسم القائدان المجاهدان الاكبران فخامة الرئيس السيد الحبيب بورقيبة وصاحب الجلالة الملك الحسن الثانى ، ونسير على نور حصافتهما وحكمتهما .

والى الله ابتهل أن يطيل بقاءهما ويساند جهودهما بالتأييد المتصل ويثيبهما بالاجر المذخر للعاملين المصلحين والقادة المهتدين ، انه سميع مجيب ،
والسلام عليكم ورحمة الله ،

* * *

وبعد ذلك اجابه السيد وزير الشؤون الثقافية التونسى محمد
اليعلاو بالخطاب التالى :

خطاب وزير الشؤون الثقافية التونسى السيد محمد اليعلاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب السمو الملكى سيدي محمد ولى العهد
حضرة السيد الوزير الاول ووزير العدل

معالى وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

أصحاب المعالى السادة الوزراء بحكومة المملكة المغربية

أصحاب السعادة سفراء الدول الصديقة والشقيقة

ضيوفنا الكرام

بعد شكرى الجزيل لمعالى الحاج محمد أبا حنينى على
كلمته اللطيفة ، اسمحوا لى أن أعبر باسم الوفد التونسى
وأفراد الفرق التونسية المشاركة فى رحلتنا هذه الى ارض
المغرب الطيبة عن كبير امتنانى واعتزازى بتشريف سمو
الامير ولى العهد لنا بتفضله بافتتاح الاسبوع الثقافى التونسى
بالمغرب الشقيق

فهذا التشريف ، ان دل على شىء، فهو يدل على متانة
الاواصر الاخوية التى تربط بين الشعبين المغربى والتونسى ،
وبين جلالة الملك الحسن الثانى والمجاهد الاكبر الرئيس
الحبيب بورقيبة أبقاهما الله ووفقهما ، وهى أواصر قوية
قديمة توطدت على مر العصور زاهرها وحالكها ، فمن تاريخنا
الزاهر فترات اجتماع كلمة المغرب العربى الاسلامى الكبير فى
صف واحد تحت لواء واحد ، ومن فترات الشدة والمحن
مقاساتنا المشتركة للاستعمار العاشم ، غير ان اشتراكنا فى
المحنة وحد ايضا كفاحنا لاسترجاع السيادة المسلوبة ووحده
الخطة النضالية بين زعماء التحرير فى أقطارنا الثلاثة عبر
المنافى والسجون ، فلئن صرخت الدار البيضاء لاغتيال فرحات
حشاد ، فقد استفظع الشعب التونسى بأسره الاعتداء
السافر على مقام جلالة محمد الخامس قدس الله روحه ،
فازداد اقتناعا بان ساعة الكفاح الحاسم قد دقت وان ساعة

الخلاص قد اقتربت وفعلا لقد تخلص المغرب من الاستعمار وتبعته تونس في نفس السنة ونفس الشهر وامتلك الشعبان ناصية أمرهما بعد كفاح مرير وتضحيات جسام .

وان في تنظيم هذه اللقاءات الثقافية بين بلدينا بقصد مزيد التعارف والتبادل في الخبرات والتجارب ، لمساهمة متواضعة في بناء صرح المغرب العربي الكبير الذي تتشده شعوبنا ، واستجلاء معالم الذاتية المغاربية الثرية بامجادها القوية بطاقتها ، وابرار خاصيات كل بلدة وكل جهة عن كل قطر : فلئن كانت الشخصية الوطنية في قطر ما تتألف من مجموع الخاصيات الجهوية بله المحلية ، كما حل ذلك جلالة الملك الحسن الثاني عند افتتاحه للدورة النيابية يوم الجمعة الماضي ، فبأولى وأحرى أن تتألف ذاتية مغربنا العربي من مجموع خصائص أقطاره .

وان الثقافة بشعبها المتنوعة لمظهر ناطق من هذه الذاتية في مدلولها الفكري والعاطفي واليدوي .

فلذلك نعلق آمالا واسعة على مثل هذه اللقاءات حتى يزداد التعارف بيننا والتآخي والتباري المثمر النبيل في الخلق والابداع والتطوير والاصلاح والتحسين ، فنثري أنفسنا كما قال الشاعر « بفروقنا المتبادلة » .

ولنا في تونس امثلة واضحة من هذا الاثراء الثقافي فمن تأثرنا بالفنون المعمارية الموحدية الحفصية في جوامعنا ومدارسنا

في الماضي الى تأثر شبابنا اليوم بالتيارات الفكرية والفنية القادمة اليها منكم : فهذا شبابنا المسرحي يكتشف عندنا ثروة التراث الشعبي بعد أن شاهد على الركح « ديوان سيدي عبد الرحمن المجذوب » ، وهذه مجموعات عديدة من هواة الموسيقى أصبحت تؤلف وتوقع وتصرخ وتتألم على طريقة « ناس الغيوان » و « جيل جلالة » وغيرهم : وهؤلاء رسامون انبهروا بالوان المغرب وجمال مناظره وشموخ معالمه وحركية اسواقه فرجعوا اليها وقد عمروا لوحاتهم بالحركة والالوان .

لكن مناطق التعاون الثقافي بيننا لا تنحصر في هذه الميادين التي ذكرتها : فلنا مجال فسيح في مهيد الآثار العتيقة والاسلامية ، في التنقيب عنها وصيانتها واجلاء صفحتها النيرة ودراستها بطرق علمية متعمقة . وفي هذا الصدد ، علينا ان ننتفع بتجربتكم الموفقة في مركز احصاء التراث الحضاري الذي يعمل على استقراء كل ما ابتكره الفكر المغربي وخطته اليد المغربية وصنعته المهارة المغربية .

ولنا بالخصوص واجب عظيم نحو تراثنا الاسلامي المخطوط: فان لكم بالمغرب ثروة زاخرة من عيون المؤلفات الشديدة الاتصال برصيدنا التاريخي والحضاري المشترك ، وبسنيتنا المشتركة ولغتنا المشتركة ، هذه الامهات تنتظر اتمام الفهرسة ثم التحقيق والنشر ، وهذا عبء لا تقوم به وزارة الثقافة عندنا

وعندكم وحدهما بإمكانياتهما المحتشمة المتواضعة بل ينبغي أن تشترك في الوفاء به مجهودات الجامعتين التونسية والمغربية والباحثين الشيوخ والشبان ، وكذلك النشر العلمى والثقافى .

أصحاب المعالى ، حضرات الضيوف

حاولنا ان نقدم الى الجمهور المغربى فى هذه التظاهرات المتواضعة نماذج صادقة متنوعة متكاملة للانتاج الثقافى التونسى لا ينقصها فيما اظن الا المسرح الا اننا لم نظفر عندنا بانتاج جديد يبيض الوجه كما نقول .

وختاما أتقدم بجزيل الشكر الى صاحب الجلالة عاهل المغرب الذى أبى الا ان ينوب عنه صاحب السمو الملكى نجله وولى عهده والى الامير سيدي محمد على تشريفه هذا اليوم الاغر والى سيادة الوزير الاول جزيل الشكر والى معالى الحاج محمد أبا حنينى أعظم تحياتنا وشكرنا الذى غمرنا بفضله وسخر جميع امكانيات وزارته لانجاح هذه التظاهرات ، والى أعضاء المتقنين فى خدمة التلاقى الثقافى ، واليكم حضرات الضيوف والى وسائل الاعلام التى عرفت بهذا الاسبوع والى الجمهور المغربى المتطلع باجمعه الى الاطلاع على نهضة تونس المتواضعة فى الميدان الثقافى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مأدبة عشاء على شرف وزير الشؤون الثقافية التونسي والوفد المرافق له.

بمناسبة الاسبوع الثقافي التونسي بالمغرب ، أقام وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية مساء الاربعاء 17 أكتوبر 1979 مأدبة عشاء تكريما لوزير الثقافة التونسي والوفد التونسي المشارك في الاسبوع ، حضرها بعض الوزراء المغربية وسفير تونس بالرباط واعضاء من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية وصفة من الشخصيات العلمية والثقافية .

تطويق عنق السيد وزير الشؤون الثقافية التونسي الأستاذ محمد اليعلاوي بالوسام الممتاز للكفاءة الفكرية

تقديرا للمجهودات التي بذلها السيد وزير الثقافة التونسي الأستاذ محمد اليعلاوي في ميدان الثقافة ، وتنويها بأعماله الفكرية ، أتمم عليه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله بوسام الكفاءة الفكرية الممتازة .

ونابة عن صاحب الجلالة الملك المعظم ، قام وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بتطويق عنق السيد وزير الثقافة التونسي بالوسام الممتاز للكفاءة الفكرية ، وذلك في حفل أقيم بهذه المناسبة بمسرح محمد الخامس .

وفيما يلي :

خطاب وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية السيد الحاج محمد ابا حنيني

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاخ الوزير الاستاذ الكبير

يخامرني في هذه الآونة شعور عميق بسعادة سابعة غامرة
للشرف العظيم الذي اصفاه على صاحب الجلالة الملك الحسن
الثاني اطال الله بقاءه وادام علياءه وسنائه. فقد وكل الى أن أنوب
عنه حفظه الله في تطويق عنقك بالوسام الممتاز للكفاءة الفكرية
تقديرا منه لجهودك الدائبة المصروفة لخدمة الثقافة واعلاء
شأنها في وطنك وفي غيره من الاوطان ، وتنويها منه واشادة ،
بواسع علمك وادبك وجميل سعيك الهادف الى التعريف بتراثنا
الغني المجيد ، واصالة الآباء والاجداد ، وموصول حديثك على
ناشئتنا وشديد حرصك على أن تنال أجيالنا الشاخصة ذلك
الحظ من العرفان المتعدد الوجوه والالوان الخلق بأن يؤهلها
الى الاضطلاع بالدور الفعال في مجتمعاتنا الطامحة الى الغد
الافضل والمستقبل الناضر الامثل .

وانسى اذ ازف اليك تهانئي الخاصة ، وتهانئي العاملين معي
في هذه الوزارة ، وتهانئي المغاربة اجمعين الذين نفذوا بعض
النفاذ الى أعلاق ما وهبك الله من فضائل الفكر ومزايا القلب

والعقل ومكارم الاخلاق ، لآمل أن تحمل هذا الوسام آية من آيات اكبارنا لكفايتك ودليلا صادقا من ادلة اعجابنا بك .

ستغادر المغرب غدا أيها الاخ العزيز بعد مقام قصير تمليناه كما نتملى السحاب الصيب والخصب العريض ، ولكن الامل وطيد أن تعود الى وطنك هذا ، حيننا بعد حين ، لنسعد بك أكثر ولتعرفنا معرفة أعمق واوفر ولتطلع في ديارنا وديارك على ما لم يسمح الا ببعضه المامك بنا واشراقك في سمائنا .

والله المسؤول ان يهب لك العمر المديد والتوفيق المطرد والصحة الغالبة والعافية المواظبة
انه ولى الانعام والافضال .

* * *

وبعد ذلك رد عليه وزير الثقافة التونسي بالخطاب المرتجل الآتي :

نص

خطاب وزير الشؤون الثقافية التونسي
السيد محمد اليعلاوي

صاحب المعالي الحاج محمد ابا حنيسى وزير الدولة المكلف
بالشؤون الثقافية ،

صاحب السعادة عميد السلك الدبلوماسي ،

صاحب السعادة سفير تونس بالمغرب الشقيق

حضرات الاخوان والاخوات

انها لمفاجأة سارة ان كانت تتلج الصدر فانها تعقد اللسان عن التعبير عما يختلج بالنفس من السرور والفرحة والتأثر بهذه الالتفاتة السامية من صاحب الجلالة الملك الحسن الثانى أبقاه الله، ولا يسعنى ازاء هذه المفاجأة التى لم أكن أتوقعها حتى أعد للموقف عدته من القيام بواجب شكر باللسان الفصيح والكلام البليغ لا يسعنى الا ان اطلب من معالى الوزير أن يبلغ الى جلالة الملك أسمى آيات الشكر والامتنان على هذه الالتفاتة التى تחדش تواضعى لانى لا ارى ان ما قمت به فى عمري وفى عملى يستحق مثل هذا الوسام التقديري وانما انا عامل فى سلك التدريس والثقافة بالقلام وبالفكر مثلما يعمل غيرى بالرفش والمعول وانما أقوم بواجبى ولا استحق شكرا ولا تقديرا على قيامى بالواجب.

وانى متأثر كذلك تأثرا شديدا بالكلمة الطيبة التى تفضل بها صاحب المعالى الحاج محمد ابا حنينى والتى تفوق حجم القصيدة ،، فانك حضرة الاخ مدحتنى بما أظنه ليس فى او ليس فى بعد ،، ارجو أن يكون فيما تبقى فى عمري ، على كل حال انى أفرح بكلمتك وببلاغتها وبجميل عبارتها وبلطيف أفكارها مثل ما أفرح بهذا الوسام وأرى أن كل هذا تقدير لشخصى المتواضع

يتجاوز به الى كافة الوفء التونسى المرافق لى ويتجاوزنى ويتجاوز
الوفء الى تونس بلءنا العزيز المشترك يعنى الجناح الشرقى من
مغربنا الكبير .

مرة أخرى أشكركم على هذا التكريم المبالغ ربما المفرط فى
شخصى .

وأطلب من سيادتكم أن تبلغوا تشكراتى وتشكرات الوفء
التونسى الى جلالة الملك الحسن الثانى أطال الله عمره على
هذه الالتفاتة اولا ثم على هذه الحفاوة البالغة التى احاطنا بها
أنا والوفء التونسى والفرق فى هذه الزيارة الكريمة الى مغربنا
الشقيق والسلام .

الحاج محمد اناحنى
وزىر الدولة المكلف بالشؤون الثقافية
ينصب محافظى : الخزنة الملكية ، والخزنة العامة بالرباط

راس الحاج محمد اناحنى ، وزىر الدولة المكلف بالشؤون
الثقافية صباح الاربعاء 2 ذو الحجة 1399 الموافق 24 أكتوبر 1979
حفلة تنصيب الاستاذ محمد العربى الخطابى فى مهمته الجديدة كمحافظ

للخزانة الحكية . وبهذه المناسبة التقى السيد الوزير كلمة هنا في بدايتها السيد الخطابي على الثقة التي وضعها فيه جلالة الملك بتعيينه على رأس هذه الخزانة الثرية العامرة بما تحويه من نفائس المخطوطات . وأوضح السيد الوزير ان السيد العربي الخطابي فني عن التصريف لا داخل المغرب ولا خارجه منكر بالهام السامية التي تقدمها . وتمنى الحاج محمد ابا حنيني للسيد الخطابي النجاح في مهمته الجديدة شاكرًا المحافظ السابق السيد عبد الرحمن الفاسي على الجهود التي بذلها ، وتمنى له النجاح بدوره في المهام الجديدة كمحافظ للخزانة العامة التي عينه صاحب الجلالة على رأسها . وعبر الحاج محمد ابا حنيني في نهاية كلمته عن امله ان يتعاون المسؤولان الجديدان على خدمة الثقافة في المغرب.



وصبيحة يوم السبت 27 اكتوبر 1979 قام وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية كذلك ، بتنصيب الاستاذ عبد الرحمن الفاسي محافظا للخزانة العامة بالرباط .

وبهذه المناسبة ارتجل السيد الوزير خطابا اعرب فيه عن تفضل صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ايده الله ونصره بتعيين الاستاذ عبد الرحمن الفاسي خلفا للمرحوم محمد بن العباس القباج ، وبعد التنويه والثناء على الفقيه الراحل ، اشاد معاليه بشخصية الاستاذ عبد الرحمن الفاسي وباسهامه في ميدان العلم والادب ، وطلب منه ان يكون خير خلف لخير سلف ، ويبدل كل ما في استطاعته لتكون هذه الخزانة مثابة للدارسين والباحثين ومركزا من مراكز الاشعاع الكبرى في بلدنا العزيز .

وفي الاخير هنا معالي الوزير الاستاذ عبد الرحمن الفاسي على هذا المنصب وتمنى له التوفيق في مهمته الجديدة .

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول نتيجة جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1979

بناء على البلاغ الصادر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق ، وجريا على العادة المألوفة ، تسلمت الوزارة كثيرا من المخطوطات والوثائق من مختلف انحاء المملكة . وعكفت اللجنة عدة اسابيع على فحص هذه المخطوطات ودراستها وتقييمها .

وبعد انتهاء اللجنة من عملها . انعقد اجتماع بين وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية واعضاء اللجنة ، وتقرر في نهاية الاجتماع منح :

(1) الجائزة الاولى ومبلغها 5.000 د للسيد محمد البيطار الفلكي من مراكش تنويها بالمخطوطات والوثائق قدمها .

(2) الجائزة الثانية ومبلغها 4.000 د للسيد ابي بكر التطواني من سلا ، اعتبارا للمخطوطات التي قدمها .

(3) الجائزة الثالثة ومبلغها 3.000 د . للسيد حماد بوعبيد من فاس ، تقديرا للمخطوط الذي قدمه .

وجدير بالذكر ان هذه المخطوطات والوثائق التي نالت الجوائز الالفة الذكر ، ذات قيمة حضارية ، تاريخية وادبية .

ومن جهة اخرى فقد تقرر منح جوائز مبلغ كل واحدة منها 300 د . لثمانية واربعين فردا ، تشجيعا ومكافأة لهم على اسهامهم في هذه المباراة .

تعزية وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في فقدان الفنانين

الحاج ابن عيسى الشليوي الفاسي، وعبد السلام عامر

بمزيد من الاسى والاسف ، علمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بوفاة الفنانين المرموقين الحاج ابن عيسى الشليوي الفاسي ، أحد شيوخ الملحنين ورواده حفظا وانشادا ، والموسيقى الملحن المرحوم عبد السلام عامر الذي عرفت الاوساط الفنية في ابداعه الموسيقى رهافة الحس ورقة الالحن .

ويعتبر فقدان الفنانين خسارة كبرى للموسيقى المغربية .

وبهذه المناسبة الاليمية ، تتقدم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بأحر التعازي ، وأصدق عبارات المواساة لأعضاء أسرتي الفقيد وأصدقائهما وجميع الفنانين المغاربة سائلة الله عز وجل أن يتغمد المرحومين بواسع رحمته ، ويسكنهما فسيح جناته .

وانا لله وانا اليه راجعون .

بـكـلاغ

من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
حول جائزة المغرب لسنة 1979

تعلم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عن جائزة المغرب لهذه السنة وستعين الوزارة لجان التحكيم من بين الاساتذة المتخصصين وذلك بناء على محتويات الكتب المرشحة لتيل الجائزة .

وسيقل باب الترشيحات في الساعة السادسة من مساء يوم الاثنين
1 أكتوبر 1979 .

وعلى من يرغب في الاطلاع على الشروط المطلوبة قانونا أن يعود الى القرار الوزيري رقم 75.474 المؤرخ بـ 17 شعبان 1394 (5 شتبر 1974) والصادر بالجريدة الرسمية عدد 3230 ، أو أن يصل بمصلحة المكاتب والنشر والتوزيع التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية - شارع غاندي - الرباط .

بلاغ

من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول "جائزة المغرب" لسنة 1979

تعلم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية عن جائزة المغرب لهذه السنة وستعين الوزارة لجان التحكيم من بين الاساتذة المختصين وذلك بناء على محتويات الكتب المرشحة لنيل الجائزة .

وسيقفل باب الترشيحات في الساعة السادسة من مساء يوم الاثنين 15 اكتوبر المقبل ، بدلا من تاريخ 1 اكتوبر الذي اعلنت عنه الوزارة في بلاغاتها السالفة في هذا الموضوع .

وعلى من يرغب في الاطلاع على الشروط المطلوبة قانونا أن يعود الى القرار الوزيري رقم 75.474 المؤرخ بـ 7 شعبان 1394 (5 شتبر 1974) والصادر بالجريدة الرسمية عدد 3230 ، أو أن يتصل بمصلحة المكاتب والنشر والتوزيع التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية - شارع غاندي - الرباط .

بلاغ

من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1980

في إطار التعريف بالتراث التاريخي والحضاري بالمغرب ، وجرياً

على العادة المألوفة التي سلكتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، في تنظيم جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق يسرها ان تعلن للجمهور المغربي الكريم في هذه السنة عن الجائزة الثانية عشرة للمخطوطات والوثائق التي خصصت لها مكافآت مالية تتصاعد حسب اهمية المخطوط او الوثيقة التي توجد في الملكية الخاصة .

ومن المعلوم ان جل ما هو مخطوط يعتبر نخيرة كان مكتوبا على الرق أو الورق أو الألواح ولهذا فان الجوائز ستخصص لما يلي :

اولا : للاهم من الكتب المخطوطة ، مؤلفات وتقايد وكنائسات علمية ، ومذكرات شخصية ومخطوط العلماء ، وكنائش ونسخ المصحف ، ومجموعات الفتاوى أو الرسائل ، ودواوين الاشعار والمجموعات الموسيقية وكل ما هو مخطوط ولو كان على ورقة أو ورقات معدودة .

ثانيا : للوثائق ايا كان عصرها وموضوعها ، ظواهر ورسائل رسمية أو شخصية ورسوم عدلية ومحاسبات واجازات علمية وشهادات الانساب وغير ذلك .

هذا وستشرف لجنة برئاسة معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية على فحص هذه المخطوطات وتقييمها ، واصدار بلاغات حول نتائج الجائزة .

وتؤكد الوزارة انها اتخذت كل الاحتياطات لضمان ارجاع المخطوطات الى اصحابها كاملة غير منقوصة ، بدون ابطاء ولا تاخير فور انتهاء المعرض وانشغال اللجنة المختصة .

والجدير بالذكر ان قيمة المخطوط او الوثيقة انما تتجلى في مدى ما قد يستفيد منها تاريخ الامة وحضارتها ، وان ضياع وثيقة مهمة نتيجة آفة من الآفات تعد خسارة في ثروتها الفكرية ، لهذه الاعتبارات كلها ، قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، تصوير المخطوطات والوثائق النفيسة لتحفظ في المكتبة العامة بالرباط ، للاستفادة منها ، وخشية مما قد يعثرها من ضياع ، كما ان تصويرها لا يمكن ان يصيب المخطوط او الوثيقة بأي ضرر ولا يفقد ايا منها ما له من قيمة كمستند خطي .

ورغبة من الوزارة في الحصول على مخطوطات ووثائق جديدة تؤكد للسادة المساهمين في هذه الجائزة ان المخطوطات والوثائق التي سبق عرضها وتقييمها لن تقبل في المسابقة الحالية .
فعلى من يتوفر على شيء من هذه النخائر ان يتقدم بها ابتداء من صدور هذا البلاغ الى يوم الاثنين 31 جنبر 1979 الى احد المراكز التالية :

العمالة او الاقليم	اسم المركز وعنوانه
عمالة الرباط وسلا	وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مصلحة المكتبات والنشر والتوزيع - شارع غاندي - الرباط
عمالة الدار البيضاء عمالة اقليم سطحات عمالة اقليم خريكة عمالة اقليم الجديدة عمالة اقليم ابن سليمان	النيابة الاقليمية للشؤون الثقافية - شارع الزيراوي رقم 133 - الدار البيضاء
عمالة اقليم ايفران عمالة اقليم فاس عمالة اقليم تاونات عمالة اقليم بولمان	المكتبة العمومية - ايفران خزانة البطحاء - بطحاء الاستقلال فاس
عمالة اقليم تازة	الخزانة العامة - ساحة الاستقلال - تازة
عمالة اقليم مكناس عمالة اقليم خنيفرة عمالة اقليم الرشيدية	خزانة الجامع الكبير - زقة المدول مكناس

خزانة القنيطرة - طريق عين السبع - القنيطرة	عمالة اقليم القنيطرة عمالة اقليم الخبيسات
خزانة ابن يوسف العمومية - مراكش	عمالة اقليم مراكش عمالة اقليم بني ملال عمالة اقليم قلعة السراغنة عمالة اقليم ازلال عمالة اقليم ورزازات
خزانة المجلس البلدي - اكادير	عمالة اقليم اكادير عمالة اقليم تيزنيت عمالة اقليم طرفاية عمالة اقليم طنطان
خزانة الامام علي - تارودانت	عمالة اقليم اكادير - زاكورة - تارودانت عمالة اقليم طاطا
خزانة الشريف الادريسي - ساحل القصبه - وجدة	عمالة اقليم وجدة عمالة اقليم فكك عمالة اقليم الناظور
الخزانة العامة للكتب والمخطوطات - شارع محمد الخامس - تطوان	عمالة اقليم تطوان عمالة اقليم شفشاون عمالة اقليم الحسيمة
خزانة البلدية - القصر الكبير	عمالة اقليم تطوان العرائش - القصر الكبير - مريانة

الخزانة العامة شارع الحرية 71 طنجة خزانة المجلس البلدي - آسفي	عمالة اقليم طنجة عمالة اقليم آسفي عمالة اقليم الصويرة
مراكز السلطة المغربية بالصحراء المغربية العيون - بوجدور - اسماة - الداخلة	الصحراء المغربية

العدد الأول من مجلة دار الحديث الحسنية

صدر العدد الاول من مجلة دار الحديث الحسنية ، وهي مجلة
حولية تعنى بشؤون الفكر الاسلامي عموما .
اشتمل هذا العدد الذي يقع في 500 صفحة على عدة ابحاث
ودراسات في مختلف العلوم الاسلامية بالاضافة الى جملة من الابحاث
التراثية والاجتماعية والتاريخية الجادة .
زين العدد بصورة صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني
نصره الله وبصورة صاحب السمو الملكي ولي العهد الامير الجليل
سيدي محمد .
و « المناهل » اذ تحيي صدور مجلة دار الحديث الحسنية تتمنى
لها التوفيق والنجاح في أداء رسالتها العلمية .

بلاغ من الديوان الملكي
حول

جائزة الحسن الثاني لأحسن دراسة في موضوع :
كيفية إدراج الزكاة في النظامين الاقتصادي والاجتماعي
أصدر صاحب الجلالة الملك المؤيد بالله . خلال مداوات المجلس

الوزاري المنعقد صباح يومه برئاسته المنيقة للنظر في القانون المالي لسنة 1980 من بين الأوامر التي أصدرها والتوجيهات التي أعطاها ، أمره المطاع بأن تمنح جائزة تحمل اسمه الكريم بمناسبة عيد العرش المجيد لأحسن دراسة وأكملها تتناول بالبحث الكيفيات والطرائق التي يمكن أن يتأتى بها إدراج الزكاة في النظام الاقتصادي والجبايي الحاليين ببلادنا وتحصيلها واستيفائها كإسهام من الدين فرضها الله عليهم في توسيع وتكثير مداخيل الدولة .

وقد كلف سيدنا أيده الله ونصره وزير الدولة في الشؤون الثقافية بأن يؤلف لجنة من العلماء ونوي الخبرة من الأساتذة المتخصصين لدراسة الأبحاث وتقييم الأعمال التي سترشح لنيل الجائزة .

ولكي يستطيع أعضاء اللجنة أن يمعنوا النظر في هذه الأعمال ويصنفوها التصنيف المحكم فقد قرر حفظه الله أن توجه الدراسات إلى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية قبل فاتح يبرابر سنة 1980 .
وتيسيرا من العاهل المفدى لأعضاء اللجنة وللراغبين في ترشيح دراساتهم للفوز بالجائزة الملكية ، أصدر سيدنا الهمام أمره السامي إلى وزيره في الإعلام وإلى مدير المطبعة الملكية بأن يقوم كل واحد منهما بطبع جملة من الدراسات المرشحة .

أطال الله بقاء سيدنا الملك المعتر بالله وحفظه راعيا عظيما للعلم والعلماء وحصنا منيعا للوطن والمواطنين وأقر عينه الكريمة بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير المبجل سيدي محمد وصنوه الجليل مولاي رشيد وأخواتهما الأميرات الفضيلات .

آته سميع الدعاء .

وقد أصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بلاغا في هذا الموضوع هذائمه :

أصدر الديوان الملكي بتاريخ 17 ذي الحجة 1399 (8 نوفمبر 1979) بلاغا يتضمن أحداث جائزة الحسن الثاني لأحسن دراسة وأكملها

فى موضوع كيفية ادراج الزكاة فى النظامين الاقتصادى والجبانى وطرق
تحصيلها واستيفائها .

وجدير بالذكر ان الدراسات والابحاث التى سيرشحها اصحابها
لنيل هذه الجائزة ، ينبغى ان تكون شاملة للاحكام الشرعية ، ومحيطه
بالنظامين الاقتصادى والجبانى المعمول بهما فى المغرب . وموضحة فى
نفس الوقت الحلول الخليقة بادراج الزكاة فى موارد الدولة ، وبيان طرق
هذا الادراج .

وبناء على البلاغ الصادر من الديوان الملكى ، يتعين ان توجه
الدراسات والابحاث الى وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية قبل فاتح
فبراير المقبل بحول الله .

وتلفت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية النظر الى انه لا تقبل
فى هذه المباراة الابحاث والدراسات التى سبق نشرها فى المغرب
او خارجه .

وستعرض الدراسات والابحاث - كما هو منصوص عليه فى البلاغ
الانف الذكر - على لجنة من العلماء والاساتذة ذوي الخبرة والاطلاع لتقييم
الابحاث المرشحة للجائزة الملكية .

وقد عين صاحب الجلالة نصره الله ثلاث جوائز سنية تمنح على
النحو الاتى :

الجائزة الاولى وقدرها : 70.000 درهم

الجائزة الثانية وقدرها : 50.000 درهم

الجائزة الثالثة وقدرها : 30.000 درهم

حفزا منه حفظه الله لقرائح العلماء والاساتذة الباحثين .

وبالاضافة الى هذه الجوائز الثلاث فان صاحب الجلالة ايده الله ،
قرر ان يبدل جوائز تشجيعية للذين اجتهدوا ولم ينالوا احدى الجوائز
الثلاث .

المناهل

تصدرها :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

زنقة غاندي - الرباط - المغرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
**MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES
CULTURELLES**

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)

Tél. : 318-91/92/93

